الحصاد

مطبوعات مكتبة مصر

الحصاد

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١

قال سليم بك شلبى لابن أخيه عثمان ، وهو فى طريقه إلى مكتبه فى صدر الغرفة :

ـــ ألم يتصل بك أحد من الحزب ؟

ـــ لا .

ـــ قال لى رفعة الباشا إن الإنعامات الملكية ستوقع اليوم .

وجلس سليم بك فى مقعده الوثير ، ومال إلى الوراء فى خيلاء ، وشرد ببصره ينظر إلى لا شيء ، وتدسست إلى رأسه رؤى لذيذة ، أشرق لها وجهه الأبيض ، وانفرجت أسنانه عن بسمة خفيفة تنم عن عذوبة الأحلام .

كان فى السادسة والأربعين ، ممشوق القد ، عريض الكتفين ، فخما مهيبا ، فيه اعتداد وثقة فى نفسه لا تحد ، عوده زمنه النجاح فى كل ما يقبل عليه ، لذلك قلما كانت فكرة الإخفاق تراوده .

ووقف عند رأسه ابن أخيه عثمان ، وقد انحنى حتى دنا فمه من أذنه ، فقد اعتاد عثمان أن يلتقم أذن البك وأن يهمس له بكل ما يريد أن يفضى به إليه ، وقد لازمته هذه العادة ، فكان يهمس بأقواله فى أذن عمه ولو كانا منفردين .

وأدار سليم بك عينيه فى الغرفة ، فألفى صورة الملك فؤاد ما تزال معلقة فوق رأسه ، فالتفت إلى عثمان وقال :

ـــ ما هذا يا عثمان ؟ لقد مات الرجل وشبع موتا ، ماذا يقول المهنئون عندما يرون هذه الصورة !

وخف عثمان إلى الصورة ينتزعها وعمه يبتسم ، ويدير عينيه فى كل مكان

يفحص عن الأثاث والطنافس وتنسيق الغرفة ، لقد كان مكتبا فخما رغم أنفه ، فما كان يحفل به قبل يومه . وإن بذل عثمان قصارى جهده فى تزيينه وجلب بعض التحف إليه .

وأقبل الخادم يحمل القهوة وخرج عثمان وقد تأبط صورة فؤاد ، والبك يرشف القهوة وهو ينظر إلى التليفون ، فقد احتلت رأسه فكرة أن يتصل بالحزب ويستفسر عن الإنعامات .

وهم بأن يمد يده إلى التليفون ولكن كبرياءه منعته ، فأخذ يعبث فى الأوراق الموضوعة أمامه ، ويقرأ ما سطر فيها دون أن يعى مما يقرأ شيئا ، ونهض يذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وما كان ينهض عن مقعده إذا جلس إلا ليغادر المكان .

وعاد عثمان وهو يلهث ، وبين يديه صورة الملك الذى لم يبلغ سن الرشد بعد ، وذهب ليضعها فى صدر المكان . قال العم :

ـــ من أين جئت بها ؟

ـــ استعرتها من دكان الحلاق حتى نشترى صورة .

وتأخر سليم بك خطوتين إلى الوراء . ونظر إلى الصورة مليا ، ثم قال :

ـــ رأيت صورة السلطان حسين وهى تهبط من مكانها لترفع صورة فؤاد ، ورأيت صورة فؤاد تنكس لترفع صورة فاروق ، وما أحسبنى سأعيش لأرى صورة من يأتى بعده .. إنه لا يزال غضا ، أصغر من ابنى بسنتين .

وعاد إلى مقعده ، واضطجع فيه ، ودنا عثمان منه وهو يلتفت لا يستقر له قرار ، وتفرس عمه فى وجهه قليلا ، ثم قال :

ـــ على شفتيك كلام يريد أن ينطلق ولكنك تمنعه ، ماذا تريد أن تقول ؟

فمال عثمان وقال همسا :

ـــ فكرت طويلا فى العشرة الآلاف جنيه التى دفعناها ثمنا للباشوية المنتظرة ، فوجدت أنها لا تستأهل مثل هذا المبلغ الكبير . عشرة آلاف جنيه لقاء كلمة !

فنظر إليه عمه طويلا فى استخفاف ثم قال :

ــ أتعتقد أن الباشوية لا تساوى عشرة آلاف جنيه ؟

ــ اعتقاد اليقين .

ــ وأننا مغبونون فى هذه الصفقة ؟

ــ غبنا ما بعده غبن .

فقال له عمه وهو يبتسم :

ــ لا زلت غبيا كعهدى بك .

ففغر عثمان فاه وهو ينظر إلى عمه يحاول أن يقرأ ما فى عينيه ، ولكنه لم يستشف شيئا ، فلاذ بالصمت ، ولاحت فى صفحة وجهه بلاهة .

واعتدل سليم بك فى مقعده وقد اتخذ هيئة قائد يشرح خطته وقال

ــ هذه أربح صفقة عقدناها .

ــ أربح صفقة ؟

ــ وأفضل عملية استثمارية قمنا بها

ــ لا أفهم شيئا .

فقال سليم بك متطلق الوجه :

ــ لو كنت تفهم لما كان هذا حالك .. أبواب الوزارات كلها ستفتح فى وجوهنا ما دمنا نحمل الباشوية . الموظفون سيتنافسون فى تلبية رغباتنا ، الأرض البور التى اشتريناها ستشق فيها ترعة ، أربعة آلاف فدان من الأرض البور تصبح جنة وارفة الظلال ، ألا يساوى ذلك ما دفعناه ؟

فقال عثمان متهلل الوجه :

ــ الآن استرحت ، لقد غمنى أن يخطر على قلبى أننا عقدنا مرة صفقة خاسرة .

فقال سليم بك فى اعتداد :

ــ لو لم تكن غبيا يا عثمان لما خطر لك على بال أننى أعقد صفقة خاسرة .

وابتسم عثمان راضيا ، كأنما كان عمه يقرظه ، وشاء أن يكون حبل الحديث موصولا بينهما ، فقال :

— من الذى يأخذ الآلاف العشرة ، الحزب أم السراى ؟

— إنها تقسم بينهما مناصفة .

— تقسم مناصفة ؟! وكيف ينفق منها بعد تقسيمها على المشروع الخيرى الذى تبرعنا له ؟

— هذا مشروع وهمى يا عثمان ، ماذا كان إفطارك اليوم ؟

فقال وهو يضحك :

— فول .

— الظاهر أنك أكلته قبل أن يدمس .

كان سليم بك متفتح النفس ، فترك نفسه على سجيتها وراح يداعب ابن أخيه ، وكانت فيه دعابة ، ولكنها كانت تغمر فى خضم الأعمال ، ومشاغله الكثيرة التى كانت تلتهم حياته التهاما .

ورن جرس التليفون ، فخفق قلب سليم بك فى شدة ، وتسمر عثمان فى مكانه وقد اتسعت عيناه ، وجعل يرقب عمه الذى غاض لونه قليلا ، وأحس نحوه إشفاقا ، فقد كانت أول مرة يراه فيها مضطربا .

ورفع سليم بك سماعة التليفون وقال فى صوت قلق :

— آلو ...

— مكتب سعادة سليم باشا شلبى ؟

— نعم . أنا سليم شلبى .

— مبارك يا سعادة الباشا .. الإنعامات صدرت ، وستظهر فى صحف المساء ..

واستشعر بالحديث يدغدغ حواسه ، فاضطجع فى مقعده يصغى منتشيا ، وقد امتلأت جوانحه بالغبطة وفاضت على محياه . وراحت أسارير عثمان تتهلل ،

كأنما انتقلت إليه الفرحة بالعدوى وهم بأن يندفع إلى عمه مهنئا ، ولكنه تريث ، حتى يفضى إليه الباشا بالنبأ السعيد .

ووضع الباشا سماعة التليفون ونهض مرحا ، ومرر يده على شاربه فى زهو وقال :

— عثمان ، غير اللافتة اليوم ، واكتب فى اللافتة الجديدة : « دائرة سليم باشا شلبى » .

وابتسم الباشا ، واندفع عثمان إليه يهنئه بحرارة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

٢

البيت زاخر بالأثاث والرياش ، والأرض كلها مغطاة بطنافس وسجاجيد عجمية ، وعلى الشبابيك والأبواب أسجاف من المخمل ، ومن الأسقف تتدلى ثريات ، وفى الزوايا تماثيل ، وعلى الحيطان صور ولوحات ومرايا ، وعلى الرغم من البذخ والثراء ، فإن تكدس الأشياء والستائر التى تحجب النور عن المكان تبعث فى النفس الانقباض .

وجلست أمينة هانم تتحدث فى التليفون ، وعلى مقربة منها سليم باشا يقرأ برقيات التهانى التى جاءته من العزبة ومن المحلج ومن رجال البورصة ومن أقطاب حزبه وممن يطمعون فى كرمه .

ووضعت أمينة السماعة ، والتفتت إلى الباشا قائلة :

— سيدات أسرتنا كلهن هنئونا بالرضا السامى ، كن يتمنين أن يحضرن للتهنئة بأنفسهن ، ولكنهن يعلمن أنك لا تقابل سيدات فى البيت .

فرفع عينيه عن البرقية التى كانت بين يديه وقال :

— والله إننى لا أحب مقابلة السيدات لا فى البيت ولا فى المكتب ، إننى

لا أدرى ماذا أقول لهن ، هل أحدثهن عن البذرة أو عن أسعار القطن ؟ إننى رجل ليس لى إلا عملى أعيش له .

فقالت له زوجه وهى تضحك :

— إنك قادر على إرضاء أية سيدة ، وما أحسبك تكره النساء ، فلو كنت تكرهن لما تزوجت اثنتين .

ورنا إليها من طرف عينه وقال مداعبا :

— الحمد لله فقد أراحنى من الأولى .

ولم تفطن إلى دعابته ، ولم تعاونه على إتمام ما كان يتراقص على طرف لسانه من كلمات ، فما كانت لماحة ، وقالت :

— ولكنك كنت تجمع بيننا قبل أن يريحنا الله منها .

وشرد ببصره وقال :

— لقد رفضنى أبوك فى أول الأمر .

— من الصعب أن يوافق أب على تزويج ابنته برجل متزوج وله من زوجته ابن .

— لا أظن أن هذا كان سبب الرفض .

— لم يكن هناك سبب غيره .

— لا . كان هناك سبب آخر لم يفصح عنه أبوك ، كتمه فى صدره ، كان يرى أننى فقير ، وأننى لا أستطيع أن أنهض بعبء بيتين .

وقبض على البرقيات بين أصابعه وهزها فى نشوة وقال فى زهو :

— أين أبوك الآن ليقرأ هذه البرقيات !

فقالت وهى تمصمص بشفتيها :

— أبى عند رب كريم .

— ليته يستطيع أن يرى ما أنعم الله علينا به .

ووقف وقال بصوت مرتفع ليسمعه الموتى :

— أنا سليم باشا يا حاج على ، أنا أول باشا فى أسرتى وفى أسرتك ، أنـ ..

— أبى فى قبره يا باشا ولن يسمعك .

— ليته يسمع .

ودق جرس التليفون ، ورفعت أمينة هانم السماعة وقالت :

— ألو ..

وأصغت قليلا ثم قدمت السماعة إلى الباشا قائلة :

— عثمان يريد أن يحادثك .

وتناول الباشا السماعة ، وقال :

— ألو .. صباح النور يا عثمان .. رينهارت لم يبع .. وكوبر لم يبع .. هيه ، ولكن السعر المعروض سعر طيب .. اتصل بمكتبنا فى البورصة ومره بالبيع .. قلت لك مره بالبيع ، فلن يرتفع السعر عن هذا الحد .. لن آتى اليوم إلى المكتب .. ابعث إلىّ بكل الرسائل والبرقيات .. شكرا وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا سى عثمان .

ووضع السماعة ودار دورة فى رشاقة حتى أصبح أمام زوجته وجها لوجه ، وقال :

— سليم باشا !.. سليم باشا ! لم ينل ثور من ثيران أسرتكم هذا الشرف .

فقالت وقد تعلقت عيناها به فى وله :

— لم ينله إلا أنت .

فطن إلى النكتة وهم بأن يضحك ، ولكنه كان يعرف زوجه ، إنها لا تقصد ما فهمه ، كان كل ما ترمى إليه أن تقصر ذلك الشرف عليه ، أما القول بأنه الثور الوحيد فى أسرتها الذى نال هذا التكريم ، فهذا بعيد كل البعد عن ذكائها .

ذابت شخصيتها فيه ، فأصبحت ترى بعينيه وتسمع بأذنيه وتنطق بلسانه ، أما عقلها فقد قصر عن أن يتطاول إلى عقله ، فقد استراحت إلى النعيم الذى

تعيش فيه ، ولم تعد تجهد عقلها بالتفكير ، فضمر ضمور العضلة التى تركن للراحة ولا تتحرك إلا أخمل الحركات .

ومس أذنها طرق خفيف على الباب ، فقالت :

— ادخل .

ودخلت خادم فى يدها ورقة بيضاء طويت طى السجل ، واتجهت إلى الباشا وقدمت إليه ما فى يدها قائلة :

— من جاء بها طلب أن تسلم للباشا ، وهو ينتظر الرد .

ونشر الباشا الورقة الأنيقة ، ودنت أمينة هانم تنظر ، وأخذت تشارك الباشا فى قراءة أبيات الشعر ، إنها دبجت بماء الذهب ، وكانت زاخرة بأحر التهانى بالإنعام السامى الكريم .

وأخرج الباشا من جيبه ثلاث قطع فضية ، اثنتين من ذات العشرة القروش ، وقطعة من ذات الخمسة القروش ، ووضع القطع الثلاث فى يد الخادم وقال :

— أعطيه هذه وقولى له : الباشا يشكره على عواطفه .

ووقفت الخادم برهة قبل أن تدور على عقبيها ، كانت لا تصدق أن خمسة وعشرين قرشا هى كل عطية الباشا لشاعر هنأه بقصيدة كتبها بماء الذهب على ورق مصقول ، أحست فى أعماقها خيبة الأمل التى ستصيب الرجل المنتظر فى غرفة الاستقبال وهو يبنى قصور الأمانى ، أما أمينة هانم فلم تذكر شيئا ، ولم تستشعر حرجا فيما أتاه الباشا . كانت تعتقد فى قرارة نفسها أن المال يجمع ليكنز وأن من السفه أن ينفق فى غير ضرورة من ضروريات الحياة ، لذلك عاشت طوال حياتها فقيرة ، وإن بلغت أرصدة زوجها فى المصارف آلافا مؤلفة من الجنيهات .

ودخل حلمى متطلق الوجه ، طويل القامة ، نحيل القد ، أسود الشعر ، أسمر البشرة ، دقيق التقاطيع ، له عينان واسعتان تأتلقان ببريق أخاذ ، يرتدى

جاكتة قصيرة ، وبنطلون شارلستون يبلغ طول فتحته عند القدم ثلاثين سنتيمترا .

وتقدم رشيقا وبنطلونه يرفرف على قدميه ، حتى إذا بلغ أمه طوقها بذراعيه وقبلها فى حنان ، فإذ بكل المشاعر الطيبة تنفجر فى أعماق الأم ، وتزحف إلى وجهها فتكسوه نورا ملائكيا ينم عن أنبل ما فى الناس من غرائز وإحساسات .

ونظر الأب إلى ابنه منشرح الصدر ، فهو أمله ومحط كل رجاء ، فقد نال الباشا كل ما يحلم به من مال وجاه ، ولما تحققت كل أحلامه اشرأب بعنقه إلى أمل عزيز المنال ، كان يتمنى فى أعماقه أن يصبح وزيرا يوما ما ، ولكن ضآلة نصيبه من التعليم جعلته يقيد تلك الآمال . تيقن أن تحقيق مطامعه ضرب من المحال ، فلم يقنط بل راح يعمل جاهدا على أن يحقق فى ابنه ما كان يتمناه لنفسه من سلطان .

وجد أغلب وزراء حزبه من خريجى الحقوق ، بل إن جمهرة الوزراء إطلاقا فى أى عهد من العهود من خريجى هذه الكلية ، فوقر فى ذهنه أن ليسانس الحقوق هو أقصر طريق إلى الوزارة ، فأقنع حلمى بالالتحاق بهذه الكلية ، وإن هى إلا أربع سنوات حتى يحمل ابنه نفس المؤهل الذى يحمله أغلب الوزراء .

واتجه حلمى إلى أبيه وقبل يده ، ثم قال :

— أخبرنى عبد الخالق أنه آت اليوم هو وبثينة .

فقال الباشا وهو ينهض :

— سيتناولان الغداء معنا .. إنى ذاهب لأرتدى ثيابى .

وخرج الأب ودار حلمى فى رشاقة دورة ، ثم جلس إلى جوار أمه وقال لها وقد أمسك يديها بيديه :

— ماذا سيعطينى أبى بمناسبة الإنعام عليه ؟

— سيارة جديدة .

— وأصدقائى ؟ إنهم يطالبونى بالاحتفال بهذه المناسبة التى لا تسنح فى

العمر إلا مرة واحدة .

— ادعهم للعشاء هنا .

فانفجر ضاحكا وقال :

— ما أطيبك يا أمى !

— لماذا ؟

— لأنك تقترحين على أن أدعو أصدقائى للسهر فى مسجد ، إن وجود الباشا فى البيت يجعلهم خاشعين خشوع المصلين ، إننا نريد أن نمرح ، أن نضحك من أعماقنا ، أن نرقص ، أن نتصرف فى حرية ، أن ننطلق على سجايانا .

— وماذا تريد أن تفعل ؟

— أن أقيم حفلا فى ملهى من الملاهى ، حفلا يليق بالباشا .

وانفرجت شفتاها عن أسنانها ، ولاح فى عينيها أنها فطنت إلى ما يرمى إليه ، فقالت :

— كم تريد ؟

— مائتى جنيه .

فقالت فى فزع :

— مائتى جنيه ؟ لا أظن الباشا يوافق على دفع هذا المبلغ .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— كلمه أنت .

فطوقها بذراعيه وقال :

— لا أكلمه أبدا ولى أم تأثيرها عليه كالسحر .

كان فى قرارة نفسه على يقين من كذبه ، ولكنه رأى أن يتملقها ليحرك حماستها له ، وما كانت تتحمس لشىء أبدا ، إلا إذا كان فيه مغنم لابنها ، وسرعان ما أصاب هدفه ، فقد قالت له :

ـــ سأكلمه الليلة .

وترادفت قبلاته على خديها ، ثم تركها منصرفا ، فقالت له :

ـــ إلى أين ؟

ـــ أبلغ أصدقائى بموعد الحفل .

وقبل أن يغادر الغرفة التفت إليها وقال :

ـــ سيكون حفل الموسم ، حفلا يليق بالباشا .

٣

جلس الباشا فى صدر المائدة ، وقد ارتدى حلة رمادية فصلت على أحدث طراز ، ومال طربوشه الأحمر الفاتح إلى اليسار قليلا ، وثبتت الكرافاتة السولكا النبيذية اللون بدبوس رأسه لؤلؤة ، ووضع فى جيب جاكتته منديل من قماش الكرافاتة على شكل هرم .

وكانت دلائل الصحة تترقرق فى وجهه : خداه متوردان ، عيناه تلمعان ببريق خاطف ، شاربه هذب دون أن ترقق حواشيه ، لم تتسلل فوديه شعرة واحدة بيضاء .

وجلس عن يمينه ابنه البكر عبد الخالق . كان ممتلئ الجسم قليلا ، فارع القامة كأبيه ، على رأسه طربوشه ، فما كان يجرؤ أن يظهر أمام الباشا عارى الرأس ، وكان أنيقا فى ثيابه ، يحفل بدقائق ما يرتديه احتفاء الغانية بزينتها ، وقد ورث عن أبيه أناقته كما ورث عنه ملامحه ولون بشرته .

وكان أكبر من حلمى بسنوات لا تتجاوز السبع عدا ، ولكن من يراه يحسبه والدا لأخيه ، أو زوجا لامرأة أبيه ، فقد ظهرت حول عينيه دائرتان سوداوان تنمان عن جهد وإرهاق وسهر طويل ، كان الباشا يبدو أكثر منه شبابا وحيوية .

وجلست عن يمين عبد الخالق زوجه بثينة ، أبرز ما فيها شعر أسود وعينان خضراوان عميقتان لا يرى لهما قرار ، كانت ممتلئة الجسم ، ناهدة الصدر ، دقيقة الخصر ، مستديرة الأرداف ، تميل إلى الطول ، وقد أكسبها طولها وامتلاء جسمها فخامة ، أما بشرتها فقد كانت فى لون الخوخ .

كانت أناقتها مجلوبة من باريس : الثوب الأزرق الجميل الذى كان يكشف عن الأخدود الغائر بين ثدييها ، والقرط الماسى الطويل المتدلى من أذنيها ، والعقد المتلألئ حول عنقها يجذب البصر إلى الصدر العارى ، والأسورة العريضة الملفوفة حول المعصم تبدو كأنما صيغت من لجة تترقرق ، أما العطر الفواح فكأنما كان بخورا ساحرا ينشر غيبوبة منتشية .

وجلس حلمى عن يسار الباشا ، وكان حاسر الرأس ، فهو وحده القادر على الظهور أمام الباشا دون طربوش ، فالباشا صارم فى المحافظة على الشكليات حتى فى بيته ، ويا ويل من يدخل عليه دون كرافاتة ، إن خرق الناموس أهون من ذلك .

كانت سمرة حلمى مشوبة بحمرة الدماء المتدفقة فى شرايينه الشابة ، فكان لونه خمريا لطيفا ، وكانت خفة روحه تجذب إليه قلوب محدثيه ، وكانت نعم العون له فى التخلص من المآزق التى ينزلق إليها .

وجلست الأم عن يسار ابنها : كانت لا تزال متماسكة ، فيها مسحة من جمال طبيعى ، عينان واسعتان ، أهداب طويلة ، أنف دقيق ، فم مستدير وشفتان ممتلئتان ، وكانت تشترى أغلى ما فى السوق من أقمشة وعطور ، ولكن هذه الأقمشة إذا ما فصلتها وارتدتها فقدت قيمتها ، وطمرت كل جمال لم تعبث به بعد يد الزمن والإهمال ، إذ كانت تختار أسوأ القصات لثيابها .

ووضع على المائدة ديك رومى فى صفحة من فضة ، وصفت حوله صحاف كثيرة بها ألوان متعددة من الأطعمة الدسمة ، فقد كان الباشا يكره أن يقدم إليه الطعام صنفا صنفا .

وامتدت الأيدى إلى الأطعمة التى كانت من طيبات البر والبحر ، وكانت أمينة هانم تختلس النظر إلى صدر بثينة فتستشعر امتعاضا لا يخلو من حسد ، كانت تمتعض من جرأتها على كشف صدرها أمام الباشا وحلمى ، وكانت لسعات خفيفة من الغيرة تلسع روحها ، فما من امرأة لا تشتهى أن يكون لها مثل صدر بثينة الناهد الزاخر بالحيوية .

وضبطتها بثينة وهو تجول ببصرها لتكتشف منابت نهديها ، وأحست أمينة هانم كأنما فوجئت وهى عارية ، فاضطربت وانكمشت وقالت فى ارتباك :

ـــ كيف حال أختك إلهام ؟

فقالت بثينة وهى تنظر إليها مفتوحة العينين ، دون أن تطرف أهدابها :

ـــ بخير .

وقالت أمينة هانم دون أن ترفع عينيها إليها :

ـــ ولماذا لم تأت لتشاركنا غداءنا ؟!

فقال الباشا وهو يلوك ما فى فمه :

ـــ الذنب ذنبى ، فقد هنأتنى صباحا فى التليفون ، ونسيت أن أدعوها .

فقالت بثينة وهى تنظر إلى الباشا بكل جسمها :

ـــ إنها معجبة بعبقرية الباشا .

فقال الباشا وهو يبتسم :

ـــ تقصدين أنها معجبة بعصامية الباشا ، قوليها ولا حرج عليك ، فإنه لمما يسرنى أن يذكر الناس عصاميتى ، إننى لا أخجل من أننى كنت يوما رجلا فقيرا .

ويلتفت إلى زوجته ويقول مداعبا :

ـــ ولا أخجل من تذكرى أن الحاج على أبا زوجتى قد رفضنى أكثر من مرة لفقرى .

واتسعت بسمته ولكن كلماته كانت تقطر مرا .

(الحصاد)

وقالت بثينة وهى تنظر إلى حلمى :

ـــ سيكون حلمى بإذن الله مثل الباشا ، وسنحتفل بالإنعام عليه بالباشوية احتفالا ضخما ، ولكن سنحتفل بزواجه من غير شك قبل هذا ، فما أظن أن الباشوية تمنح لابن العشرين ، أما العروس فمن الجائز أن يعطاها وهو فى مثل هذه السن .

فقال حلمى وهو يضحك :

ـــ العروس لا تعطى ولكنها تؤخذ ، والدليل على ذلك قولهم : اتخذ له زوجة .

وأشرق وجه الأم بابتسامة رضا ، وقال الباشا فى حنان :

ـــ سواء أكانت تعطى أم تؤخذ ، فلن نعطيكها ولن نسمح لك بأخذها قبل أن تحصل على الليسانس .

وكأنما شاءت بثينة أن تربط بين حلمى وأختها إلهام فقالت :

ـــ ستحصل إلهام على البكالوريا هذه السنة ، وهى ترغب فى الالتحاق بالجامعة ، ولكننا لن نسمح لها بذلك .

فقال عبد الخالق :

ـــ ولماذا لا تلتحق إلهام بالجامعة ؟

فقالت بثينة وهى تنظر إلى أمينة هانم من طرف عينيها :

ـــ البنت لبيتها .

فقالت أمينة هانم متحمسة :

ـــ هذا حق . على الرجل أن يسعى وعلى الزوجة أن ترعاه وترعى بيته وأولاده .

وهم عبد الخالق بالدفاع عن رأيه ، وفطن الباشا إلى ذلك ، وما كان ممن يرحبون بدخول الفتيات الجامعة ، فقال وهو ينظر إلى عبد الخالق :

ـــ بلغنى أنك خسرت فى البورصة .

فقال عبد الخالق فى انكسار :

ـــ كنت مضاربا بالصعود ، وقد أخذت الأسعار فى الارتفاع كما كنت مقدرا ، ثم فجأة تدهورت الأسعار واضطررت للبيع .

ـــ وما الذى اضطرك للبيع ؟

ـــ كانت على التزامات .

ـــ نصحتك أكثر من مرة قلت لك بع والأسعار آخذة فى الارتفاع ، لا تنتظر حتى تبلغ الأسعار ذروتها ، ولكن من يسمع النصيحة !

ـــ إننى أعيها جيدا ، ولكن من الصعب تطبيقها . كيف أبيع وأنا أرى الأسعار فى تحسن مستمر ؟! ومتى أبيع ؟ إننى كلما ارتفعت الأسعار بنطا أنتظر صعود بنط جديد .

ـــ أنت مضارب مقامر ، أما أنا فتاجر ، أكتفى بالحسنة ..

إننى لا أفلس أبدا ، أما أنت فستفلس يوما ، وما أحسب ذلك اليوم ببعيد .

كان الباشا يتحدث فى بساطة كأنما يقرر حقيقة واقعة ، وأحس عبد الخالق ضيقا ، وحز الأمر فى نفس بثينة ، ولكنها كانت قادرة على كبح عواطفها ، فلم يتلون وجهها ولم تختلج فيها خلجة ، ولم تستشعر أمينة هانم شيئا ، لأن زوجها كان يتحدث فى نبرات لينة فخيل إليها أن الحديث يهب رخاء ، بلا زوابع ولا أعاصير ، أما حلمى فقد أحس الجرح الذى أصاب نفس أخيه ، فقال ليغير مجرى الحديث :

ـــ بدأ زملائى فى الجامعة يتحدثون عن المحسوبيات والاستثناءات فى الوزارة ، وما من وزير إلا وقد عين أقاربه ومحاسيبه وأغدق عليهم .

فاعتدل الباشا وقال :

ـــ لا يستطيع الإنسان أن يعمل يا بنى وهو مطمئن إلا إذا كان من حوله ممن يثق فيهم .

ـــ وما ذنب الذين كانوا يعملون فى مكاتب الوزراء قبل تغيير الوزارة ؟

المفروض أن الموظفين أمناء على أعمالهم .

ــ المفروض شيء ، والكائن شيء آخر ، إننى لست وزيرا ومع ذلك أستعين بعثمان ابن عمك ، ومع أننى واثق أن عثمان ليس أفضل البشر جميعا ، لماذا ؟ لأن عثمان من لحمي ودمي ، لأننى أثق فيه ، أطمئن إلى العمل معه ، إنه يتصرف بغباء أحيانا ، ولكنه بكل عيوبه أفضل من الغرباء . إن الإنسان يفضل أن يعمل مع ابنه وأن يعتمد عليه ، ولكن ماذا يفعل إذا كان الابن قد أثبت أنه ليس أهلا للثقة ؟ ليس أمامه إلا أن يختار أقرب الناس إليه بعد ابنه ، ولا تحسبن أن ذلك أمر هين ، إنه مر أمر من الصاب .

وتدفقت الدماء حارة إلى وجه عبد الخالق ، وكان أبوه يعرض به ، فقد كان يعمل معه قبل عثمان ، ولكن أباه رماه بكل نقيصة ، واتهمه بكل ما يشين ، وكان لا بد من الفراق ، إنه قلما يجتمع بأبيه ، ولكن ما من مرة اجتمعا فيها إلا تكهرب الجو وهبت العاصفة الهوجاء .

وأحس حلمى أن التوتر قد بدأ ، فقال لأبيه :

ــ الكرافاتة التى تلبسها يا بابا تشبه الكرافاتة التى كان يلبسها رفعة الباشا فى اجتماع الأمس .

فقال الباشا متهلل الوجه :

ــ بل إن الكرافاتة التى كان يرتديها رفعة الباشا تشبه هذه الكرافاتة ، لأننى أنا الذى أهديتها لرفعة الباشا .

وراح حلمى يداعب أباه حتى انقشع القلق ، واسترخت الأعصاب ، فنظرت بثينة إلى حلمى نظرة شكر ، فما كانت تحب أن ينقطع الخيط الواهى الذى يربطها بأسرة سليم باشا شلبى ، فهى تأمل أن تزداد هذه الروابط توثقا ، وتعمل فكرها لتزيد الأواصر بين أسرتها وأسرة زوجها ، إنها واثقة فى أعماقها أن أمينة هانم لا تحبها لأنها زوجة ابن ضرتها ، ولكنها ستغمض عينيها عن هذه الحقيقة البغيضة ، لتحقق ما يراودها من أحلام .

٤

ذهب عبد الخالق يلقى نظرة على البار ليتأكد من أن كل شيء قد أعد لسهرة الليلة ، فألفى رفعت يصف فى عناية زجاجات الوسكى والبراندى ، وتلفت عبد الخالق برهة ثم قال :

ـــ وأين النبيذ .

ـــ موجود . اطمئن ، فقد تعلمت أن الأستاذ لا « يتسلطن » فى الغناء إلا إذا شرب النبيذ .

وراح عبد الخالق يجوس خلال المكان ، ويحكم إغلاق النوافذ ، وإسدال الستر ، وتنسيق وضع النمارق ، وإضاءة الأضواء الخافتة التى تنفث فى القاعة الواسعة ظلالا ساحرة من الضوء كأنها أطياف .

وأخذ رفعت يعد الشراب ، ويضع الفستق واللوز المقشور المملح فى أوان من بلور ، وما كان بقادر على مقاومة إغرائها ، فراح يمد يده ويتناول فستقة يضعها فى فمه ، ويستأنف عمله ، ثم يعود ويلتقط لوزة يلوكها متلذذا وهو ينمق وضع الأكواب على البار .

كان رفعت شابا وسيما ، فيه جرأة واعتداد بالنفس ، وما كان من الوسط الذى يعيش فيه ، إنه من أسرة فقيرة ، ولكنه كان تواقا إلى حياة البذخ والسهر والعربدة ، فراح يصادق زملاءه الأثرياء فى المصلحة ، ويشاركهم لياليهم الحمراء ، ويقضى لهم ما يكلفونه به من خدمات لا تخلو السهرات إلا بها ، وغالبا ما كان يتطوع من تلقاء نفسه لتأدية تلك الخدمات ، ليؤكد ضرورة وجوده وأهميته .

جاء إلى بيت عبد الخالق ذات ليلة فى رفقة أحد أصدقاء البيت من الفنانين ، فأغلب رواد سهرات عبد الخالق من كبار الممثلين والممثلات ، والمطربين

والمطربات ، والشخصيات المتألقة فى سماء الفنون . وبهره البذخ الذى عاش فيه تلك الليلة ، وأرضى غروره وجوده فى مكان واحد مع أسماء لها شهرتها ، فوطن النفس على معاودة الزيارة وحده ، وجاء وسهر ورحب به عبد الخالق وزوجه ، وصار من بعدها ملازما للبيت ، وواحدا من أهله ، يكلفه عبد الخالق بأعمال تتصل اتصالا وثيقا بخصوصياته ، وتبعثه بثينة هانم إلى محال الأزياء ليجلب لها ما تحتاج إليه منها .

وعاد عبد الخالق إلى البار ، ووقف يراقب رفعت وهو منهمك فى عمله ، ثم قال له :

— لو تركت وظيفتك واشتغلت « بارمان » لكان أكسب لك .

فقال رفعت وهو يعيد زجاجة براندى إلى مكانها على الرف :

— اتفقنا . كم تدفع لى فى الشهر ؟

— ولماذا أدفع لك إذا كنت تعمل عندى بلا أجر .

— لأننى أمضيت فترة التدريب بنجاح ، وأستطيع الآن أن أحصل على مخدوم غيرك .

ثم ضحك وقال :

— والله لو دفعوا لى مائة جنيه فى الشهر على أن أترككم ، ما تركتكم أبدا .

وأراد عبد الخالق أن يغير الحديث ، فقال :

— ما الأخبار ؟

فقال رفعت وهو يهز كتفيه .

— لا حديث فى البلاد إلا عن إقالة الوزارة ، والأقارب والأصهار والمحاسيب واستغلال النفوذ .

— وماذا يقولون عن استغلال النفوذ ؟

— يقولون أن مشروع خزان أسوان أحيل من الأشغال للمالية لأنه قد ثبت بالمستندات التى لا يتطرق إليها شك أن وزير الأشغال ضالع مع الشركة التى

ستقوم بالمشروع .

ـــ من حسن حظك أن الباشا لم يسمعك .

ـــ ما أقوله كتب فى الصحف .

ـــ الباشا لا يعترف بما يكتب فى صحف المعارضة .

ـــ ولماذا أقيلت الوزارة إذا لم تكن إقالتها لتفشى المحسوبية واستغلال النفوذ ؟

ـــ الباشا يقول إنها أقيلت لسبب آخر .

ـــ وما هو ذلك السبب ؟

وأصاخ رفعت سمعه ، لا لأن السبب يهمه ، فقد كان كعبد الخالق لا تهمه السياسة فى كثير أو قليل ، ولكن ليروى ما سيسمعه لزملائه فى الديوان ليثبت لهم أنه على صلة برجالات مصر ، وأنه عالم ببواطن الأمور ، قال عبد الخالق :

ـــ يقول الباشا : إن حاشية الملك القاصر أرادت أن تتملقه وتتودد إليه وتكسب رضاه فزينت له أن يكون تتويجه دينيا ، أن يضع الشيخ الأكبر التاج على رأسه ، وصادفت الفكرة هوى فى نفسه ، فطلب من وزارته أن تعد العدة لذلك التتويج ، ولكن رفعة الباشا رفض ذلك ، وأمعن فى الرفض ، فكانت الأزمة وكانت الإقالة ، وكانت المعارضة التى اختلقت وأصبحت المادة التى تلوكها صحف المعارضة صباح مساء .

فقال رفعت فى عجب :

ـــ ومن كان يضير رفعة الباشا لو قبل التتويج الدينى ؟

ـــ كان ذلك يجر البلاد إلى متاعب لا قبل لها بها ، سيشجع ذلك الملك الشاب على الظن بأنه حاكم دينى ، وسيجعله يحلم دائما بأنه خليفة المسلمين ، وسيأتى من الأفعال ما ينفر الدول الإسلامية كلها منا والبعد عنا .

وسمع عبد الخالق وقع أقدام خلفه فالتفت ، فألفى إلهام ترتدى بالطو من الفرو ، وعلى رأسها قبعة لا تكاد تغطى جزءا من مؤخرته ، وقد تهدل شعرها الكستنائى على جبهتها فى روعة ، تشع من عينيها العسليتين الصافيتين نظرات

هادئة ، وكان أنفها دقيقا ولكن شامخا ، وشفتاها رقيقتين . كانت تجتاز عتبات سن الرشد ، ومع ذلك لم تكن فى حركاتها خفة أو رعونة ، كانت ثابتة الخطو ، تنطق كل خلجة فيها بالتعقل والرزانة .

وراحت إلهام تخلع قفازها ، وقال عبد الخالق وهو فى طريقه لملاقاتها :

— الدنيا برد فى الخارج .

قالت وهى تبتسم :

— ولا غرابة فى ذلك ، فنحن فى أواخر ديسمبر .

ومدت يدها وصافحته ، وقال لها :

— تفضلى ، لا تزال بثينة فى حجرتها ، إنها تتزين .

ومد ذراعه وبسط كفه وانحنى قليلا ، فسارت إلى حيث أشار وانطلق خلفها يحادثها ، حتى إذا بلغا مخدع بثينة ، طرق الباب طرقات خفيفة ، وقال :

— إلهام هنا .

وارتفع صوت بثينة من الداخل :

— أهلا . أهلا .

وفتح الباب ، وظهرت بثينة فى قميص وردى اللون ، وسحبت أختها من يدها ، ومد عبد الخالق رأسه ينظر مداعبا ، فدفعته فى رفق كله دلال ، وأغلقت الباب فى وجهه .

وتعانقت الأختان ، وخلعت إلهام معطفها ، فبدت رشيقة ، وكان أجمل ما فيها الساقان المتناسقتان ، والخصر النحيل ، والصدر الشامخ فى غرور والبسمة الرقيقة التى تعرف طريقها إلى القلوب .

وعادت بثينة إلى مقعدها أمام المرآة تكمل زينتها ، وجلست إلهام بالقرب منها ، فنظرت بثينة إلى صورة أختها فى المرآة وقالت :

— حدثينى عن آخر أخبارك .

فأطرقت إلهام حياء ، ثم قالت دون أن ترفع عينيها :

— لمح لى بدر الدين برغبته فى خطبتي .

فاستدارت بثينة حتى واجهت أختها وقالت :

— وماذا قلت له ؟

— لزمت جانب الصمت ، لم أنبس بكلمة .

— حسنا فعلت .

— لا أظن أنني أحسنت بصمتي ، لو طاوعت قلبى لشجعته على أن يبثنى ما فى نفسه ، إننى أحبه ، وأحسب أنه فتى أحلامى .

— بالله لا تذكرى الحب ، فما زلت طفلة ، لقد تفتحت عيناك على بدر الدين ، فهو ابن خالتك ، فألفت وجوده ، فلما تحركت فيك أنوثتك حسبت أن ليس فى الوجود رجل غيره ، وتوهمت حبه .

— لم أعد طفلة ، إننى أعرف حقيقة مشاعرى ، فالسعادة التى تغمرنى إذا ما تحدث إلى ، تختلف عن الأحاسيس التى أحسها إذاً ما تحدث إلىّ رجل آخر . إن حديثه ينسكب فى أذنى كنغم رقيق ، والبسمة التى تتوج شفتيه تضيء ظلام نفسى ، ونظرة طيبة من عينيه تعبث بأوتار قلبى . إننى أجد جمالا فى كل ما يفعل وكل ما يقول ، أفتقده إذا غاب ، وأشتهى أن يظل معى إذا حضر ، فإذا لم يكن هذا هو الحب ، فماذا يكون ؟!

— يكون أحلام مراهقة ، قولى لى ماذا يعجبك فيه ؟

— شبابه ، رجولته ، اعتماده على نفسه .

— أهذه هى كل صفات الرجل الذى ستقضين معه العمر كله ؟

الشباب يزول ، والرجولة لا يمكن قياسها أو وزنها أو اختبار معدنها فى لحظة من لحظات الصفاء ، فالشدائد فى الزمن الطويل هى محكها وميزانها ومقياسها الدقيق ، أما اعتماده على نفسه فإلى ماذا يقود ؟

— يقود إلى النجاح .

— وما مقياس النجاح لمهندس مبتدىء مثله ؟ أن يذيع اسمه ، أن يقبل الناس عليه ، أن يجمع مالاً يوفر لأهله حياة سعيدة رغدة ، أليس كذلك ؟

ونظرت إليها إلهام مفتوحة العينين دون أن تنطق كلمة ، أحست أنها تقودها إلى شرك ، فجعلت تزن كل ما تتفوه به أختها ، وتشحذ ذهنها لمحادثتها ، قالت بثينة :

— فالمال إذن هو غاية النجاح .

فقالت إلهام فى حماسة :

— ليس المال وحده هو غاية الكفاح ، إن فى بذر بذرة فى الأرض ورعايتها حتى تنمو وتشتد وتثمر لذة قد تفوق جمع الثمار ، وإن فى معاونة زوجة لزوجها والسهر عليه ودفعه فى طريق النجاح لذة تفوق بلا شك لذة الحصول على المال .

فقالت بثينة فى استخفاف ؛

— هذه فلسفة المحرومين ، ماذا تفعلين بالمال الذى تحصلين عليه بالعرق والجهد والصبر والحرمان بعد أن تنقضى أيام الشباب ؟ لماذا الجرى والتعب والشقاء ، إذا كان ما نجرى ونتعب ونشقى من أجله يمكن أن نحصل عليه دون جهد ومرارة وانتظار ؟ لن تتزوجى بدر الدين ، ولن يضيع عمرك فى قلق وجهاد وانزعاج . لا بد أن تتزوجى من شاب غنى يسعدك ويحقق لك كل ما تشتهين ، وإن ما نطلبه ليس بعيدا ، إنه فى قبضة يدنا هذه ، وما علينا إلا أن نطبق يدنا عليه .

وصمتت بثينة ، وتفرست فى وجه أختها لترى هل فطنت إلى ما كانت ترمى إليه ، ولكن إلهام ظلت ترقبها وقد ارتسمت على وجهها آى الدهش وحب الاستطلاع ، وابتسمت بثينة وقالت :

— ستتزوجين حلمى .

— حلمى ! وهل فاتحك فى هذا الأمر ؟

ـــ لم يفاتحني فى شيء ، ولكنني أعرف كيف أجعله ينطق بما أحب أن ينطق به .

وأربد وجه إلهام وقالت :

ـــ أحب أن أكون مطلوبة لا أن أكون طالبة .

فدنت بثينة منها وقالت :

ـــ أموال الباشا كلها ستكون لنا .

ـــ أموال الباشا كلها لا تدير رأسي ، لا تستطيع أن تجعل قلبى يخفق بالحب .

ـــ أموال الباشا هي الشباب المتجدد ، هي السعادة الدائمة ، وستكون لنا وحدنا .. من يزرع يحصد .. من يزرع يحصد .

٥

كان حلمي يقود سيارته فى بطء شديد ، وكان صديقه الجالس إلى جانبه يخرج رأسه وينظر ويقول :

ـــ حاذر .. أمامنا عمود .. حاذر الطوار .. حاذر أمامك جندى المرور .

كان الظلام حالكا ، المصابيح طليت بلون أزرق قاتم ، ومصابيح السيارة لا تكشف من الطريق شيئا ، فقد حجبت بأحجبة كثيفة كتمت أنفاس أضوائها ، وجعلتها ترسف فى القيود ، وأصحاب الحوانيت آثروا العودة إلى دورهم ، والستائر أستدلت على النوافذ ، وأصوات ترتفع من هنا وهناك تصيح : « أطفئوا النور » ، فقد دخلت إيطاليا الحرب إلى جوار ألمانيـا ، وقاست الإسكندرية والقاهرة من وطأة الغارات .

وارتفع صوت الجالس إلى جوار حلمي يقول فى حدة :

ـــ تريث ! جندى بريطانى يرفع يده يأمرنا بالوقوف .

ووقفت السيارة ، واقترب جنديان بريطانيان منها ، والتفت أحدهما إلى حلمى وقال له :

ـــ هات خمسين قرشا .

ورمقه حلمى فى دهش ، وقال الجندى فى بساطة :

ـــ نريد أن نسكر ونذهب إلى السينما .

وهم الجالس إلى جوار حلمى بدفعه بعيدا ، وتحفز الصديقان الآخران الجالسان فى المقعد الخلفى للمعركة ، ولكن حلمى قال :

ـــ لا داعى لتعكير صفاء ليلتنا .

ومد يده فى جيبه وأخرج خمسين قرشا ، وضعها فى يد الجندى البريطانى ، وإذا بالجنديان يقفان منتصبين ويحييان حلمى تحية عسكرية ، وانطلقت السيارة تتحسس طريقها .

وراح الشبان الأربعة يتحدثون ، قال قائل إن دفع مليم واحد لهؤلاء الأفاكين فيه كل ما فى الإذلال من مرارة ، وإن دماءه لا تزال تفور فى عروقه . إنه يرى أن الرفض كان أكرم ، ولتكن النتائج ما تكون . وقال حلمى إنه فعل عين العقل ، فما تساوى الخمسين قرشا تمزيق الثياب ، وتجريح الوجوه . وصاح الجالس إلى جواره :

ـــ حذار .. أمامنا طوار .

وعاد القائل يقول :

ـــ لن تغمض عينى الليلة وأنا مستريح الضمير ، قبل أن أرد للإمبراطورية البريطانية إهانة سلب أموالنا ونحن ننظر .

فقال حلمى فى هدوء ، وإن بدأ يحس مرارة :

ـــ هون عليك ، دفعنا مبلغا تافها عن طيب خاطر .

ـــ إذا كان ما دفعناه عن طيب خاطر ، فماذا يكون الإكراه إذن ؟ إننا دفعناه من كرامتنا وماء وجوهنا .

ووقفت السيارة أمام ناد ليلى كان غارقا فى الظلام ، علق عند مدخله مصباح أحمر خافت . ودلف الشبان الأربعة إلى القاعة الواسعة التى صفت فيها مقاعد متناثرة حول حلقة الرقص . كانت الأضواء خافتة ، ودخان السجائر يسبح فى الفضاء كسحب بيضاء ، فيضفى على المكان غموضا ، وجلس إلى النضد ضباط الحلفاء فى ثياب الجيش والطيران ، ومعهم بعض أرتيستات الحرب ، ذوات الشعور المفلفلة والبشرات السمراء . وراح الجرسونات يغدون ويروحون بزجاجات الويسكى والشامبانيا والنبيذ .

واتجه الشبان الأربعة إلى نضد قريب من حلقة الرقص ، وراحوا يكتشفون المكان بعيونهم . ولمح أحدهم فتاة شقراء جالسة وحدها ، كانت بيضاء البشرة ، وعيناها فى لون زرقة السماء الصافية ، ووجنتاها كتفاحتين ، وعنقها طويلا ، وسحرها فى شبابها ، فما كانت قد تجاوزت العشرين بعد .

ولكز الشاب حلمى لكزة خفيفة ، وأشار برأسه إلى حيث كانت تجلس الفتاة ، فنظر حلمى طويلا ، ثم قال :

— إنها أجنبية ، والظاهر أنها وارد جديد .

والتفت الشبان الأربعة إلى حيث كانت تجلس ، وقال قائل :

— رزق ساقه الشيطان إلينا .

ورفت البسمات على الشفاه ، وقال حلمى :

— قولوا : من أين ؟

فقال أحدهم :

— فرنسية .

وقال آخر :

— أسترالية .

وقال الثالث دائما :

— من بلاد الملاعين .

فضحك حلمى قائلا :

ـــ كلهم من بلاد الملاعين ، فأى الملاعين تقصد ؟

ـــ الملاعين الذين يوضعون فى رأس القائمة .

وأدار عينيه فى المكان وقال :

ـــ تراودنى فكرة القيام وضرب كل الإنجليز الموجودين هنا .

وانبعثت أنغام الموسيقى الراقصة ، ونهض حلمى وتقدم فى خطو ثابت إلى حيث كانت الفتاة الشقراء ، وانحنى أمامها فى أدب ودعاها لتشاركه هذه الرقصة ، وأصدقاؤه يرصدون ما يجرى فى انتباه .

ونهضت الفتاة وسارت أمامه إلى حلقة الرقص ، ورفع يدها بيده ولف ذراعه حول خصرها ، وراح يرقص فى مهارة ، حتى أن الفتاة رفعت رأسها ونظرت إليه فى إعجاب . وقالت بالفرنسية :

ـــ مدهش .

فابتسم قائلا :

ـــ شكرا .

ثم قال :

ـــ ما اسمك ؟

ـــ إيفا .

ـــ من أين ؟

ـــ من النمسا .

فقال فى دهش :

ـــ من النمسا ؟ ما كان ذلك يخطر لنا على بال .

فقالت فى مرارة :

ـــ كنت أعمل فى فرقة فنية خارج بلادى لما دهمها النازى ، وقد قررنا أنا وزملائى ألا نعود إلى الوطن وهو فى محنته ، فجعلنا نجوب العالم الحر .

وصمتت قليلا ، ثم غمغمت فى سخرية :

ـــ العالم الحر !

وأحس الأسى فى نبراتها ، قال فى حنان :

ـــ قاسيت كثيرا ؟

ـــ لو أننى أعيش على أمل العودة إلى بلادى يوما بعد أن تتحرر ، لمت كمدا ، كم هى قاسية هذه الحياة التى نحياها !

ـــ وماذا تعملين فى الفرقة ؟

ـــ أغنى للمخمورين .

ـــ لست راضية عن حياتك ؟

ـــ وهل لرضاى أو تذمرى وزن !!

وصمتت قليلا ثم قالت :

ـــ آسفة ، ما كان لى أن أحملك همومى ، إننى متعبة قليلا فنطق لسانى بما يتوهمه خيالى من قسوة الحياة ، إننى جحود ، كان علىّ أن أشكر قدرى لما أنا فيه من عافية . من يدرى ماذا جرى لأترابى فى الوطن ؟ ماذا فعل بهن جنود الغزاة ؟ إننى أضيق هنا بسخافات السكارى ، وأنا قادرة على دفعهن بعيدا عنى . ترى ماذا فعل جنود النازى بهن .. أوه لماذا أقص عليك هذا وما تزال شابا صغيرا من حقك أن تصغى إلى أهازيج الحب وأناشيد الغرام .

فابتسم قائلا :

ـــ عندنا مثل عربى يقول : لا بد للشهد من إبر النحل ، إننى على الاستعداد للإصغاء إلى متاعبك وما قاسيت من أهوال ، وأن أمسح ما فى صدرك من هموم ، على أن أنعم بأنشودة حب تغنينها لى وحدى .

فنظرت إليه وفى عينيها مولد بسمة وقالت :

ـــ أجمل ما فى الشباب إقدامه .

فقال وهو يدور بها فى رشاقة :

ــ شكرا .

ــ وعلام الشكر ؟

ــ لأنك لم تقولى : أجمل ما فى الشباب تهوره .

فقالت وقد رفت على شفتيها بسمة صافية :

ــ يصف الشيوخ إقدام الشباب بالتهور غيرة وحسدا ، ولم أبلغ مرتبة الشيوخ بعد .

وصمتت الموسيقى ، وعاد الراقصون إلى موائدهم ، وسار حلمى إلى جوار إيفا حتى بلغت مكانها ، وجلست وظل هو واقفا يرنو إليها ، فقالت له :

ــ تفضل ، إذا لم يكن بعدك عن أصدقائك يضايقهم .

فقال وهو يجلس :

ــ إننى مع أصدقائى دائما ، وإنه لمما يدخل السرور إلى قلوبهم أن أسعد بهذه اللحظات التى قلما يجود بها الزمن .

وراح ينظر إلى أصدقائه فألفاهم يرمونه بنظرات كلها حسد ، فابتسم راضيا ، وأقبل على إيفا يحادثها ، قال لها :

ــ ستجرى الليلة مباراة فى الرقص ، فما رأيك فى أن نجرب حظنا معا ؟

وكان لوقع « نجرب حظنا معا » فى أذنيها جرس جميل ، فتهللت أساريرها وقالت :

ــ لا بأس ، نجرب حظنا معا .

ووقف فى وسط حلقة الرقص رجل يرتدى بذلة سوداء ، وقميصا أبيض ، ورباط عنق على شكل فراشة سوداء ، ورفع يديه وأعلن بالفرنسية ثم بالإنجليزية بدء المباراة ، وأشار للأوركسترا بيده ، فانبعثت الأنغام ودوى المكان بالتصفيق .

وسار الرجال والنساء اثنين اثنين إلى الحلقة ، ونهض حلمى وإيفا يجربان حظهما معا ، وكانت حلقة الرقص غاصة بالراقصين والراقصات ، وكان

أغلبهن من السكر يترنح .

وراح حلمي وإيفا يجوسان خلال الحشد فى رشاقة الغزلان ، ويدوران فى خفة الأطياف ، بينما كانت أجساد الآخرين فى شد وجذب واحتكاك وارتطام . وارتفعت الموسيقى ، وحمى وطيس الرقص ، ودب التعب فى الأجسام التى أنهكها الشراب ، فراح بعض المتبارين ينسحبون زوجا إثر زوج ، وخف الزحام فى الحلقة ، فراح الراقصون يعرضون فنون رشاقاتهم ، ويتمايلون تمايل الأغصان فى توافق وانسجام .

وبرز حلمى وإيفا ، وضابط فرنسى وصاحبته التى كانت فى لون الشيكولاتة ، وطيار بريطانى وزميلته وكانت من فتيات الترفيه اللاتى يرتدين ثياب الوحدة التى يعملن بها : كانت ترتدى « السيرج » الأزرق ، وكانت رائعة وهى تهز أردافها فى مرح .

وحميت المنافسة بينهم ، وأخذت إيفا تبتعد عن حلمى وتدنو منه على أنغام الموسيقى وكل مفاتن جسدها تهتز فى حيوية وإغراء حتى أن العيون كلها تعلقت بها ، وأخذت الفتاة السمراء التى تصاحب الفرنسى تعرض كل فنونها ومهارتها ، وراحت فتاة الترفيه تهز صدرها وأردافها كأنما كانت ترقص رقصة شرقية .

واشتدت الموسيقى وخفتت الأصوات ، ولم يعد يسمع إلا وقع الأقدام ، وراح أصدقاء حلمى يرقبونه وقد اتسعت عيونهم ، وانبهرت أنفاسهم ، فقد كانوا يرصدون كل ما يجرى أمامهم بأعصابهم . وأحس الطيار البريطانى أنه سينهار ، فجذب زميلته من يدها ، وانسحب من الحلقة ، فلم يبق بها إلا حلمى وإيفا ، والضابط الفرنسى وصاحبته التى كانت فى لون الشيكولاتة .

واستعرت المنافسة ، واشتعل لهيبها ، فقد كان كل منهم يرى قطوف النصر دانية فتشحذ عزيمته ، ويزداد إصرار على نيل الفخار ، وراح كل زوج ينثر كل ما فى جعبته من إثارة وفن وإغراء .

وظلوا يرقصون فى عناد ، وعرض الفرنسي وصاحبته رشاقة رقصهما ، وراح حلمي وإيفا يدوران ويدوران ، ما تكاد أرجلهما تلمس الأرض حتى ترتفع ، لكأنهما يسبحان فى الفضاء . وصفق أصحاب حلمى فى حماس ، وإذا بالمكان يدوى بالتصفيق ، ووقف الفرنسي وصاحبته يرقبان حلمي وإيفا وهما يبتسمان ، وإن كانت سحب الحسد تعكر صفو عيونهما .

وقدمت الكأس لحلمي وإيفا بين الهتاف والتصفيق ، وأعطى حلمى الكأس لإيفا وهو يهمس :

— إنها من نصيبك ، فالفضل لجمالك .

فقالت بصوت متهدج ، فيه رنة فرح :

— شكرا . شكرا .

وعادا إلى مقعدهما وهو يقول لها :

— هذا أول رباط بيننا ، سأمر عليك غدا ..

وقبل أن ينتهى من حديثه ، انقض عليه أصحابه يهنئونه ويقبلونه ويضمونه إلى صدورهم فى فرح ، وقال الثائر دائما :

— لو فاز عليك البريطانى لمت حزنا .

وجلسوا يشربون احتفالا بنصر الليلة ، ويتبادلون النكات بالعربية ويضحكون من أعماق قلوبهم ، وإيفا تنظر إليهم دون أن تفقه مما يقولون شيئا ، ولكنها كانت مسرورة ، فقد استشعرت سعادة حقة لأول مرة .

وراح سمار الليل ينسلون من المكان وهم يترنحون ، وقامت إيفا مستأذنة وصافحت حلمي وهى تشكره على الليلة الطيبة ، كانت كلماتها رقيقة عذبة ، ولكن البريق الذى التمع فى عينيها كان أكثر رقة وعذوبة ، وأعمق معنى ودلالة .

ونهض الرفاق الأربعة منصرفين ، وما إن غادروا الملهى حتى ألفوا الظلام ناشرا جناحيه على الكون ، فقد كانت ليلة تكاثفت فيها السحب حتى حجبت نجوم السماء ، ونامت الأصوات إلا أصوات السيارات وقهقهات المخمورين ،

وضحكات بائعات الهوى .

ووقف الثائر دائما ينظر وإذا بفكرة تقفز إلى رأسه يرتاح إليها ، فالتفت إلى حلمى وقال له :

— سأسير فى هذا الطريق على قدمى ، سر بالسيارة إلى جوارى .

— ماذا ستفعل ؟

— سترون .

وسار وساروا إلى جواره ، ولحق ببريطانى يلف ذراعه حول خصر فتاة ، فجمع قبضة يده ، وسدد إلى وجه البريطانى ضربة أودعها كل حقده ، ولم ينتظر ليرى البريطانى وهو يتدحرج على الأرض ، بل أغذ السير حتى لحق بآخر فسدد إلى فكه ضربة قاضية ثم جرى حتى لحق بثالث يخاصر فتاة ، فضربه بقدمه فى ساقيه فإذا بالجندى يسقط ، ودفع الفتاة بيده فسقطت فوقه ، وجرى إلى السيارة وقفز إليها ، ثم دخل واندفع حلمى كالريح وهو يضحك ، وزفر الثائر دائما فى راحة وهو يقول :

— الآن أستطيع أن أنام وأنا مرتاح الضمير .

٦

هبت أمينة هانم من فراشها مفزوعة على صوت صفارة الإنذار ، وراحت تردد فى رعب :

— غارة .. غارة .

وصاح الباشا وهو يدس رجليه فى « الشبشب » ويضع الروب على كتفيه :

— أطفئوا النور .

وهرولت الأم ، على بصيص النور الخافت المنبعث من مصباح طلى

بالأزرق ، إلى غرفة حلمى وصوت الباشا يلاحقها :

— قلت أطفئوا النور .

وألفت الأم ابنها يغط فى النوم ، لم يسمع الصفارة ، ولم ينخلع لها قلبه ، فطفقت تهزه فى رفق وتقول فى صوت خافت فيه رنة فزع :

— حلمى ! غارة . حلمى غارة .

فتقلب فى ملل وقال :

— بالله يا أمى دعينى أنام .

وتناولت الروب من مشجب قريب وقبل أن تعود لهز ابنها ، اهتزت الجدران وتتابعت الانفجارات ، واختلطت أصوات القنابل بأصوات المدافع المضادة التى كانت تطلق قذائفها من كل مكان ، فهب حلمى من نومه وهو مرعوب ، يحس قلبه يغوص فى قدميه .

وراح الباشا والأم والابن يتسابقون فى الدرج إلى المخبأ ، الأم تردد دون وعى : « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » والباشا يقرأ : « الله لا إلـه إلا هو الحى القيوم .. » وحلمى يقول فى ضيق : الله يلعنهم كان النوم لذيذا .

وبلغوا مدخل المخبأ ، فوجدوا البواب يتطلع إلى السماء فى فرح ، ويقول فى ابتهاج :

— اضرب . اضرب يا حاج هتلر .

وسمعه الباشا ، فصاح فيه بعد أن دخل المخبأ :

— ادخل يا مجنون .

وجلست أمينة هانم فى ركن من المخبأ ، لا تنبس بكلمة ، وإن أرهفت حواسها ، بفزعها دبيب النمل . وراح الباشا يغدو ويروح فى المخبأ ، كأسد حبس فى قفص ، وحمل حلمى رأسه بيديه وأخذ يقاوم النوم الذى يداعب عينيه .

ودوت قنبلة دويا هائلا ، فقال البواب فى فرح :

ــــ هذه فى العباسية فى « الأورنس » .

ورفع رأسه إلى سقف المخبأ وقال .

ــــ الله يحميك .

وصاح الباشا فيه :

ــــ اسكت .

وصمت البواب ، وساد السكون برهة ، وضايق أمينة هانم الصمت المخيم على المكان ، وتمنت أن يتكلم أحد ليشق هذا الصمت الذى يرهقها ، والتفت البواب إلى حلمى وقال :

ــــ يقولون إن فتيات ألمانيات يشتركن فى هذه الغارات . آه لو كان ذلك صحيحا ، لكان فيه عار الإنجليز .

وابتسم حلمى وقال :

ــــ وما العار فى ذلك ؟

فقال البواب فى استغراب :

ــــ وهل هناك عار بعد ضرب النسوة لهم !

وقال الباشا فى ضيق :

ــــ والله لا أفهم منطق الذين يطالبون بأن يزجوا بنا فى هذه الحرب . إننا لم نشترك فيها ، وعلى الرغم من ذلك نضرب كل ليلة ، ونفر إلى الجحور كالأرانب .

وقال البواب فى إنكار :

ــــ أنحارب مع الإنجليز ؟ هذه خيانة .

فقال له الباشا فى ضيق :

ــــ اسكت أو اخرج من هنا .

وأحس البواب أن كرامته جرحت ، فانسل خارجا من المخبأ ، ليصيح فى حرية :

ـــ اضرب .. اضرب .

وتتابعت الانفجارات ، وصاحت أمينة هانم فى خوف :

ـــ والله لا أبيتن هنا بعد الليلة ، سأذهب إلى العزبة ، أعصابى تلفت إننا نموت كل ليلة .

وطار النوم من عينى حلمى ، وراح ذهنه يعمل فى سرعة ، إن سفر أمه وأبيه إلى العزبة معناه أن يصبح البيت له ولإيفا ، إنه يقضى الآن معها بعض ساعات ثم يضطر لمغادرتها ، أما إذا هاجر أبوه وأمه كما هاجر كل من خاف على نفسه . فسينعم بقرب إيفا ، ويشرب كئوس الوصال مترعة دون أن يخشى رقيبا .

ولم يشأ أن تضيع هذه الفرصة التى سنحت فقال :

ـــ كان علينا أن نهاجر إلى العزبة من مدة طويلة .

فقالت الأم فى رقة :

ـــ والله ما منعنى من الهجرة إلا أنت ، فكيف يغمض لى جفن هناك وأنت هنا عرضة للقنابل الغادرة ؟

فأراد أن يهون الأمر عليها فقال :

ـــ إننا فى نهاية السنة ، أسافر معكم وأستذكر دروسى هناك ، ثم أعود فى أيام الامتحان .

ونظر إليه أبوه فى إنكار ، كان على الامتحان أسابيع كثيرة ، وما كان حلمى صادقا فيما قال ، ولكن الباشا لزم الصمت ، فقد حسب أن ابنه قد كذب ليبعد أمه عن مواطن الخطر .

واستراحت الأم لقول ابنها ، فقالت فى إصرار :

ـــ غدا صباحا نسافر .

فقال لها الباشا :

ـــ غدا صباحا نسافر .

وأطلقت زمارة الأمان ، وأضيئت الأنوار ، وخرج الباشا من المخبأ وفى أثره زوجه وابنه ، وراحوا يصعدون فى الدرج ، وما إن بلغوا الطبقة الثانية حتى قالت أمينة هانم :

ــ ما رأيك يا باشا فى دعوة عبد الخالق وزوجته ليسافرا غدا معنا ؟

فقال الباشا فى فتور :

ــ لا بأس . غدا أحادثهما .

ــ من الأفضل يا باشا أن تحادثهما الآن ليستعدا .

ورفع الباشا سماعة التليفون ، وراح يطلب ابنه ، وقال :

ــ آلو .. عبد الخالق ! قررنا أن نسافر غدا إلى العزبة . تعال معنا .. لا .. لا .. لم يعد هنا أمان بعد كل هذه الغارات .

وراحت أمينة هانم تقول لزوجها :

ــ قل له أن يحضر إلهام معهما .

فقال الباشا :

ــ وقل لبثينة أن تحضر إلهام معها .. سنسافر فى التاسعة .. ستلحق بنا هناك ؟ لا بأس .

واندس حلمى فى الفراش وراح يفكر فى الطريقة التى يتخلص بها من الخدم ومن البواب ، ليخلو له الجو هو وإيفا الحسناء .

٧

كانت سراى الباشا فى العزبة لا تقل روعة عن السرايات المنتشرة فى جاردن سيتى ، كانت من طبقتين فى لون الرماد ، وكانت فى الطبقة العليا شرفة فخمة ، فوق المدرج الرخامى الكبير الذى يقود إلى المدخل الرئيسى ، وكان عن يمين السراى فيلا بنيت حديثا ، وأعدت لاستقبال الزوار ، وحول السراى

والفيلا سور يضم فناء واسعا وقفت فيه ثلاث سيارات فاخرة ، وقامت فى وسطه شجرة ضخمة ، وزرعت حوله أشجار الجزورينا .

وكان فى السور بوابة كبيرة ، عن يمين الداخل منها مكتب الباشا ، وعن يساره مكتب عثمان ، وكان عثمان يستعمل مكتب الباشا طالما كان الباشا غائبا عن العزبة ، أما إذا كان الباشا حاضرا ، فإن عثمان يقبع فى مكتبه ، عاكفا على عمله ، دون أن يرتفع له صوت ، أو يسمع له أمر ، أو يمارس أى سلطان .

ونزل الباشا والهانم وحلمى فى السراى ، ونزل عبد الخالق وبثينة وإلهام فى الفيلا على الرغم من إلحاح أمينة هانم وإصرارها على أن ينزلوا فى الطبقة الثانية معهم .

وتمدد عبد الخالق فى السرير من عناء السفر ، وجلست بثينة وإلهام فى شرفة تطل على الأرض الخضراء الممتدة إلى الأفق البعيد ، وراحت بثينة تزجى نصائحها لإلهام :

ـــ إنى أعرف أن أمينة هانم لا تحبنى ، إننى زوجة ابن زوجها ، فكيف تحبنى ؟ إننى مضطرة إلى ذلك حتى لا تسفر عن عدائها ، إننى أتحمل كثيرا لأبقى الخيط الرفيع الذى يربط بينى وبين الباشا ، أتعرفين لماذا ؟

فقالت إلهام فى تبرم :

ـــ أعرف ، فقد سمعت ذلك منك طوال السنين الثلاث التى انقضت ، تتحملين ذلك من أجلى ، من أجلى أنا ، ليتزوجنى حلمى ، ولقد قلت لك مرارا ، إننى أحب بدر الدين ، ولن أتزوج غيره ، لقد شق طريقه وفتح مكتبا ، وأصبح يستطيع أن يكون أسرة .

ـــ سينال حلمى الليسانس هذه السنة ، وبعدها سيتزوج ، وليس أمامه إلا أنت . إن كل شىء يتوقف عليك : تودد إلى أمينة هانم ، وبعض كلمات الثناء تنثرينها على الباشا ، وتطويق حلمى بذراعيك ، ثم تصبح هذه الأرض كلها لى ولك ، هذه الأرض التى تمتد لتصبح ألف فدان .

فقالت إلهام فى تبرم :

ـــ سواء تزوجنى حلمى أم لم يتزوجنى فنصف هذه الأرض لك ، فما الذى يدفعك إلى هذا الإصرار والتشبث بإتمام هذا الزواج ، وإن لم تكن فيه سعادتى ؟

ـــ لأنك أختى ، ولأننى واثقة أن أموال هذه الأسرة ستسعدنا ، ولأننى أريد أن يكون زوج أختى كفئا لنا .

فثارت إلهام وقالت :

ـــ بدر الدين كفء ليصاهر أعرق الأسرات ، إنه مهندس ناجح . يعتمد على ساعده ، ويشق طريقه بمنكبيه .

ولمحت بثينة حلمى وهو يهبط إلى الفناء الواسع ، فقالت لإلهام وهى تنهض :

ـــ هيا نتمشى قليلا .

وهبطتا صامتتين ، وكان عثمان أول من قابلهما ، فقال وهو يبتسم وينحنى فى أدب :

ـــ صباح الخير .

فقالت بثينة دون أن تلتفت إليه :

ـــ صباح النور .

وظل عثمان يبتسم ، وإن كان يحس إحساس الملك الذى نزل الغزاة بأرضه ، غشيه الانكسار وكساه الذل ، وتضاءلت نفسه ، وأيقظ نزول الأسرة المفاجئ فى العزبة مخاوفه ، فحلمى لم تعد بينه وبين التخرج إلا شهور قليلة ، فماذا هو فاعل لو استقر حلمى فى العزبة يباشر أعمال والده ؟ إن ذلك إيذان بزوال سلطانه . فراح يعمل فكره ليدرأ ذلك الخطر الداهم ، الذى يزلزل كيانه ويقوض استقراره ، ويدك قصور الأمانى التى تتراءى له فى أفق مستقبله المتألق بالإشراق .

كان له غريمان : عبد الخالق وحلمى ، وقد تمكن مرة من إقصاء عبد الخالق ، وهو قادر على أن يقصيه مرات ، فالباشا لا يثق فيه ، أما إقصاء حلمى فيحتاج إلى دهاء ، وتغليف ذلك بغلاف الغيرة على تحقيق ما فيه مصلحة الفتى الحبيب ، وأطلق لفكره العنان .

ولمحت بثينة حلمى وهو فى طريقه إلى البوابة ، فنادت :

ـــ حلمى ! إلى أين ؟

فالتفت حلمى وقال :

ـــ أدور بالسيارة حول أرض الباشا .

فقالت بثينة وقد أمسكت بيد إلهام :

ـــ انتظر ، سنأتى معك .

وانتظرهما حتى إذا لحقتا به ساروا إلى سيارة فورد ، كانت تستخدم فى المرور . وركب حلمى خلف عجلة القيادة ، وركبت إلهام إلى جواره ، ووقفت بثينة تتظاهر بالتردد ، ثم قالت :

ـــ إننى لم أسلم على ماما بعد ، اذهبا أنتما وسأنتظركما فى البيت .

ورفعت يدها وجعلت تهزها وتقول وعلى شفتيها بسمة واسعة :

ـــ مع السلامة .

وانطلقت السيارة ، وقد تدسست إلى صدر بثينة نشوة النصر .

وخلع حلمى قبعته ووضعها على رأس إلهام وهو يقول :

ـــ الشمس حامية اليوم .

ـــ متشكرة .

واستأنف ما كان فيه ، قال :

ـــ قطعة الأرض هذه ثلاثمائة فدان ، إنها أول أرض ملكها الباشا ، إنها أحب ملكه إلى قلبه ، وإنه كلما مر بها يقف عندها مدة ويجيل بصره فيها والحب يترقرق فى عينيه ، فقد باتت قطعة من نفسه .

وسارت السيارة فى الأرض الطيبة التى تشقها قنوات تبدو فى الشمس كجداول من لجين ، وقامت فيها أشجار تحمل ثمارا خضراء وصفراء ، وامتدت العرائش وتدلت عناقيد العنب ، وتنفس الكون بالحياة ، فقال حلمى فى زهو :

— آه لو رأيت هذه الأرض وهى قاحلة قبل أن تمسها يد الباشا السحرية ، لما صدقت عينيك .

ولاحت على البعد مبان بيضاء ، فقال حلمى :

— وهذه القرية بناها الباشا للفلاحين ، وهذه مئذنة المسجد الذى سيفتتحه قريبا .

وانطلقت السيارة ، والتصق كتف حلمى بكتف إلهام ، ومرر يده على يدها مرة ، ولف ذراعه حولها ، ولكنه لم يجد منها تشجيعا ، فنظر إلى المحاريث الميكانيكية التى كانت تحرث الأرض ، وقال :

— الباشا يستخدم أحدث الآلات الزراعية فى أرضه : المحاريث .. الدراسات .. المضخات ، ومع ذلك يعنى بالحيوان عناية فائقة ، تعالى نشاهد الحظائر

واتجهت السيارة إلى الحظائر وهبطا معا ، وراح حلمى يروى تاريخ كل بهيمة وعلاقة الباشا بها ، وكانت إلهام تصغى ، وقلما كانت تتفوه بكلمة .

وانتهى الطواف ، وعاد حلمى وإلهام وذهبا إلى حيث كانت بثينة وأمينة هانم ، وما إن وقعت عينا أمينة هانم عليها ، حتى انفرجت شفتاها عن بسمة ود صادق ، وقالت فى ترحيب :

— أهلا وسهلا .

وأقبلت على إلهام تحادثها وتتلطف معها ، وكانت صادقة فى كل مشاعرها التى كانت تترجم عنها بكلمات رقيقة قلما كانت تخرج من بين شفتيها ، فقد كان قلبها يتفتح لإلهام ، ولو كان الأمر لها وحدها لخطبتها فى هذه اللحظة

لابنها .

وسأل حلمي :

ـــ أين بابا ؟

فقالت أمينة هانم وهى ترنو إليه فى وله :

ـــ ذهب إلى المكتب يا حبيبى .

واستأذن حلمي للحاق بأبيه ، ووجدت بثينة أنه لم يعد هناك جدوى من المكث مع أمينة هانم ، فقامت مستأذنة وانصرفت لتسمع من إلهام ما جرى بينها وبين حلمي ، وليطمئن قلبها ..

وانفردت بثينة بإلهام فقالت لها فى لهفة :

ـــ أنبئينى بكل ما جرى .

فقالت إلهام فى هدوء :

ـــ أأخبرك بحقيقة ما شعرت به دون أن تغضبى ؟

ـــ قولى .

فقالت إلهام وقد التمعت عيناها ببريق خاطف :

ـــ كنت أفكر فى بدر الدين وحلمي إلى جانبى

فهبت بثينة وقالت فى ثورة .

ـــ أنت مجنونة .

وقالت إلهام دون أن تأبه لغضب أختها :

ـــ عرفت اليوم فقط ما كنت أقرؤه وأعجب به ، وإن كنت لا أتعمق حقيقة معناه ، إن من يملك شيئا يصبح عبدا لذلك الشيء ، أما الذى لا يملك شيئا فهو يملك كل شيء ، إن الباشا وأولاده يملكون هذه الأرض ، إنها كل دنياهم ، إنها تشدهم إليها ، وتربطهم بها ، لا يستطيعون فكاكا ، أما الذين لا يملكون شيئا ، فالسماء والنجوم والكواكب والبحار والأنهار وأرض الله الواسعة وكل ما فى الكون من خيرات ملك لهم ، ملكهم فسيح لا يحد ..

فقالت بثينة فى حنق :

ـــ كفى ! كفى !. أفسدتك الروايات التى تقرئينها .

ـــ بل قولى حررتنى ، ما الذى يعجبك فى حلمى هذا ، إنه لا شيء ، آلة تتغنى بمحاسن الباشا وتسبح بحمده .

ثم تقول مقلدة صوت حلمى :

ـــ هذه أرض الباشا .. هذه القرية بناها الباشا .. آه لو رأيت هذه الأرض قبل أن تلمسها يد الباشا ، إنه لم يفعل شيئا ، كل مؤهلاته أنه ابن الباشا ، إن اللوحة التى يخطها بدر الدين بعرقه وجهده أشرف عندى من كل هذه الأرض لو آلت إلى حلمى بعد موت أبيه .

فأمسكت بثينة رأسها بيدها وقالت :

ـــ رأسي يدور ، إننى لا أصدق أن فتاة ترفض هذا النعيم ، إننى أشك فى عقلك .

فقالت إلهام فى استخفاف :

ـــ ولا غرابة فى ذلك ، فأنت مثلهم أسيرة هذه الأرض . كبلتك بالقيود . إنك تريدين ثمارا بلا تعب ، أما أنا فإننى أمقت أن أجنى دون كفاح ومشاركة فى الجهود . لو كان حلمى كالباشا قبل أن يثرى ، وكان فيه ما كان فى الباشا من حب الكفاح لقبلته مسرورة ، أما حلمى هذا الذى يعيش على أمل موت أبيه ليشعر بكيانه واستقلاله ، فإننى أرفضه ، أرفضه دون تردد أو تفكير .

فقالت بثينة فى حنق :

ـــ هذه ثورة الشباب ، لقد طافت كل هذه الأفكار برءوسنا قبل أن تطوف برأسك ، ولكن الأيام أخمدتها .

ـــ ستؤجج الأيام نار ثورتى اندلاعا .

فقالت بثينة فى تحد :

ـــ الأيام بيننا وسنرى .

ودخل عبد الخالق عليهما ، فلزمت الأختان الصمت ، وإن كانت كل منهما تفكر فى ذلك النقاش الذى احتدم بينهما .

٨

جلس الباشا فى مكتبه فى العزبة وقد ارتدى ثيابه البلدية ، ووقف عثمان إلى جواره ، يهمس فى أذنه كعادته ، راح يفضى إليه بأنباء الزراعة والمحلج والبورصة . ولما انتهى من سرد كل ما يتعلق بعمله ، راح يوسوس للباشا بأخبار ولديه ، وكان الباشا يصيخ سمعه لكل من يحدثه عنهما . يرتاح لسماع القدح فى عبد الخالق ، ويشرح صدره المديح الذى يكال لحلمى بغير حساب ، وكان عثمان أدرى الناس بهواه ، فكان ينقل إليه كل ما يرتاح إليه .

راح عثمان يهمس فى أذنه :

— طاف حلمى بالأمس بالأرض وكانت معه إلهام .

وصمت قليلا ثم قال :

— أظن ، وبعض الظن إثم ، أن بثينة تلعب لعبتها .

وظل الباشا صامتا ، وإن لاح فى وجهه الاهتمام ، واستمر عثمان فى وسوسته قال :

— إنها تحاول أن يقع حلمى فى الفخ ، وأن يتزوج من إلهام .. معذورة ، حلمى صيد سمين .

وتنهد ثم قال :

— لو كان لى بنت لتمنيت أن تفقأ لى عين ويتزوجها حلمى ، حلمى زين الشباب .

ونظر إليه الباشا وقد انبسطت أساريره وقال :

— وما رأيك أنت ؟

ووجد عثمان الفرصة سانحة ليدس فى رأس الباشا الفكرة التى ستبعد حلمى من طريقه ، فقال فى رقة :

— أمنيتى أن أرى حلمى دكتورا .

فقال الباشا فى استغراب :

— دكتور ؟ كيف ؟

فقال عثمان فى ابتهاج ، فقد أثار اقتراحه اهتمام الباشا :

— سينال حلمى الليسانس بإذن الله بعد أشهر ، فلو أنه كان قد بلغ الثلاثين لرشحناه فى الانتخابات ليكون نائبا ، ولكنه لا يزال صغيرا ، نرسله إلى الخارج ليحصل على الدكتوراة .

فقال الباشا وهو مطرق يفكر :

— كيف نرسله إلى الخارج والحرب مشتعلة ، والمواصلات مقطوعة ، والخطر يحلق فوق الرءوس :

— لن تستمر الحرب إلى الأبد . ستضع أوزارها يوما .

— من رأيى أن نزوجه بعد أن يتخرج ، ولما تنتهى الحرب نرسله هو وزوجته إلى الخارج .

— نرسله إلى انجلترا ؟

فقال الباشا وهو يهز رأسه :

— من يدرى لمن تكون الغلبة ، سياسة الملك بنيت على احتمال انتصار الألمان .

فقال عثمان فى استسلام :

— من نعرفه خير ممن لا نعرفه ، إننى لا أستطيع أن أتصور حالة البلاد إذا دخلها الألمان .

فقال الباشا وقد شرد ببصره :

— ستكون خرائب وأنقاضا وأكواما من التراب .

ثم مد بصره إلى أرضه الخضراء الممتدة إلى مدى البصر ، وقال فى حرارة :

ـــ اللهم احفظنا .

وضايقه الخوض فى هذا الحديث الذى يحرك مواجعه ، فقال ليوجهه وجهة أخرى :

ـــ إذا أردنا أن نزوج حلمى ، فمن أى أسرة نختار ؟

فقال عثمان فى حماسة :

ـــ لو كان لرفعة الباشا ابنة لاخترناها لحلمى ، ولكن ليس لرفعة الباشا ولد ، ليته لم يؤخر زواجه .

فقال الباشا وهو يزفر فى ضيق :

ـــ ليته تزوج فى شبابه أو ليته لم يتزوج .

وراح عثمان يردد مفكرا :

ـــ من أى أسرة يتزوج ؟ من أى أسرة يتزوج ؟

ونبتت فى رأس الباشا فكرة ، ورأى أن ينهى هذا الحديث ، فقال :

ـــ ربنا يقدم ما فيه الخير .

وفهم عثمان أن الباشا قد أغلق هذا الموضوع ، فتظاهر بأنه يتأهب للانصراف ، ثم التقم أذن الباشا كأنما قد تذكر شيئا هاما كان غاب عنه ، وراح يقول :

ـــ اتصل عبد الخالق أمس بالإسكندرية .

وهز رأسه أسى ثم قال :

ـــ مسكين عبد الخالق ، سيئ الحظ .

فقال الباشا وهو يتطلع إليه :

ـــ خسر ثانية ؟!

ـــ تصور يا سعادة الباشا أنه باع فى نفس اليوم الذى بعنا فيه ، ولكنه باع بعدنا ببضع ساعات ، فكسبنا نحن وخسر هو خسارة جسيمة ، إنه سيئ

الحظ .

فقال الباشا فى ثورة :

ـــ لا تظلم الحظ ، إنه أكبر مغفل ، قلت له أكثر من مرة لا تضارب أبدا ، ولكنه لم يسمع لنصحى ، إنه سيفلس ، سيفلس من غير شك .. أين هذا الحمار ؟

فقال عثمان متظاهرا بالإشفاق عليه :

ـــ كفاه يا باشا ما هو فيه من نكد . مسكين ابن عمى ، حظه عاثر .

فصاح الباشا قائلا :

ـــ حظ .. حظ ، لو كانت المسألة مسألة حظ لكسب مرة وخسر مرة ، ولكنه يخسر دائما ، اذكر لى مرة واحدة كسب فيها . إن أمواله تتبخر .

ـــ ويقال يا باشا إنه على الرغم من خسائره هذه ينفق بغير حساب . بيته منتدى للمطربين والممثلين والممثلات ، والخمر تجرى أنهارا فى لياليه الحمراء ، ويقال ـــ وما أكثر ما يقول أولاد الحرام ـــ إن كل لياليه حمراء .

فهز الباشا رأسه فى أسى وقال :

ـــ صدق رسول الله ، قال : (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) إنه لأخواله ، إنه مثلهم مبذر متلاف لا يعتمد عليه : لم يأخذ منى شيئا .. لم يأخذ منى شيئا .

فقال عثمان متملقا :

ـــ لو أخذ عنك يا عمى بعض خصالك ، لكان اليوم من أعظم رجال هذا العصر ، فقد كانت ظروفه خيرا من ظروفك .

فراح الباشا يقارن بين نفسه وبين ابنه . وما كانت نبراته مشوبة بأسى ، بل فيها رنة فخر ، قال :

ـــ تعلمت فى الأزهر وتعلم فى الجامعة ، كونت نفسى بكدى وعرقى ، ولما شب هو وجد كل شىء ممهدا ، شققت طريقى فى الصخور ، ووجد

طريقه مفروشا بالورود ، رحت أرقى سلم المجتمع درجة درجة ، وحملى الثقيل الذى أحمله يكاد ينقض ظهرى ، وفتح هو عينيه فوجد نفسه يتنسم الذروة ماذا كان يريد أكثر من هذا لينجح ؟

وتأهب عثمان ليقول إنه كانت تنقصه الزوجة الصالحة ، ثم يعرج على بثينة يأكل لحمها وهو يستغفر الله مرات ، وكان يستهدف من ذلك هدفين : إيغار صدر عمه على عبد الخالق وزوجه ، وإشباع لذته التى يستشعرها كلما لاك سيرة الناس ، ولكن حلمى دخل الغرفة مرتديا كامل ثيابه ، فاضطر عثمان أن ينسل من المكان ، ويخلى بين الباشا وابنه .

قال حلمى وهو يدنو من أبيه :

— جئت أستأذن فى السفر إلى القاهرة ، لأننى لا أستطيع أن أبتعد عن الجامعة طوال المدة الباقية على نهاية السنة .

فقال له الباشا وهو ينهض :

— ألم تقل إنك ستستذكر دروسك هنا ، ولن تذهب إلا أيام الامتحان ؟

فقال الطالب الراقص :

— (تمبو) التدريس يرتفع فى نهاية السنة دائما ، إننى فى حاجة إلى محاضرات الأساتذة الأخيرة .

وابتسم ، لا لأن الباشا انبسطت أساريره ، بل لأن صورة إيفا احتلت رأسه ، ولف الباشا ذراعه حول عنقه وقال :

— ستأتى كل يوم بعد انتهاء المحاضرات لتبيت هنا .

— المسافة طويلة ، وفى السفر فى الصباح والعودة فى المساء إرهاق يضيع علىّ فائدة المحاضرات وفرص الاستذكار .

وقال الباشا فى إشفاق :

— ومع من ستبيت ؟

— مع أصدقائى .

وابتسم قائلا :

ــ لن أكون فى القاهرة وحدى .

وسارا نحو الباب ، وقال الباشا :

ــ هل تعلم أمك أنك ستبيت فى القاهرة ؟

ــ لم أقل لها .

ــ لماذا ؟

ــ لأننى أعلم أن أية كلمة منك ستريحها ، إنها توافق دائما على كل ما توافق عليه ، وترضى بما ترضى به .

فقال الأب منشرحا :

ــ إنها تطيعنى فى كل شىء ، وترضى عن كل ما أقول ، إلا فيما يتعلق بك .

فقال حلمى وهو يتجه إلى سيارته الواقفة فى الفناء الواسع الذى تطل عليه السراى والفيلا :

ــ إنها تطيعك حتى فيما يتعلق بى وبنفسها .

وانطلقت السيارة ، والباشا يرمقها فى حب .

٩

راحت السيارة تشق طريقها فى الظلام فى حرص شديد . وقد أرهفت حواس حلمى واتسعت عيناه ، كان يخشى أن يرتطم فى عمود ، أو يصطدم بسيارة ، أو يرتكب مخالفة تضطره إلى الذهاب إلى الشرطة ، فينكشف أمره قبل أن يسعد بالمتع التى عاشها بخياله قبل أن يحققها واقعه الذى ينتظره .

والتصقت إيفا به ، وظلت صامتة تنعم بالمشاعر اللذيذة المعتملة بين حناياها ، كانت تحس أمنا وراحة واستقرارا ، وزاد فى غبطتها أن انقشعت منابت القلق التى تفور دوما فى أعماقها فوران حبيبات المياه الغازية .

وقال حلمي دون أن ينظر إليها :

ـــ ليت المحور يحترم صفاء ليلتنا .

فقالت إيفا وهي تزداد به التصاقا :

ـــ ستخفق جميع قنابل المحور فى زعزعة الأمن الذى أحسه الليلة ، وجودنا إلى جوار من نحب يشرح الصدر وينزل بالقلوب سكينة ودعة ، السلام لا يمكن أن يأتى من الخارج ، إنه ينبعث من داخلنا .

وكانت صادقة فى الترجمة عن إحساساتها ، لم تزدهر مشاعرها مذ غادرت بلادها إلا بعد أن قابلت حلمي ، عرف قلبها البهجة بعد طول الأسى ، والتغريد بعد النواح ، كانت ترقب غدها فى اضطراب ، فأصبحت تعيش يومها فى نشوة محببة .

ودلفت السيارة إلى جاردن سيتى ، ووقفت أمام سراى الباشا ، وقفز حلمي فى رشاقة وأسرع يفتح لها باب السيارة ، فهبطت فى رقة الطيف ، وانطلقت إلى جواره تجتاز الباب الخارجى الكبير .

وراحت ترقى فى الدرج وهى تحس إحساس الهائم فى حلم لذيذ ، كان الضوء الخافت الأزرق ينعكس على الرخام ، فيبدو كموج متكسر ، أو كقوارير ممردة مزجت بفضة ومدت فيها عروق من ذهب .

وبلغا باب السراى الداخلى ، فوضع حلمي المفتاح وأداره ، ودفع الباب فى رفق ، وأضاء الكهرباء ، ولف ذراعه حول خصرها ، وتقدما ، وإيفا غارقة فى الدهشة ، أقدامها تسوخ فى البسط ، الثريات البلورية المتدلية من السقوف تبهرها ، التماثيل التى تملأ الأركان واللوحات المنتشرة فى كل مكان تخطف أبصارها ، الأسجاف الفخمة الهائلة ، على النوافذ والأبواب تملؤها روعة ، إنها تتقدم كالمسحورة .

وصعدا فى الدرج الداخلى إلى الطبقة الثانية ، فألفت مرايا هائلة تعكس الأشياء وتزيد المكان روعة وغموضا ، ونظرت إلى نفسها فى المرآة ، إنها هى

بعينها إيفا التى هامت على وجهها فى الأرض ، دون أن تجد لها مستقرا ، وإن كانت تحس فى تلك اللحظة أنها سندريلا أخرى ، إنها خلقت خلقا جديدا .

وراحت تجوس خلال الغرفات كروح هائمة ، دخلت غرفة نوم الباشا ، وغرفة استراحته ، ومكتبه الذى كان أبرز ما فيه خزانة حديدية ضخمة ، ودلفت إلى حجرة نوم حلمى ، ثم ارتمت فى السرير بثيابها وجعلت تمرح فيه فى ابتهاج وتقول :

ـــ رائع ! ما كان يخطر على قلبى أن على الأرض مثل هذا النعيم .

واعتدلت فى السرير ولفت ذراعيها حول حلمى وقبلته فى وله وقالت :

ـــ قل لى إن ما أحسه حقيقة ، إننى لست حالمة .

وراح حلمى يمرر يده على شعرها فى حنان ، ويقبلها حيثما تقع شفتاه ، فقالت فى توسل :

ـــ ضمنى إليك فى قوة ، دعنى أحس وجودى . إننى سعيدة .. سعيدة .

وضمها إليه بقوة ، ثم نظر إليها فإذا بعينيها غائمتان بالدموع ، فقال فى دهش :

ـــ أتبكين ؟

فقالت وهى تتلفت فى وله :

ـــ من فرط سعادتى .

وغابا عن الوجود فى قبلة طويلة ، ثم قالت إيفا :

ـــ لم يكن لى أبدا غرفة وحدى . كان أخى وأختى يشاركاننى غرفتى ، ولما سافرت مع الفرقة الموسيقية التى كنت أعمل فيها كنت أبيت فى غرفة واحدة مع بعض زميلاتى ، وبعد أن شبت الحرب كنا نبيت حيثما نجد مكانا يقينا البرد ، بتنا مرة فى حظيرة للخيول . ومرة فى عربة قديمة ، وما أكثر ما أمضينا الليل فى الحقول ! يا طالما ذقنا مرارة التشريد والعوز والجوع ! لقد قاسينا كثيرا ، تصور فرقة من النمسا تجوب بلاد الحلفاء بعد أن سقطت بلادهم

فى أيدى الألمان ، كانت نظرات الريب توجه إلينا ، وكم صفعت آذاننا كلمة : جواسيس ، وما أكثر ما عوملنا بغلظة حتى كدنا نضعف ونتمنى أن نعود إلى وطننا الذى كان يئن من وطأة الاستعمار !!

ودارت بعينيها فى المكان وقالت :

ـــ لم يطف بذهنى أبدا هذه الجنة ، كل ما سرح إليه خيالى غرفة بها سرير وصوان ومرآة ، تكون لى وحدى ، لا يشاركنى فيها أحد ، أحس فيها أننى طليقة ، أستطيع أن أفعل ما أريد دون رقيب .

ووضعت جبهتها على جبهته وقالت وهى تنظر فى عينيه :

ـــ كم أنا سعيدة !

فقال لها وهو يحك أنفه بأنفها :

ـــ سيكون لك بيت ، لك وحدك ، وستكونين ملكته المتوجة .

فأمطرته بقبلاتها وهى تقول :

ـــ حقا ! إننى لا أكاد أصدق أذنى . قل لى إننى لست حالمة ، قل لى إننى يقظانة .

فقال وهو يبتسم :

ـــ وسوف أستأذنك فى أن أزورك فى مملكتك .

ـــ مملكتى بدونك لا تساوى شيئا ، تركزت أمانى كلها فى أن تكون إلى جوارى ، فما عدت أحفل بشىء ما دمت معى ، الحقل والحظيرة والعربة القديمة ، والفيافى والقفاز كلها جنتى إذا كنت فى رفقتى .

وضمته فى شوق ، وقالت :

ـــ ليتنا نظل هكذا إلى الأبد ، أو تتوقف عقارب الزمن عن الدوران .

وابتعدت عنه فجأة ثم قالت :

ـــ كنت قد استرحت إلى اليأس ، ولم أكن أخشى شيئا ، أما الآن فقد تحركت مخاوفى .

فقال لها فى رقة :

ـــ مخاوفك مم ؟

فقالت فى نبرات مضطربة :

ـــ من أن يفرق الزمن بيننا يوما ، وتفر من بين أصابعى السعادة التى قبضت عليها .

فغمغم وهو يتمرغ فى صدرها :

ـــ لن يفرق بيننا شىء أبدا .

واتحدا وهى تهتف فى حنان :

ـــ حلمى .. حلمى .

وتمنت من كل قلبها أن يظل اتحادهما إلى الأبد .

١٠

عكف عثمان على عمله ضيق الصدر ، فقد برم بمكث الباشا وأسرته بالعزبة ذلك المكث الذى لا يدرى متى ينتهى ، فالغارات على القاهرة والإسكندرية لا تزال مستمرة ، وقوات المحور فى كر وفر بشمال إفريقية ، ولم يكن استقرار الباشا وحده هو الذى يضايقه ، بل كان يحرك غيظه . أنه اشترى عشرين فدانا ولا يجد الفرصة للذهاب إلى القاهرة لتسجيلها .

لم يكن يجرؤ أن يطلب من الباشا الإذن له بالغياب يوما عن العزبة ، فالباشا سيستفسر منه عن السبب الذى يدعوه للغياب ، وهو لا يجد سببا معقولا يتعلل به . آه لو درى الباشا أنه ذاهب لتسجيل الأرض التى اشتراها ، إذن لنصب له الميزان ، وحاسبه حسابا عسيرا يخشاه دائما ويتحاشاه .

وسمع عثمان صوت الباشا مقبلا ، فخف إليه يستقبله ، وقد انقشع عبوسه ، وارتسم على وجهه آى البشر والترحاب ، وفتح للباشا باب مكتبه

ووقف ينتظر دخوله وهو ينحنى تأدبا ، وتقدم الباشا وهو يقول :

ـــ هل وصل البريد ؟

فقال عثمان وهو يتبسم :

ـــ الخير كثير ، بريد من مصر ، وبريد من الإسكندرية .

وجلس الباشا خلف مكتبه ، وذهب عثمان ليحضر البريد ، وجاء فلاح يرتدى جلبابا أزرق ، مفتوح الصدر ، وعلى رأسه لبدة ، يحمل صينية من نحاس أصفر ، عليها فنجان قهوة وكوب ماء ، ووضع الصينية والفنجان أمام الباشا وانصرف .

وراح الباشا يرشف قهوته وقد شرد ببصره ، فقد ازدحم رأسه بأشياء كثيرة لا تناسق بينها ولا ارتباط .

وأقبل عثمان بالرسائل وراح يفضها رسالة رسالة ويدفع بها إلى الباشا ، دون أن يقرأ منها حرفا ، وكان الباشا يلقى نظرة على كل منها وينحيها جانبا ، وأمسك برسالة مكتوبة على ورق أزرق ، وطفق بقرؤها فى إمعان ، وقد انبسطت أساريره ، والتمعت عيناه ببريق خاطف ، وانفرجت شفتاه عن بسمة رقيقة ، ولما أتى على الرسالة ، التفت إلى عثمان وقال :

ـــ هذه رسالة من جمعية الفتيات الصالحات ، إنها من الست أنهار ، تذكرنا بالمبلغ الذى ندفعه للجمعية ، لقد نسيناها فى غمرة الأعمال ، وما ينبغى أن تلهينا الدنيا عن فعل الخير . ابعث إليها بمائة جنيه .

فقال عثمان ليرضى الباشا :

ـــ سأبعث إليها بشيك الآن .

ـــ قلت لك يا غبى أكثر من مرة : إن الخير لا يدفع بشيكات ،أفضل الصدقات ما كانت مستورة .

وتمنى عثمان لو أن أنهار كانت فى القاهرة ، إذن لحمل إليها المبلغ بنفسه ، ولتمكن من تسجيل أرضه ، ولكنها كانت فى الإسكندرية ، لم تغادرها على

الرغم من قنابل الألمان ، وقال :

ـــ أأسجل المبلغ فى الدفاتر باسمها ؟

فقال الباشا فى ضيق :

ـــ قلت لك أكثر من مرة : إننى لا أحب أن أشهر بمن نحسن إليهم .

فقال عثمان فى همس كأنما يفضى بسر :

ـــ ولكن الضرائب لا تعترف بالمبالغ التى ندفعها فى وجوه الخير ما لم تكن ثابتة بإيصالات .

فقال الباشا فى بساطة :

ـــ أمر الضرائب يهون .

وطوى الباشا الرسالة الزرقاء وغيبها فى جيب جلبابه . ولما انتهى من الرسائل الأخرى دفع بها إلى عثمان وهو يقول :

ـــ غدا ليلة النصف من شعبان ، غدا الوسعة ، من وسع فيها على عباد الله ، وسع الله عليه فى جنته ، هل أعددت الحبوب ؟

ـــ أعددت كل شىء يا باشا ، سأرسل إلى الفلاحين فى الظهر ، وأعطى كلا منهم زرقه .

فقال الباشا فى زهو :

ـــ سأعطيهم بيدى .

ـــ هل أبعث فى طلبهم الآن ؟

ـــ لا . سأمر على بيوتهم بيتا بيتا .

وتحرك فى كرسيه لينهض ، ولكنه رأى عبد الخالق يتقدم ، فثبت على حافة المقعد ، وأخذ يرقب ابنه مفتوح العينين ، يحاول أن يقرأ الانفعالات المنعكسة على وجهه .

قال عبد الخالق فى صوت منكسر :

ـــ صباح الخير .

وأحس الباشا فى صوته قهرا ، وفطن إلى سبب قدومه ، فقال وعيناه تتبعان عبد الخالق وتتسللان للغوص فى أعماقه :

ـــ صباح النور . تفضل .

وغاص عبد الخالق فى المقعد الموضوع أمام المكتب ، وظل مطرقا لا يرفع عينيه ، وغادر عثمان الغرفة كارها ، كان يحس اقتراب هبوب عاصفة ويتمنى من كل قلبه أن يشد عضدها ، وأن يعينها على ألا تبقى ولا تذر .

رمى الباشا ابنه بنظرة طويلة ، ثم قال :

ـــ خيرا .

وقال عبد الخالق وهو يفرك يديه ، ويزداد إطراقا :

ـــ خسرت كل أموالى ، كنت سيئ الحظ .

فقال الباشا فى حدة :

ـــ لا تذكر الحظ ، أرجوك ، طالما نصحتك ولكنك لم تستمع لنصحى .

فقال عبد الخالق ليبرر خسارته :

ـــ لست وحدى الذى أصيب بخسارة ، كل المشتغلين بالقطن خسروا .

ـــ لا تقل كل المشتغلين بالقطن ، بل قل المضاربين ، إننى لم أخسر مرة واحدة ، قل لى لماذا ؟

وسكت عبد الخالق ولم يحر جوابا ، وضاق الباشا بالصمت والقلق الذى ران عليهما ، فقال :

ـــ قل لى : ماذا تريد الآن ؟

فقال عبد الخالق فى صوت خافت :

ـــ أن تغطى خسائرى .

فهب الباشا كثور هائج ، وصاح بصوت عال بلغ مسامع عثمان :

ـــ أنت تخسر ، وأنا أغطى خسائرك ، أنت تلهو وتعبث وتبعثر الأموال بغير حساب ، وأنا أكد وأسقى هذه الأرض بدمى . ماذا جرى لعقلك . هذه

الأرض أرضى أنا ، سقيتها بعرق ، وكونتها بكفاح الأيام وسهر الليالى والحرمان والصبر على الحرمان ، إننى لم أرثها عن أحد ، أتحسب أننى أسمح لك بتبديدها وأنا أنظر ؟! هيهات ! هذه الأرض لن تنقص قيراطا ما دام فى عرق ينبض ، لن تنقص أبدا .

فقال عبد الخالق فى حدة :

— لماذا كل هذه الثورة ؟ إننى لم أطلب منك أن تبيع أرضك .

فقال الباشا وهو يسند كفيه على المكتب ، ويميل بجسمه إلى الأمام فى تحفز :

— وماذا تطلب إذن ؟

— تغطية خسائرى لا تستوجب منك بيع أرضك .

— ومن أين أغطيها ؟

— لو أمرت البنوك أن تدفع إلىّ فوائد أموالك التى تودعها فيها بلا فوائد ، لكان ذلك كفيلا بتغطية خسائرى .

— ما شاء الله ، تحرضنى على قبول الربا الذى حرمه الله ، لتنفقه أنت على لذاتك ؟ تريد أن تقحمنى فى النار ، لتنفق على الممثلين والممثلات بغير حساب ؟ أنت مجنون ، ولو لم تكن مجنونا لما خطر لك ذلك على بال .

فقال عبد الخالق وهو يتحاشى أن تلتقى عيناه بعينى أبيه :

— إذا كنت لا تقبل ذلك ، فغطنى بأموالك .

— أموالى أنا حر فيها ، ولن أسمح أبدا أن تغترف منها لتنفقها فى سبيل الشيطان .

— أموالك هذه المكدسة المكنوزة لا خير فيها ، إذا لم تقينا مذلة الدين والحرمان .

فقال الباشا فى انفعال ، وقد كادت الدماء تطفر من وجهه :

— أموالى المكدسة المكنوزة ؟! ما شاء الله ! تتطلع إلى أموالى ؟! تتعجل موتى ؟! تريد أن ترثنى ؟! لا يا عبد الخالق ، لن أتركك ترثنى أبدا وأنا حى ،

لن ترثني أبدا وأنا حي .. تريد أن ترثني .. تتعجل موتى .. تتمنى أن أموت .. لا .. لا . لن أمكنك أبدا من أن ترثني وأنا حي .. أبدا .. أبدا .

وغادر عبد الخالق المكتب فرارا من الكلمات القاسية التي كانت تصب فى أذنيه الشواظ من النار ، واندفع إلى الفيلا كعاصفة هوجاء ، ومر ببثينة وهو فى طريقه إلى غرفته دون أن يلتفت إليها . وفطنت إلى ما أسفرت عنه المعركة التى نشبت بينه وبين أبيه ، فهرولت خلفه ، ولحقت به وهو يجذب حقيبته ليجمع فيها أشياءه ، قالت له فى رقة :

— ماذا جرى ؟

فقال عبد الخالق فى حدة :

— قنابل هتلر أهون من البقاء مع هذا الرجل ، يتهمنى بأننى أتمنى موته ، وأننى أريد أن أرثه ، ليحقرنى ويحطمنى حتى لا ألح فى طلب المبلغ الذى طلبته منه ، إنها طريقته ليفر من طلباتى ، إذا طلبت منه شيئا كفرت ، أما حلمى فله كل شىء .

فقالت وهى تكاد تلتصق به فى دلال :

— هون عليك .

— إننى أفلست ، لم يعد عندى ما أنفقه .

كانت لا تريده أن يغادر الفيلا ، وألا يقطع الخيط الواهى الذى يصل بينهما وبين أسرة الباشا ، فغدا الخميس وسيقبل حلمى ، وسيمكث معهم يومين ، وهى تأمل أن تربطه بالهام . وأن تحكم الرباط ، وما كانت تريد أن تفلت منها هذه الفرصة ، فقالت فى رقة :

— أموالى كلها تحت أمرك .

وأحس راحة ، ولكنه ظل يجمع حوائجه ، فأمسكت بيده وقالت :

— لن نسافر اليوم ، ولن نترك العزبة .

— لماذا ؟

فقالت وهى تتصنع الجد :

ـــ لأن لنا فيها مثل ما لهم .

ولم يقنعه منطقها فاستأنف وضع أشيائه فى الحقيبة ، ولكنها عادت وأمسكت بيده وقالت :

ـــ ولأن رفعت حدثنى الآن من القاهرة وقال إنه قادم غدا ومعه الأستاذ ليمضيا معنا ليلة الجمعة ، وسيحضر رفعت معه مؤونة الأسبوع .

ورسمت بيديها فى الهواء شكل زجاجة ، وغمزت بعينيها ، ثم طوقته بذراعيها وراحت تقبله ، فاستكان فى أحضانها استكانة طفل إلى صدر أمه التى ألقمته ثديها بعد طول صياح وعويل .

١١

كانت القرية غارقة فى الذل : الطرق ضيقة ملتوية كثعبان ، والقمامات هنا وهناك ، والذباب يغطيها ، وبعض كلاب عجاف تسير فى تراخ ، ودجاجات تنقر روث البهائم الذى تغوص فيه الأرجل الحافية .

وكانت الأرض موحلة ، وفى منخفضاتها رسب الماء وأسن ، وراحت الحمير المحملة بالبرسيم والمحاريث والطنابير تنطلق فى بلادة وعبوس ، كأنما كانت تستشعر الهوان الذى يعيش فيه أصحابها .

وعلى أبواب الأكواخ المبنية بالطين جلس بعض النسوة فى ثيابهن الزرقاء أو السوداء التى كلح لونها ، ذابلات الأعواد بارزات الوجنات ، تنفر عروق أعناقهن ، ويكاد ينطفئ بريق عيونهن ، وحولهن صبية حفاة ، أجسامهم هزيلة ضامرة ، عليهم جلاليب مرقعة ، لا يظهر لونها من الأوساخ ، إنها كل ما يملكون من ثياب ، وإنهم ليمكثون عرايا يوم تغسل حتى تجف ، وما أقل الأيام التى تغسل فيها .

لقد شاركتهم هذه الثياب حقبة طويلة من أعمارهم ، وشهدت معهم مواسم وأعياد كثيرة حتى لقد سئموا طول معاشرتها لهم ، وتمنوا أن يبدلوها بخير منها ، ولكن من أين والأزمة طاحنة ، والنقود القليلة التى تصل إلى الكادحين منهم لا تكاد تمسك الرمق .

وأخرجت امرأة لابنها الصغير الباكى ثديا أشبه بقربة فارغة ، ووضعته فى فمه ، ومص الصغير الملفوف فى خرقة بالية مصات ، ثم عاد يعوى من الجوع ويرفس بساقيه العاريتين اللتين كانتا عظمتين دقيقتين شد عليهما جلد خشن أسمر .

وجلس بعض الرجال على المصاطب ، وقد لوحت الشمس بشرتهم ، وانتشرت الصفرة فى وجوههم ، وضمر لحمهم حتى بدت أحواض غائرة عند منابت رقابهم ، فيا طالما قاسوا من الحرمان والعسرة والبلهارسيا التى تأكل البقية الباقية من عافيتهم .

سنون طويلة من الذل والاستعباد والمسغبة ومص الدماء مرت عليهم ، وهم صابرون يمضغون المر ، وكأنما لم يكن نصيبهم من الذل كافيا ، فإذا بالحرب تضيق عليهم الخناق ، وتسلبهم النزر اليسير من ضرورات حياتهم حتى الكفاف عز عليهم .

وقامت عند مدخل القرية أبنية بيضاء ومسجد بنى بالحجر الأبيض وارتفعت مئذنته ، فكانت كالأحمر الذى طليت به خدود عجوز شمطاء ، ينهش السل صدرها .. لقد شيد الباشا هذه الأبنية ليراها زواره من بعيد ويؤمنوا معه بأنه مصلح كبير ، ويعمل على إسعاد فلاحيه ويرفع شأنهم .

وانطلق فى القرية بوق من أبواق الباشا يعلن أن الباشا قادم فى أثره ليوزع الحبوب على فلاحيه فى كل موسم ، وتلقى الرجال والنساء والأطفال النبأ فى فتور .. كانوا يحسون فى أعماقهم أن ما يتصدقون به عليهم إن هو إلا جزء يسير من حقهم ، إنه بعض ما يسلبهم إياه لتمتلئ به كروش أهل المدن ، وجيوش

الحلفاء وتربو به كنوز الباشا ، التى تمكنه من شراء أرض جديدة ، واستعباد أناس آخرين .

وتقدمت سيارة الباشا « الفورد » التى تستخدم فى المرور ، واجتازت الأبنية الجديدة وخلفها سيارتا نقل ملئتا بالذرة والقمح ، وتمدد فوق الحبوب رجال فى أيديهم مكاييل متباينة ، وكان الموكب كله يبدى ما يحسبه الباشا صدقه ولا يخفيها ، فما كان الباشا يؤمن فى مثل هذه المناسبات بحكمته التى كان يرددها : أفضل الصدقات ما كان مستورا .

وضاق الطريق حتى عجزت السيارات عن التقدم ، فهبط الباشا من سيارته وهبط عثمان خلفه ، وسارا صوب الرجال والنساء الذين انتصبوا واقفين ، وعلى وجوههم بسمات صفراء ذابلة .

وبدأ الباشا الجميع بالتحية ، فردوا بأحسن منها ، ولمح امرأة عجوزا شعثاء الشعر ، بيضاء العينين ، غائرة الوجنتين ، زاد فى غورهما فراغ فمها من أسنانها ، ترتدى مرقعة سوداء ، تمزقت عند صدرها ، فبدت بعض أضلاعها ، وتقدم لها متوددا :

ـــ كيف الحال يا خالة ؟

فقالت المرأة الفانية فى صوت خافت :

ـــ الحمد لله .

وأطالت النظر إليه ، فخيل إليها أنه صار أكثر شبابا وأوفر صحة ، وأنضر مظهرا . إنها تذكر أول يوم وفد فيه إلى القرية ، بعد أن اشترى بضعة أفدنة فى الناحية ، كان نحيلا ، فى وجهه صفرة وشحوب ، كان جلد وجهه مشدودا ، ولم يكن متورد الخدين كما تراه الآن ، ولم تكن آى العزة المترقرقة فى محياه قد عرفت بعد طريقها إليه .

وهمس فى أذن عثمان بكلمات ، فإذا بعثمان يهرول إلى حيث وقفت السيارات ، ويأمر الرجال بالشروع فى توزيع الحبوب على كل بيت .

وراح الباشا يمر على الدور دار دارا ، والحبوب فى أثره ، وكانت الأيدى تمتد لأخذ الحبوب ، وفى العيون حسرة ، وعلى الشفاه مرارة .. إن ما يوزع عليهم يكفيهم يوما أو يومين ، فماذا يفعلون طوال أيام السنة الباقية ، تلك الأيام العجاف القاسية التى تأخذ منهم كل شىء ، الصحة والعافية والعمر ، ولا تجود عليهم بما يستر الجسد ، ويسكت صراخ البطون .

واستمر الباشا فى طوافه ، ينظر إلى الأشباح المنتصبة أمامه دون أن يرق لها قلبه أو يحس نحوها شفقة . كان الرجال الذين نال منهم الهزال ، والنسوة اللاتى غابت من وجوههن النضارة ، والأطفال الضامرون الذين يقاسون من الأسقام — كانوا كلهم فى نظره تلك اللحظة أشياء تتلقى منه الصدقة .

وأسر الباشا إلى عثمان بكلمات ، فخف عثمان إلى الرجال يقول لهم :

— سيقرأ الليلة فى المسجد مقرئ من القاهرة ، وسيدعو دعاء النصف من شعبان ، تعالوا ندعو الله أن يديم علينا نعمه ، وأن يرزقنا القناعة والستر وحسن الختام .

ونظر رجل إلى الباشا وقال :

— سندعو الله أن يرفع عنا الغمة .

فرفع عثمان أكف الضراعة إلى السماء وقال :

— اللهم ارفع عنا الحرب والكرب ، والغلاء والبلاء وسوء الحال .

وطفق الرجال يرمقون عثمان وفى عيونهم ثورة ، وفى أجوافهم نار تتلظى ، ولو خلى بينهم وبين جلاديهم لفتكوا بهم ، ولكنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأكلوا لحومهم كلهم من ذوى النفوذ والسلطان .

وظل الباشا يطوف بالدور حتى غابت الشمس ، وجاء الليل وساد الظلام ، ولم يضأ فى القرية مصباح واحد ، فما كان فى القرية كلها نقطة من النفط ، ولولا البدر الصاعد إلى السماء ، لما عرف الباشا طريقه .

ودخل الباشا سيارته مزهوا ، واندس عثمان إلى جواره ، وقفل الركب

عائدا إلى السراى ، والباشا يحس راحة وسعادة وأمنا ، فقد ألفى على الفلاحين أوزاره ، واعتقد أنه بذلك القليل الذى تصدق به قد طهر أمواله .

١٢

سار عبد الخالق وفى يده زجاجة ويسكى يطوحها كلما هز ذراعه وإلى جواره الأستاذ يحتضن عوده فى رفق وحنان ، ومن خلفهما إلهام وحلمى يتحادثان ، ووراءهما رفعت يقبض على زجاجة نبيذ بيد ويحمل فى الأخرى بعض كئوس الشراب ، وإلى جواره بثينة فى ثوب سبور ، يكشف عن فتنة الصدر والأذرع والسيقان . كانوا يخترقون الحقول الخضراء ، مخلفين وراءهم سراى الباشا والفيلا ، فقد قرروا أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان على طريقتهم ، بعيدا عن غضب الباشا وثوراته .

كان القمر بدرا ، ففرش السندس الأخضر بغلالة رقيقة من فضة ، ونفث فى الكون سحرا ، وهبت النسائم رقيقة تداعب أوراق الشجر ، وتبعث وسوسة الحفيف التى تدغدغ النشوة ، وارتفع نقيق الضفادع كما يرتفع صوت المغنى على الآلات الهامسة التى تخلق جوا ، وامتزج بالحفيف والنقيق صفير الصراصير ، فأصاخ الأستاذ سمعه وأطرق كأنما يتلقى وحيا ثم قال :

— هذه هى موسيقى الطبيعة الحالمة .

ثم التفت إلى عبد الخالق وقال فى مرح :

— لقد أوحت إلىّ لحنا ، لحنا رائعا ، سأسميه « الأرض الطيبة » .

وراح يلعب على عوده فى نشوة ، وانبعثت الأنغام حلوة نابضة بالحياة ، تصور الطبيعة وتهول جمالها ، كأنما ليس فى الطبيعة إلا هفهفة النسيم ، وزقزقة العصافير ، وتغريد العندليب .

وانتهى من عزفه ، والتفت إلى السائرين خلفه وقال :

ـــ ما رأيكم ؟

فقالت بثينة فى حماس :

ـــ رائع ! جميل .

وقال رفعت وهو يرنو إلى بثينة فى وله :

ـــ الرأى ما قالت سيدتى .

وقال حلمى وهو يبتسم فى خبث :

ـــ يخيل إلىّ أنى سمعت هذه القطعة من قبل .

فقال الأستاذ مؤكدا :

ـــ أبدا . هذه أول مرة تعزف فيها .

فقال حلمى فى تحد :

ـــ أنا واثق أننى سمعتها أكثر من مرة ، إنها قطعة روسية مشهورة .

فقال الأستاذ فى تخاذل :

ـــ الفنان دائما يتأثر بما يقرأ وما يسمع .

فقال حلمى :

ـــ هناك فرق بين الاقتباس والتأثر ، فرق كبير ، والاسم الذى أطلقته عليها ليس جديدا .

فقال الأستاذ فى ضيق :

ـــ كل أرض تنبت خيرا ، فهى أرض طيبة .

وخشى عبد الخالق أن يفسد حلمى جو الليلة قبل أن تبدأ ، فقال للأستاذ :

ـــ سمعت يا أستاذ آخر قطعة سجلتها ، كانت تحفة ، قطعة خالدة .

والتفت الأستاذ إلى صديقه الذى يقدره ، وراح عبد الخالق يكيل له الثناء ، حتى هدأت نفسه ، وانبسطت أساريره ، وبدا عليه البشر .

وجلسوا على أرائك صفت تحت خميلة جميلة ، ودارت الكئوس على الجميع ، وراح رفعت يشرب وهو يختلس النظرات إلى بثينة ، فالبريق الذى

يشع من عينيها الفيروزيتين يعبث بأوتار قلبه ، وشعرها الأسود المتهدل كالمخمل يتمنى من أعماقه أن يمرر عليه يده ، وجسمها البض الممتلئ المشرب بحمرة يسكره ويبعث فى جسمه دفئا أمتع من كل دفء تجلبه بنات الكروم . كان يشتهيها بكل جارحة من جوارحه ، ولولا خشيته من أن يأتى ما يغضبها وما قد يتسبب عنه طرده من جنتها لجمع أطراف شجاعته وبثها لواعج نفسه التى تضنيه .

الأستار الكثيفة التى تحول بينها وبينه لا يجرؤ على رفعها ، إنه ينتظر صابرا أن ترفعها بنفسها ، وهو لا يمل الانتظار ، ويتعمد أن يروى النكات الجنسية المكشوفة والحكايات المثيرة ، لعلها تقدم على ما يتمناه ، ويرتجف من الإقدام عليه فرقا .

وراح يروى قصة اختلقها خياله ، وحشدها كل أمانيه ، قال متظاهرا بالضيق :

ــ أصبحت الحياة فى القاهرة لا تطاق ، تصوروا ! كنت سائرا أول أمس فى شارع جانبى ، شارع من الشوارع المتفرعة من شارع فؤاد الأول والشوارع كلها مظلمة فى هذه الأيام . وبينا أنا فى طريقى مررت بجندى بريطانى يضم فتاة ممتلئة إلى صدره ، ويمرر يده على شعرها الأسود ، ثم يقبلها قبلة طويلة كلها اشتهاء ، ويا ليته اكتفى بذلك .

وصمت ، ثم مصمص بشفتيه حسرة ، وطوح يده فى ازدراء . وقال له عبد الخالق وهو يعب كأسه :

ــ ثم فعل ماذا ؟

ــ فعل .. فعل .. الله يخزيه .

وأطرق متظاهرا بالخجل ، وضحكت بثينة ضحكة ناعمة ، فراح رفعت يرمقها من طرف عينه ، وصوت فى أعماقه يصيح : « آه لو قدر لى أن أضم هذا الجمال ، وأضع شفتى على شفتيه ! » .

وقال حلمى :

ـــ وماذا فعلت أنت ؟

فقال رفعت وهو يمثل الرعب :

ـــ سرت فى طريقى ، لم أتلفت ولم أنبس بكلمة .

فقال الأستاذ مبتسما :

ـــ شجاع .

فقال رفعت مدافعا عن نفسه :

ـــ الجبن سيد الأخلاق فى مثل هذه الحالات ، أظن أنك سمعت قصة الموريشان الذى قتل رجلا ثار للكرامة ، لما رآه فى نفس الوضع الذى رأيت فيه البريطانى .. ذهب الرجل فطيسا ، واستمر الشرف يطعن فى أحشائه كل لحظة .

وساد الصمت برهة ، وشرد حلمى ببصره ، ثم قال دون مقدمات :

ـــ قولوا لى : كيف تطبخ الملوخية ؟

فضحكت إلهام ، وقالت بثينة :

ـــ يطبخها الطباخ .

وقال رفعت فى ضيق :

ـــ أوه ! كيف تتذكر الملوخية فى مجلس الويسكى والنبيذ والكونياك ؟

وقال حلمى لرفعت :

ـــ أتكره الملوخية ؟

فقال رفعت فى امتعاض :

ـــ أكره كل ما يذكرنى بفقرى ، حتى كشك الفقراء .

وعاد حلمى يقول :

ـــ بالله كيف تطبخ الملوخية ؟

فقالت إلهام وهى تبتسم :

— أتريدها بالدجاج أم بالأرانب ؟

— بالأرانب .

فاعتدلت إلهام وقالت :

— تذبح الأرانب ...

وقاطعها حلمى فى اهتمام وقال :

— كيف تذبح ؟

فضحك عبد الخالق وقال :

— يذبحها الطباخ .

وقال حلمى فى جد :

— وإذا لم يكن فى البيت طباخ ؟

فقال رفعت يجاريهم فى الحديث الذى لا يفهم له معنى :

— ترسل إلى أقرب جزار ليذبحها .

فقال حلمى فى سرور :

— كلام جميل . ذبحنا الأرانب ، ثم ماذا ؟

فقالت إلهام وهى تبتسم :

— أتريد الملوخية « بورانى » أم « شوربة » أم « فتة » بالثوم والخل ؟

فقال الأستاذ وهو يتأود :

— الله ! ما ألذ الفتة بالثوم والخل .

فقال حلمى وهو ينظر إلى إلهام فى اهتمام :

— أريدها « فتة » بالثوم والخل .

وابتسمت إلهام لتسرد على مسامعه طريقة طهوها ، وإذا ببثينة تصيح :

— كفى بالله ، نريد أن نسمع الأستاذ .

وقال رفعت وهو يتأفف :

— لم نتجشم السفر لنشنف آذاننا « بفتة » الملوخية .

وتناول الأستاذ عوده وراح يغنى ، مقلدا قدامى المغنين :

— آه الفت ، يا سيدى ع الفت ، يا عينى ع الفت ، والله فت . فت ، يا سيدى ع الفت ، يا روحى ع الفت ، والله فت . فت ..

ونهض حلمى وجذب إلهام من يدها وهو يقول :

— تعالى أريد أن أسمعك أنت .

ونهضت إلهام معه وهى تضحك ، وجعلت بثينة ترمقهما فى نشوة ، وتداعبها الآمال ، فقد حسبت أن حلمى بدأ يسير صوب الفخ ، وأن قليلا من الدعابة الرقيقة العذبة ، ورنوة متكسرة من عينى إلهام ، وبسمة جميلة من شفتيها ، كفيلة بأن تقود حلمى إلى غاية ما تتمناه .

وجلسا بعيدا ، وطفقت إلهام تتحدث وحلمى يعيرها سمعه ، ويستوضحها بعض ما غاب عنه ، كان أشبه بطالب نجيب يستوعب درسا ، وراح الأستاذ يغنى وعبد الخالق يعب كأسه وهو يهز رأسه طربا ، ورفعت يدس عينه فى صدر بثينة ، ويلمس بهما ساقيها ، ويتأوه طربا ، فقد راحت تعربد فى أعماقه مشاعر طاغية من الرغبة .

وطالت جلسة حلمى وإلهام ، فصاح رفعت :

— ألم تشبع ؟

فقال حلمى وهو يضحك :

— لم نبدأ فى الأكل بعد ، الملوخية لم تنته ، لا نزال نطبخها .

فقال الأستاذ :

— عندك حق ، إننى أشم رائحة « التقلية » .

فقالت بثينة :

— نذرا علىّ إن نجحت يا حلمى لأقيمن وليمة تكون الملوخية أساسها .

فقال رفعت فى ضيق :

— سبحان الله ، ناس تتمنى الكافيار ، وناس تشتهى الفقر !

١٣

وقفت سيارة حلمى وهبط منها وفى يده كيس من قماش يستعمل فى حمل الخضر ، وصعد فى الدرج قفزا وهو منطلق الوجه ، فمشاعره كلها تترنم بأنشودة غرام ، ووضع يده على جرس الباب ، وأخذ يدقه دقات مرحة كأنما يضرب على طبلة فى مهارة ليهز أعطاف راقصة غارقة فى النشوة .

وفتح الباب عن إيفا ، ولما وقعت عيناها عليه ، انشرح صدرها ، وانبسطت أساريرها ، ورفت مقلتاها بالفرحة والرقة ، والتشوق والهيام ، ولم تحاول أن تكبح جماع عواطفها ، بل طوقت عنقه بذراعيها ، وأخذت تقبله فى حرارة وهى تغمغم :

ـــ حلمى ! لكم اشتقت إليك ، بالله لا تغب عنى .

وأغلق الباب خلفهما ، وانطلقا إلى المطبخ وقد لف كل منهما ذراعه حول صاحبه ، وجعلا يتبادلان القبل كزوج من الحمام ، التقيا بعد غياب . ومد يده فى الكيس وأخرج منه الملوخية ، فلما رأتها قالت :

ـــ ما هذا ؟

وقبلها حلمى قبلة خاطفة وقال :

ـــ أطعمتنى كل الأكلات النمساوية ، وسأطعمك اليوم أكلة بلدية .

وأخرج زوجين مذبوحين من الأرانب وقال :

ـــ ملوخية بالأرانب .

وأخذت منه أرنبا ، فألفتها لا تزال دافئة ، فقالت :

ـــ لم تشترها من الثلاجة !

فقال وهو يضحك ، كأنما كانت شاهدة الحوار الذى جرى بينه وبين أصحابه فى العزبة :

— ولم يذبحها لى أقرب جزار ، ذبحتها وسلختها السيدة التى اشتريتها منها .

واتجها إلى غرفة النوم ، كانت بسيطة غاية البساطة ، وكانت رائعة كل الروعة ، استمدت رونقها من ذوق إيفا ، وانعكس عليها صفاء روحها ، كانت كل قطعة تنطق بلمستها الفنية ، والورود الصغيرة المشغولة بزوايا المفارش تشى برقة أناملها :

وراح حلمى يخلع ثيابه ، وإيفا تعاونه وتداعبه بدغدغته وحك ذقنها فى ظهره ، ولمست يدها شعر صدره وهى تمسك بطرفى فتحة قميصه ، فتركت القميص وتناولت شعرة بين أناملها وجذبتها ، فاستدار حلمى يقبلها ويضربها على أردافها .

وارتدى حلمى بجامته ، ثم قال :

— أين فوطة الطبيخ ؟

فقالت وهى ترنو إليه فى حب :

— فى المطبخ .

واتجها إليه ، ما يسيران خطوة حتى يقفا ليلتصق الصدر بالصدر ، وتعب الشفاه من الشفاه عصير أجمل ما فى الوجود ، وتناولت الفوطة وهمت بارتدائها فوق ثيابها ، فجذبها منها فى رقة وهو يقول :

— أنا اليوم الطباخ ، أنت ضيفتى وسيدتى ، وأنا عبدك .

وراح يرتدى الفوطة ، وقبلته قائلة :

— بل أنت سيدى ورجلى وحبيب الفؤاد .

وتأخرت خطوة وأخذت تتطلع إليه مفتونة ، ثم قالت :

— لو كان كل الطباخين أنت ، لكانت الخيانات الزوجية أمراً لا مفر منه ، لو جاءنى زوجى بطباخ مثلك لضمن عدم مغادرتى البيت ، ولما تذمر أبداً من كثرة خروجى وتغيبى عنه .

وجلس إلى الملوخية يقطفها ، وجعلت ترقبه مدة ، ثم جلست إلى جواره

تعاونه ، مسترسلة فى الحديث ، وهو يصغى إليها منتشيا ، تغمره سعادة طاغية ، وقالت :

ـــ كنت أرتجف فرقا من مستقبلى ، أخشى ما تخبئه لى الأيام ، أما الآن فأنا مطمئنة ، أشعر بأننى غنية ، وأن الثروة التى جمعتها تكفينى للأيام المجدبة التى سأعيشها ، مهما طالت ومهما قسا علىّ الزمن .

وابتسم حلمى وقال مداعبا :

ـــ إذن لن أخشى الفقر ما دمت معى .

فقالت فى حماسة :

ـــ كيف تخشى الفقر وأنت الذى جدت علىّ بكل ما أملك من كنوز !

ورمقها دهشا ، وراحت تتحدث وهى شاردة فى نشوة :

ـــ كنت أعيش على ذكريات قليلة كادت تفقد روعتها من كثرة ما قلبتها فى خيالى ، كنت فى ساعات وحدتى القاسية أهيم بروحى إلى بلادى ، إلى التيرول ، فأرى بيتى الحبيب على سفح الجبل الجميل ، وأبى وأمى وإخوتى ومدرستى وصديقات طفولتى ، وشارع مارى تريزا ، وكنيسة مارى تريزا ، والرجال فى بنطلوناتهم الجلدية القصيرة ، وقبعاتهم التى تزينها ريشة طويلة ، وبنات بلدى فى ثيابهن الوطنية الزاهية يرقصن فى حلقة وهن يصفقن لاثنتين منهن تتمايلان فى رشاقة داخل الحلقة ، وكنت أرى البيرة تسيل على جوانب الكوبات الكبيرة ، وأرقب بعين خيالى المطر المنهمر ، وترن فى أذنى ضحكاتى المرحة وأنا أجرى فى المطر كشيطان صغير .

كانت هذه هى كل ذكرياتى ، وقد فطنت قبل أن ألقاك إلى أننى فقيرة حتى فى الذكريات ، وفجأة ظهرت فى حياتى ، ففجرت فى نفسى ينابيع غنية من المشاعر الرقيقة ، وجعلتنى أكشف كنوز قلبى التى بهرتنى ، فلولاك لظل أثمن ما فى نفسى مطمورا فى مجاهل أعماقى .

ومال عليها وقبلها ، فنظرت إليه فى وجد وقالت :

— كانت أمنيتي أن يكون لى بيت وحدى ، أحس لذة امتلاكه ، أتصرف فيه على هواى ، لقد كانت أمنية ساذجة ، أمنية تتفق مع طفولة تفكيرى ، ولما عرفتك نضجت فجأة واتسعت آفاق ، وتعلمت أن غاية وجودى أن أكون معك ، أكشف على يديك أسرار نفسى المغلقة ، لقد كنت جاهلة ، لم أكن أعلم أننى فى عالم فسيح زاخر بينابيع ساحرة من اللذة ، وكنوز غنية بالعواطف النبيلة ، وأنهار دفاقة بالرقة والحنان ، إننى قادرة على أن أتغذى من حبى العظيم ما بقى لى من عمر .

ورفع ذقنها بيده فى تأثر ، وراح ينظر فى عينيها برهة ، ثم قال :

— أنت طيبة يا إيفا ، وما زلت شابة جميلة ، وما ينتظرك من سعادة أضعاف ما تذوقته منها .

— بلغت سعادتى غايتها ، ويا ليتها تدوم ، آه لو دامت لكنت أسعد من فى الوجود .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أعرف أن السعادة لا تدوم ، كل ما أرجوه أن تطول مدتها ، وألا تكون فى عمر الورود .

فقال لها فى إشفاق :

— أنت قلقة .

فقالت فى إيمان :

— قلق الحب لذة .

— ما زلت ترهبين المجهول .

— إننى ككل الأغنياء أرهبه ، وإن كانت أرصدتى الضخمة تقنعنى أننى لن أموت فيه جوعا .؟

وساد الصمت اللذيذ مدة ، وتحرك غروره ، فالتفت إليها وقال :

— إيفا ، هل أنا أول رجل فى حياتك ؟

فقالت فى بساطة :

ـــ لا يا حلمى ، عرفت قبلك رجالا ، ولكنك حبى الأول والأخير .

وتعانقا وغابا فى قبلة طويلة حارة ، وراحا يتعاونان على تفجير ينابيع جديدة من اللذة فى أنفسهما ، وكشف أسرار ذلك العالم الهائل الكائن فى أغوارهما ، وتضخيم رصيد الذكريات الذى يتفق منه فى الليالى الجدب الطويلة .

١٤

كان كل من فى العزبة فى ضيق ، فإلهام فى حيرة ، تبخرت سكينة نفسها وفرت طمأنينة وجدانها بعد أن تلقت رسالة بدر الدين ، إن أفكارا كثيرة تمور فى حناياها وقد اختلط عليها أمرها حتى لم تعد تتبين طريقها ، إن كل كلمة فى الرسالة مست وترا فى نفسها ، وخفق لها قلبها ، لقد قبلت كل ما جاء فيها مستريحة الضمير ، ودار رأسها من نشوة الفرحة لما دعاها صراحة للعودة ليعلنا خطبتهما ويستعدا للزفاف ، فالحياة بدونها فارغة لا معنى لها .

كل ما فى الرسالة جميل ، ولكن كيف تتصرف ؟ هل تدفع بالرسالة إلى بثينة وتقول لها إنها قد وهبت قلبها لبدر الدين من زمن طويل ، وأن حياتها ملك لها ، وإنها ستتصرف بوحى مشاعرها التى لا تخدعها ؟ وهل تقبل بثينة هذا ؟ ولو كان هناك أى احتمال لخضوع بثينة لمشيئتها لذهبت إليها من فورها ، وراحت تقرأ على مسامعها الرسالة الحبيبة وفى القلب فرحة ، وفى الصوت تهدج ، وفى العين بريق غبطة ، وإذا أحست أنها على وشك أن تهزم فستقسم بأغلظ الأيمان أنها بريئة منها إن تزوجت دون موافقتها بدر الدين .

إنها تعلم أن بثينة قلقة وأنها فى ضيق ، كانت تحسب أن حلمى سيتزوج عقب نجاحه فى الليسانس ، وقد نجح ومرت شهور طويلة عقب تخرجه ، وكانت فى كل مناسبة تثير موضوع زواجه وتلقى فى براعة الأضواء عليها ، ولكنها لم تنجح

حتى الآن فى اصطياد وعد من حلمى أو من الباشا أو من أمينة هانم .

إن بثينة تمقت أمينة هانم ، إنها تعزو كل إخفاق يصيبها إلى هذه السيدة التى تتظاهر بالبساطة والبراءة والسذاجة . وهى نار تسرى تحت الهشيم ، ومما يزيد فى ضيق بثينة وحنقها اضطرارها إلى تملق أمينة هانم ، والمبالغة فى خفض جناح كبريائها لتكسب ودها .

إن إلهام فى أعماقها لا تقتنع بمنطق بثينة أبدا ، ولكنها كانت تتحاشى إثارة أعاصير نفسها لأن بدر الدين لم يتقدم بطلب يدها صراحة ، ولكنه فى هذه الرسالة يذكر الخطبة والزواج وضرورة الإسراع بالعودة حتى يقضى على ذلك العطب الذى بدأ يتسرب إلى روحه ، إنه فى حاجة إلى قلب رحيم إلى جانبه يأخذ بيده فى مسالك الحياة ، وإنه ليحس فى أعماقه أنها ستكون له نعم العون ونعم الرفيق .

كم هو لطيف بدر الدين ، إنه رقيق الحس ، طيب القلب ، فيه أريحية ودماثة خلق ، فلماذا تفضل بثينة عليه حلمى ؟ هل حقا مات فيها كل إحساس ولم تعد لها من أهداف إلا أن تضع يدها على أموال الباشا ؟ وهل لو تحقق حلمها يتحقق حتما كل ما تصبو إليه من سعادة ؟ إنها هى إلهام الصغيرة التى لا تملك بعض ما تملكه أختها لا تهفو نفسها إلى امتلاك هذه الأرض التى يرويها مئات المساكين بعرق جباههم وعصير حياتهم . كانت قبل أن تفد إلى العزبة لا تطمع فى الأرض ولا فى أصحابها ، وإنها بعد أن عاشت فيها حياتها المملة المكرورة أصبحت أكثر زهدا فيها .

إنها لن تقبل أن تتزوج حلمى من أجل أطيان أبيه ، فقلبها لم يخفق أبدا بحبه ، وهى تحس أنه بعيد عنها وهو يجلس إليها يداعبها ويجاذبها أطراف الحديث ، لقد لمست يده يدها مرات ، ولكنها لم تستشعر الرجفة اللذيذة التى تحسها لما يلمس بدر الدين يدها ، فلمسة بدر الدين سحرية تسرى إلى مهجتها ، وتدغدغ أعماق سريرتها ، وتغرقها فى غيبوبة مفعمة بالنشوة والانشراح .

لكم هو كيس بدر الدين ! إنه لا يزال يذكر يوم خرجت معه ووقفت أمام عقد تظهر إعجابها به ، لقد اشترى لها ذلك العقد ، وسيقدمه لها يوم الخطبة ، لقد نسيت هي تلك الرغبة التى تملكتها لحظات ، ولكن هو لم ينسها وصمم على أن يحقق لها ما تمنت ، كم هو ظريف وهو يسرد لها فى كلمات نابضة بالحب كل ذلك فى رسالته الغالية .

ولماذا لا تفر الآن من العزبة وتلحق به ؟ ولكن لماذا الفرار ؟ إنها لا تخشى أحدا حتى تفر ، وهى حرة فى تصرفاتها ، ستذهب إليه مرفوعة الرأس ، وستغضب بثينة مدة ، ثم ينقشع غضبها ، ولكن لماذا الذهاب إليه ؟ لماذا لا تكتب إليه رسالة تشكره فيها على عواطفه ، وتقول له فيها إنه لمما يشرفها أن تكون له زوجة ، وإنها قادمة لإتمام إجراءات الزواج . واستراحت للفكرة ، فراحت تغدو وتروح تفكر فى الكلمات النابضة التى تعبر عن حقيقة مشاعرها .

وبلغت النافذة المطلة على الفناء الواسع بين الدارين ، فشردت ببصرها إلى الأفق البعيد وهى تحاول أن تمسك بالعبارات التى تستطيع أن تترجم عن بعض إحساساتها الرقيقة الحلوة الدافئة النابضة المشحونة بالأمن واللذة والنشوة ، التى يعجز البيان عن تصويرها حية كما تحسها ، وهمت أن تدور على عقبيها منفعلة ، فلمحت حلمى يذهب ويجئ فى الفناء وهو قلق مضطرب ، فجعلت ترمقه برهة ، وسرعان ما غابت عنه فى غمرة مشاعرها .

وكان حلمى فى ضيق ، إنه بعد أن نال الليسانس أصبح أمر غيابه عن العزبة عسيرا ، كان يحتج بالجامعة ومحاضراتها ، وكانت أمه تتوسل إليه أن يبقى إلى جوارها ، ولكنه كان يفلت من توسلاتها بإقناعها أن أيام الجامعة محدودة ، وأنه بعدها لن يبتعد عنها ، إلى أن تنقشع سحب الحرب الجاثمة على أنفاس الناس . أما الآن فما من حجة مهما قويت بقادرة على أن تفلته من قبضتها الحديدية . ذهب مرة إلى القاهرة دون موافقتها وبات مع إيفا ليلة ، فلما عاد وجدها غاضبة

باكية ، ومما زاد الطين بلة تلك الغارات المروعة التى شنت على الإسكندرية .

كان يذهب إلى إيفا صباحا ويعود إلى العزبة قبل الغروب ، ولكنه اشتاق إلى الليالى المترعة باللذة ، يحن إلى العزبة الساكنة التى ينتشر فيها ضوء الأباجورة الخافت ، فينفث فيها روعة وسحرا ، فما جعل الليل إلا للحب وعذوبة اللقاء ، فقبلة المساء أرق وأعذب من عشرات القبل المتبادلة فى النهار ، لأن الحس فى النور صاح واع . وفى الظلام مهموم مشتاق إلى العطف والحنان والفناء فى روح آخر .

إنه وهو فى بيته الذى أسكن فيه إيفا يحس رجولة وفحولة واستقلالا ، إنه السيد المرموق إذا دخل ، والسيد المترقب وفوده إذا غاب ، إنه رب من الأرباب ، أما وهو فى العزبة فهو حسنة من حسنات الباشا ، إن كان إنجاب الأبناء من الحسنات ، وهو تابع وظل وفرع ، ولن يكون أصلا ما دام الباشا متربعا على عرشه كالطود .

كانت رجولته ومشاعره وكل خلجة فيه تهفو إلى إيفا ، تحرضه على أن يطير إليها ، وقد ازدحم رأسه بأسباب كثيرة يعتذر بها عن غيابه عن العزبة ، وتقدم من مكتب الباشا ، فألفاه جالسا على كرسيه وعثمان يلتقم أذنه كعادته يوسوس له بما شاء له الشيطان أن يوسوس .

وقبل أن يقتحم الباب وقف فجأة وأطرق ، فقد نبتت فى ذهنه فكرة استراح لها ، إنه يستطيع أن يستأذن فى السفر إلى القاهرة لقضاء بعض حاجاته ، وأن يؤكد عودته قبل الغروب ، ومن القاهرة يتصل بالباشا تليفونيا ، ويخبره أن عطبا أصاب محرك سيارته وأن عودته لسوء حظه أصبحت متعذرة . وألقى على الباشا وعثمان نظرة خاطفة ، ثم أسرع إلى السراى ليخبر أمه أنه ذاهب إلى القاهرة .

وكان عثمان يوسوس للباشا بأخبار عبد الخالق وزوجته والرجال والنساء الذين عرفوا طريقهم إلى العزبة ، وراح يقول للباشا أن الوافدين كلهم يحملون

معهم لعبد الخالق زجاجات الخمر ، وأن عبد الخالق أصبح لا عمل له إلا أن يشرب .

وكان الباشا يصغي وهو مهموم ، ولم تكن أنباء عبد الخالق سبب حزنه ، بل كانت المخاوف والأوهام تمور فى رأسه ، وتجرى فى سريرته ، ولم يكن عثمان يحس السعادة التي يحسها كلما أكل لحم الناس ، بل كان فى ضيق لأن وجود الباشا فى العزبة أثناء وقوع أزمة الخبز فوت عليه جنى أرباح كانت تمكنه من شراء بضعة فدادين يضمها إلى رقعة الأرض التى يملكها ، والتى يبذل كل ما أوتى من مكر ودهاء وخسة ليوسع مساحتها .

كان أهل القرية لا يجدون إلا كسرات من الخبز الأسود . وسكان البندر يتجمعون أمام الأفران يخطفون ما يخبز فيها ، فلو كان طليق اليد ، وليس عليه رقيب ، لباع ما فى المخازن من حبوب ووضع فى جيبه فروق الأسعار الهائلة ، إنه يحب هذه الحروب ويكرهها ، يحبها لأن ارتفاع أسعار السلع مكنه من أن يجنى لنفسه مبالغ من الأرباح الضخمة دون أن يخشى انكشاف أمره ، ويكرهها لأنها اضطرت الباشا إلى الإقامة فى العزبة ، مما فوت عليه فرصة يتمنى جشعه لو أنه كان وحده ليهتبلها .

وكان الباشا فى ضيق ، كلما مد بصره إلى أرضه الواسعة المزدانة بالخضرة ، النابضة بالحياة اندلع لهيب مخاوفه ، وراح يهمس فى أغواره ذلك الحديث الذى سمعه بالأمس فى صوت كفحيح الأفاعى . وضاق الباشا بالأفكار التى كانت تتمدد فى صدره حتى كادت تمزقه ، فالتفت إلى عثمان وقال فى صوت مضطرب :

— أراضينا كلها مهددة بالغرق .

فقال عثمان فى دهش وقد اتسعت عيناه :

— بالغرق ! إننى لا أفهم شيئا .

فقال الباشا وفى نبرات صوته رنة أسى :

— بلغنى أن مدير مكتب وزير الحربية دخل عليه وقال له : إن الجنرال ستون فى طريقه لمقابلة معاليه ، وإن الجنرال قادم ليطلب من معاليه التوقيع على أمر بقطع جسور النيل وإغراق مديرية البحيرة كلها ، إذا دعت ضرورة الدفاع إلى ذلك .

فقال عثمان فى إنكار :

— الدفاع عن ماذا إذا كنا سنغرق أراضينا !.

— الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية .

— وماذا فعل معالى الوزير ؟

— التفت إلى مدير مكتبه وقال : « أشعر بتعب فى عينى ، أريد أن أضع فيهما قطرة ، هل عندكم قطرة هنا ؟ » . وأرسل مدير المكتب إلى تومرجى الوزارة ، وجاء ووضع القطرة فى عينى الوزير .

وقال معاليه لمدير مكتبه : « لا أرى شيئا ، إننى لا أستطيع أن أرى شيئا ، انقلونى إلى البيت .. إلى البيت » . وخرج معالى الوزير وهو يتوكأ على كتف مدير مكتبه والتمورجى ، فى سلم الوزارة التقوا بالجنرال ستون وهو صاعد للمقابلة ، ولما رأى الوزير وهو مغمض العينين مادا يده أمامه كالأعمى جعل يرمقه وهو يتميز غيظا ، وأفلت الوزير بذلك من توقيع الأمر .

— ما من مصرى يقبل أن يوقع مثل هذا الأمر .

فقال الباشا وهو يهز رأسه :

— لا يعدم الإنجليز أن يجدوا من يوقعه ويلبس قراره ثوب البطولة والوطنية .

وشرد بصره برهة ثم قال :

— لن تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبى إلا إذا عاد رفعة الباشا إلى الحكم .

وقال عثمان متملقا :

— رفعة الباشا لا يوقع مثل هذا القرار أبدا .

١٥

كانت أمينة هانم تشرف على تنظيف البيت فى البكرة ، وكانت أربع فتيات من العزبة ينظفن البسط ، ويكنسن الغرف ، ويمسحن البلاط ، ويعدن تنسيق الأثاث ، ويضعن كل قطعة منه حيث تأمرهن الهانم .

وكانت الفتيات يقبلن على عملهن منشرحات ، وكل منهن تفكر فيما ستفعله بالأجر الكبير الذى ستجود به الهانم عليها ، راحت إحداهن تمنى نفسها بشراء ثوب يدفئها فى هذا البرد الزمهرير الذى ينفذ إلى عظامها ، وتتيه به على أترابها ، وراحت أخرى تتصور سعادة أخيها لما تضع فى يده المبلغ ليذهب إلى البندر يشترى من العطار الدواء الذى وصفته له خالته ، وكانت الثالثة تغدو وتروح فى نشاط وكل أملها أن ينتهى العمل سريعا ، وأن تنقدها الهانم أجرها لتشترى خبزا لأمها وأخواتها الصغار ، وراحت الرابعة تحلم بسداد جزء من دين البقال .

وانتهى تنسيق السراى ، وراحت كل فتاة تنظف وزة مذبوحة ، وعادت الآمال العراض تنتشر فى الصدور المنهوكة ، فالباشا يعد اليوم وليمة فى الغداء ، والخيرات ممدودة ، وستجود الهانم عليهن بالقليل من الكثير الذى وقعت عليه عيونهن الجائعة . سيكون يومهن هذا عيدا ، فسيدخل دورهن الخاوية طعام فاخر طهى فى سراى الباشا .

وظلت أمينة هانم بينهن فى ثيابها المنزلية ، تحرضهن على الإسراع ، وترقبهن فى حرص شديد ، خشية أن تخفى إحداهن قلب الوزة أو كبدها لما تفتح بطنها . وقطعت الأرجل وأخرجت الأمعاء ، وهمت الفتيات بإلقائها بعيدا ، فإذا بالهانم تأمرهن بتنظيفها وشقها وإزالة الجلد عن الأرجل ، ولف الأرجل بالأمعاء المشقوقة ، وراحت تخبرهن أنها تصنع من الأرجل الملفوفة بالأمعاء

حساء لذيذا .

وراحت الفتيات المتسربلات فى جلاليب سود كلح لونها ، والمتعصبات بمناديل ممزقة يتبادلن النظرات فى حذر ، وقد كانت نظرات ازدراء وإنكار فهن الفقيرات اللائى قد تمر عليهن سنون دون أن يذبحن وزة ، لا يسلخن أرجلها ولا يشققن أمعاءها لتلف حول الأرجل إذا قدر لهن يوما أن يذبحن وزة .

ورأت فى عيونهن ذلك الإنكار الصارخ ، وقلما كانت تفهم لغة العين الفصيحة ، فلم تنفعل بل رأت أن من واجبها أن تزيل ذلك الجهل الجاثم على صدورهن ، فراحت تقول لهن حكمتها الفريدة :

ـــ البطر يزيل النعم .

ولم تستوعب الفتيات حكمتها ، لم يكن للفظة البطر عندهن مدلول ، فالكفاف عز عليهن ، ولو وجدن خبزا أسود وفحلا من البصل أو قرنا من الفلفل الأخضر لقبلن حمدا أكفهن بطنا وظهرا . لم تكن الهانم موفقة فى حكمتها ، فولدت على شفاههن بسمات ساخرة .

ووضعت أوانى الطهو على مواقد كثيرة ، وأتمت الفتيات أعمالهن ووقفن فى المطبخ ينتظرن ، وجرت إحداهن وراء خيالها جريا حثيثا ، فعرضت آمالها حتى إنها فى أعماقها كانت تغبط نفسها على توفيقها فى يومها هذا .

وجاءت أمينة هانم وشكرتهن ، وكان ذلك الشكر فى حقيقته أمرا لهن بالانصراف ، فخرجن من المطبخ ساهمات ، تقوض فى لحظة أملهن العزيز الذى داعبهن ساعات ، أمل العودة إلى دورهن المقفرة الخاوية بطعام من سراى الباشا .

انقبضت قلوبهن ، ولكن اليأس لم يتسرب إليها ، فإذا كان حلم العودة بطعام فاخر بددته الحقيقة ، فلا زال بصيص من حلم آخر يقاوم الظلام الزاحف على نفوسهن ، حلم العودة بنقود تحقق الأمانى والآمال .

ومدت أمينة هانم يدها بقطعة فضية من ذات العشرة القروش ، ووضعتها فى

يد إحداهن قائلة :

ــ قسمنها فيما بينكن .

وعلا وجوههن وجوم ، وزاغت أبصارهن ، وقطعت نياط قلوبهن ، وخرست ألسنتهن ، وإن تدفقت فى حناياهن مشاعر الحنق والغضب والأسى وكل ألفاظ السباب .

وسرن مطرقات الرءوس ، يشعرن كأن جفاف الحزن يكاد يخرط حلوقهن ، وأن دموعهن لتغسل وجوههن ، وجعلن يشددن على أنفسهن حتى لا تنهار مقاومتهن ، وما إن غادرن السراى ، حتى عجزت إحداهن عن كبح عواطفها الثائرة ، فراحت تنشج وتجهش بالبكاء .

وأقبل على السراى أحد أقارب الباشا ، وكان ذلك شيئا غير مألوف ، فالباشا لا يزور أحدا من أقاربه ، ولا يزوره منهم أحد ، ولولا أن أرسلت أمينة هانم فى طلبه ما فكر أبدا فى هذه الزيارة .

كان الرجل مسنا على أعتاب السبعين ، أطلق لحيته البيضاء وأمسك فى يده مسبحة ، كان يحرك حباتها بين أصابعه وشفتاه دائمة التسبيح . وجاءت أمينة هانم وصافحته فى توقير ، وأقبلت عليه تحدثه فى ود صادق ، كانت كلماتها منبعثة من قلبها .

وجاءت خادم شابة تحمل القهوة ، كانت متناسقة التقاسيم ، فى وجهها ملاحة ، وكانت كل الفتيات اللاتى يعملن فى السراى على جانب من الوسامة ، فالباشا لا يطيق أن تقع عيناه على فتاة دميمة .

ورشف الرجل من الفنجان رشفة ، والتفت إلى أمينة هانم وقال :

ــ خيرا ؟

قالت وهى ترمقه فى احترام :

ــ قيل لى أنك مسافر إلى الحجاز .

فقال الشيخ فى بساطة :

ـــ بإذن الله . سأحج حجتى الثالثة .

فقالت فى توسل :

ـــ لى عندك رجاء .

ـــ أنا خادمك .

فقالت فى إنكار :

ـــ العفو .. أنت الخير والبركة .

وصمتت قليلا ثم قالت وفى صوتها نبرات فرح :

ـــ عندى مبلغ من المال أريد أن أتصدق به على فقراء مكة والمدينة ، ولما علمت أنك مسافر قلت جاء الفرج .

فقال الشيخ فى اعتزاز :

ـــ على الخبير وقعت ، إننى أعرف فقراء مكة والمدينة بيتا بيتا ، يا طالما أعطيتهم بيدى هذه أمانات أهل الخير .

ورفع يده إلى السقف وقال :

ـــ اللهم أعطنا من فضلك لنتصدق ، إن للتصدق حلاوة وطلاوة .

وقامت إلى صوانها ، وعادت وفى يدها مائة جنيه ، وضعتها فى يد الشيخ ، فتناولها وهو يقول :

ـــ سيخلفه الله عليك ، فما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا .

وتململ فى مقعده وهو يقول :

ـــ اللهم اجعلها من المنفقين .

ونهض لينصرف ، فقالت له :

ـــ والله لا يصح أن تنصرف وقت الغداء ، امكث لتتغدى معنا .

فقال وهو يدور ويتجه نحو الباب :

ــــ فى الأفراح إن شاء الله .

ولم تلح عليه ، كانت تخشى ألا يصادف بقاؤه هوى فى نفس الباشا ، فقالت فى تخاذل :

ــــ يحتفل الباشا اليوم بعودة رفعة الباشا إلى الحكم ، ابق معنا .

فقال وهو يخرج من الباب :

ــــ عامر . دائما عامر .

وقالت فى راحة :

ــــ نراك بخير إن شاء الله .

فقال فى صوت وصل خافتا إلى مسامعها :

ــــ وأنتم بخير .

وراح يبتعد وهى ترمقه وبين ضلوعها نشوة وسعادة وطمأنينة وسلام وأمل ودفء ، فقد كانت تؤمن بكل جوارحها أنها قد وضعت بذلك المبلغ الذى تصدقت به على فقراء مكة والمدينة أساس قصرها الشامخ فى الجنة !

١٦

كانت الوليمة قاصرة على الباشا وزوجته وحلمى وعبد الخالق وبثينة وعثمان ، وقد غابت عنها إلهام فقد أصرت على العودة إلى القاهرة بعد أن تلقت من بدر الدين رسالته التى هزتها ، وجعلتها تغيب عن كل ما حولها لتفنى فى دنيا حبيب الفؤاد ، إنها لم تصارح بثينة بما بيتت عليه عزمها ، بل تعللت بالشوق إلى أهلها وفتور الغارات ، وألحت بثينة عليها لتبقى ، ولم توافق على سفرها إلا لما مكرت بها إلهام وأفهمتها أنها ستسافر مع حلمى فى سيارته ، وأنها قد رتبت ذلك معه .

حسبت بثينة أن كثرة التقاء حلمى بإلهام أثمرت الثمرة التى ترجوها ، بدأت

تجذب قلبه إلى قلبها ، وأن كثرة العيون والرقباء لم تتح لهما بث لواعج النفس وتباريح الغرام ، فدبرا أمر تلك السفرة ، ولكن إذا كان الحب قد ربط بين أختها وحلمى ، فلماذا لم تزف إليه إلهام الخبر وهى تعلم أن ذلك غاية أمانيها ؟ إن إلهام معتزة بنفسها ، لا تحب أن تتحدث عن شىء لم يتبلور بعد ويسفر عن حقيقة ، خشية جرح كبريائها إذا قدر لذلك الشىء ألا يكون ، ولكن لا بأس ، يكفى أنها أصبحت تسير على الدرب الذى رسمته بثينة .

وراحت بثينة تؤازر حلمى ، وتفكر معه فى الأسباب التى ينتحلها كلما أراد أن يسافر إلى القاهرة ، ويبيت بها ، وكانت واثقة فى قرارة نفسها من أنه يقابل إلهام ، فإنها تستطيع أن تقرأ سطور الحب المكتوبة فى عينيه عقب عودته إلى العزبة ، فعين المحب خائنة ، تثرثر دواما بما فى السرائر .

كانت تحدثه تلميحا عن حبه المترقرق فى وجهه ، المتألق فى بسمته ، المتحدث فى لفتته ، المشع فى نفسه رقة وحنانا ، وكان يبتسم فى رضا ، لا ينكر حبه وإن حرص على عدم كشف الستار عنه ، وكادت أكثر من مرة تسأله عن إلهام ، وعن أخبارها معه ، ولكنها كانت تكبت رغبتها الملحة ، فمن الأكرم لها ولأختها أن يفصح هو عن هيامه دون أن يدفع إلى ذلك دفعا .

التقوا حول المائدة وقد ارتدوا ثيابهم كاملة ، لم يشفع لهم أنهم فى العزبة ليتحللوا من قواعد اللياقة الصارمة التى لا يتساهل فيها الباشا أبدا ، كان عبد الخالق يرتدى بذلته وطربوشه ، وعثمان فى أناقته الريفية ، وحلمى عارى الرأس ولكنه يرتدى بذلة أنيقة ، وكرفاتة سولكا ، لا تقل فخامة عن الكرافاتة التى تزين صدر الباشا .

وصمم حلمى على أن ينتهز فرصة عودة الوفد إلى الحكم ليسافر إلى القاهرة ليقابل إيفا ويقضى بين أحضانها ليلة ، فقال :

— سأسافر بعد الغداء لأهنئ رفعة الباشا ..

وكان عبد الخالق يمقت وجود الوفد فى الحكم ، فذلك يزيد الباشا غطرسة

وعجرفة ، فقال وهو يتعمد جرح إحساسات أبيه :

ـــ الأمر لا يحتاج إلى تهنئة بل تعزية .

فقال الباشا فى تحد :

ـــ لماذا ؟

وشعر عبد الخالق أن معركة ستنشب بينه وبين أبيه ، وأنه قادر على أن ينتصر فى هذه المعركة ، فرحب بها ، فقلما نازل أباه فى معركة وانتصر عليه ، قال :

ـــ سيكون ٤ فبراير يوما أسود فى تاريخ الوفد ، فقد عاد إلى الحكم على دبابات الإنجليز .

فقال الباشا منفعلا :

ـــ رفعة الباشا بقبوله تأليف الوزارة أنقذ العرش .

فقال عبد الخالق فى زراية :

ـــ رفعة الباشا المطالب باستقلال البلاد ، يعترف بتدخل الإنجليز فى شئوننا الداخلية ، ويتلقى أمر تعيينه من سير مايلز لامبسون .

فقال عثمان وهو يتطلع إلى الباشا بين وقت وآخر ، كأنما يقول له انظر إننى أؤيدك :

ـــ فضحك عبد الخالق فى استخفاف وقال :

ـــ وقد أيد احتجاجه بالصورة التى ظهرت له ولرفعة الهانم وللسير مايلز لامبسون وقد وضع السير ذراعا فى ذراع الباشا والأخرى فى يد الهانم !

وشاءت بثينة أن تعلن للباشا أنها فى صفه ، فقالت :

ـــ انتقم الرجل لإقالته التى لم يكن لها ما يبررها .

وقال حلمى ليرضى أباه :

ـــ لو قبل تشكيل وزارة ائتلافية ، هل كان موضوع التدخل البريطانى أثير ؟

لا أظن ، كان جميع الزعماء الساخطين الآن يمجدون وطنية رفعة الباشا .

وقال الباشا فى حماسة :

— كان الملك فى مجالسه يتحدث عن هزيمة الإنجليز فى شماتة ، وكان رجاله يتصلون بالألمان سرا ، إننا فى زمن حرب لا يحتمل فيه مثل ذلك العبث ، فكان لا بد من أن يضع الإنجليز حدا لهذا ليحموا ظهورهم ، فزحفوا إلى القصر بدباباتهم ، وكادوا يطيحون بالملك .

فقال عبد الخالق :

— ولماذا أرغموا الملك على تكليف عدوهم اللدود المطالب بجلائهم عن البلاد بتأليف الوزارة ، فى البلد كلاب كثيرون غيره مستعدون لإعطائهم أكثر مما ينتظر أن يفرط فيه الوطنى الكبير !

فقال عثمان :

— لأن رفعة الباشا ديمقراطى والإنجليز يدافعون عن الديمقراطية .

ولم يعجب ذلك الرد حلمى ، فقال :

— لأن رفعة الباشا هو الذى وقع معهم معاهدة ٣٦ وهو أقدر الزعماء على تنفيذها .

فقال عبد الخالق :

— جميع الزعماء اشتركوا فى توقيع معاهدة ٣٦ .

فقالت أمينة هانم فى بساطة :

— رفعة الباشا لا يشك فى وطنيته أبدا ، أنا أثق فيه ثقة مطلقة .

ورمقتها بثينة دون أن تنبس بكلمة ، وإن راودتها أمنية كسر رأسها ورؤية ما يجرى فيه من خواطر وأفكار ، إنها مقتنعة أنها داهية ، وأنها الوحيدة التى تنقض غزلها ، وإن تظاهرت بالسذاجة والبساطة ، إنها نار تسرى فى الهشيم .

وقال الباشا شارحا الموقف :

— طلب رفعة الباشا بالذات لأنه زعيم الشعب . الذى يثق فيه الشعب ،

والذى يسلس له قياده ، فهو وحده القادر على إدخال الطمأنينة فى القلوب ، وتهدئة الجبهة الداخلية ، فيتفرغ الإنجليز للحرب وهم مطمئنون .

فقال عبد الخالق وهو يلوى شفته فى سخرية :

— وهل هذه هى الوطنية ، إن كان ذلك صحيحا ؟

فقال حلمى :

— إذا لم تكن هذه وطنية ، فماذا تكون ؟

وجبن عبد الخالق عن أن ينطق الكلمة التى تتراقص على لسانه ، خشى ثورة أبيه العارمة ، فقال :

— تكون ما يقوله المعارضون .

وثار أبوه وقال :

— كل ما تقوله المعارضة افتراء وكذب .

فقال عبد الخالق ، دون أن يرفع عينيه عن الطبق الذى أمامه :

— وكل ما يقال للناس بعيد عن الحقيقة .

وأراد عثمان أن يحرج عبد الخالق ، فقال له :

— فما هى الحقيقة إذن ؟

وكان عبد الخالق يستدرجهم ليسألوه عن ذلك ، فاعتدل وقال :

— الحقيقة هى أن أزمة الخبز استفحلت ، اختفى الخبز من الأسواق ، فتذمر الناس ، وانصب غضبهم على الإنجليز ، وكان الموقف ينذر بالانفجار ، ولو اندلعت الثورة فى الداخل ، لأصبح موقف الإنجليز فى الميدان حرجا ، ولازداد سوءا ، فرأوا إحداث أزمة فى الداخل ليشغلوا الشعب بها عنهم ، وكان لهم ما أرادوه .

كان عثمان يتمنى أن تدوم هذه الأزمة إلى بعد ترك الباشا العزبة ، فهو لن يطيق المكث بها واجتماعات الحزب على قدم وساق ، آه لو كانت قد استمرت بعد سفر الباشا لجنى أرباحا يسيل لها لعاب طمعه ، فقال فى مرارة :

— لقد قضى رفعة الباشا على أزمة الخبز فى يوم وليلة .

فقال عبد الخالق فى استخفاف :

— هل أفهم من ذلك أن رفعة الباشا استورد القمح اللازم للبلاد ؟!

فقال حلمى فى بساطة :

— فتح الإنجليز مخازنهم وأخرجوا كل ما فيها من غلال .

فقال عبد الخالق :

— ولماذا لم يفعلوا ذلك مع حسين سرى باشا ؟

فقال الباشا :

— لأنهم لا يثقون فيه .

فقال عبد الخالق ساخرا :

— الحمد لله الذى جعل رفعة الباشا موضع ثقة الإنجليز .

فقالت أمينة هانم فى سذاجة :

— من العجيب أن يكون القمح فى مخازنهم ويتركوا الشعب يموت جوعا .

فقال عبد الخالق :

— من العجب ألا يفعلوا ذلك ، ضنوا بالغلال ليحرجوا الملك والوزارة ، ولما جاءوا برفعة الباشا فتحوا له مخازنهم ، ليزيدوا هوة الفرقة اتساعا .

فقال حلمى وهو ينظر إلى أخيه فى استخفاف :

— وكيف كان ذلك ؟

قال عبد الخالق :

— أعطوا رفعة الباشا ما ضنوا به على من قبله ، ليلبسوا رفعته ثوب البطولة ، ولتتاح الفرصة للهتّافة أن يهتفوا ، وللنافخين فى أبواق الدعاية أن ينفخوا ، وللطبل والزمر والرقص أن يبلغ مداه ومنتهاه ، وبذلك ننشغل بالتهريج وبخصوماتنا عن عدونا الحقيقى الذى يترنح أمام عدوه الذى يكيل له الضربات .

وضاق صدر الباشا بكلام عبد الخالق ، فقال له :

ـــ وماذا كنت تريد من رفعة الباشا أن يفعل ؟

فقال عبد الخالق :

ـــ أن يرفض تكليف الإنجليز له بتأليف الوزارة .

فقال عثمان فى فزع :

ـــ ويسمح بخلع الملك ؟

ـــ لو وقف الزعماء كلهم فى جانبه لما استطاعوا أن يخلعوه .

فقال حلمى :

ـــ لو وقف الشعب والزعماء معه لخلعوه ، إنهم مسلحون ... فى حرب .. ونحن عزل من السلاح ، ما كانوا يترددون فى ضربنا وإعادة فرض الحماية علينا لو أحسوا بوادر الثورة .

فقال عبد الخالق :

ـــ لم نسمع ولم نقرأ أن دولة نالت استقلالها بالمفاوضات ، كانت فرصة نادرة ضيعها رفعة الباشا .

فقال الباشا فى حنق :

ـــ كنت تريد أن تحارب الإنجليز ؟! فالح .

وكأنما أراد أن يخرسه فقال :

ـــ وقد ظهر فلاحك فى شئونك كلها ، فى صفقاتك التى تقوم بها فى أرباحك العظيمة التى تجنيها ، فى نجاحك المطرد المرموق !

وتهللت أسارير عثمان ، أثلجت صدره اللطمات التى وجهها الأب لابنه وصمت حلمى ولم ينبس بكلمة ، وإن استشعر أسى ، فلم تعجبه الطريقة التى أنهى بها الباشا المناقشة ، وكانت بثينة راضية كل الرضا ، فصمود زوجها لأبيه يمدها بأمل قدرته على الوقوف فى وجهه إذا ما تأزمت الأمور ، ولم تكن قد تأزمت بعد بالنسبة لها ، كانت لا تزال تأمل فى الباشا وفى حلمى ، أما أمينة هانم

فلا أمل فيها ، كل ما ترجوه أن تسكت عنها .

ورأت أن توجه الحديث وجهة أخرى ، فقالت :

ـــ أرجوك يا حلمي أن تمر على قبل سفرك لأعطيك رسالة لإلهام .

والتفت الباشا إلى عثمان وقال :

ـــ سنعود إلى القاهرة غدا إن شاء الله .

وساد الصمت برهة ، شغلوا بأفكارهم عن كل ما حولهم ، الباشا يفكر فى الحزب واجتماعاته ونفوذه الذى عاد إليه ، ويمنى النفس بمقابلة أنهار ، فقد أرسل إليها ما كان يرسله لجمعية الفتيات الصالحات ، ولكن من أرسله عاد إليه يخبره أن أنهار وفتياتها الصالحات قد هاجرن إلى القاهرة بعد تلك الغارة العنيفة التى تعرضت لها الإسكندرية ، وحلمى يفكر فى إيفا والأعذار الجديدة التى سينتحلها ليغيب عن البيت فى القاهرة ، وراودته فكرة أن يتعلل بالسفر إلى العزبة ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، فالقاهرة تحلو له لما يكون أهله فى القاهرة ، ولولا ظهور إيفا فى حياته ، لما قبل أن يظل تحت الولاية حتى الساعة ، فإنه لشىء جميل أن يحس المرء أصالته واستقلاله .

وراح عبد الخالق يمضغ مرارة كلمات أبيه مع الطعام الذى يلوكه ، فالباشا يعيره دائما بخسائره ويقسو عليه كأنما يتلذذ بهذه القسوة ، إنه لم يكن يكره الباشا ، ولكن الباشا يلقى فى صدره بذور المقت ، ويخصب لها الأرض بأفعاله ، وإنه ليحس أنها بدأت تمد جذورها فى أعماقه .

وأخذت بثينة تفكر فى حلمى وفى إلهام وفى الأرض الخضراء التى تنبت الخير التى ستصبح فى حوزتها بعد زواج حلمى وإلهام ، واستراحت لأوهامها فراحت تهتف فى أعماقها فى حماسة : « حقا من يزرع يحصد » .

وجعل عثمان يفكر فى الفرصة الذهبية التى لم يستطع أن يستغلها كل الاستغلال لوجود الباشا فى العزبة ، فرصة أزمة الخبز ، وراح يعزى نفسه بأن هذه الأزمة إذا كانت قد مرت دون أن يستفيد منها ، فما أكثر الأزمات القادمة

التى سيجنى من ورائها أرباحا تمكنه من توسيع رقعة أرضه .

وكانت أمينة هانم تفكر فى فقراء مكة والمدينة والمائة جنيه التى دفعتها ، وقصرها الذى ستشيده فى الجنة .

١٧

وقفت إيفا أمام المرآة تصلح زينتها ، كانت ترتدى ثوبا بسيطا أحمر يكشف عن صدرها وذراعيها وقد حسر عن ساقيها ، وكان البشر يتألق فى وجهها ، وعيناها الساحرتان تشعان فرحة ورضا ونشوة وسلاما ، فقد كانت تهيم فى عالم وردى من الرؤى العذاب التى تنسكب فى سريرتها ، فتدغدغ حواسها ، وتجعلها تذوب فى دنيا السعادة الشفافة الرقراقة التى تخدر المشاعر خدرا يسرى فى الروح كوقع أول قبلة على شفاه عذراء .

وأضاءت النور الأحمر الخافت ، ومالت على السرير تبسط ثنيات المفرش الحريرى فى رقة وحنان وحب ، فقد كانت تقبل على كل ما تفعله منشرحة الصدر ، تستشعر تعاطفا بينها وبين كل الأشياء . وتناولت قارورة العطر وراحت تضغط على منفاخها المطاط وهى تسرى فى الغرفة رشيقة كالطيف ، فتعبق الحجرة بالعطر الفواح .

وانسلت من الغرفة ، وأغلقت الباب خلفها هونا ، وفاضت سعادتها فأخذت تترنم بأغنية عاطفية تصف سعادة المحبين ، وقد ترنمت بها مرارا فى بلادها ، وفى أثناء هيامها على وجهها بعد أن اجتاح النازى التيرول الحبيب ، وكانت تحس حرقة فى حلقها وهى ترددها وغالبا ما كانت تطفر الدموع من عينيها ، أما ما تحسه فى هذه اللحظة فهو شيء آخر يختلف عن كل ما أحسته من قبل ، شيء آخر لذيذ يتغلغل فى الأعماق ليفجر كنوز المشاعر الدافئة النابضة بالأمل وحلاوة الحياة .

وراحت تعد السفرة ، كانت تتكون من نضد صغير وكرسيين من الخيزران ، ولكنها كانت فى عينيها أجمل مائدة فى الوجود ، أجمل من كل قاعات الطعام التى شاهدتها فى الفنادق الفخمة التى عملت بها ، فقد كانت تلك القاعات الواسعة الفسيحة كمتاهات تبعث فى النفس رهبة وقلقا وانقباضا ، أما نضدها فيتنفس بالذكريات ، إنه قطعة من سويداء قلبها ، تحبه وتستشعر تعاطفا معه وانجذابا إليه ، وولعها به يفوق حبها لكثير ممن تدفعها ضرورات الحياة إلى أن يرتبط بينها وبينهم الأسباب . ووضعت قدحين وزجاجتى بيرة وصحفة من بلور بها جذاذات من خضر وجزر أصفر وشرائح من الطماطم وزينتها بخسة زرعتها فى الصحفة . كانت تهفو إلى البيرة والخمر لتفر من نفسها ، وتقضى على القلق الموار فى جوفها ، وتحرك النشوة الغافلة تحت وطأة حياتها ، وتفتعل السعادة الشاردة من دنياها ، ولكنها أمست تتناولها لتنعم بحقيقة جديدة تكشفت لها ، أزاح الستر عنها حبها الصادق المتغلغل فى حشاياها ، حقيقة فيضان النشوة الطبيعية على كل نشوة مفتعلة حتى تغمرها ، فالنشوة المخلوقة من قبلة الحبيب تبخر أعتى نشوة تولدها أعتق الخمور ، وشتان بين النشوتين : إحداهما باقية تتغلغل فى الأعماق ، وتكتنز فى الحنايا ، ويزكو عبيرها على مر الزمن ، والثانية سرعان ما تتلاشى ، مخلفة الصداع والألم ودق القواديم فى الرءوس .

واتجهت إلى الراديو وأدارت مفتاحه ، فسرت موسيقى حالمة تعاونها على الهيام فى عالم وردى رقراق تنتعش فيه الرؤى العذاب المجنحة ، كانت فرحتها مزغردة فى ضميرها ، لا لأن حلمى سيزورها الليلة وحسب ، فيما طالما زارها وأسعدها ، بل لأنه سيزورها لأول مرة بعد ذلك الإحساس الجديد كل الجدة ، العظيم غاية العظمة الذى غرسه فيها ، والذى بدأت تحس نبضه فى حشاياها .

إنها تحب حلمى من أعماقها ، كل خلجة من خلجات نفسها تترنم بذلك

الحب وتسبح له ، فهو الندى الذى فتح ورود مشاعرها ، وهو البلبل الصداح الذى شدا بالحياة فى روضة نفسها المهجورة ، وهو اللمسة السحرية التى بدلتها تبديلا ، فحولت قلقها سلاما ، وخوفها أمنا ، وكفرها إيمانا ، إنه مفجر الخير فيها وموقظ أنبل أحاسيسها ، وإن ذلك العالم الأخير الذى أخذ بيدها إليه لهو العالم الذى بهرت لذته كل عوالم اللذة التى عبرتها معه فى سفينة غرامه المفعمة باللذات .

كانت تخشى الفناء ، ترتجف هولا إذا ما طافت بذهنها فكرة أنها ستصبح ذات يوم عدما ، هى وذلك التراب الذى تدوس عليه سواء بسواء ، ولكنها بعد ذلك الكشف الجديد غشيتها طمأنينة عجيبة ، فلن تفنى أبدا ، وستستمر حياتها ويتجدد شبابها ، فقد وهبها حلمى الخلود والحياة الأبدية .

وراحت تقلب وجهها فى جنتها ، فتنزل السكينة فى قلبها وتغشاها طمأنينة ، وتفكر فى كل هذه السعادة التى تكتنفها فتنبثق من أعماقها مشاعر حنان دافق ، وتقع عيناها على صورته فتنجذب إليها وتقف أمامها خاشعة برهة ، ثم تقلبها فى حرارة استجابة لتلك العواطف الجياشة التى فاض بها فؤادها .

ودق جرس الباب فى رفق ، فخفت تفتحه خافقة القلب ، ورأته أمامها يبتسم فأشرق قلبها بالنور ، وسار إلى جوارها يقبلها ، ورأى المائدة نسقت فى روعة ، وأحس روحا جديدا يسرى فى العش الجميل ، كانت تتألق دائما فى تنسيق مسكنها ، ولكن الجو الذى هيأته الليلة يفيض رقة وعذوبة ، ويوحى بأنها تحتفل بمناسبة سعيدة ، فنظر فى عينيها طويلا ثم قال :

— هل اليوم عيد ميلادك ؟

فقالت وقد توجت شفتيها بسمة :

— اليوم أسعد أيام حياتى .

وشرد بصره قليلا ثم قال :

ـــ احتفلنا بمرور سنة على تعارفنا منذ تسعة أشهر فقط ، ولم يحن بعد موعد احتفالنا بمرور عامين ، فلماذا نحتفل الليلة ؟

فقالت فى صوت منهدج مشحون بالفخر والسرور :

ـــ نحتفل بثمرة حبنا .

فرمقها مذهولا وقال :

ـــ ثمرة حبنا ؟!

وتعلقت بعنقه وراحت تقبله فى حرارة وهى تقول مزهوة :

ـــ سأصبح أما .. سأصبح أما .

ونظرت إلى حلمى فى وجد وعيناها تشعان حبا وهياما ، وقالت فى رقة ساحرة :

ـــ وأنت يا طفلى الكبير ستصبح أبا .

وراحت تلعقه بعيونها وموسيقى ملائكية تسكب أعذب الألحان فى أعماقها والكون يغنى لها ، وأحست رغبة فى أن تتحدث ، أن تعبر عن الفرحة المعربدة فى جنبات صدرها ، فأخذت تقول وهى ترنو إليه مأخوذة :

ـــ إن ذلك الشيء الذى فى أحشائى عجيب ، فجر فى نفسى ينابيع هائلة من الحب ، ينابيع غنية بالحنان ، لم أتذوق لها طعما من قبل ، أليس مما يدعو للعجب أن تحب شيئا قبل أن تراه ، إننى أحب ذلك الشيء الذى فى بطنى حبا عميقا جارفا ، استولى على كل عواطفى ، إننى لو خيرت بين أن أضحى به أو أضحى بنفسى لما ترددت ، أصبح هو أولا وبعده كل شيء .

وصمتت قليلا ، وجعلت تمرغ وجهها فى صدره فى وله ، ثم أسندت جبهتها بجبهته ، ونظرت فى عينيه اللتين أخذ القلق يترجح فيهما وقالت :

ـــ أنت حبى الأول ، وهو حبى الأخير ، إننى لن أنسى ما حييت أنك الذى أدخلتنى هذا العالم الساحر الجميل ، وأنك الذى فجرت فى سريرتى كل هذه الينابيع الغنية بأرق العواطف وأطهر الأحاسيس ، كنت قبل أن ألقاك لا أعرف

إلا القلق والعذاب والخوف من المجهول الذى كنت أتصوره غولا فاغرا لى فاه ليبتلعنى ، ولكن بعد أن عرفتك انبثقت كنوز نفسى التى بهرتنى مفعمة بألوان عجيبة من الحب ما كنت أتصور أن لمثلها وجودا ، ومن أين للمحروم أن يعرف طعم الطيبات التى يزخر بها الوجود ؟!

وجعل يرمقها وهو صامت ، ويمرر يده على شعرها فى فتور ، وإن كان فى نفسه يعجب من الفرحة الطاغية التى استولت عليها ، إنه يحس خوفا يزحف فى جوفه وينتشر فى جنباته ، فقال فى صوت خافت :

ــ ألست خائفة ؟

فقالت وهى تبتسم فى اطمئنان :

ــ خائفة ؟! لم يراودنى هذا الشعور لحظة ، إننى لم أعرف سكينة النفس وطمأنينة الوجدان من قبل كما أشعر بها الآن ، كنت أختزن فى نفسى الذكريات العذاب لأجد فيها متنفسا لحبى إذا ما قسا الزمان يوما وحرمنى الحبيب ، ولكن ذلك الذى فى أحشائى سأغمره بكل طاقات حبى ، سأضمه إلى صدرى لأستشعر أننى لست وحدى ، إننى أشكر لك ما صنعته من أعماق لأنك وهبتنى هذه النعمة ، ولن أسمح لنفسى مهما أسأت إلى أن تغضب أو حتى تفكر فى عتابك ، لأنك أب لولدى ، ولأنك الذى جعلت منى أما تسعد بكل ما فى الأمومة من جمال .

وراحت تقبله وتتحسس ذقنه فى حنان ، ونبت فى رأسها فكرة أشرق لها وجهها ، وكانت سعادتها فوارة ، فعجزت عن أن تحتفظ بها فى ضميرها ، فقالت وهى ترنو إليه فى هيام :

ــ رائع أن يكون لى ولد منك ، وأن يكون جده باشا .

وراحت تغنى له أغنية الفالس التى يحبها : « أقبل يدك يا سيدتى وأتمنى لو كانت شفتيك ؟

I kiss your hand, Madam, I wish it was your lips.

وربت مخاوف حلمى لما صكت لفظة « الباشا » أذنيه ، وتقاصرت نفسه ، وازدحمت رأسه بأفكار بغيضة زعزعت أمنه ، أنه لا يدرى ماذا يقول للباشا لو انكشف أمره ، وهو لا بد أن ينكشف يوما ، فما يستطيع أن يخفى ولده إلى الأبد عن أعين الناس .

ولده ؟ إن هذا لم يخطر له قط على بال ، ما كان يتصور أن يكون له ولد وهو فى هذه السن ، وممن ؟ من إيفا الفتاة النمساوية الطريدة التى ألقت بها المقادير فى طريقه .

إنه لا يريد ذلك الشىء البغيض الذى تدعوه ولده ، ينبغى أن يتخلص منه ، ولكن كيف وهو ليس بين أحشائه ولكنه بين أحشائها ، لا بد أن توافق هى على ذلك الخلاص ، وما يحسب أنه قادر على إقناعها بهذا الرأى وهى على ما هى عليه من فرحة بذلك الحدث الجديد الذى هزه هزات عنيفة قاسية .

عليه أن يتريث وأن يستعين بالصبر والدهاء حتى ينفذ إلى هدفه ، ويتخلص من ذلك الشىء الذى يهدده بالعار ، وراح يجاريها فى عواطفها وقد غفت كل مشاعره ، إلا أحاسيس الألم والقلق والرهبة فقد أخذت تتضخم وتتضخم حتى ابتلعته .

١٨

كانوا فى غرفة الاستقبال يتسامرون ، عبد الخالق يتحدث إلى الأستاذ عن الموسيقى ويعلق على آخر ألحانه وأغانيه ، وجلست قبالتهما سيدة متأنقة ، تحاول أن تبدو شابة وإن كانت إلى الشيخوخة تسير ، إنها صاحبة فرقة مسرحية وممثلتها الأولى وإلى جوارها مرسى يسر فى أذنها حديثا تنبسط له أسارير السيدة ، كان يحدثها عن فتاة جميلة فى السابعة عشرة قبلت أن تذهب إلى شقته فى شارع سليمان باشا لتقابل الممثلة الكبيرة التى تقدرها وتعجب بها .

ومرسى شاب أسمر ، له أنف كبير ، وعينان مضعضعتان ، تنم كل حركة من حركاته عن ضعة أصله .. إنه يعمل فى مسرح السيدة . لم يظهر على خشبة المسرح ، ولم يواجه الجمهور ، ولكنه هو الذى يرفع الستار لتبدأ المسرحية ، وهو الذى يسدلها لينهى بعض الفصول ، ثم ينزلها على الفصل الأخير .

كانت هذه مهنته العلنية ، وكانت مهنته المستورة لا تختلف كثيرا عما اعتاد أن يقوم به فى المسرح ، إنه صاحب شقة فاخرة فى سليمان باشا ، كلها غرف نوم ، ودوره فيها أن يفتح الباب لرجل وامرأة وأن يغلقه خلفهما ، لا يشاهد المسرحية ولا يشترك فيها ، وقد يسرت له شقته وكتمانه وحفظه للأسرار اندماجه فى الطبقات الموسرة التى تقدر خدماته الجليلة !

ودخلت بثينة الغرفة وهى تبتسم ، وألقت على الموجودين نظرة ، وهمت بأن تعود من حيث جاءت . ولكن الأستاذ قال وهو يتململ :

ـــ جعنا .

فقالت بثينة :

ـــ أنا جاهزة ، ولكن رفعت لم يأت بعد .

فقال مرسى فى لهجة بلدية :

ـــ كان ابن الكلب أول قادم ، فما الذى أخره الليلة ؟

فقال عبد الخالق وهو يبتسم :

ـــ تكلم فى التليفون وقال إنه قادم ومعه هدية يسيل لها لعابكم ، وطلب أن يترك وسط المائدة لهديته .

وقالت بثينة وهى تضحك :

ـــ إنه لم يطلب ، ولكنه أمر ، وقد وضعت فى وسط المائدة صفحة كبيرة فارغة من الفضة .

فقال الأستاذ وهو يضحك :

— هل تنتظرون أن يحضر رفعت ديكا روميا !

فقالت الممثلة الكبيرة وهى تضحك :

— ومن أين لهذا الشحاذ بمثل هذه الهدايا ؟ إنه لو بيع كله لما اشترى بثمنه ديك رومى .

وضحك الأستاذ وقال :

— الاختلاسات هى مودة هذه السنة ، أخشى أن يكون رفعت قد صادق صراف وزارته وأغراه على أن يختلسا معا مال الدولة . رفعت يعملها .. ساه .. ثعبان ...

فقال مرسى :

— لو فعلها ابن الكلب وانكشف أمره لجرجرنا كلنا إلى المحاكم .

فقالت بثينة مدافعة عنه :

— رفعت لا يسرق أبدا .. إنه ابن حلال مصفى .

فقالت الممثلة الكبيرة :

— وهل يسرق إلا أولاد الحلال ؟

وضحك الجميع ، كانوا يضحكون مجاملة لكل ما تقول ، وقال عبد الخالق :

— رفعت رجل الملمات . يعرف من أين تأتى الخمور .

وضايق مرسى أن يكون هناك آخر ينافسه فى منطقة نفوذه ، فقال لعبد الخالق :

— لو أمرتنا لوجدتنا فى الخدمة .

فقال الأستاذ وهو يضحك :

— فرق كبير يا سيد مرسى بين من ينتظر حتى يؤمر ، وبين من يتطوع للخدمة من نفسه .

فقالت الممثلة الكبيرة وفى صوتها رنة ساخرة :

— مرسى رجل خدوم ، والرجال قليل .

فقال عبد الخالق وهو يضحك :

— على قفا من يشيل يا ست .

فقال الأستاذ وهو ينظر إلى الممثلة الكبيرة بنظرة ذات معنى :

— الست يا ما شالت .

ولم تغضب الممثلة الكبيرة ، وقالت فى حسرة :

— الله يرحم زمان ، النفس انقطع ، والمزاج انحرف .

ودارت بثينة على عقبيها وسارت بضع خطوات ، والممثلة الكبيرة تتفرس فى ظهرها فى إعجاب واشتهاء ثم قالت :

— لم تخطر يا بثينة على المسرح امرأة ألبتة فى مثل جمالك .. لو قبلت أن تعملى معى لأعطيتك .. ثم ضحكت قائلة :

— ماذا سأعطيك وقد أعطاك الله كل ما تشتهين !

فقال مرسى وقد قرأ الرغبة المشتعلة فى عينى الممثلة الكبيرة :

— ستمنحينها الشهرة وذيوع الصيت .

وكانت بثينة قد وقفت وراحت تنظر إليه من فوق كتفها دون أن تستدير ، فزاد ذلك فى فتنة ظهرها ، وتطلعت الممثلة الكبيرة إليه وقالت :

— لقد سمعت ما قال ، فما رأيك ؟

فقالت بثينة وهى تبتسم :

— موافقة .

والتفتت الممثلة الكبيرة إلى عبد الخالق وقالت :

— وما رأيك أنت ؟

فقال عبد الخالق وهو يضحك فى سخرية :

— يفتح الله .

وقال الأستاذ فى حماس :

— والله لو قبلت بثينة أن تمثل لأسندت إليها دور البطولة فى فيلمى القادم ، الدور كله إغراء وأنوثة دافئة .

فقالت الممثلة الكبيرة :

— الدور لا يليق بها .

فقال الأستاذ فى دهش :

— لماذا ؟

فقالت الممثلة الكبيرة :

— لأن أية فتاة تستطيع أن تمثل الأنوثة الدافئة ، أما بثينة فأنوثتها طاغية ، إنها لهيب نار .

وقالت بثينة فى انشراح :

— بدأ رأسى يدور .

وسمع صوت رفعت آت من بعيد ، فقال مرسى :

— جاء ابن الكلب أخيرا .

وقال الأستاذ وهو ينهض :

— هيا ، لقد كدنا نموت جوعا .

ودخل رفعت وتحت إبطه لفافة زينت بشريط أحمر ، وألقى التحية على الموجودين وهو مشرق الوجه ، وساروا جميعا إلى المائدة وهم يتحدثون ويضحكون ، ورفعت ينظر إلى بثينة نظرات كلها اشتهاء .

ووضع اللفافة فى الصحفة الفضية وفضها فى حرص شديد ، فإذا بها مكعب من الخبز « الفينو » فصاح الجميع فى فرح :

— خبز أبيض !

وقال مرسى .

— والله لقد نسيت أن فى الدنيا خبزا أبيض .

وراح رفعت يقطع الخبز بالسكين وهو يحس زهوا ، ويقول :

— كنت أستطيع أن أبدل هذا بزجاجة ويسكى .

فقالت الممثلة الكبيرة :

— الويسكى موجود ، أما هذا الخبز فقد نسيناه ، إنه أندر من الشرف فى هذه الأيام .

فقال عبد الخالق :

— ومن أين جئت به ؟

فقال رفعت وهو يبتسم فى ظفر :

— من مخازن الإنجليز .

فقالت بثينة وهى تنظر إليه فى إعجاب :

— اشتريته من هناك ؟

فقال رفعت وهو يبتسم :

— اشتريته ممن سرقه من هناك .

فقال مرسى فى أنفة :

— أنأكل حراما ؟

ونظرت إليه الممثلة نظرة تصيح به قائلة : « يا منافق ، يا بن الكلب » .

وقال رفعت وهو يوزع الخبز على الصحاب ، كما يوزع صنفا نادرا :

— أفتى بعض رجال الدين أن سرقة الإنجليز حلال وأموالهم غنيمة للمسلمين .

فقال عبد الخالق :

— أموالهم فقط ؟

فقالت الممثلة الكبيرة :

— الباقى لا يحتاج إلى فتوى .

ونظر الأستاذ إلى الخبز الأبيض الموضوع أمامه وراح يغنى :

— أبيض ملك روحى ، يا حبيبى تعال .. تعال بالعجل .

وقالت الممثلة الكبيرة وهى تتمايل :

— بالعجل .

وضحكت ضحكة مجلجلة ، ومالت على بثينة وطوقتها بذراعيها ثم قبلتها ، ورفعت ينظر إليها فى غيظ وحسد .

١٩

عكف عبد الخالق يدرس الرسائل التى تسلمها من البنوك ويراجع حساباته فينقبض ويسرى الحزن فى أرجائه ، إنه على شفا الإفلاس ما لم يتداركه الباشا ويرخى قبضته القوية التى أمسك بها رقبته ، إنه يخنقه فى قسوة ليزهق روحه .

وأقبلت بثينه تمشى هونا ، وجاءت من خلفه ، ولفت ذراعيها البضتين حول عنقه ومالت علية فغاص رأسه فى صدرها ، وطبعت على خده قبلة ، فلم تنبسط أساريره بل ظل فى شروده ، ونظرت إليه فقرأت الحزن فى عينه ، فدارت حتى أصبحت أمامه ، وقالت له فى حنان :

— ما بك ؟

فقال فى ثورة :

— لماذا يضطهدنى الباشا ؟ لماذا يحاول تحطيمى ولا يمد إلىّ يده ، الأن أمى قد ماتت ! إننى ابنه مثل حلمى سواء بسواء ، فلماذا يغدق على حلمى ويقتر على ، اشترى لحلمى سيارة ، ملأ جيبه بالنقود ، أرخى له الحبل على غاربه ، كل ما يقوله خفيف على قلبه ، كل ما يطلبه مجاب ، أما أنا فقد طردنى من إدارة أملاكه ، ادعى أننى أسرقه ، أنا أسرقه وعثمان أمين على ماله ، ذهبت إليه أكثر من مرة أقول له إننى فى مأزق فلم يرق لى قلبه ، كأننى لست من لحمه ودمه ، ويا ليته كان يعتذر إلىّ بالتى هى أحسن ، بل كنت فى كل مرة أخرج من عنده وأنا ألعق جروح نفسى ، ألم أنقاض كرامتى المحطمة .

فقالت بثينة :

ـــ العيب ليس عيب الباشا ، امرأته هي سبب كل هذا ، لأنها لا تحبنا أبدا ، لا تطيق أن ترانا وإن تظاهرت أمامنا أنها ساذجة . وإن بالغت فى إظهار حبها لنا ، امرأة كهينة .. داهية .. تقتل القتيل وتمشي فى جنازته ، أمنيتى فى الدنيا أن أكسر رأسها وأرى ما فيه .

ونهض عبد الخالق كالمحموم ، وقال فى انفعال :

ـــ العيب على الرجل الذى ينقاد للمرأة ، كيف يسمح لها أن توغر صدره علىّ ، أن تبذر الكراهية فى صدورنا . كنت أحب ذلك الرجل كما يحب كل ابن أباه ، ولكن طول جفاه ، وقسوته المريرة فى معاملتى ، والنظر إلىّ كأننى قذى فى عينيه ، أماتت كل مشاعرى الطيبة نحوه ، وجعلتها تتعفن وتجرى فى دمائى كالصديد ، لقد تقيحت نفسي وأصبحت أمقته بكل جوارحي .

ما من مرة طلبت منه عونا إلا ثار فى وجهى واتهمنى بأننى أتمنى موته ، إننى أريد أن أرثه ، لقد اقشعر بدنى أول مرة لما رمانى بذلك الكلام المقيت ، كدت أموت من فرط حساسيتى من ذلك الاتهام الجائر البغيض ، ولكن لما كثر ترديده على مسامعى تبدلت مشاعرى ، وألفته ، بل أصبحت ارتاح إليه وأتمنى أن يكون ، ليته يموت ، ليتنى أقرأ فى الصحف نعيه ، ليتنى أتلقى العزاء فيه .

واحتقن وجهه ، وبلغ انفعاله منتهاه ، فخفت إليه بثينة وضمته فى حنان ، وقالت له فى رقة وتوسل .

ـــ اهدأ ، اهدأ ، ماذا ستأخذ إذا انفجر لك شريان ، أو سقطت فريسة المرض !

وراحت تربت على خده وتمرر يدها على شعره ، وهو يغمغم :

ـــ هذا الرجل سيقضى علىّ .. سيجهز علىّ .. سيفترسنى .

وسارا معا حتى إذا بلغا مقعدا طويلا أجلسته وهى حريصة على راحته ، وأخذ يمرر يده على وجهه كأنما يمسح من رأسه رؤى مفزعة ، ووضعت أمامه

نضدا صغيرا ، ثم غادرت الغرفة ، وما لبثت أن عادت وفى يدها زجاجة خمر وفى الأخرى كأس ، ووضعت الكأس على النضد وصبت فيها مما فى الزجاجة ، ثم وضعت الزجاجة إلى جوار الكأس .

ومد يده وتناول الكأس وراح يغيب ما بها فى جوفه وهو عابس ، كأنما كان يتجرع دواء ، وجلست بالقرب منه ترقبه وهو يشرب كأسا إثر أخرى .

وجاءت خادم وطرقت الباب فى رقة ، وقالت بثينة :

ـــ ادخلى .

وتقدمت الخادم خطوات وقالت :

ـــ إلهام هانم هنا .

ونهضت بثينة ، ومررت يدها على ثوبها تصلح ثنياته ، ثم مررتها على شعرها ، وغادرت الغرفة منطلقة إلى غرفة الاستقبال .

وتعانقت الأختان ، وقالت بثينة :

ـــ ما كل هذه الغيبة ، أسبوعان مرا منذ آخر مرة سمعنا حسك فيها .

فقالت إلهام فى هدوء :

ـــ كنت مشغولة فى ...

وصمتت قليلا ، ثم قالت وهى تنظر فى عينى أختها :

ـــ فى إعداد ثوب الخطبة .

فقالت بثينة فى إنكار :

ـــ الخطبة ؟ أية خطبة ؟

ـــ عرض علىّ بدر الدين الزواج فوافقت ، واشترينا معا الشبكة وحددنا يوم الأحد القادم لإعلان خطبتنا .

فقالت بثينة فى غضب :

ـــ كل هذا دون علمى ؟ دون علم الكلبة .

فقالت إلهام فى صوت متهدج :

— قلت لك يا أختى أكثر من مرة : إننى أحب بدر الدين ، وكنت أنتظر منك أن تباركى هذا الحب ، ولكنك كنت دائما تعارضين وتهددين و ...

وقال بثينة فى انفعال :

— كيف تريدين منى أن أوافق على زواج غير متكافئ ؟

فقالت إلهام فى حرارة :

— بدر الدين ابن خالى ، وهو مهندس كفء لى ، بل أكثر من كفء ، ومن البطر أن أرفض . هذا إذا لم يكن قلبى قد خفق بحبه . ولكننى أهواه .. أحبه .. أتمنى أن أمضى العمر كله إلى جواره .

فقالت بثينة فى سخرية ومرارة :

— خادمة .

فقالت إلهام فى حماسة :

— وهل يعيبنى أن أخدم زوجى ؟ إنه لمن دواعى سرورى أن أكون له خادمة .

— ولماذا كل هذه اللهفة ؟!

فقالت إلهام فى تحد :

— وماذا أنتظر ؟ أنتظر الأوهام التى تعيشين فيها ؟

وضايق بثينة تجريح أختها لها ، فقالت :

— أوهام ؟! لولا الظروف القاسية التى مرت بنا لكنت الآن فى بيت حلمى ، وستكونين له يوم الأحد ، قبل يوم خطبتك .

فقالت إلهام وهى تبتسم فى سخرية :

— والله لو تقدم إلى الساعة ، لما ترددت لحظة فى رفضه .

— ولماذا ؟

— لأنه ليس الطراز الذى يستهوينى ، أحب أن أثق فى زوجى . أطمئن إليه إذا ما سافر أو غاب عن البيت ، أما حلمى فلن تطمئن له زوجة تعرف ماضيه .

فقالت بثينة فى إنكار :

ـــ ماضيه ؟ وما هو ماضيه ؟

ـــ سيكون حاضره الآن ماضيه ، كل البلد يتحدث عن الفتاة النمساوية التى يعيش معها .

ـــ إذا كان هذا صحيحا فلا عيب فيه ، إنه طيش الشباب ، وسيهجر كل ذلك بعد الزواج .

فقالت إلهام فى حرارة :

ـــ الفاسد قبل الزواج فاسد بعده ، ما يفعله حلمى الآن ليس طيش الشباب ، إنه فساد وإصرار عليه ، ولن يسلوه إذا تزوج ، أغفر للشباب نزوات شبابه ، أما احتراف الدعارة فهو شائن لا يغتفر ، إنه كالمرأة التى تحترف الدعارة عن رغبة واشتهاء ، لا أمل فى توبتها .

فقالت بثينة فى ضيق :

ـــ أفسدت تفكيرك الروايات التى تقرئينها ، جعلتك بعيدة عن واقع الحياة ، تعيشين فى عالم من الأوهام ، الخبرة لا تكتسب من الكتب بل من ممارسة التجارب ، أنا أكثر منك معرفة بالحياة ، أقول لك إن حلمى سيكون زوجا من أفضل الأزواج .

فقالت إلهام فى إيمان :

ـــ إذا لم تكن لى تجارب بعد كتجاربك ، فبصيرتى تؤكد لى أننى وحلمى لن نتفق أبدا إذا كان لنا أن نعيش معا ، حتى إذا لم يكن قلبى قد خفق بحب بدر الدين ، إننى لن أقبل بديلا بمن نبض بحبه الفؤاد .

ـــ ماذا عليك لو تريثت قليلا ؟

ـــ ليس هناك ما يدعو للتريث . حددنا لإعلان الخطبة يوم الأحد ولن نؤخرها عن ذلك اليوم مهما حدث .

فشردت بثينة قليلا ، ثم قالت :

ـــ أى بعد خمسة أيام . ما أكثر ما يمكن أن يحدث فى هذه الأيام الخمسة .

وراحت تنظر إلى إلهام وهى ساهمة ، لا تعى مما تقول شيئا ، كانت تفكر فى حلمى والفتاة التمساوية التى يعاشرها ، والطريقة التى تنفذ بها إلى إثارة موضوع زواجه ، وقررت أخيرا أن تذهب إليه وتحدثه عن الفتاة التمساوية صراحة ، إنها إذا ما ولجت باب هذا الموضوع فستشق طريقها إلى أهدافها ، وبعدها ستفعل كل شىء لتحطيم معارضة أختها ، ولن تحجم عن معاملتها فى قسوة ، إذا ما اضطرتها إلهام إلى ذلك ، فأبغض ما تبغضه أن يقف أحد فى طريق رغبتها .

٢٠

كانت بثينة تتحدث إلى أمينة هانم حديثا كله ود وتملق ، وكانت إلهام تصغى إليها مسرورة ، وسألت بثينة عن حلمى ، فقالت لها الهانم إنه فى غرفته لم يخرج بعد ، فقالت بثينة إنه قد مضت مدة طويلة لم تره فيها ، وإنها ذاهبة إليه لتراه قبل أن تنصرف .

واتجهت إلى غرفته وهى تفكر فى الطريقة التى تفتح بها موضوع الفتاة التمساوية ، فرأت أن تشير إلى الفتاة عرضا فإذا ما راغ من الخوض فى الحديث ، حامت حوله فى لباقة ، وألقت إليه بطرفه وهى تغريه بأن يجذبه ، ولن يستطيع أن يروغ منها طويلا .

ودخلت عليه وحيته ، وقبل أن تجلس ، باغتته قائلة :

ـــ وكيف حال فتاتك التمساوية ؟

وامتقع لون حلمى ، واضطرب قليلا ، ولكنه لم يحاول أن يفر من الحديث ، بل أحس راحة لإتاحة الفرصة لينفس عن متاعبه ، التى ضاق بها صدره ، فقال فى صوت خافت :

ـــ وما أدراك بها ؟!

ـــ ذاع فى كل الأوساط خبر معاشرتك لها .

فقال فى أسى :

ـــ هذا أمر لا يمكن أن يختفى طويلا .

فقالت وهى تحس سرورا ، فما كانت تحسب أن الأمر سيكون بمثل هذه السهولة :

ـــ وما هى نهاية هذه العلاقة ؟

ـــ ستنتهى يوما .

ـــ ولماذا لا تعجل بقطعها قبل أن تتعقد الأمور ؟

فقال وهو يشرد ببصره :

ـــ لا أحسب أنها ستتعقد أكثر مما تعقدت . إننى لا أدرى يا بثينة ماذا أفعل ؟

فقالت فى اهتمام :

ـــ قل لى كل ما حدث لنتعاون معا على إيجاد حل لمشكلتك .

فقال وهو مطرق :

ـــ لقد حملت الفتاة .

فقالت بثينة فى فزع :

ـــ حملت ؟!

وأطرقت قليلا ، وسرعان ما رفعت رأسها وقالت فى تصميم :

ـــ لا بد أن تجهض .

فقال حلمى فى يأس :

ـــ حاولت كثيرا دون جدوى ، إنها تصر على الاحتفاظ بما فى بطنها .

فقالت بثينة فى حيرة :

ـــ إما أنها مجنونة ، وإما أنها تريد أن تبتز أموالك .

ـــ إننى لا أدرى ماذا أفعل .

— لا بد أن تتخلص منها .

— كيف ؟

— اهجرها .

— وهل هجرها يضع حدا لهذه المأساة ؟ إن ذلك الذى ستضعه سيكون ابنى .

— انكره .

— إن أنكرته بلسانى ، فلن أستطيع أن أنكره بقلبى ، سأظل مرتبطا بها ما دامت على مقربة منى .

فأطرقت بثينة قليلا ثم قالت :

— نعوضها بعض المال ونطلب منها أن تغادر البلاد .

فقال فى ضيق :

— ليس معى ما أدفعه لها

فقالت وعلى شفتيها بسمة فوز :

— نأخذ من الباشا .

فقال فى فزع :

— لن يعرف الباشا شيئا من هذا .

وتسللت إلى رأسها كتسلل الضوء فكرة أن الباشا سيصبح أسير معروفها إذا ما علم بما فعله ابنه ، وبما ستفعله لإنقاذه ، وأن هذه الزلة ستحطم كبرياءهما ، وستجعل أمر موافقتهما على زواج حلمى من إلهام سهلا ، لذلك عزمت فى نفسها على إشراك الباشا فى المشكلة فقالت :

— لا بد أن يعرف الباشا .

فقال فى خوف :

— مستحيل .

فقالت فى توسل :

— من الأفضل أن يعرف الخبر منا من أن يسمعه من غيرنا مبالغا فيه .

فقال حلمى وقد اتسعت عيناه وانبهرت أنفاسه :

— ومن يفضى إليه بالنبأ ؟

— أنت ..

— لا . لا .. لا أستطيع . إننى أجبن من أن أحدثه فى هذا .

فقالت والنشوة تزغرد فى جنباتها :

— إذن أخبره أنا .

وتحركت بثينة وانهار حلمى فى مقعده زائغ البصر ، يكاد قلبه ينخلع من الرهبة .

ودخلت على الباشا ، وسلمت ثم قالت وقد أسبلت جفنيها على عينيها الخضراوين :

— جئت يا باشا أحدثك فى موضوع يحتاج إلى سعة أفق ورحابة صدر . إنه شائك ولا بد من معالجته .

ونظرت إليه من بين أهدابها لترى وقع كلماتها فى وجهه ، فلما لاح عليه الاهتمام ، أحست راحة ، وقال وهو يراقبها مفتوح العينين :

— خيرا ؟

وسرها لعبها به لعب القط بالفأر قبل أن يلتهمه ، فقالت :

— الأمر يتعلق بحلمى .

وزحف فى مقعده حتى جلس على حافته ، وقال :

— قولى .. ماذا حدث ؟

واستمرت فى عبثها به ، فراحت تقول فى هدوء :

— تعلم يا باشا أن الشباب أرعن ، وأن الشبان غالبا ما يتورطون فى علاقات غرامية .

فقال الباشا فى ضيق :

— هل لحلمى علاقة بامرأة ؟

ولاح فى وجهه الغضب ، ولم يكن سبب غضبه أن ابنه انزلق ، ولكنه غضب لموقفه المشين هذا الذى يقفه أمام بثينة ، وقالت فى نبرة فيها شماتة :

— إنه يعاشر فتاة نمساوية .

فقال فى حنق :

— يعاشر فتاة نمساوية ؟! ومن ذا الذى قال لك ؟

فلم تأبه لحنقه . بل قالت فى صوت خافت :

— وقد حملت منه .

فهب الباشا كليث جريح وراح يزأر :

— هذا جنون ، حلمى يفعل هذا ؟! أين المجرم ؟ الكلب ...

فقالت بثينة فى برود :

— لن تجدى الثورة فتيلا ، وقع المحظور ، علينا أن نفكر فى طريقة نتخلص بها من العار الذى يتربص بنا .

فقال الباشا وقد احتقن وجهه بالدم :

— وماذا تريدننى أن أفعل ؟

فقالت لتذله :

— أن تذهب إليها تفاوضها على ترك البلاد لقاء مبلغ من المال .

وأحس أن كبرياءه طعنت ، وأنه يتمرغ فى الوحل ، فقال :

— أنا أذهب برجلى إلى بيت عاهرة ؟! هذا لن يكون أبدا .

فقالت لتزيد فى تعذيبه :

— أتسكت حتى يذاع الخبر فى طول البلاد وعرضها ؟ من مصلحتنا أن نئد هذا الذى حدث قبل أن تفوح رائحته .

فقال الباشا مهزوما :

— مستعد أن أعوضها عما جرى ، أما أن أذهب إليها فهذا مستحيل .

فقالت بثينة وفى صدرها بسمة لم ترتسم على شفتيها :

ـــ أذهب أنا إليها .

ـــ أنت ؟

فقالت فى ثقة :

ـــ أعتقد أن المرأة أقدر على التفاهم مع المرأة فى مثل هذه الأمور .

وأحس كأن حملا انزاح عن صدره ، فقال فى عتاب :

ـــ لماذا فعل المجنون هذا ؟ لماذا يا حلمى تلطخنا بالعار ؟!

فقالت بثينة لتصل إلى هدفها :

ـــ كان علينا أن نزوجه بعد تخرجه فى الجامعة .

فقال الباشا وكأنما يعتذر لنفسه عن ذلك التقصير :

ـــ كنا فى العزبة فرارا من الغارات ومن الموت المحلق فوق رءوسنا ، لم تتح الفرصة لنا لنفكر فى زواجه ، هل كانت هناك فرصة ؟!

ـــ زواجه يا باشا لا يحتاج إلى تفكير طويل .

ـــ كيف لا يحتاج إلى تفكير ؟ اختيار الفتاة اللائقة به يحتاج إلى رؤية .

وأرادت أن تذكره بأختها ، فقالت وهى تنهض :

ـــ إلهام فى انتظارى ، أرجو أن تسمح لى .

فقال الباشا وهو ينهض :

ـــ لم تأخذى المبلغ الذى ستدفعينه لها . كم تريدين ؟

فشردت بثينة قليلا ثم قالت :

ـــ خمسمائة جنيه .

فقال الباشا فى إنكار :

ـــ أليس كثيرا ؟

فقالت بثينة فى شماتة :

ـــ ليس كثيرا لتربيةِ طفل مدى الحياة .

وهمت بأن تقول : « إنه لا يليق بحفيد الباشا » ولكنها كبحت جماح لسانها ، وقال الباشا فى تسليم :

ـــ لك ما تريدين .

وأحست بثينة انشراحا ، فخطتها تنفذ فى يسر عجيب ، أفضى حلمى بسره دون أن يحاول أن يروغ ، كأنه كان فى انتظار من يشاركه فى حمل همومه ، وانهارت كبرياء الباشا . ونبهت إلى ضرورة تزويج حلمى ، وذكرت إلهام متعمدة لتذكر الباشا بها وتقول له تلميحا إنها كفء له وأن الأمر لا يحتاج إلى طول تفكير ، كل ذلك جميل ، وأجمل منه أن تتم خطبة حلمى لإلهام قبل يوم الأحد الذى حددته إلهام العنيدة لإعلان خطبتها لبدر الدين ، وإن كل المقدمات لتوحى بأن أمنيتها الحبيبة وشيكة التحقيق .

٢١

دخل الباشا على زوجه وهو مطرق يفكر فيما دار بينه وبين بثينة ، ويعجب للهزيمة التى دبت فى قلبه سريعا عقب أن أفضت إليه بما بين ابنه وخليلته النمساوية ، لقد تعطل تفكيره حتى إنه لم يسألها عن اسمها ولم يصر على معرفة مصدر هذه الأنباء ، ترى ماذا يكون موقفه لو أنكر حلمى كل هذه القصة ؟

وهل سيكاشف ابنه ما علم ؟ وهل لو كاشفه يستطيع أن يكبح جماح عواطفه ويحدثه فى هدوء كما يفعل كلما ثارت بينهما مناقشة سياسية ؟ دماؤه الحارة المتدفقة فى شرايينه تؤكد له أنه سيثور ، وأن مرجل غضبه سينفجر ، وأن السباب سيتدفق من فمه دون إرادة ، فما فعله حلمى لا يمكن السكوت عنه .

وإذا ثار وسب وهدد وتوعد ، ألا يثير ذلك الفضيحة التى يتوقاها ؟ ستصل ثورته إلى مسامع الخدم ، وما هى إلا لحظات حتى يطير الخبر وينتشر

أسرع من الريح ، وإذا لزم الصمت ولم يحرك ساكنا ، ألا ينزله ذلك فى عين ابنه درجات ؟ سيستهين بأمره وستتلاشى هيبته ، إنه يحب ابنه ويحب فى نفس الوقت أن تظل مهابته كوالد ، لذلك عزم على أن يقابل ابنه متجهم الوجه ، وأن يحدثه عن فضيحته تلميحا ثم يغلق فمه ، وسيخلع صمته قلب ابنه ويجعله يعيش فى قلق ، وإن ذلك القلق سيكون أقسى من الزجر والصياح والفضيحة .

وبثينة ، هل تمسك لسانها ؟ إنها إن أخفت السر عن الناس جميعا فلن تخفيه عن زوجها ، ولن يسكت عبد الخالق عن ضعف أخيه ، سيوسع الأرض إذاعة ، وسيتندر فى مجالسه بما كان فى مجالس الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات ، والأخبار تنتشر عن طريقهم كالطاعون .

ولماذا لم يقع أحد على هذه الفضيحة غير بثينة ! المعارف كثيرون ، ورواة الأخبار أكثر من الهم على القلب ، لو أن عثمان هو الذى عرف السر لهان الأمر ، فبطن عثمان كله أسرار ، وما تفوه يوما بما أؤتمن عليه ، فمن خصال الرجل الحميدة أنه كتوم .

وطافت به موجة من الشك فراح يتساءل : ما أدرانى أن بثينة صادقة فيما زعمت ؟! لعلها كذبت لتحتال علىّ . ولكن لا — بثينة لا تجرؤ على اختلاق مثل هذا الاتهام المهين ، لو لم تكن واثقة لما جسرت على أن تواجهنى بالأمر فى ثبات ورباطة جأش ، بل فى شماتة وسرور .

وأمه هل يفضى إليها بالخبر ؟ وما جدوى ذلك ؟ إنه فى حاجة إلى من يشاركه فى ضيقه وإلى من يحادثه لينفس عن صدره ، ويستنير برأيه ، ولكنه يعرف أن زوجه لا ينتظر منها رأى صائب ، كل حسناتها أنها راضية عن كل ما يفعله ، وأنها تعتبره سيدها الذى عليه أن يشير وعليها أن تلبى إشارته دون تدبير أو تفكير .

ولاحظت الزوجة سهوم زوجها وصمته ، فقالت له :

ـــ ما الذى يشغل بالك ؟

فقال وهو شارد :

ـــ كنت أفكر فى حلمى .. فى موضوع زواجه .

فقالت منشرحة الصدر ، متهللة الأسارير :

ـــ والله فكرت بالأمس فى أن أفاتحك فى هذا الموضوع .

وقال الباشا كأنما يناجى نفسه :

ـــ صدق عثمان ، لو كان لرفعة الباشا ابنة لما تحيرت فى الفتاة التى أختارها له ، ولكن رفعة الباشا لا ابنة له ولا ولد .

وقالت الزوجة :

ـــ ما الذى يحيرك ؟

فقال وهو يقدح زناد فكره :

ـــ الفتاة التى تليق بحلمى .

فقالت أمينة فى حذر :

ـــ إلهام جميلة وطيبة .

وصمت الباشا ولم يحر جوابا ، وظنت أن صمته علامة الرضا فشجعها ذلك على أن تسترسل فى حديثها :

ـــ وإلهام منا ، إنها أخت بثينة ، ولن تكون غريبة عنا ، وأظن أن حلمى سيرحب بالزواج منها .

فقال الباشا وهو غارق فى تفكيره :

ـــ لا . لا .

فقالت أمينة هانم فى تخاذل :

ـــ وما عيب إلهام ؟

فقال الباشا وهو يشرد ببصره :

ـــ أريد لحلمى زوجة يشرفنى أبوها إذا ما وقف إلى جوارى فى المناسبات ،

ابنة باشا له وزنه فى الحياة الاجتماعية .

وصمتت أمينة هانم ، إنه قد قرر وهو يعرف طريقه ، فما عليها إلا أن ترقبه صامتة حتى إذا ما انتهى إلى رأى باركته وأيدته فى حماس .

وراح الباشا يغدو ويروح فى الغرفة وهو يتمتم :

ــ محفوظ باشا له ابنة جميلة .. وعبد الستار باشا له ابنة ظريفة .. الفتاتان تصلحان لحلمى ، ولكن محفوظ باشا ألمع من عبد الستار باشا .. المستقبل له .

وظل مطرقا يعقد المقارنات التى يعقدها دائما قبل أن يقبل على تنفيذ صفقة وأسفرت مقارناته على أن ابنة محفوظ باشا أربح فقال ليسمع زوجته قراره :

ــ ابنة محفوظ باشا رقيقة وخفيفة الظل وجميلة ، إنها أصلح ما تكون لحلمى .

قرر عقد الصفقة ، فكان على الجميع أن يحترموا قراره ، لأن نجاحه فى كل صفقة تجارية عقدها جعل قراراته قدسية ، لا يجرؤ أحد على أن ينقدها أو أن يأخذها بحذر ، فلم يخطر على بال أمينة هانم أن تقترح أخذ رأى حلمى ، بل قالت فى غبطة :

ــ سميرة بنت محفوظ باشا طيبة وبنت حلال .

وصمتت ، فقد كان هذا هو كل ما يمكن أن تعلق به على فتاة ستصبح زوجة ابنها الحبيب ، إنه ابن باشا وسيتزوج من ابنة باشا ، وهى شابة وهو شاب ، وهذا كله يكفى لقيام زيجة سعيدة .

وراح الباشا يرسم خطوط المستقبل ، قال فى زهو :

ــ سيحضر رفعة الباشا عقد القران ، وسيقوم بالعقد الشيخ الأكبر وسيدعى إلى الحفل الشيوخ والنواب وعلية القوم وزهرات المجتمع .. سيكون زفاف الموسم بلا مراء .

ووسوس فى أذنيه صوت بغيض :

ــ والغارات ؟!

فراح يطرد ذلك الوسواس ويؤكد لنفسه أنه يستطيع أن يقيم الحفل داخل السراى ، وأن يسدل الستائر فتحجب النور المتلألئ عن أن يتسرب إلى الخارج .

وغرق فى النشوة حتى كاد ينسى فعلة حلمى البغيضة .

ودخل حلمى وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، مطرق الرأس ، فى وجهه قلق وانكسار ، فقد استقر رأيه على أن مواجهة الموقف خير من انتظاره ، وأن مقابلته لأبيه أمام أمه خير من مقابلة أبيه على انفراد ، فهو لن يواجه ثورة الباشا وحده .

ورماه الباشا بنظرة يتطاير منها الشرر ، ارتجفت لها أوصاله ، ومرت لحظة من الصمت كانت أقسى على نفس حلمى من وقع السياط وقال الباشا فى غضب :

ـــ قالت لى بثينة كل شىء عن عبثك ، ما كنت أحسب أبدا أنك تفعل ما فعلت .

وتخاذل حلمى وأحس إعياء ، وتأكد الأب من أن بثينة لم تختلق قصة الخليلة النمساوية ، وكان هذا كل ما يريد أن يعرفه ، فغادر الغرفة وهو مقطب الجبين ، باسر الوجه ، فقد احتشد الغضب فى عينيه .

ووقف حلمى برهة وهو صامت ، يمضغ قلقه ويحس الهوان الذى غمره ، وجعلت الأم تنقل بصرها بين الأب المنسحب من الغرفة ، والابن المطرق فى خزى وانكسار ، ولم تفقه مما وقع أمام عينيها شيئا ، وقامت الأم إلى ابنها وقالت وهى تنظر إليه فى إشفاق :

ـــ ماذا جرى ؟

فقال حلمى فى ضعف :

ـــ لا شىء .

وراح يلم شعث نفسه التى طارت شعاعا ، وبدأ يفرخ روعه ، وقالت

الأم :

ــ كان الباشا منشرحا قبل أن تدخل ، كان يحدثنى عن زواجك ويقول لى : إنه وقع اختياره على سميرة بنت محفوظ باشا لتكون زوجة لك ، كان مسرورا حتى إذا ما دخلت اكفهر وجهه وغضب ، فما الذى بينك وبينه ؟

وفطن حلمى إلى أن أباه لم يتحدث مع أمه عن علاقته بإيفا ، وأنه يريد أن يستر الأمر ويدرأ الفضيحة ، وأنه يفكر فى زواجه ليقيده بمسئوليات تنأى به عن مواطن الزلل ، فاستراح إلى تصرف أبيه ، وراح فكره يعمل سريعا ليبرر ذلك النفور الذى بدا من الباشا نحوه قال :

ــ كنت فى حاجة إلى نقود وقد طلبت من بثينة أن تشرح له ظروفى .

فقالت الأم فى إنكار :

ــ بثينة ؟ ولماذا توسط بثينة بينك وبين أبيك ؟ وأين أنا ؟ لا يا حلمى أنت مخطئ وللباشا كل الحق أن يغضب منك .

فقال وهو ينظر بعيدا :

ــ أنا آسف .

ولم تحتمل أن تراه حزينا ، فطوقته بذراعيها وقالت :

ــ لا عليك ، ما أسرع أن ينقشع غضب الباشا ، الباشا طيب القلب ، لو رأيته وهو يتحدث فى حماس عن زواجك للمست مقدار محبته لك .

ونظرت إليه مليا ، ثم قالت فى نشوة :

ــ ستتزوج بسميرة بنت محفوظ باشا . مبارك . هذا يوم المنى .

ومالت عليه وقبلته قبلة أودعتها كل ما فى قلبها من حب وحنان ، وترقرقت دمعة فى عينيها فمسحتها بظهر يدها وقالت فى صوت كله رقة :

ــ أصبحت أعز أمانى أن أحمل ابنك على ذراعى كما حملتك من قبل .

وأطرق حلمى ساهما ، وسرت فى بدنه رعدة خفيفة ، فقد احتلت صفحة ذهنه صورة إيفا التى ستضع له ولدا كتب عليه ألا يراه .

٢٢

كانت إيفا ترتدى ثوبا منزليا بسيطا ، وكانت مضطجعة فى كرسى طويل تغنى أغنية عذبة تتحدث عن جمال الأمومة ، وكانت غارقة فى غيبوبة من النشوة المنبعثة من مشاعرها الحالمة المحلقة فى دنيا مشرقة بالآمال .

ماتت مخاوفها ، وانقشع ذلك القلق الممض الذى ظل يحوم حولها وينغص عيشها سنوات طوالا ، ونسيت تشريدها وعرفت الاستقرار والثقة فى المستقبل .

كانت إذا ما غنت تلون صوتها بالحزن الدفين ، ونم عن النفس المضطربة والروح الحائرة الهائمة فى دياجير الظلام ، ولكن أغانيها اليوم زاخرة بالرقة جياشة بالعواطف الطيبة المنبعثة من نفس مطمئنة ، راضية كل الرضى بالشاطئ الذى دفعها إليه تيار الحياة .

ودق الجرس ، فقامت فى تراخ ، وانطلقت وهى تردد أغنيتها التى تحس وقعها عذبا فى فؤادها . فتحت الباب فألفت أمامها سيدة أنيقة ، شعرها أسود وعيناها خضراوان ، ممتلئة قليلا ، كلها حيوية وشباب ، وظلت إيفا ترمقها فى إنكار ثم قالت بالفرنسية :

— نعم :

فابتسمت السيدة قائلة :

— أنا بثينة زوجة أخى حلمى

ففسحت إيفا الطريق وقالت فى ترحيب :

— تفضلى .

وسارتا إلى أقرب مقعدين ، وجلست بثينة ، وأخذت إيفا تمرر يدها على ثوبها وتقول :

ـــ آسفة . لم أكن أنتظر أن يزورنى أحد فى هذه الساعة .

فقالت بثينة وهى تتفرس فى وجهها :

ـــ أنت رائعة هكذا .

وكانت بثينة صادقة ، أعجبت بجمالها ولمست جاذبية روحها ، وقالت إيفا وهى تبتسم فى رضا :

ـــ متشكرة .

وجلست إيفا فى هدوء ، لم تكن توجس خيفة من هذه الزيارة ، وراحت تنظر إلى بثينة كأنما تلتمس منها أن تبدأ الحديث الذى تحب أن تتجاذب أطرافه ، واعتدلت بثينة وقالت فى هدوء :

ـــ آسفة أن أقول لك إن زيارتى هذه ليست ودية .

واضطربت إيفا ، وامتقع لونها ، وقالت فى قلق :

ـــ ليست ودية ؟! لماذا ؟ .

ـــ كلفت أن أحمل إليك رسالة قاسية .

فقال إيفا فى انفعال :

ـــ ممن ؟

ـــ من حلمى ومن الباشا .

واشتد وجيب قلب إيفا ، وعادت المشاعر البغيضة التى جلت عن صدرها وجنباتها تزحف إلى مواقعها ، وتضيق أنفاسها ، وقالت وقد ذهبت نفسها شعاعا :

ـــ وما هى الرسالة ؟

فقالت بثينة دون أن تختلج عيناها :

ـــ بقاؤك هنا أصبح غير مرغوب فيه ، ينبغى أن ترحلى عن البلاد .

وأحست إيفا خنجرا مسموما يدفن فى صدرها ، فقالت فى أنين :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن الباشا علم بما بينك وبين ابنه .

ـــ وهل علم بما فى بطنى ؟

ـــ نعم .

ـــ ومع ذلك يرى طردى ؟

ـــ هذا هو أس طلب رحيلك .

ـــ هذه قسوة . فظاعة . بشاعة ، لا . لا . لن أرحل من هنا أبدا ، هذه قسوة ..

فقالت بثينة فى بساطة :

ـــ أعرف .

فقالت إيفا فى قوة ، مدافعة عن كيانها :

ـــ لن أرحل أبدا .. لن أرحل أبدا ، إذا كان حلمى قد غسل يده منى فهو حر ، وإن كان ذلك يحز فى نفسى ، ويمزق قلبى . أحببته حبا صادقا ، وهبته كل شىء عن طواعية وأنا قريرة العين ، وإن من يهب لا يطلب لهبته ثمنا ، فإذا كان يريد أن يهرب من تبعاته ، فأنا لست حاقدة عليه ولست نادمة على ما كان ، سيظل أبدا الرجل الذى كشف كنوز نفسى ، وعلمنى كيف أتذوق الحياة ، فإذا كان قد سئمنى فلا يحاول تحطيمى ، وليدعنى وليمض فى طريقه ، وأقسم لكم بحبى أننى لن أحاول أن ألقاه أو أعترض سبيله .

فقالت بثينة فى رقة ، كأنما ترد على مجاملة :

ـــ آسفة أن أقول لك إن بقاءك هنا أصبح مستحيلا .

فقالت إيفا فى ثورة :

ـــ إنكم لا تتصورون مدى بشاعة ما تطلبونه منى فى بساطة ، هل سبق لك أن همت على وجهك بلا وطن ولا أهل ولا صديق ولا مأوى ؟ هل ذقت الحرمان وزمهرير الشتاء فى الخلاء ، ولفح الهجير ؟ هل صوبت إليك عيون الشك والريبة والعيون الجائعة التى تحس نفسك أمامها عارية تماما بلا شىء

يسترك أو يحميك ؟ هل قاسيت مضايقات السكارى وتحاميت قبلات المخمورين ؟

بقاؤك هنا أصبح مستحيلا ! يا للبشاعة ! أين أذهب ووطنى يئن تحت أقدام النازى ، وأهلى لا أدرى إن كانوا فى الجبال يهيمون ، أو فى أغلال السجون يرسفون ، والحبيب الصديق الذى قادنى إلى الجنة تنكر لى ، والعش الجميل النابض بأرق الذكريات على أن أهجره ؟ ويا ليتنى كنت وحدى ، ولكن هذا الذى فى بطنى ما ذنبه ؟ ما الذى جناه ليتغذى بالألم والمرارة وقسوة الحرمان ؟ بشع .. بشع هذا الذى تطلبين . لن أرحل . لن أرحل أبدا مهما كانت الظروف .

وأخرجت بثينة ورقة من ذات المائة الجنية ووضعتها على نضد قريب ، فقالت إيفا فى غضب :

ـــ لا أريد نقودكم .. ابعدوا عنى .. كل ما أريده أن تبتعدوا وتتركونى فى سلام لا أريد منكم شيئا .. دعونى .. دعونى .

فأخرجت بثينة ورقة ثانية من ذات المائة الجنيه ووضعتها فوق الأولى وهى تقول :

ـــ اسمعى نصيحتى ، من الخير لك أن ترحلى .

فقالت إيفا فى إنكار :

ـــ من الخير لى أن أرحل ؟! وهل هناك أسوأ مما تطلبين منى أن أفعله ؟ إنكم تريدون إخراجى من جنتى وإلقائى فى الجحيم ، كنت أحس اليتم وأنا مع رفاق نضرب فى بيداء الحياة على غير هدى ، نعيش فى تيه من القلق والخوف والفزع ، ولم يكن وجودى مع زملائى يذهب بالوحشة التى كانت قابعة فى كهف نفسى ، فكيف بى وأنا وحدى ، أحمل ذلك البائس الذى فى بطنى ، أصارع بيدى الواهنتين جبروت أيامى الطاغية وليالى الطافحة بالرعب والألم والاضطراب ؟ إنها لقسوة تقشعر منها الأبدان أن يلقى بى فى محيط العالم

المتلاطم الأمواج دون ناصر أو رفيق . أين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟ وكيف أواجه هذه الدنيا وحدى ؟ لا . لن أرحل أبدا ، ولن يستطيع كائن من كان أن يرغمنى على هذا الرحيل .

— ما أيسر طردك من البلاد الآن ، بل الساعة .

فهبت إيفا منتصبة وهى تزمجر :

— من الذى يطردنى ؟

فقالت بثينة فى جبروت :

— مكالمة واحدة من الباشا لوزارة الداخلية تلقى بك خارج الحدود .

فقالت إيفا فى مرارة :

— وماذا يقول الباشا لوزارة الداخلية ؟ أيقول لها إن ابنه قد اعتدى علىّ ، وإنه فعل ما فعل ثم قرر أن يتخلص منى لأنه أجبن من أن يتحمل تبعة تصرفاته ؟!

فقالت بثينة فى حدة :

— يقول إنك جاسوسة .

فقالت إيفا فى دهش :

— جاسوسة ؟!

فقالت بثينة لتدك مقاومتها :

— إنك من النمسا ، من بلاد يحتلها النازى ، وما أيسر توجيه تهمة الجاسوسية إليك .

وانهارت إيفا ، وجلست مطرقة وصدرها يعلو وينخفض فى انفعال ، وقالت وهى تجذب شعرها فى قسوة :

— هذا ظلم . هذا ظلم .

وأخرجت بثينة ورقة من فئة الخمسين جنيها ووضعتها فوق المائتين ، ولم تلحظ إيفا ما فعلت ، كانت مشغولة عن كل ما حولها بالمشاعر القاسية التى

راحت تنهش صدرها وتلسع روحها وتغذيها بالقلق والضنى والعذاب .

وتناولت بثينة الأوراق الثلاث دستها فى يد إيفا ، فأبعدت إيفا يدها فى فزع كأنما قد لسعتها أفعى ، وقالت :

ــ لا . لا أريد مالا .. إن ما أعطيته لا يقدر بمال .

وأجهشت إيفا بالبكاء ، وكان ذلك بمثابة رفع راية التسليم ، فأعادت بثينة الأوراق المالية إليها وهى تقول فى حنان مفتعل :

ــ خذى .. ستحتاجين إلى مال .

إنها لا تستطيع أن تصمد فى وجه هذا الطغيان ، فتضاءلت وأحست مذلة وهوانا ، وراحت مشاعر الهزيمة تهصرها هصرا .

وقامت بثينة ، منتشية بالنصر ، وقالت :

ــ أمامك ثلاثة أيام .

وانسلت بثينة من المكان ، وإيفا مطرقة ، فى وجهها فزع ، وفى قلبها أسى ، وراحت مشاعر القلق والخوف والاضطراب تتدفق فى غزارة فى جوفها حتى أغرقتها ، فجعلت تئن أنين النفس المعذبة المضاربة فى ليل سرمد ليس له نهار

٢٣

أخذت بثينة خمسمائة جنيه من الباشا لتدفعها تعويضا لإيفا ، ولكنها لم تدفع إلا نصف المبلغ ووضعت النصف الآخر فى جيبها دون أن تخبر حتى عبد الخالق ، وقد بررت فعلتها لنفسها بأن ما أخذته إن هو إلا ثمن جهودها !

وأنفقت على حفل ليلة الجمعة بسخاء ، كانت راضية كل الرضا ، فقد غادرت إيفا البلاد ، وقالت لها أمينة هانم : إن خطبة حلمى قد تعلن فى غضون يوم أو يومين ، وقد تحدثت عن إلهام حديثا يقطر رقة وعذوبة . وتمنت لها أطيب الأمانى . ولئن كانت أمينة هانم لم تتحدث عن خطبة حلمى لإلهام

صراحة ، فإنها قد فهمت من حديثها أن الباشا سيمهد لإعلان الخطبة ثم يدعو رفعة الباشا والوزراء وأعيان البلاد .

ولم يقلق بال بثينة اقتراب اليوم الذى حددته إلهام لإعلان خطبتها من بدر الدين ، فما أيسر إلغاء كل ما تم من إجراءات لو أن الباشا فاتحها فى الأمر الليلة أو غدا ، فبدر الدين وإلهام لم يدعوا لشهود الخطبة إلا حفنة صغيرة من أقرب الأقارب .

وراحت تنتقل كالفراشة بين أصدقائها تداعب كلا منهم بكلمة ، أو تصغى إلى ما يهمسون به فى أذنيها ، فقد كانوا غالبا ما يفعلون ذلك للتدليل على مكانتها فى نفوسهم وعلى أنها الأثيرة بأسرارهم ونكاتهم .

وأشارت الممثلة الكبيرة لها بأصبعها فى دلال ، كأنما تقول لها : هاتى أذنك . ومالت بثينة فوقها ، فراحت الممثلة الكبيرة تمرر يدها على فخذها فى رقة ، وتمد عينيها إلى صدرها الشامخ البض الممتلئ فى اشتهاء ، وقالت فى صوت خافت :

— إذا سافر زوجك أو غاب عن البيت أرجو إبلاغى ، فأمنيتى أن أبيت معك ليلة .

وابتسمت بثينة ودفعت الممثلة الكبيرة فى صدرها فى خفة ، وراح رفعت يرقب ما يجرى بينهما فى ضيق ، بينما كان مرسى ينظر منشرح الصدر ، فأعز أمانيه أن تصبح بثينة من رواد شقته .

وانتقلت إلى حيث كان عبد الخالق والأستاذ ووقفت تصغى إلى حديثهما برهة ، كان الأستاذ أقل الأصدقاء مداعبة لها ، بل كان لها منافسا يسره مثلها أن يكون محور حديث الرفاق ، وأن يوجه إليه وحده كل ثناء ، وكان عبد الخالق يكيل المديح كيلا ، ويبذل كل جهد ليرضى غروره . وملأت لهما كأسيهما ثم ذهبت إلى حيث كان رفعت .

ومال رفعت على أذنها وقال وهو يرمز بعينه ناحية الممثلة الكبيرة :

ـــ هل رأيت الخدوش التى فى وجهها ؟

فقالت بثينة وهى تبتسم :

ـــ نعم . لمحتها .

فقال ليثير حب الاستطلاع فى نفسها :

ـــ هل عرفت سببها ؟

فقالت بثينة وهى تدنى أذنها من فمه فى اهتمام :

ـــ لا . قل .

فقال وهو يبتسم فى سخرية :

ـــ نشبت بينها وبين المطربة الكبيرة مشاجرة استعملت فيها الأظافر وخمش الوجوه ، وتقطيع الشعور .

ـــ وما سبب هذه المشاجرة ؟

ـــ تنافسهما على فتاة من الجامعة .

وراح رفعت يقص قصته ويعلق عليها فى إسهاب وبثينة تصغى إليه منتشية ، فأحاديث الجنس تصادف من نفسها هوى ، وكان رفعت يلاحظ البشر المتألق فى وجهها فيتمنى لو أنها تخطو الخطوة الأولى الفاصلة بينه وبينها . تلك الخطوة التى لا يجرؤ على أن يخطوها .

وطفق مرسى يرصد من بعيد ما يجرى بين رفعت وبثينة وهو يرجو أن تقطف ثمرته فى شقته ، لم يكن يهمه أن تأتى بثينة مع الممثلة الكبيرة أو مع رفعت أو مع الأستاذ ، أو أن يأتى عبد الخالق مع من يشاء ، فما كانت الرواية تستحوذ على انتباهه ، وما كان يميز بين ممثل وممثل ، كل ما يهمه أن يرفع الستار أو يسدله ، أن يفتح الباب ثم يغلقه ، وأن يملأ جيبه نقودا .

وجاءت خادم ووقفت بعيدا ، ولمحتها بثينة فخفت إليها تسألها عما تريد ؟ فقالت :

ـــ حلمى بك يطلب حضرتك فى التليفون .

وسرت فى بثينة موجة من الاضطراب اللذيذ ، ها هى ذى خطتها تتحقق أخيرا ، وها هو ذا حلمى بنفسه يطلبها ليقول لها إنه يخطب إلهام ، كانت واثقة أن هذا سيكون ، لم تخامرها ريبة ، ولم يطف بها ظل من شك ، وخفت إلى التليفون مسرورة ، وقالت فى صوت له لون وله طعم :

— ألو .

وإذا بصوت حلمى يمس أذنيها رقيقا زاخرا بالسعادة الفياضة .

— بثينة ؟! مساء الخير .. آسف إذا كنت قد أزعجتك فى هذه الساعة .

فقالت فى انشراح :

— أبدا . إننا لم نتناول عشاءنا بعد . تستطيع أن تأتى وتقضى سهرتك معنا

— شاكر . ولكننى مشغول جدا هذه الأيام . أستعد لإعلان خطبتى

فقالت فى شىء من القلق :

— خطبتك ؟ ممن ؟

فقال فى انفعال :

— من سميرة بنت محفوظ باشا ..

ومادت الأرض تحت قدميها ، أحست كأن الدنيا تقوضت فوق رأسها ، وانفجرت فيها مشاعر الحنق والضيق والغضب حتى كادت تمزق صدرها ، وقبضت يد فولاذية على عنقها حبست صرخات الألم المدوية فى جنباتها ، وتحجرت الدموع فى مقلتيها ، فعصفت بها أحزانها حتى كادت تنوء إعياء . واستمر حلمى فى حديثه وهى تصغى إليه فى ذهول ، فقد كانت تتلقى أنباء فجيعتها فى آمالها ، وقال :

— اتفق أبى مع أبيها ، وسأختار غدا الشبكة ، ولما كنت أثق فى حسن ذوقك فقد رأيت أن أترك لك اختيارها . سأمر عليك غدا فى العاشرة صباحا .

وقالت فى ألم :

— غدا ؟!

فقال فى فرح :

— إلى الغد . أراك بخير .

ووضع سماعة التليفون ، وظلت هى شاردة لا تتحرك ، تتلقى طعنات أفكارها القاسية ، فيا للسخرية ، طردت إيفا من البلاد ليخلو الجو لسميرة . لو كانت تدرى لحرضت إيفا على البقاء ، وأبقتها سلاحا فى يدها تطعن به حلمى والباشا وأمينة هانم ، الأفعى التى تبدى ما لا تبطن . إنها هى التى جعلت حلمى يعرض عن إلهام ، وإنها هى التى لفتت أنظار الباشا وابنه إلى سميرة لتشيح بوجهها عن أصلها وأصل زوجها ، فقلبها يقطر سما وإن أعطت الحلاوة من طرف لسانها .

ويا للسخرية ، لم يجد حلمى من تختار لخطيبته الشبكة إلا هى ، إنها لن تذهب معه ، فما أقسى ذلك على قلبها ، وما الذى يرغمها على الذهاب معه ، ولم يعد هناك موضع لمجاملة ؟ ستعلن الحرب على الباشا وحلمى والثعلبة الماكرة . وأرادت أن تنفس عن الحقد المتلظى فى جوفها ، فوضعت سماعة التليفون ثم رفعتها وأخذت تدير القرص فى انفعال وثورة ، ثم قالت :

— ألو . سميرة هانم موجودة ؟ قولى لها صديقة تريد أن تهنئها بخطبتها .

وانتظرت وهى حانقة ، نار الحقد ترعى فى حشاياها ، ومرارة الهزيمة فى حلقها ، ومشاعرها المتعفنة تمور فى أعماقها ، وفى لحظة واحدة صارت سميرة غريمتها ، كل غايتها أن تعذبها وأن تطعنها ، وإن لم تكن هناك ثمرة من ذلك الاضطهاد .

— ألو .

ومشت فى أوصال بثينة رجفة ، وراحت تقول فى صوت أحست وقعه غريبا فى أذنيها :

— سميرة ؟! أنا صديقة لك . اسمى ؟ لا أهمية له . قد يكون زينب . فتحية . علية . الأسماء كثيرة ، ولكن ما أريد أن أقوله لك لا يعرفه أحد

غيرى ، وقعت عليه مصادفة فرأيت أن من الوفاء أن أبصرك قبل أن تتورطى فيما أنت مقدمة عليه . أعرف أن خطبتك لحلمى بن سليم باشا ستعلن قريبا ، ولكننى أقول لك : إن حلمى هذا ليس أهلا لك ، إنه يعاشر فتاة نمساوية ، وقد حملت منه ، وأنه ..

وأغلق التليفون فى وجهها ، ومع ذلك راحت تقول فى حنق :

ـــ إنه سافل .. سافل .. سافل .

وظلت قابضة على سماعة التليفون وقد بلغ حنقها منتهاه ، كانت غاضبة على نفسها ، لماذا طردت إيفا من البلاد ، لماذا حطمت بيدها سلاحها البتار ؟ وهل كانت تعرف أن حلمى والباشا والساهية الداهية سيلعبون بها ! آه لو كانت تعرف إذن لدبرت أمرها وأحكمت خططها بحيث كان الباشا راكعا على ركبتيه أمامها الساعة ، إنها لن تنسى أبدا ما كان ، ولن يقر لها قرار قبل أن تحطم الباشا وتمرغ أنف حلمى والمرأة الخبيثة فى الرغام .

ووضعت السماعة ورأسها مزدحم بالأفكار ، وصدرها جياش بالانفعالات . ووقفت برهة تجمع شتات نفسها ، وتحاول أن تعيد السكينة إلى قلبها ، وبررت فكرة أن يكون حفل إعلان خطبة إلهام لبدر الدين حفلا رائعا ليفهم الباشا وأهل بيته أن إلهام ليست أقل شأنا من سميرة ، وإن لم يكن أبوها باشا .

وعادت إلى حيث كان الصحاب ، وعلى فمها بسمة مغتصبة ، واتجهت إلى الأستاذ وقالت :

ـــ خطبة إلهام يوم الأحد وستحيى الليلة .

فقال الأستاذ وهو يبتسم :

ـــ أنا فى الخدمة .

والتفتت إلى الآخرين وقالت :

ـــ كلكم مدعوون يوم الأحد .

وارتفعت التهانى والتعليقات من كل جانب ، وظلت بثينة تنظر ولا تسمع شيئا ، كانت غارقة فى مشاعر الأسى المتفجرة فى أعماقها .

٢٤

الباشا فى مكتبه يشرب فنجان القهوة ، يدخل عليه عثمان وهو يحمل أضبارة بها برقيات وقصاصات من الصحف والمجلات ، يضع الأضبارة أمام الباشا وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، ويقول :

ـــ لا تزال برقيات التهانى تترى ، ولا حديث للصحف والمجلات إلا حفل زفاف حلمى . قالت مجلة إنه حفل الموسم ، وراحت مجلة أخرى تحصى الباشوات والبكوات والنواب والشيوخ الذين حضروا الحفل . وقدرت قيمة الألماس الذى تزينت به المدعوات بميزانية دولة صغيرة .

وراح الباشا يتفرس فى الصور المنشورة للحفل ، ووقع نظره على صورة لرفعة الباشا والراقصة تتثنى حتى يكاد رأسها يلمس حجره ، فقال الباشا :

ـــ يا للخبثاء !

وقرأ اسم الصحيفة وقال :

ـــ طبعا من صحف المعارضة .

فقال عثمان متملقا الباشا :

ـــ فليموتوا بغيظهم ، لن ينالوا بمثل هذه الصور من رفعة الرئيس . الشعب يحبه ويرضى عن صوره سواء أكانت فى مسجد أم فى حفل .

وراح الباشا يقرأ بعض برقيات التهانى منشرحا ، وعاد إلى قصاصات الصحف يقرأ . وقلب قصاصة فرأى فى ظهرها حديثا طويلا عن الملاريا فى الصعيد ، وعن أمر الملك بإرسال الجيش إلى هناك للإشراف على توزيع المؤن والأدوية والبطاطين ، لأنه قد اتضح أن الإسعافات تسرق فى الطريق ،

ولا يصل منها إلى المنكوبين شيء .

وأطرق الباشا ساهما مدة ، ولاحظ عثمان صمته ، وكان قد قرأ المقال فقال ليهون الأمر على الباشا :

— هذه مبالغات المعارضة .

فقال الباشا فى صوت خافت :

— والملك ؟

— إنه ضالع مع المعارضة ليحرج الوزارة ، والشعب كله يعرف ذلك ، ولن تنطلى عليه مثل هذه الأمور ، الملك يريد أن ينتقم للإذلال الذى أحسه يوم ٤ فبراير .

ولم يقتنع الباشا بمنطق عثمان ، وأطرق يفكر فى علة يبرر بها الفساد المعيب الذى فاحت روائحه فى الجهود السريعة التى بذلت لإنقاذ الصعيد من كارثة الملاريا ، واستمر إطراقه مدة ، ثم رفع رأسه وقال :

— وماذا يفعل الباشا إذا كان الموظفون كلهم لصوصا ، ونزعت من قلوبهم الرحمة ؟! التموين يسرق ويباع قبل أن يصل إلى المنكوبين ، والكينين يسرق ويباع والمساكين يموتون ، والبطاطين تسرق وتباع والجامبيا تفتك بالنفوس . هل كل الموظفين وفديون ؟ هل الوفد مسئول عن فساد الدواوين ؟ ماذا يستطيع أن يفعل رفعة الباشا وحده ؟ هل يقوم بتوزيع التموين والكينين والبطاطين بنفسه ؟

وعجب عثمان لقول الباشا ، إنه يعترف بكل ما تردده صحف المعارضة ، يقر بسرقة التموين والأدوية والأغطية ، ثم يلتمس لرفعة الرئيس أعذارا واهية لا تستقيم مع مسئولية الحكم ، إنه كان يفضل لو أن الباشا أنكر حوادث السرقة والتبديد ولج فى النكران واتهم المعارضة بالغرض ، فى تضخيم حوادث فردية لتنال من سمعة الحكم ونزاهته ، وأراد أن يلفت نظر الباشا إلى وجهة نظره فى لباقة ، فقال :

— خطير أن نعترف بأن كل شائعات السرقة والإهمال حقيقة واقعة ، إنها مبالغات المعارضة .

وعز على الباشا أن يعارضه عثمان ، فقال متشبثا برأيه :

— إننى ألتمس للحكومة الوفدية العذر حتى إذا كان كل ما يقال حقيقة قد وقعت ، فماذا يستطيع فعله حفنة من الرجال إذا كانت الأمة كلها فاسدة ؟

وصمت عثمان ولم ينبر للدفاع عن الأمة ، إنه هو نفسه قد استغل سيارة الباشا فى نقل مواد التموين من القاهرة إلى القرية وهو آمن ، فالباشا من الشيوخ وسيارته تتمتع بالحصانة البرلمانية ، لقد جمع مالا من الاتجار فى السوق السوداء . ولو كان فى الصعيد لما أحجم عن الاتجار فى مواد التموين والكينين والبطاطين ، فمن ذا الذى يبعث به إلى هناك ليستغل هذه الفرصة ! إنه لا يصدق أن هناك بشرا يستطيعون مقاومة إغراء المال ، أو يهتمون بالتفرقة بين الطيب والخبيث ، كان يحكم بطبعه ، ويقيس الناس كلهم بنفسه ، فأقر فى سريرته بفساد الأمة .

وانسل من الغرفة ، وترك الباشا وحده يتلذذ بقراءة البرقيات والمقالات والنوادر اللطيفة التى لم تقع منها نادرة واحدة فى الحفل ، بل كانت من نسيج أخيلة محررين يطمعون فى كرم الباشا .

وراح الوقت يمر ، وفتح باب مكتب الباشا مرة ثانية ، ودخل عثمان وهو مشرق الوجه وقال :

— الست أنهار هنا .

فالتمعت عينا الباشا ببريق خاطف ، وقال وهو ينهض استعدادا للقائها :

— دعها تتفضل .

وخف عثمان إلى الباب وفتحه وانحنى قليلا وقال :

— تفضلى .

ودخلت الست أنهار وخرج عثمان وأغلق الباب خلفه فى حرص ، كانت

الست أنهار ترتدى ثوبا أسود فوقه جاكته من الفرو الأسود ، وتغطى رأسها طرحة سوداء ، ووجهها لا أثر فيه لأبيض أو أحمر ، وعيناها بلا كحل وصدرها وذراعها مستورة ، عاطلة من كل زينة .

وقابلها الباشا فى وسط الغرفة ، وصافحها فى ود وهو يقول :

— أهلا .. أهلا . خطوة عزيزة .. أين أنت من شهور طويلة ؟ أرسلت إليك فى الإسكندرية فعلمت أنك رحلت عنها .

فقالت وهى تتجه إلى الكرسى الموضوع أمام المكتب :

— اشتدت الغارات وأقفرت الإسكندرية من الناس ، هاجروا إلى الأرياف وإلى القاهرة ، فلم أجد مفرا من أن ألجا أنا والبنات إلى القاهرة .

فقال الباشا فى عتاب :

— فى القاهرة من مدة ولا تتصلين بنا ؟!

فقالت أنهار معتذرة :

— كان أمر تدبير مسكن لائق للفتيات متعذرا ، فاضطررت إلى إنزال كل واحدة منهن فى بيت من بيوت صديقاتى .

فقال الباشا وهو يعود إلى مقعده :

— وهل وجدت سكنا طيبا لهن ؟

فقالت أنهار وهى تبتسم :

— الناس فى القاهرة بعضهم فوق بعض طبقات ، من العسير فى هذه الأيام أن تعثر على ثقب إبرة خال .

— وعلام عولت ؟

— قررت أن أعود إلى الإسكندرية هذا الأسبوع ، لقد هدأت الغارات ، وبدأت الحياة تدب ثانية فى المدينة .

فقال الباشا فى ود :

— ولكن الألمان يتقدمون على الساحل .

ـــ إنهم يتقدمون ثم يتقهقرون ، وسرعان ما يتقدمون ليتقهقروا ، وحتى إذا دخلوا الإسكندرية ، فماذا سيأخذون منا ؟.. ستعود كل الفتيات اللائى كن معى فى الإسكندرية وقد انضمت إليهن فتيات من القاهرة .

فقال الباشا وهو يبتسم :

ـــ كلام جميل .

ودق الجرس ودخل عثمان ووقف ينتظر التعليمات وإن كان يعرفها سلفا .

قال الباشا :

ـــ هات المبلغ الذى ندفعه دائما لجمعية الفتيات الصالحات .

وخرج عثمان ، وفتح درج مكتبه ، وراح يعد مائة جنيه ثم أعاد باقى الأوراق المالية إلى مكانها ، وأغلق الدرج وأدار فيه المفتاح ، ثم فتح دفترا أمامه وراح يكتب « ١٠٠ جنيه أعمال خيرية » .

ونهض فى تثاقل وطرق الباب فى رفق وعادت البسمة إلى شفتيه ثم تقدم إلى الباشا ووضع المبلغ فى يده وانسحب فى تباطؤ لعله يسمع الحديث الدائر بين الباشا والست أنهار ، لأنه لا يدرى سر ذلك الحدب الزائد على جمعية الفتيات الصالحات ، ولا يستطيع أن يقنع نفسه أن الباشا يدفع ذلك الراتب الدائم لوجه الإحسان ، فما أكثر الجمعيات الخيرية التى تلوذ به ويصدها صدا كله جفاء ، وإن كان ما تطلبه لا يصل إلى عشر المرتب الذى يدفع للفتيات الصالحات .

وخرج عثمان وهو حانق فالكلمات القليلة التى وصلت إلى مسامعه لم تشف غليله ، وإنه لما يقلق مضاجعه أن يطوى دونه سر مهما قل شأنه ، وأنه يثلج صدره أن يعرف نقائص الناس . فذلك يقنعه أنه وسائر البشر فى الخسة سواء .

ووضع الباشا المبلغ فى يد الست أنهار ، فتقبلته شاكرة ، وقالت وهى تنهض للانصراف :

ـــ يسر الفتيات الصالحات أن يزورهن الباشا فى الإسكندرية .

فقال الباشا وهو يبتسم :

ـــ قريبا . إن شاء الله .

ومدت يدها فصافحها وسار خلفها ، حتى إذا ما بلغت الباب التفتت إليه وقالت :

ـــ أكرر شكرى ، وأكرر رجائى أن تتفضل سعادتك بزيارتنا .

فقال وهو يودعها :

ـــ بإذن الله .

وخرجت أنهار ، وعاد الباشا إلى مكتبه وهو يفكر جادا فى هذه الزيارة التى يشتاق إليها كل الشوق .

٢٥

كان عثمان يغدو ويروح أمام تليفون العزبة وهو قلق مضطرب يكاد قلبه ينخلع رعبا ، فالألمان يتقدمون فى هجومهم ، لقد وقفوا عند العلمين يلتقطون أنفاسهم قبل أن يقطعوا الشوط الأخير لبلوغ الإسكندرية ، والحلفاء يستعدون لإغراق بعض أراضى الدلتا لتعويق تقدم قوات المحور ، وقد أخذ أنصار الديمقراطية يغادرون البلاد فرارا ممن جهروا لهم بالعداوة ، واليهود يبيعون أملاكهم ويهربون قبل أن يقعوا فى قبضة هتلر .

قال للباشا مرة : إن الإنجليز قد وضعوا خطين للدفاع فى خططهم : خط عن يسار ترعة الزمر ، وخط عند مصرف المحيط ، وقد سخر الباشا منه ، وقال : إن رفعة الرئيس لن يوافق أبدا على إغراق البلاد ، ولكن ها هى ذى الاستعدادات على قدم وساق لقطع الجسور ، إنهم فى أغسطس ، والفيضان عال ، فإذا ما قطع الجسر ستغرق الأراضى كلها وتحل الكارثة .

وظل يغدو ويروح أمام التليفون وهو يكاد يتمزق غيظا ، والوقت يمر وئيدا وئيدا ، وزاد فى ضيقه ذلك الإحساس الباطنى الذى كان يحسه بقيمة الزمن ،

فكل دقيقة تمر قد تكون هى الفاصلة بين ضياع الأراضى أو إنقاذها . ولم يكن القلق القاتل الذى يستبد به مبعثه خشيته من أن تغرق أرض الباشا ، بل خوفه من أن تصل المياه إلى الفدادين المائتين التى بذل فى سبيل اقتنائها عرقه وماء وجهه وشرفه وذمته وأمانته .

واتجه إلى التليفون فى عصبية ، وأدار اليد وهو يلتقط أنفاسه فى جهد كأنما يقوم بعمل شاق ، ثم رفع السماعة وقال فى حدة :

— طلبت القاهرة من مدة .. مستعجل جدا .

فجاء الصوت من الطرف الآخر :

— آسف ، الخطوط كلها مشغولة .

ووضع سماعة التليفون وهو يسب ويلعن ، وراح يتذكر ما قاله الباشا تعليقا على ذهاب جنرال ستون إلى وزير حربية الوزارة السابقة يطلب منه التوقيع على أمر إغراق بعض أراضى الدلتا إذا ما اقتضت الضرورة الحربية ذلك ، وتحايل الوزير للفرار من تلك المقابلة الحرجة . قال الباشا وقتها : « لن تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبى إلا إذا عاد رفعة الباشا إلى الحكم » ، وها هو ذا رفعة الباشا متربع فى الحكم وقد ضلت الطمأنينة طريقها ، فكيف تطمئن القلوب وقد تقطع الجسور بين لحظة وأخرى وراح يسب الباشا ورفعة الباشا والحلفاء والمحور .

ومر الوقت بطيئا ثقيلا قاسيا ، وهو متوتر الأعصاب ، زائغ البصر ، تتجاذبه أفكار متباينة ، رأى يزين له الذهاب من فوره إلى القاهرة ليحرض الباشا على مقابلة رفعة الرئيس لوضع حد لهذه المهزلة ، ورأى يخذله عن ذلك ويوسوس له أنه لو ذهب لبعد عن مسرح الحوادث ولقضت عليه مخاوفه .

ورن جرس التليفون رنينا متصلا انخلع له قلبه ، وأسرع يرفع السماعة ويقول فى انفعال :

— ألو .

ـــ القاهرة .

ـــ ألو .. ألو .. سعادة الباشا ! المسألة فى غاية الخطورة ، الاستعدادات على قدم وساق ، ستغرق الأراضى عند أول إشارة .. لا بد من مقابلة رفعة الباشا .

ـــ لقد قابلت رفعة الباشا ، قال إنه لا يوافق أبدا على إغراق الأراضى وطلب منى مقابلة عثمان باشا ، وقد قابلته وقال لى إنه سيقطع رقبة المهندس الذى يقوم بقطع الجسور .

فقال عثمان فى ضيق :

ـــ وما الذى سنستفيده من قطع رقبته بعد أن تغرق الأرض ؟ الرجل معه أمر كتابى من وكيل الوزارة .

ـــ وكيف يصدر الوكيل أمرا دون علم الوزير ؟ عثمان باشا أنكر إنكارا تاما علمه بهذه الأوامر .

فقال عثمان فى ثورة :

ـــ الرجل فى دهشة من هذا الأمر ، ذهب إلى مفتش الرى يبدى اعتراضه ، فقال المفتش ساخرا : أتريد أن تقف أمام بريطانيا العظمى وحدك ؟! اذهب ونفذ الأوامر . الأمر خطير .. وإذا طلب الإنجليز الساعة إغراق الأراضى فستغرق ، لا بد من معاودة الاتصال برفعة الباشا ، وسأذهب الآن لمقابلة الرجل المكلف بالتنفيذ .

ـــ أنا ذاهب الآن لمقابلة رفعة الباشا . واتصل بى إذا جد جديد .

وجرى عثمان وجرى الباشا ، وراحت عقارب الساعة تدور ، ولهث عثمان ولهث الباشا ، والخوف يستبد بالنفوس ، وعاد الاتصال التليفونى بين العزبة والقاهرة ، قال عثمان وهو يكاد ينوء إعياء :

ـــ سعادة الباشا ، صدرت الأوامر فعلا بقطع الجسور ، الرجل المكلف بالعمل يتلكأ فى التنفيذ ، ذهب إلى مفتش الرى يسأله الرأى ، فكتب المفتش

على الأمر : « ينفذ فورا » الرجل فى حيرة ، لقد اهتدى إلى طريقة يعوق بها التنفيذ ، وجد فى المنطقة عشر شون لبنك التسليف ، بها مائة ألف أردب حبوب ، إذا غرقت فستجوع القاهرة ، إنه يرى أن يتلكأ البنك فى نقلها حتى يأتى الفرج ، سيعمل من جانبه وعلينا أن نعمل من جانبنا .

فقال الباشا وهو يلهث :

ـــ سأتصل برفعة الباشا .

فقال عثمان يائسا :

ـــ لا أمل يرجى من الاتصال برفعة الباشا ، اتصل سعادتك ببنك التسليف ، على البنك أن يتلكأ فى نقل الحبوب ، فمن يدرى ماذا يحدث فى المعركة الدائرة فى العلمين ، قد يأتى من هناك الفرج .

فقال الباشا فى لهفة :

ـــ سأتصل الآن ببنك التسليف ، وداوم الاتصال بى .

وهرول عثمان يتلفت فى فزع ، وأسرع الباشا إلى بنك التسليف وقابل رفعة الباشا وعثمان باشا ولم يسمع كلمة واحدة مطمئنة . فكل ما كان يقوله وزير الأشغال : إنه لم يأمر ولن يسمح أبدا بإغراق الأراضى وأنه سيقطع رقبة كل من يطلق فيها الماء .

وتقضت ثمان وأربعون ساعة كلها قلق وفزع وأرق وعذاب ، وعاد الاتصال التليفونى بين العزبة والقاهرة ، قال عثمان فى حنق :

ـــ خاننا بنك التسليف ، وضع كل همه فى نقل الحبوب ، لم يضع لحظة واحدة ، نقل مائة ألف أردب فى يومين .. بذل كل جهده ليمكن للإنجليز إغراق الأرض .. هذه خيانة .. ضعنا .. ضعنا يا باشا .

فقال الباشا فى غيظ :

ـــ الكذابون ، أهذا وعدهم ، قالوا لى إنهم لن ينقلوا الحبوب .

فقال عثمان فى تأكيد :

ـــ الحكومة أمرتهم بسرعة نقل الحبوب .

ـــ الحكومة لم تأمر بشيء ، ولا علم لها بشيء .

ـــ لا يعقل يا باشا أن الحكومة لا علم لها بهذا الأمر الخطير .

ـــ سأتصل برفعة الباشا ، وسأخبره بكل شيء ، وسأقول له إذا ما قطعت الجسور فأنا مستقيل من الحزب .

ـــ ضعنا يا باشا .. ضعنا يا باشا .

ـــ إننى ذاهب للوزارة وداوم الاتصال بى .

ووضع عثمان سماعة التليفون وهو حانق ، يتميز غيظا ، فماذا سيعود عليه من استقالة الباشا من الحزب لو وقع ذلك الشر المستطير ؟! ستغرق أرضه وستغرق أرض الباشا ، وستغلق كل الأبواب فى وجهه ، سيصبح فقيرا معدما ، أهون عليه أن يغرق مع أرضه من أن ينظر إليها وهى قاع صفصف يقلب فيها النظر حسرات .

وتبخرت كل طمأنينة ، وطار النوم من عينيه ، وانتابه جزع كاد يهدد كيانه ، وهام على وجهه ليقابل ذلك الرجل الذى سيدمر مستقبله بإشارة من يده ، إنه لو أمر رجاله بقطع الجسر لانتهى كل شيء ، وتحطمت حياته ، وتقضت ساعات من الهول والرعب والفزع واليأس والقنوط والحنق على كل ما فى الوجود ، وعاد الاتصال التليفونى بين العزبة والقاهرة ، وراح عثمان يقول فى صوت أقرب إلى حشرجة الموتى :

ـــ انتهينا يا باشا ، أطلقت المياه وبدأ إغراق الأراضى ، غرق من المنصورية خمسة وأربعون بيتا ، ومن برقاش خمسة وخمسون بيتا ، المياه تزحف ولن نستطيع لها صدا ، إننى لن أسمح أبدا بأن تغرق أرضى وأنا أنظر ، سأقتل كل من يغرقها وأغرق معها ...

وراح الباشا يصرخ من الناحية الأخرى :

ـــ قل لذلك المجنون أن يكف عن إطلاق الماء ، عثمان باشا سيقطع رقبته ..

فقال عثمان وقد اتسعت عيناه :

ـــ أنا الذى سأقطع رقبته ، ورقبة كل من يمس أرضى بسوء .

ووضع عثمان سماعة التليفون وراح يهرول صوب أرضه كالمجنون وهو يصيح فى صوت ملهوف :

ـــ أرضى .. أرضى .

ومر يومان مريران قاسيان ، وأصبح عثمان كالخيال ، يكاد يجن وهو يرقب المياه الزاحفة صوب أرضه ، وفجأة راح يعدو إلى العزبة كمارد جبار ، وعاد الاتصال التليفونى بينه وبين الباشا ، وراح يقول فى فرح وابتهاج :

ـــ ألو .. مبارك .. مبارك يا باشا . صدرت الأوامر بوقف الإغراق .

فقال الباشا مبتهجا :

ـــ ألم أقل لك إن عثمان باشا سيقطع رقبة من يتجاسر على إغراق الأرض ؟

فقال عثمان فى شماتة :

ـــ عثمان باشا لم يأمر ولم يفعل شيئا .

فقال الباشا فى عجب :

ـــ فمن إذن الذى أصدر أوامره بوقف إغراق الأراضى ؟

فقال عثمان وهو يلهث :

ـــ جاء ضابط بريطانى وقال : إنه لم تعد هناك ضرورة لإغراق الأراضى ، فقد هزم الألمان فى العلمين .

وألقى عثمان بالسماعة ، وجعل يلتقط أنفاسه فى راحة .

٢٦

كان القلق يخيم على المكان ، والضيق يستبد بالصدور ، ويأس يمور فى جنبات عبد الخالق ، وثورة تتأجج فى صدر بثينة ، كان عبد الخالق مطرقا يفكر فى مرارة فيما آل إليه حاله ، أنفق ثروة زوجته ، اقترض من البنوك حتى

تراكمت ديونه ، وهو لا يدرى كيف يسدد ما عليه ، والباشا يكنز ماله ولا يعطيه منه ما يكفل له أن يعيش كطبقته من أولاد الباشوات ، ولم يجد له مخرجا إلا أن يموت الباشا ويريحه من هذا التقتير .

صار يعيش على أمل العاجز أن يأتيه الفرج من السماء وهو قاعد يعاقر خمره ، ويسامر ندمانه ، ويشنف أذنيه بأعذب الأغانى ، وما كان يتصور الفرج إلا على صورة نعى يقرؤه فى الصحف ذات صباح بعد أن ينهض من نومه اللذيذ ، ويا طالما قرأ بعين خياله تحت خط أسود عريض اسم « سليم باشا شلبى » ، وكان ذلك التخيل يثلج صدره لحظات قصارا ، وما أسرع أن تتبدد تبدد الوهم إذا ما سطعت عليه شمس الحقيقة .

وكانت بثينة ترقب زوجها فى صمت وإن كانت نار الغضب تسرى فى حشاياها ، فمال زوجها تبخر ، ومالها ذاب ، ولم يعد عندهما ما ييسر لهما حياة البذخ التى كانا يعيشانها ، إنها كانت تستطيع أن تحتمل شظف العيش ، لو لم يكن الباشا يتعثر فى أمواله ، ولو لم يكن ينفق على حلمى بسخاء يتعارض مع بخله المعروف ، ولو لم يكن ابنها قد خرج إلى النور ، إنها أصبحت أما وعليها أن تكافح لتهيىء لابنها حياة سعيدة تليق بحفيد الباشا الغنى الذى تربو أمواله على مر السنين .

وضاقت بثينة بركون زوجها إلى الاستسلام ومهادنة أبيه إلى أن يموت ، فكانت كلما انفردا تحرضه على أن يثور فى وجه الباشا العاتى وأن يلزمه بالإنفاق عليه كما ينفق على حلمى ، راحت تقول فى حدة وانفعال :

ـــ لماذا يبسط يده لحلمى ويغلها عنا ؟ اشترى له سيارة ، دفع لإيفا خمسمائة جنيه تعويضا عن حماقته ، أقام له حفل خطبة وحفل زفاف تكلفا آلاف الجنيهات ، اشترى له ولزوجه فيلا جديدة ، ونحن لا شىء إلا طول اللسان والتعيير . لماذا هذه التفرقة ؟ أنت ابنه وهو ابنه وهو ليس بأفضل منك ، بل الباشا يعلم علم اليقين أن حلمى نذل ، فعل فعلته وغسل يديه منها

وفر فرار الجبناء ، قَبِلَ أن يلقى بلحمه ودمه مختارا إلى غول الحياة القاسى الذى لا يعرف الرحمة ، كيف طاوعه قلبه أن يلفظ فلذة كبده فى يسر كأنما يلفظ نواة ؟ لعل حلمى ورث عن أبيه تحجر قلبه على ابنه البكر .

فقال عبد الخالق منفعلا :

ـــ ولكننى لست ابنا غير شرعى كابن حلمى ، إننى لست لقيطا ، إننى ابنه من زوجته الأولى التى شاركته فقره وتحملت معه قسوة الأيام .

فقالت بثينة فى غيظ :

ـــ حتى ابن السفاح يخفق بحبه القلب ، كانت إيفا إنسانة وهى تستميت فى الدفاع عن ذلك الذى فى بطنها ، الذى لم تقع عليه عيناها بعد .

وراح ينظر إليها فى إنكار ، أدهشه دفاعها عن إيفا ومهاجمتها لحلمى ، وقد كانت من قبل تغفر له زلته ، وتصر على أن النمساوية الفاجرة هى التى نسجت له الشباك لتوقعه فى حبائلها ، قال فى عجب :

ـــ تقولين ذلك الآن وروحك ملطخة بدماء إيفا ؟!

فقالت مكابرة :

ـــ لم أكن إلا الرسول الذى بلغ رغبات الذين أرسلوه وأملى شروطهم .

ـــ بل كنت المحرك للمؤامرة والرأس المدبر لها .

فقالت فى ضيق :

ـــ هل كان حلمى قاصرا ؟ كان يريد أن يتخلص منها ، أفزعه أنها حملت فصارت أمنيته أن يغمض عينه ويفتحها فلا يجدها أمامه ، صارت كابوسا جاثما على صدره ، وأحس أنه لن يستطيع أن يتنفس فى حرية ما دامت كالسيف المسلط على رقبته ، فلما فاتحته فى الأمر كان كالغريق الذى يتشبث بكل قوته باليد التى تمتد لإنقاذه ، لم يتردد لحظة واحدة لما عرضت عليه التخلص منها ، ولم يفكر فى ابنه الذى يتحرك فى أحشائها ، ولم تند منه كلمة ندم أو إشفاق ، كانت حملا ثقيلا كل بغيته أن يلقيه عن كاهله ، ولما علم بسفرها ابتسم فى

راحة ، دون أن يكلف خاطره أن يسأل عن وجهتها ، فإذا كانت إيفا التى عصر شبابها لا وزن لها عنده ، فما باله لم تذهب نفسه حسرات على بعضه الذى كتب عليه التشريد واليتم والعذاب ، إنه كأبيه فظ غليظ القلب . مظهر خداع وجوف كله خسة ودناءة ولؤم .

وقال عبد الخالق وهو ينظر إليها بطرف عينه :

ـــ سبحان مغير القلوب ! كنت تلتمسين لهما الأعذار إذا ثرت ، فما الذى فجر براكين غضبك ؟

فقالت بثينة دون أن تتلجلج :

ـــ كنت مخدوعة فيهما ، ولكن حادثة إيفا كشفت لى نفسيتهما .

فقال فى عناد :

ـــ بل هناك سبب آخر ، فقد كنت متحمسة لقرار حلمى .

فقالت فى حرارة :

ـــ كنت أؤيده بلسانى ، أما قلبي فقد كان ينفطر أسى .

ـــ وما الذى كان يضطرك إلى تأييده ؟

فقالت دون خجل :

ـــ كنت أجامله وكنت أظن أنه على الرغم من هذه المجاملة لن يفرط فى ابنه ، إننى لو أعطيت العالم كله على أن أتنكر لابنى ما قبلت .

فقال فى بساطة :

ـــ الحقيقة يا بثينة أنك كنت تزينين له طرد إيفا .

فقالت وهى تتظاهر بالدهش :

ـــ وما مصلحتى فى طردها ؟

ـــ أن يخلو لك وجه حلمى . أن يتزوج إلهام .

فقالت فى انفعال .

ـــ وهل كان حلمى أفضل من بدر الدين ؟!

كانت أمنيتك أن تتزوج إلهام حلمى ، وكنت أرقب حدبك عليه ، وجهودك التى تبذلينها لتقربى بينهما ، ولكنى كنت أرجو من أعماق أن تخفق هذه الجهود ، فإلهام فتاة طيبة القلب ، أكرم من أن يكون الباشا حماها وأن تكون أمينة هانم حماتها ، كانت سعيدة الحظ لأنها تزوجت بدر الدين .

فقالت وهى ترمقه بعينين مفتوحتين :

ـــ ماذا تقصد ؟ أتقصد أننى خبيثة لأن الباشا حمى ؟ فماذا تكون أنت وهو أبوك ؟

فقال دون أن يغضب :

ـــ امتزجت طيبة أمى بلؤم الباشا فجئت مزيجا من الطيبة والخبث ، وقد أصبحت أمقت فى قرارة نفسى ذلك الجزء منى الذى شارك فيه الباشا ، ولو كان له فى عضو خالص من أعضائى لبترته ، ولكنه يجرى فى دمى ، فى كل كيانى ، ولن أتخلص منه إلا إذا لفظت آخر أنفاسى ، ولكن لا .. حتى الموت لن يبرئنى منه ، أتعرفين ما هو أسعد ما سمعته ؟ هو أننا سننسب إلى أمهاتنا يوم القيامة . إنه اليوم الوحيد الذى لن أدعى فيه باسم أبى .

فقالت فى دهش :

ـــ ما كل هذه المرارة ؟ أتمقته إلى هذا الحد ؟

ـــ أمقته ؟! المقت والبغض والكراهية كلمات أهون من أن تعبر عن إحساسى الكريه نحوه ، إنه هو الذى بذر بذور الإحساس ، وهو الذى سقاها بكراهيته الصفراء ، وسمدها بظلام بغضه ، وأمدها بحرارة مقته فأثمرت إحساسا بشعا مدمرا يعصف بكل إحساس طيب فى .

إنه يكرهنى لأن وجودى يذكره بأيام بؤسه ، يشيح بوجهه عنى لأننى شبح ماضيه ، يتمنى أن يقطع كل صلة بينى وبينه لأننى الحبل الذى يربطه بأصله الوضيع .

لن أغيب عنه أبدا ، ولن أمكنه من أن يفر منى ، سأظل قذى فى عينيه ،

وسأرغمه على أن يعاملنى كما يعامل حلمى سواء بسواء .. لن أقبل أبدا هذه المهانة .. سأذهب إليه وسأطالبه بحقى ولن أخشاه .

وقام إلى حيث كانت كأسه وزجاجته ، وراح يلقى بالشراب فى جوفه كأنما يطفىء نارا متلظية فى أعماقه ، وبثينة ترقبه ساهمة وهى تتساءل أيصمد زوجها للباشا يوما ؟

٢٧

كان حلمى يعبث بخاتم الزواج وهو يصغى إلى أبيه ، ولم يكن متطلق الوجه ، كان مطبق الفم ، فى عينيه لمحة من أسى تكشف قلق روحه الذى حل بصدره ، بعد أن انقضى على زواجه بضعة أشهر ، وكان أبوه يقرأ ما فى نفسه ويعلم أن ابنه غير سعيد فى زواجه ، ولكنه كان يتحاشى أن يفتح أبواب ذلك الحديث ويتمنى أن تظل مغلقة حتى يرزق الله ابنه ولدا تقر به عينه ، ويجد فيه منفسا لمشاعر الحب الموارة فى حناياه ، فقد بات الباشا يخشى أن تتصدع فجأة صداقته بمحفوظ باشا ، تلك الصداقة التى يرجو ألا يفسدها خلاف بين حلمى وسميرة ، حتى يظل تعاونه ومحفوظ باشا متآزرا . لتحقيق أمله الذى تركز فى تربع حلمى فى كرسى الوزارة .

أقبل حلمى على الزواج وهو واثق من أنه سيسعد به ، وسيجد فيه ما كان يجده عند إيفا من متعة وتحليق فى عوالم جميلة صيغت من رقة وحنان ونشوة ولذة المحبين إذا ما التصق الفم بالفم وامتزجت الروح بالروح ، ولكن ما انقضت شهور الزواج الأولى حتى أحس قيودا ثقيلة تكبله ، إنه إذا خرج فعليه أن يقول إلى أين هو ذاهب ، وإذا عاد وجب عليه أن يقص كل ما فعله فى الخارج ، وإذا ما اشترى لزوجته شيئا لا يقبل ذلك الشيء بابتهاج يماثل ذلك الذى كانت تعبر عنه كل خلجة من خلجات إيفا إذا ما أهدى إليها هدية تافهة ، وليت الأمر

يقتصر على الصمت بل إن سميرة تطلق لسانها ساخرة من كل ما يقدمه إليها ، وإذا قرر ألا يشترى لها شيئا لينجو من هزئها ، كانت تركبه بلسانها وتتهمه بإهماله إياها .

كان خروجه يضايقه ، وبقاؤه فى البيت يمزق أعصابه ، وعودته تنقض ظهره بأحمالها الثقيلة التى كان جوهرها غضبا وعتابا وتقريعا . فقد فى بيته كل حرية . حتى حرية الشرود ليعيش فى ماضيه الذى صار يهفو إليه ، أصبح لا يستطيع ممارستها أمام زوجته ، فقد شرد ذات مرة وهو معها فى غرفة مكتبه قبل أن ينقضى شهر العسل يفكر فى أمر من الأمور العادية ، وإذا بها تفاجئه بقولها :

— أتفكر وأنا معك فى فتاتك النمساوية ؟!

وفزع وتلون وجهه بحمرة الغضب ، وقال :

— فتاتى النمساوية ؟! ما هذا الكلام الذى تقولينه ؟

فقالت له فى بطء وقد اتسعت عيناها ، ورفت على شفتيها بسمة كأنما كانت تتلذذ بأن تلهب روحه بسياط كلماتها :

— عرفت كل ماضيك ، حدثتنى به صديقة قبل إعلان خطبتنا بأيام ، قالت لى إن لك صديقة من النمسا ، وأنها تحمل فى بطنها ابنك .

فقال وهو يحس إحساس الفأر الذى وقع فى المصيدة :

— هذا كذب ، هراء .

فقالت وهى تضيق عينيها :

— بل هذه هى الحقيقة .

فقال فى تحد :

— إن كنت واثقة أن هذه هى الحقيقة ، فلماذا قبلت زواجى ؟!

ولم يفزعها تحديه ، بل قالت دون أن تنفعل :

— لأن ماضيك لك ، وحاضرك ومستقبلك لى .

وتصافيا فى تلك الليلة ، وتعاهدا على قبر الماضى بخيره وشره ، وأن ينطلقا إلى مستقبلهما معا دون أن يتلفتا خلفهما ، وحسب أنه قد قضى على شبح ماضيه ، ولكنه تيقن أنه واهم بعد أول مرة غاب فيها عن البيت ، فقد راحت تتهمه بأنه كان عند فتاته النمساوية ، وأنه لا يستطيع أن يسلوها ، ولم يستطع أن يقنعها بأنها متجنية عليه فى اتهامها هذا ، فقد أعرضت عنه وانخرطت فى بكائها .

واستمرت تنبش القبر الذى تعاهدا على نسيانه ، وكان يزيد فى حنقه اتهاماتها الظالمة ، فلو أن إيفا بقيت بقربه لما تردد فى زيارتها ، ولاحتمل ثورة زوجته دون أن يتأفف ، أما وقد رحلت إيفا وتركت ذلك الفراغ فى حياته ، فاتهامات زوجه تزيد من آلام نفسه المجروحة .

كان يحسب أن إيفا ستظل فى سريرته سرا دفينا ، يطوف بذكراها فى ذهنه كلما حن إلى ماضيه واشتاق إلى التزود منه لأيامه الخاوية ، وإذا بزوجته تأبى إلا أن تعيش إيفا فى بيته ، لتحول بينه وبينها ، فذكر الفتاة النمساوية إذا غاب وإذا شرد بذهنه ، يجدد حبه ويؤجج نار حنينه إليها .

إنه يريد أن ينسى ، أن يسعد بحاضره كما سعد بماضيه ، ولكن سميرة تأبى أن تعاونه على النسيان . كلما أراد أن يلتئم الجرح نكأته ، وكلما تكونت طبقة من الرماد حركتها ونفخت فى الجمرات التى تريد أن تخبو فيندلع اللهيب .

إنها لا تريد أن تصدق أن الفتاة النمساوية قد رحلت قبل إعلان خطبته منها ، وطالما سألته عن عنوانها وعما كان يعجبه فيها ، فكان يجيب إجابات مقتضبة ليغلق الحديث . إنه لا يستطيع أن ينسى تلك الليلة التى صفا فيها جوهما وراحا يتناغيان ويهيمان فى الواقع المسحور المغلف بضباب غيبوبة منتشية ، وإذا بها تسأله فجأة عما كان يحسه وهو مع فتاته النمساوية فى مثل هذه اللحظة ، فإذا بمشاعر الحنين التى كانت سارية فى روحه وكيانه تتبخر ليحل محلها خوف وقلق وضيق ، ويشتد وجيب قلبه ، ويموت فيه كل إحساس باللذة .

وبات شبح تلك الليلة يؤرقه ويلهبه بسياط حامية كلما دنا من زوجته أو هم بها ، كانت أوهامه تصحو ، وأحاسيسه تتوتر ، والنفور مما هو مقدم عليه يربو حتى يطغى على كل عواطفه ، فتخمد الشهوة التى بذل لإثارتها جهدا ، وتكبد فى سبيلها تعبا آلم نفسه وآذاها .

خطر على باله يوما أن يستعين ببثينة لتقنع سميرة أن إيفا صارت كأمسه الداير ، وأنها ولت ولن تعود أبدا ، ولكنه تذكر ما كان من بثينة يوم ذهب إليها لتختار معه الشبكة ، اعتذرت بأنها مشغولة فى الاستعداد ليوم إعلان خطبة أختها ، وتذكر سفرها فى يوم زفافه فتيقن من أنها لن تمد له يدا . إنه يعرف أنها كانت تشتهى أن يتزوج إلهام ، وكانت كلما حدثته لمحت إلى هذه الرغبة ، فلما تزوج سميرة غضبت وقاطعت حفل زفافه ، ولم تفكر فى زيارته مرة ، إنها إن استطاعت أن تقوض بيته فوق رأسه ورأس امرأته لما ترددت لحظة ، ووأد ذلك الخاطر الساذج الذى راوده .

كان يذهب إلى مكتب الباشا صباح كل يوم ، فيتجاذبان أحاديث السياسة ، وكان غالبا ما يتخذ جانب المعارضة ليضطر إلى تشغيل ذهنه والاندماج فى محاوراته ليفر ساعات من نفسه المعذبة ، وكان فى المساء ينطلق هو وسميرة إلى الحفلات والسهرات ليهرب من انفراده بزوجته ذلك الانفراد الذى بات يهابه ويكرهه .

قال الباشا :

— وماذا يقول الشانئون اليوم عن رفعة الباشا وقد هدد إنجلترا وفرنسا بالاستيلاء على قناة السويس ، إذا لم يفرج عن الشيخ بشارة الخورى وتنال سورية ولبنان استقلالهما .

فقال حلمى فى هدوء :

— يقولون إن رفعة الباشا ما تحرك هذه الحركة إلا بإيعاز من الإنجليز .

فقال الباشا فى عجب :

ـــ وما مصلحة إنجلترا فى ذلك ؟

ـــ تريد أن تنتقم من فرنسا لطردها الملك فيصل من عرش سورية ، وقد كان فيصل من رجالها . جنرال سبيرز وقواته هناك ، فإذا ما تظاهروا بالإذعان لذلك التهديد وقبلوا الجلاء عن سورية ولبنان ، فليس أمام الفرنسيين إلا أن يجلوا عنها .

فقال الباشا مدافعا عن رئيسه .

ـــ السياسى المحنك هو الذى يهتبل الفرص المواتية لمصلحة إخوانه ، قالوا إن مستر إيدن هو الذى أنشأ الجامعة العربية لتكون أداة فى يده يحركها كيف يشاء ومتى شاء ، فإن كان هذا القول صحيحا فإيدن هذا رجل غبى ، فإذا كان الحكام الحاليون دمى فى يده ، فما أدراه أن هؤلاء الحكام سيدومون ، ألا يخشى أن يأتى حكام لا يأتمرون بأمره ، فيكون كذلك الذى أطلق المارد من قمقمه ؟!

ـــ الإنجليز يثقون بدهائهم ، ويعتمدون على دسائسهم وعلى العداوات والمخاوف التى يغرسونها فى قلوب حكام العرب بعضهم من بعض ، إنهم على ثقة من أنهم سيجدون لهم عملاء فى أى وقت ممن تستهويهم المناصب والسلطة والجاه .

فقال حلمى وهو يبتسم :

ـــ جميل أن يهدد رفعة الرئيس بالاستيلاء على قناة السويس إذا لم تجل القوات الإنجليزية والفرنسية عن سورية ولبنان ، وأجمل من ذلك لو أنه طلب من الإنجليز أن يجلوا عن مصر بعد انتهاء الحرب .

ـــ الرجل بينه وبين الإنجليز معاهدة ، وهو يجب أن يحترمها حتى يرغم الطرف الآخر على احترامها ، وهو يكره أن يحرج أصدقاءه فى أيامهم العصيبة .

ـــ أظن أن مصلحة البلاد فوق كل مجاملة .

فقال الباشا فى حدة :

— ومن قال إن الباشا فرط فى مصلحة البلاد ؟! لا تقول هذا إلا صحف المعارضة التى تعمل لحساب الملك .

فقال حلمي وهو يتفرس فى وجه أبيه :

— أنا واثق أن الملك قد كتب إقالة وزارة الوفد منذ يوم ٤ فبراير ، وأنه ينتظر الفرص ليؤرخها ، وحكومة الوفد فى هذه الأيام تهيىء له المناسبة التى يرقبها ، بتعيين الأقارب والأصهار ، والمبالغة فى المحسوبية والاستثناءات .

— هذا غير صحيح ، هذه مبالغات .

— ولكن الشعب كله أصبح يؤمن بهذا الفساد .

— صحف الملك هى التى تنفث هذا السم .

فقال حلمى ليغير مجرى الحديث :

— نشرت الصحف كلها يا باشا أنك ستوزع الكساوى على الفلاحين الذين يعملون فى أرضك ، ابتهاجا بنجاة الملك فى القصاصين .

فقالت الباشا دون أن تطرف عيناه :

— كنت قد نذرت أن أوزع الكساوى على الفقراء إذا نجت الأرض من الغرق الذى كان يتهددها إبان معركة العلمين ، فلما جاءت هذه المناسبة رأيت أن أوفى بنذرى ، والأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

فقال حلمى وقد شرد بصره :

— يقال إنه كانت إلى جوار الملك امرأة ، وأنها ماتت فى الحادثة .

فقال الباشا فى صوت خافت :

— قيل هذا .

ثم أدار وجهه إلى ناحية القبلة ، ورفع أكف الضراعة وقال :

— اللهم استرنا واستر ولايانا .

ونهض حلمى مستأذنا وانصرف ، ودخل عثمان يرتدى نفس البذلة ونفس الكرافاتة ونفس الحذاء ونفس الأشياء التى كان يرتديها منذ سنة ، فثيابه هى

الشيء الوحيد التى يكن لها وفاء صادقا لا تشوبه شائبة ، ووضع أمام الباشا بريد اليوم ، ثم قال بصوت خافت :

ـــ عبد الخالق يقترض من البنوك كلها ، اقترض مبالغ كبيرة والبنوك تدفع له دون ضمان لأنه ابن الباشا ، ولأنها واثقة من أنه إذا توقف عن السداد فسيدفع الباشا ديونه ، لو أنه كان يقترض ليتاجر لكان هناك احتمال للسداد ، ولكنه أصبح يقترض لينفق على المغنين والممثلات الذين يستغلونه .

فقال الباشا ثائرا :

ـــ اكتب للبنوك كلها أن البنك الذى يقرض عبد الخالق لن نتعامل معه أبدا ، وأن أى دين عليه لسنا مسئولين عنه .

وشرد قليلا ثم قال فى أسى :

ـــ لقد ورث عن أخواله هذه الخيبة .

وقال عثمان فى نشوة ، وإن لون صوته نبرات المشفق على ضيعة الأخلاق :

ـــ هل بلغ الباشا أنباء آخر فضيحة للممثلة الكبيرة صديقة عبد الخالق ؟

فقال الباشا فى حدة :

ـــ اكتب أولا للبنوك ، أريد أن أوقع هذه الكتب الآن .

وخرج عثمان وهو يوسع من خطاه ، وعكف على الكتابة للبنوك وهو سعيد ، وقد أمدته رغبته فى قص فضيحة الممثلة الكبيرة على مسامع الباشا بطاقة كبيرة ، جعلت قلمه يجرى فوق الورق جريا

٢٨

راحت الشمس ترسل أشعتها الحامية تشوى الوجوه وتكاد تصهر الأجساد ، وأخذ الهواء يهب ساخنا يحمل نار السعير ، وطفق الفلاحون يعملون فى أرض الباشا وقد تخففوا من بعض ثيابهم وسال العرق من وجوههم

يروى الثرى ريا عزيزا غاليا وإن كان لا يطفىء الظمأ ، كانوا كخزنة النار ملائكة كتب عليهم أن يقفوا بأبواب جهنم .

واحتمى الباشا فى مكتبه فى العزبة ، وقد وضع منديلا أبيض تحت طربوشه ، وراح يصب فى كوب أمامه ماء مثلجا من « ترموس » كبير ، ورفع الكوب وجعل يمص الماء مصا فتنبسط أساريره للذة إطفاء الحرارة المنتشرة فى جوفه .

كانت النوافذ والأبواب كلها مغلقة ، ولكن الحوائط والسقف كانت تشع حرارة شديدة تبعث الضيق وتؤجج الملل ، ولولا ذلك الحر اللافح لخرج الباشا يمر بأرضه ويشرف على تسميدها بنفسه .

وفتح باب المكتب فى حرص ودخل عثمان يتصبب عرقا ، وسمع للهواء الداخل معه فحيح أشبه بفحيح ألسنة النيران المنبعثة من فرن ضخم فصاح الباشا قائلا :

— أقفل خلفك باب جهنم هذا .

وأغلق عثمان الباب فى سرعة ، وتقدم صوب المكتب ، والباشا يقول :

— الحر شديد هنا وفى القاهرة ، سأسافر غدا أو بعد غد إلى الإسكندرية .

وفطن عثمان إلى ما سيقوله الباشا فقال :

— وقد تمر سعادتك على جمعية الفتيات الصالحات .

فقال الباشا فى هدوء :

— قد أمر على الجمعية ، أو قد أبعث مع أحد الراتب الذى نرسله إليها .

فقال عثمان وهو ينحنى :

— أتريد سعادتك المبلغ الآن ؟

— لا . جهزه لآخذه معى عند سفرى ..

وسمع صوت محرك سيارة ، وأصاخ الباشا سمعه .. السيارة تدخل فناء القصر ، ونظر الباشا إلى عثمان كأنما يسأله عن القادم فى هذه الساعة ، فهز

عثمان كتفيه ولاح فى وجهه الدهش ، فما كان ينتظر قدوم إنسان مترف فى ذلك الجو الخانق الذى يكاد يزهق النفوس .

وفتح باب المكتب ودخل عبد الخالق يتفصد منه العرق ، وقد احمر وجهه كقطعة من حديد منصهر ، يكاد العرق المتسرب إلى عينيه يطفىء إشعاعات الغضب ، ولكن نفسه المنبهر وصدره الذى يعلو وينخفض ، والتقطيبات التى فى جبهته التى امتزج فيها التراب بالعرق فرسمت خطوطا رفيعة من الطين ، كل أولئك كانت توحى بالثورة العارمة المشتعلة فى جوفه .

وأحس الباشا انقباضا لما وقعت عليه عيناه ، فطن إلى أنه ما جاء فى هذا الجو القاتل إلا ليثير الزوابع والأعاصير ، فما من مرة جاء فيها إلا جاء بالمتاعب ، وأراد أن يرطب جوفه قبل أن تهب العواصف التى تجفف ريقه ، فصب فى الكوب ماء مثلجا ثم تجرعه وهو يرقب ابنه الثائر وهو يتقدم نحوه .

ووصل عبد الخالق إلى الكرسى الموضوع أمام المكتب ، فوضع يده على مسنده ، ونظر إلى عثمان نظرة طويلة كان فيها أمر له بالانصراف ، ولم يستطع عثمان أن يصمد أمام نظرته فسرعان ما أسبل جفنيه ثم دار على عقبيه وانصرف .

وراح الأب والابن يتبادلان النظر لحظات صامتة وإن كانت مفعمة بالإحساسات ، واستبد بكل منهما شعور بأن الذى أمامه غريمه الذى يريد أن يقضى عليه ، ورأى الأب فى عينى ابنه تحفزا للهجوم ، فنهض وقد تأهب ليرد الهجوم بهجوم أقسى منه وأمر .

قال عبد الخالق فى غضب وقد ضاقت عيناه :

— أريد أن أعرف لماذا تكرهنى ؟ لماذا تضطهدنى ؟ لماذا تعمل على خراب بيتى ؟ لماذا تجد متعة فى تعذيبى ؟ لماذا تفرق بينى وبين حلمى ؟ لماذا تحرمنى وتغدق عليه ؟

— أنا حر فى مالى ، أفعل به ما أشاء ، وأنفقه كما أشاء ، ليس لأحد أن يحاسبنى عليه ، ومن قال لك إنك قد عينت وصيا علىّ ؟

ـــ لا يا باشا ، لست حرا فى مالك ، العدل يقضى أن تسوى بينى وبين حلمى ، هو ابنك وأنا ابنك ، فإذا كانت أمى قد ماتت ، فهذا ليس ذنبى ، لا يجب أن يقع على رأسى وزره ، لو لم تمت أمى لحننت قلبك على كما تحنن الهانم قلبك على حلمى .

فقال الباشا فى غضب :

ـــ اخرس يا كلب .

فقال عبد الخالق وهو يدنى وجهه من وجه أبيه فى تحد :

ـــ الكلب يريد أن يعرف لماذا تكرهه ؟

فقال الباشا وهو يزفر فى صوت مسموع :

ـــ إننى أكره أفعالك ، أمقت تصرفاتك الرعناء ، أتريد أن أعطيك مالى الذى جمعته بعرق جبينى لتنفقه على الرقعاء الذين تتخذهم أصدقاء ، على بطانة السوء الذين تزكم روائح فضائحهم الأنوف ، على مرسى الذى يدير بيته للدعارة ، وعلى الممثلة التى تتندر المجتمعات بما تفعله مع الفتيات ؟ كيف تنحدر إلى هذا وبيوتنا لا تزال مغلقة محرمة حتى على الأشراف من الغرباء ؟ أتريدنى أن أنتظر حتى أسمع فى المنتديات أن زوجة ابنى قد فرت مع ممثلة ؟ والله لموتك جوعا أهون علىّ من هذا .

فقال عبد الخالق فى انفعال :

ـــ إذن أمرت البنوك بألا تقرضنى وهددتها بسحب كنوزك لتميتنى جوعا !

فقال الباشا فى نبرات فيها انتصار وإن لم تخل من قسوة :

ـــ لتنفض بطانة السوء من حولك ، أتحسب أنهم يصادقونك لسواد عينيك ؟ إنهم يطمعون فيك .

فقال عبد الخالق وهو يضرب المكتب بقبضته فى حنق :

ـــ تريد أن تطهرنى بالموت ؟! يا لقسوتك ! من قال لك إننى قاصر ؟ ولماذا تحجر على تصرفاتى ؟ أنا حر . أصادق من أشاء ، وأقترض كما أشاء ، وأفعل

ما أشاء .

فقال الباشا معترضا :

— لا .. لست حرا فى تصرفاتك ، فحماقتك التى ترتكبها تسىء إلى سمعتى .. تضرنى ..

فقال عبد الخالق وهو يكاد ينفجر من الغيظ :

— حماقاتى التى لم أرتكبها إلا فى وهمك تسىء إلى سمعتك ، تضر بمصالحك ، أما أن يرافق حلمى فتاة نمساوية وأن يغرر بها وأن تحمل منه ، فهذا لا يسىء إلى سمعتك ولا يخدش كبرياءك !

فقال الباشا مكابرا :

— هذا كذب ، هذا افتراء . لم يحدث شىء من هذا .

— والخمسمائة الجنيه التى دفعتها ثمنا لسكوت الفتاة ؟

— لم أدفع شيئا .

فقال عبد الخالق فى حدة وقد ازداد فى حنقه إنكار أبيه :

— بل دفعتها لبثينة .

فقال الباشا فى صوت عال :

— كذابة ، إنها مثلك تكرهنا ، لا هم لها إلا أن تسىء إلينا ، ولكن لن يصدقها أحد مهما قالت ، فالكل يعرف أنها موتورة لأننى أقاوم نزواتها .

فقال عبد الخالق وهو يلهث :

— أنت ظالم . أهذا جزاؤها بعد الذى فعلته لإنقاذ سمعتك وسمعة ابنك ؟ لإنقاذ شرفك الذى تخشى أن يلوثه ؟ لو كانت تحقد عليكم كحقدكم علينا لما ذهبت إلى إيفا وحدها تغريها بالمال وتخوفها سلطانكم الجائر وتزين لها الفرار ، ولذهبت إليها مع وفد من محررى صحف المعارضة ، ليتها فعلت . ليتها فضحتكم ، ليتها مرغت كبرياءكم فى التراب .

فقال الباشا وهو ضيق الصدر :

— تتمنى الفضيحة لنا يا عبد الخالق ؟ أعرف أنك تكرهنا ، ولكنني ما كنت أظن أبدا أن كرهك لنا يبلغ هذا الحد ! يا سافل .. يا كلب .. يا منحط .. اخرج .

— أنت الذى علمتنا هذا الكره . أنت الذى غرسته فينا ، أنت الذى سقيته بقسوتك ، وأنت الذى ستجنى مره وحنظله .

وأراد الباشا أن يضع حدا لهذه المشادة التى تضيق أنفاسه ، فقال كعادته :

— تهددنى يا وغد ، تريد أن تقتلنى ، أن تفترسنى ، أن تقضى علىّ لترثنى ؟ ولكن لا . لن أموت ... لن أموت أبدا قبل أن أكسر أنفك وقبل أن أذلك ، وقبل أن تتضور جوعا أنت والخبيثة التى معك .

اخرج ، اغرب عن وجهى فلست ابنى ولا أريد أن أراك بعد اليوم أبدا .. أبدا .

انفتح الباب ودخل عثمان مهرولا ، وانطلق إلى الباشا يهدئه :

— أعصابك يا باشا .. والدنيا حر .. ما الذى ستكسبه لو انفجر لك شريان أو أصبت بفالج ؟

وغادر عبد الخالق الغرفة كعاصفة هوجاء وهو يزمجر غاضبا ، وزاد فى حنقه ذلك اليأس الذى يتسرب إلى نفسه ، وراح عثمان يعاون الباشا على الجلوس فى مقعده ، ثم مد يديه يفك له أزرار الجلباب الأبيض الذى كان يرتديه .

وصب فى الكوب ماء مثلجا ، ثم رفع الكوب إلى فم الباشا وهو يقول :

— اشرب يا باشا ..

٢٩

حملت بثينة ابنها ووضعته فى سريره ، وراحت تنظر إليه وفى القلب حب وفى الصدر ضيق ، كانت تحبه بكل جارحة فيها وكان يضايقها عدم اهتمام جده به وإعراضه عنه ، فالباشا بعث يوم مولده بهدية متواضعة لا يزيد ثمنها على جنيهين ، ولم يفكر أن يبارك له بعيد ميلاده الأول حتى بالتليفون ..

إن بعض أصدقائها من رؤساء تحرير المجلات نشروا فى أخبار المجتمعات أنها ستحتفل بعيد ميلاد ابنها الأول ، وقد جاءتها هدايا وبرقيات تهانى من كثيرين ما كان يخطر لها على قلب أن يهتموا بإظهار عواطفهم الطيبة نحوها فى مثل هذه المناسبة السعيدة ، فلا يعقل أن الباشا ، لم يقرأ النبأ ، وإن كان لم تقع عليه عيناه فلا بد أن أحدا من أهل بيته قد لفت نظره إليه أو أخبره به .

إذا كان الباشا أغلق قلبه دون ابنه البكر لأنه يذكره بأيام بؤسه ، كما يقول عبد الخالق ، فلماذا لم يفتح قلبه لحفيده الأول ؟ الرجل يكرهنا ويكره كل ما له صلة بنا ، وإن زوجته الساهية الداهية هى التى تؤجج نار كراهيته وتمدها بالحطب .

جاءت أمينة هانم ذات يوم لزيارتها وعاتبتها لغيابها الطويل عنهم ، وحملت ابنها وراحت تضمه وتقبله وتقسم أنها أحبته ، وتطلب منها أن تبعث به إليها وألا تحرمها منه ، فلن يكون ابن حلمى إذا جاء أغلى منه ، ووضعت فى صدره ورقة مالية من فئة الجنيه .. يا للكهينة ! لن يكون ابن حلمى إذا جاء أغلى منه ، أتحسبنى ساذجة حتى أصدق مثل هذا القول ؟! إننى أفضل عداوة الباشا السافرة على عداوتك المسمومة المغلفة برقة خبيثة ناعمة .

وغطت ابنها بغطاء رقيق ، فقد كانت الليلة من ليالى الصيف التى وهن فيها النسيم وراح يتحرك فى إعياء وضعف ، وما يلبث أن يقف مدة طويلة ثم

يستأنف حركته المتخاذلة التى لا تكاد تحس . ومالت عليه وطبعت على خده قبلة ثم أطفأت النور وانسلت من المكان على أطراف أصابعها .

وذهبت إلى حيث كان عبد الخالق ، كان يرتدى بيجاما من الحرير فوقها روب من الحرير فى لون النبيذ محلى بستان أسود ، ولم يكن وحده بل كان فى رفقة زجاجته وكأسه ، يطفىء بهما إحساسات الألم التى تزخر بها نفسه .. ويغرق فيهما همومه .. ونظرت إليه بثينة فى إشفاق وقالت :

ـــ كفى ، شربت الليلة كثيرا .

فرفع رأسه ونظر إليها بعينين ذهب بريقهما وقال فى يأس :

ـــ حطمنى ذلك الرجل وقضى علىّ .

فراحت تمرر يدها على شعره فى حنان ، وقالت لتبث فيه روح الكفاح :

ـــ لن يحطمك أبدا ، إذا كنت قد كبوت فستنهض مرة أخرى .. ما تزال أمامك فرص كثيرة ، الناس كلهم يلعبون بالمال لعبا هذه الأيام ، إذا كنت قد خسرت من قبل فعاود الكرة هذه المرة وستكسب ، وإذا كان الباشا يصر على أن يغل يده عنا فقد كلمنا مرسى وقال إن صديقه يرحب بإقراضنا ما نريد .

فقال عبد الخالق فى استغراب :

ـــ كيف يرحب بإقراضنا وهو لا يعرفنا ؟

فقالت بثينة فى حماس :

ـــ قال مرسى إن الرجل رآنا أكثر من مرة ، ويعرفنا جيدا ، وإن كنا لا نعرفه بعد .

ووضع عبد الخالق كأسه وقال :

ـــ ولماذا يقرضنا دون ضمان ؟

فقالت بثينة وهى تبتسم :

ـــ جمع الرجل أموالا كثيرة أثناء الحرب ، وفطن إلى أن المال وحده لا يكفى ليجعل منه ما يريد ، أمنيته أن يندمج فى الطبقة الراقية وأن يصبح واحدا منها .

وهو بتعرفه بنا ومصادقته لنا يدخل هذه الطبقة من أوسع أبوابها ، إنه يؤدى لنا خدمة ، لنؤدى له خدمة ، وسيستفيد ممن سيعرفهم عن طريقنا أضعاف المبلغ الذى سيقرضه لنا ، إنها صفقة .

ودفعت زوجها فى رفق وقالت :

— قم .. لم يبق إلا نصف ساعة على حضوره مع مرسى ليحملنا إلى المكان الذى دعانا للعشاء فيه .

فقال وهو ينهض :

— أمر هذا الرجل غريب ، ولماذا يأتى إلينا بنفسه ليحملنا ، أما كان يكفى أن يحدد الميعاد والمكان وأن ينتظرنا هناك ؟

— يريد أن يتم التعارف بيننا ونحن فى الطريق ، حتى إذا ما جلسنا حول المائدة تسامرنا كما يتسامر الأصدقاء . هيا أسرع . إننى ذاهبة لارتداء ثيابى .

فقال عبد الخالق وهو يغادر المكان :

— وهل سيأتى رفعت معنا ؟

فقالت بثينة وهى فى طريقها إلى غرفتها :

— قلت لمرسى إن رفعت سيزورنا الليلة ، وإننا لا نستطيع أن نتركه وحده ، فقال لى إن رفعت مدعو معنا .

ودخلت غرفتها ، وأخذت تتزين ، وبطبيعة الأنثى راحت تتفنن فى إبراز كل فتنتها ، وكانت حركاتها كلها تشع دفئا وحرارة ، فقد كانت تبنى آمالا على هذه المقابلة ، وتمنى نفسها بقرض يعاونها على الصمود فى وجه الباشا ، ويحطم حصاره الذى ضربه حولها وحول زوجها ليذل كبرياءهما .

وجاءت الخادم وطرقت الباب فى رفق ، ثم قالت :

— رفعت بك فى الصالون .

فقالت بثينة وهى تضع الروج فى شفتيها :

— قادمة حالا .

وتفرست فى المرآة تعاين زينتها ، وأصلحت ثوبها وربتت على شعرها ثم انطلقت إلى غرفة الاستقبال يسبقها عطرها النفاذ ، فلما لمحها رفعت قام إليها يصافحها فى رقة ، وعيناه تتدسسان فى شغف فى صدرها . كان يشتهى أن يخلو بها يحادثها ويقص عليها النكات الجنسية التى تأهب لإلقائها على مسامعها ، لعل ذلك يعاون على هتك ذلك الغشاء الرقيق الذى يفصل بينه وبينها ، لذلك قال ليتأكد من أن عبد الخالق فى البيت :

— وأين عبد الخالق بك ؟

فقالت وهى تجلس :

— إنه قادم حالا .

وجلس بالقرب منها وقال وهو ينظر إلى عينيها الخضراوين اللذين لا يعرف لهما قرار :

— سأقص عليك نكتة سمعتها .

واعتدل فى جلسته ، ونظرت إليه وهى تبتسم فأحس خدرا لذيذا يسرى فى جسمه ، وراح يقول وقد تفتحت نفسه :

— ذهب صديق إلى صديقه وقال له : أريد أن أتزوج فتاة طيبة بنت حلال ، فقال له صديقه : أعرف لك فتاة خاما ، على نياتها ، لا تعرف من أمور الخلاعة شيئا . فقال الصديق : هذه أمنيتى . وتزوج الصديق الفتاة ، ولما قابل صديقه ، ذهب إليه متهلل الأسارير وقال له فى حرارة : أشكر لك هديتك ، إنها فتاة على نيتها حقا ، لا تعرف كيف تستعمل الوسادة ، تصور إنها تضع الوسادة تحتها عندما تنام بدلا من أن تضعها تحت رأسها . حقا إنها لا تعرف من أمور الدنيا شيئا .

وضحكت بثينة ، ولكنها لم تدفعه فى صدره فى دلال كما كان يرجو ، وظلت الغلالة الرقيقة التى تفصل بينه وبينها مسدلة ، وجعل يسدد النظر إلى رأسها الجميل الذى مال إلى الخلف فى رشاقة وهى تضحك ، وإلى شعرها

الفاحم السواد الذى يتوجها ، فهمس فى صدره هامس يستفسر فى شوق : متى ستتخلل أصابعى هذا المخمل الأسود ، وتمر أناملى على هذا الجيد ؟

وجاء عبد الخالق وقال وهو يصافح رفعت :

ـــ هل كلمك مرسى ؟

ـــ أبدا

فقالت بثينة :

ـــ إنه كلمنى وكلفنى أن أدعوك لتناول العشاء معه الليلة ، إننا ضيوفه .

فقال رفعت فى دهش :

ـــ مرسى يدعونا للعشاء الليلة ؟ ماذا جرى فى الدنيا ؟

فقال عبد الخالق وهو يبتسم :

ـــ إذا عرف السبب بطل العجب . الدعوة ليست من مرسى مباشرة إنه يدعونا باسم صديق من أصدقائه للتعرف بنا .

فقال رفعت فى سخرية :

ـــ الآن فهمت ، سيرفع مرسى الستار كما هى عادته ، ثم يدع الممثلين على خشبة المسرح يؤدون أدوارهم دون تدخل منه .

ونظر إلى بثينة نظرة كلها قلق وغيرة ثم قال :

ـــ آسف . إننى أرفض هذه الدعوة .

فقالت بثينة فى دلال :

ـــ كيف ترفض وقد بلغت مرسى قبولنا لدعوة صديقه ؟!

وسره فى أعماقه أنه أصبح مهما حتى إن اعتذاره عن دعوة يقابل بالاعتراض ، وممن ! منها هى التى إن أمرته أن يخوض البحر معها وهو لا يعرف السباحة لخاضه ، فقال فى استسلام :

ـــ أمرى لله .

وسمع صوت نداء سيارة متصل ، فقالت بثينة :

ـــ لقد جاءا .

وكره رفعت أن يصعدا ، كانت الغيرة تلسعه كلما وفد إلى دار عبد الخالق صديق جديد ، فهو يرجو أن يصبح الصديق الوحيد لهذه الأسرة لتتوطد بينه وبين بثينة الصلات التى يحلم بها من سنين ، وقد سره اختفاء الأستاذ بعد أن تدهورت حالة عبد الخالق المالية ، وكان يدبر أمر التخلص من مرسى ، وإذا بمرسى يجلب صديقا جديدا . قال وهو يلتفت إلى عبد الخالق :

ـــ من الأفضل أن نهبط إليهما حتى لا نضيع وقتا .

فقالت بثينة وهى تنظر إلى رفعت :

ـــ ألا يحسن أن ننتظر حتى يصعدا ويستريحا قليلا ؟

فقال رفعت وهو يتحرك :

ـــ يستريحان مم ؟ أكانا يشتغلان فعلة ؟ هيا .

وهبطوا وإذا بسيارة فخمة منتظرة أمام الباب ، كانت حمراء اللون يتألق معدنها ويعكس الأضواء الخافتة المنبعثة من مصابيح الطريق التى لا تزال محجبة بطلاء أزرق خفيف ، ووقف إلى جوارها مرسى يتحدث إلى رجل ممتلئ الجسم ، بارز الكرش ، أسمر اللون ، مفلفل الشعر ، يرتدى بذلة من قماش فاخر ولكنها غير منسجمة ، فى جيبه منديل أبيض ، وربطة الكرفاتة توحى بحداثة عهده بارتداء الثياب الإفرنجية .

ولمحهم مرسى وقال بصوت عال كأنما ينبه صديقه :

ـــ أهلا .. يا مساء النور .

وتقدم عبد الخالق ومد يده يصافح الرجل السمين ، وقال مرسى يقدم كلا منهما إلى الآخر :

ـــ عبد الخالق بك .. شعبان .

فقال عبد الخالق :

ـــ تشرفنا .

وتقدمت بثينة وصافحته ، فرفت على شفتيه بسمة ، والتمعت عيناه ببريق وقال :

— حصل لنا الشرف الكبير .

وصافح رفعت الرجل وهو يتفرس فى وجهه ، فلمح بعض بقع سوداء فى خديه وسحب يده من اليد الخشنة التى تزين أغلب أصابعها المشققة خواتم ذات فصوص كبيرة من الأحجار الكريمة التى أحس رفعت أنها قد هانت فى يد ذلك الجلف ، إنه قد كرهه قبل أن يراه ، وزادت كراهيته له لما فطن إلى نظراته الجائعة التى كاد يأكل بها صدر بثينة العارى ، وإلى ريقه الذى جرى وما كان له من عمل إلا أن يبلعه .

وفتح السائق الباب الخلفى ، كان يرتدى بذلة كحلية لها صفان من الأزرار المعدنية الصفراء ، وعلى رأسه قبعة قصيرة من لون قماش البذلة دائرها من جلد ، وكان شعبان يصر على ارتداء سائقه هذه الثياب حتى يؤكد للناس أنه هو صاحب السيارة ، وحتى لا يخلطوا بينه وبين سائقه الذى كان أكثر منه وسامة .

والتفت شعبان إلى عبد الخالق بك وقال :

— اتفضل يا باشا .

قالها فى نبرات أولاد البلد إذا ما غازلوا فتاة فى الطريق ، فالتفت رفعت إلى مرسى ورماه بنظرة شزراء فهمها مرسى وترجمها فى ضميره الترجمة الصحيحة ، فأحس كأن صوت رفعت يرن فى أغواره قائلا : الله يلعنك

ودفع عبد الخالق بثينة فى رفق وقال لها :

— تفضلى .

وسرت فى شعبان موجة من الكدر ، كان يريد أن يركب عبد الخالق أولا وأن تركب بثينة بعده ، وأن يندس هو إلى جوارها وأن يسعد طوال الطريق بعبيرها وبالحديث معها وبالتمتع بالنظر إلى عينيها الخضراوين وبلذة احتكاك

جسمه بجسمها ، ولكن ما فعله عبد الخالق أبعد بينه وبين ما تمناه ..

وصعد عبد الخالق وهو خلفه وأغلق السائق الباب ثم اتجه إلى مكانه دون أن يفكر فى أن يفتح الباب الأمامى لمرسى ورفعت . وفتح مرسى الباب وجلس إلى جوار السائق وصعد رفعت بعده .

وقال شعبان يأمر السائق :

ـــ الأوبرج .

والتفت رفعت وقال :

ـــ شبرد أو سميراميس أقرب ..

فقال شعبان فى لهجة فيها بعض الحدة :

ـــ صلى على النبى يا إكسلانس .. أنتم ضيوفى الليلة ..

ووضعت بثينة ساقا على ساق فوقعت عينا رفعت على جزء من أسفل فخذها ، فتظاهر بأنه يصغى إلى الحديث الذى بدأ يدور بين الثلاثة الجالسين فى المقعد الخلفى ، وراح يهيم فى الرؤى العذبة التى كان يتخيلها خياله ، ويسعد بالإحساسات اللذيذة التى فجرتها أحلامه وأمانيه .

وانطلقت السيارة فى طريق الأهرام تتفادى أن تصطدم بالسيارات التى وقفت على جانب الطريق بعيدا عن أعمدة النور ، حتى تعمى الأعين المتلصصة عن رؤية ما يجرى بها ، أو أن تضربها من الخلف سيارة من سيارات الجيش البريطانى المزمجرة أثناء جريها السريع ، ومرت بهم سيارة حربية انبعث منها صوت امرأة تضحك ضحكة عالية كلها غنج ، فالتفت الجميع إلى مبعث الصوت ، حتى السائق لم يستطع أن يقاوم الإغراء ، فنظر ، ولكن لم ير أحد منهم شيئا ، وقال مرسى فى دهش :

ـــ هذه أول مرة أرى فيها امرأة تذبح الفضيلة فى سيارة حربية .

فقال رفعت ساخرا .

ـــ غريبة أن تكون هذه أول مرة على كثرة ما رأيت من هذه الأمور !

وقال عبد الخالق :

ـــ فتاة من بنات الهوى لا يهمها المكان ، كل ما يهمها ما فى الجيوب .

وقال شعبان :

ـــ إنها ولا مؤاخذة امرأة إنجليزية تطوعت فى الجيش للترفيه ، وقد عرفت هذا من احتكاكى بالإنجليز ..

وكأنما خشى أن يذهب ذهن أحدهم إلى حقيقة صلته بالإنجليز فقال :

ـــ عرفت الإنجليز عن قرب من كثرة ما وردته لهم .

ونظر إليه رفعت فى غيظ ، وصوت يصيح فى جوفه قائلا : « يا ابن الكلب يا كذاب » .

وأراد أن يؤذيه فقال :

ـــ قص على عامل من عمال « الأورنس » طرفا من حياة فتيات الترفيه .

وصمت الجميع برهة ، كان رفعت يفكر فى شعبان ، إنه سمع قصته من بعض موظفى التموين قبل أن يراه ، ويعلم بالسماع تاريخ حياته ونشأته ، وأحس رغبة فى أن يسحبه فى الحديث وأن يعبث به عبث القط بالفأر ولكنه راح يقاوم هذه الرغبة ويكبح جماحها وكان مرسى يفكر فى النجاح الذى أحرزه ، وهو يعتبر رفع الستار عن مسرحية جديدة نجاحا لا يدانيه نجاح ، وراح عبد الخالق يفكر فى الطريقة التى ينفذ منها للحديث عن القرض الذى سيقدمه له شعبان دون ضمان ، أما بثينة فقد كانت تفكر فى شح الباشا وضيق أفقه وقسوته التى دفعت بها وبزوجها إلى قبول صداقة أمثال شعبان

ودخلت السيارة الأوبرج ووقفت أمام الباب الداخلى ، وأسرع السائق يفتح الباب وهبط كالثور فى أثره عبد الخالق وتحركت بثينة لتهبط وانحسر ثوبها عن ساقيها فخفت نظرات رفعت وشعبان تستبق إليها ، وضبط رفعت عينى شعبان وهما تسترقان النظر لمفاتن بثينة فأحس إحساس من يرى غريبا يسرقه حقه .

وراحوا يصعدون فى الدرج ، وحرص كل من رفعت وشعبان أن يصعد خلف بثينة ليسعد بمراقبة ارتجاج الفتنة ، وراح مرسى يصعد خلف الجميع يحلم بالعشاء الفاخر الذى سيتناوله والشراب اللذيذ الذى سيملأ به جوفه ..

وبلغوا الردهة الواسعة التى صفت فيها الموائد حول حلقة الرقص ، وانتشرت فيها الأضواء الحمراء الخافتة التى تثير كوامن المشاعر وتوقظ الرغبة المشتهاة ، وكانت أغلب الموائد حولها ضباط الحلفاء والباحثات عن الاسترلينى والدولار .

وقادهم رئيس السقاة إلى مائدتهم المحجوزة ، كانت على حافة حلقة الرقص فى مواجهة الأوركسترا ، وكانت الموسيقى تعزف الدانوب الأزرق فسحب شعبان كرسيا محدثا صوتا وقال بصوت عال وهو يلتفت إلى بثينة :

— تفضلى .

والتفت الجالسون حول المائدة المجاورة إليه وفى عيونهم استنكار : ولم يأبه بهم فقد عزم على أن يجلس إلى جوارها وأن يسعد بها طوال السهرة ، وجلست بثينة بينه وبين زوجها ، وجلس رفعت ومرسى أمامهم .

وقالت بثينة لمرسى :

— لماذا لم تأت الست ؟

وفهم مرسى أنها تقصد الممثلة الكبيرة ، فقال :

— والله إنها لمشغولة جدا هذه الأيام .

وقال رفعت ساخرا :

— بلغنى أنها تستعد لإقامة حفلة خاصة للفتيات .

ورفت على شفتي بثينة بسمة والتمعت عينا عبد الخالق سرورا وأحس مرسى قهرا وتمنى لو أن الأرض تنشق وتبلع رفعت ، ورأى شعبان أن يشترك فى الحديث على الرغم من أنه لم يفهم تعريض رفعت ، وقال :

— جميل أن تحافظ الست على أخلاق الفتيات .

ونظر إليه رفعت فى غيظ وصوته يرن فى جوفه قائلا : « يا ابن الكلب ! » .

وظهرت راقصة تدل ملامحها على أنها ليست مصرية ، وأخذت ترقص رقصا شرقيا ، تتأود وتتثنى كأنها فى مخدع ، وشعبان يرقبها فاغر الفم حتى إذا ما انتهت من رقصتها قال :

ـــ لحم مشفى .

فقال رفعت :

ـــ لا شك أنه سبق توريده للجيش البريطانى ، ولكن لا بأس فالشيء الواحد يورد للإنجليز أكثر من مرة .

ونظر مرسى إلى رفعت فى رعب وهو يتساءل فى نفسه ، أقال ما قاله دون قصد أم يقصد ما يقول ؟! وأراد شعبان أن يفلت من تجريح رفعت فالتفت إلى كبير السقاة يطلب الشراب والطعام ويسأل كلا منهم عن الشراب الذى يفضله .

وذهب الرجل ، والتفت شعبان إلى بثينة يحادثها ، وضايق رفعت ذلك فقال :

ـــ هل سمعتم آخر نكتة عن غنى الحرب ؟

ولم ينتظر منهم جوابا ، يكفيه أنهم التفتوا إليه كلهم ، فراح يقول :

ـــ جاء السكرتير إلى غنى الحرب يقرأ عليه البطاقة التى سترسل لدعوة أصدقائه لتناول العشاء فى داره ، قال : « يتشرف الحاج محمد جعلص بدعوة سعادتكم غدا ... » وقاطعه غنى الحرب محتجا : « لا عشا » .

وضحكت بثينة ونظر عبد الخالق إلى رفعت نظرة عتاب ، أما مرسى وشعبان فقد لاحت فى جبهتيهما تقطيبات .

وجاء الطعام ، كان أكداسا من اللحم ، وراح الرجل يخدم القوم ، وضع فى صفحة بثينة قطعتين ، ووضع أمام عبد الخالق قطعة واحدة وشكره

عبد الخالق قبل أن يضع الثانية وأمره شعبان أن يمر على مرسى ورفعت أولا ، ثم أشار له بأن يضع كل ما بقى أمامه .

ولحته بثينة وهو يأكل فتقززت نفسها ، كانت تحسب أن الأستاذ نهم لما يأكل الدجاجة كلها فى أربع دفعات إلى فمه ، فإذا بها تجد نفسها إلى جوار وحش يفترس اللحم افتراسا ..

وطفق يأكل ويعب الشراب عبا ، وفطن إلى أن عيونهم صوبت إليه فلم يخجل بل قال فى بساطة :

ـــ إننى ضعيف أمام اللحم ، عدت ذات ليلة إلى البيت ووجدت الطباخ قد حمر عشرة أرطال استعدادا لوليمة كنت سأقيمها فى اليوم التالى ، ووضعها فى الثلاجة وهو مطمئن ، فلما رأيتها أكلت منها ثم ذهبت إلى فراشى ، وطار النوم من عينى . كنت أذهب إلى الثلاجة آكل من اللحم ثم أعود إلى الفراش ، ولم تهدأ نفسى ولم يعرف النوم طريقه إلى عينى إلا بعد أن أتيت على اللحم جميعه . أصدقائى يقولون إننى أستطيع أن أتوجه إلى دكان الجزار وأنا معصوب العينين .

وضحك مرسى وضحكت بثينة . وشغل عبد الخالق بالشراب ، وبدأ شعبان يتألق ويحادث بثينة ، ورأى رفعت أن يبعده عنها ، فنهض واتجه إلى بثينة يدعوها للرقص ، لم يرقص معها من قبل ولكن غيرته أمدته بشجاعة لم يكن ليعهدها فى نفسه .

واتجها إلى حلقة الرقص وشعبان يتميز غيظا ، وراحا يرقصان فى رشاقة ، ومال رفعت يهمس فى أذن بثينة ويقول :

ـــ الحمد لله لأن الملك ليس هنا الليلة ..

ـــ وما الذى يضايقك من وجوده ؟

فقال وهو يبتسم :

ـــ لو كان هنا لخطفك .

فقالت بثينة وهى تنظر إليه بعينيها الخضراوين اللتين تعرفان طريقهما إلى سويداء فؤاده :

ـــ اطمئن . الملك لا يخطف إلا الأرتستات وبائعات الهوى .

٣٠

فى عصر اليوم التالى لذلك اليوم الذى احتدمت فيه المناقشة بين الباشا وابنه البكر ، خرج الباشا يطوف بأراضيه قبل أن يغادر العزبة ليقضى فى الإسكندرية أياما . ركب سيارته التى يطوف بها وركب إلى جواره عثمان ، وهبت نسائم حارة لسعت الوجوه فأشاح الباشا بوجهه وأخرج من جيب جلبابه الأبيض منديلا وضعه تحت الطربوش اتقاء للحر اللافح .

وانطلقت السيارة بين الحقول الخضراء والباشا يتلفت يفحص عن المصارف والقنوات والجسور وأعمال المحاريث الميكانيكية ومضخات المياه ، وأمر السائق أن يقف ، والتفت إلى عثمان وقال فى حدة :

ـــ من الذى أمر بقفل هذه القناة ؟

وتلجلج عثمان ، وهبط من السيارة وأسرع إلى الفلاح الذى كان يعمل بالقرب من المكان وراح يحدثه ويسأله وينهره ، وهرول الرجل يفتح القناة وهو يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يغلقها ولا يعرف من الذى فعل ذلك .

واستأنفت السيارة سيرها ، ولاحت حقول القطن وأعواد الذرة ، وقامت أشجار الكافور والسرو والسنط تمد بعض رقع الأرض بالظل ، ليحتمى تحتها الذين يعملون فى الفضاء من شروق الشمس حتى غروبها ساعة من نهار ، وارتفعت أشجار النخيل سامقة كأنها حراس ساهرة لا تغفو لها عين ، وانتشرت أشجار الأتل بأوراقها التى التفت كالإبر وجرت المياه كالشرايين تبعث فى الأرض الهامدة الحياة .

ووقعت عين الباشا على شيء أنكره ، فأمر السائق أن يقف ، وخفق قلب عثمان وراح يتساءل فى نفسه : ترى ما الذى رآه ؟ وهبط الباشا واتجه إلى مجرى الماء وقال وهو يشير بأصبعه ناحية الضفة الثانية :

— كان هناك عود ، من الذى اقتلعه ؟

ولم يجادله عثمان ولم ينبس بكلمة ، بل راح يتلفت بعينين قلقتين ، فالباشا يعرف كل نبتة وكل عود شجرة فى أرضه التى كانت تزحف لتبلغ عشرة آلاف من الأفدنة ، وكان الجميع يرهبونه ويقولون للتدليل على إلمامه بكل ما تخرجه أرضه : إنه يعلم عدد البلحات التى فى كل نخلة !

وعاد الباشا إلى السيارة وهو يزمجر غضبا ، وعثمان يتلقى أوامره فى صمت ، وقال الباشا :

— غدا موعد الحوض الشرقى ، أتذكر ؟

فقال عثمان وهو ينظر إليه هذه المرة :

— أعددت كل شىء ، سيبدأ الرى مع الفجر .

ورأى عثمان أن يجره إلى خوض حديث بعيد عن العزبة ، لعل عينه الصاحية تغفل عن بعض الهنات التى تقع عليها ، فقال :

— الصحف كلها تتحدث عن مدينة الأوقاف ، وتمجد ذلك المشروع العظيم .

فقال الباشا فى حدة :

— كل من مجد فى هذا المشروع مغفل ، لقد عارضت هذا المشروع بشدة ، قلت لرفعت الباشا إن كل مشروع يأكل جزءا من الأرض الصالحة للزراعة هو مشروع ضار بنا ، ضار بمستقبلنا وبمستقبل أبنائنا ، إنه يقلل من الرقعة المنزرعة على الرغم من أنها لا تفى الآن بحاجاتنا ، فكيف بها فى المستقبل . قالوا : القاهرة لا بد أن تتسع ، قلت : مجال اتساعها الطبيعى هو الصحراء وليست الأرض الطيبة التى تزرع خضروات ، ولم يستمعوا لنصحى ، وكان أكثر

الوزراء معارضة لى أولئك الذين شبوا فى المدن .

وبدأت نفس عثمان تهدأ ، وراح يصيخ السمع وهو مطمئن القلب ، حسب أن الباشا غفل عن أرضه بالحديث الذى خاضه فى حماسة ، ولكن سرعان ما صاح الباشا فى السائق وقال :

ــ قف .

وطارت من قلب عثمان الطمأنينة التى بدأت تعشش فيه ، وهبط مسرعا خلف الباشا الذى اتجه إلى شجرة وجعل يتفرس فى روث البهائم الذى انتشر حولها ، وقال فى حدة :

ــ كانت بهيمة مربوطة هنا ، أمرت ألا تربط البهائم أبدا ، لا بد أن أعرف بهيمة من التى كانت مربوطة هنا ؟ لا بد أن أعرف الآن .

وراح يغدو ويروح وهو غاضب ، وهرول عثمان هنا وهناك ، وراح يسأل هذا وذاك وعاد مبهور الأنفاس وقال :

ــ إنها جاموسة خفير الليل . ربطها هنا لتكون تحت عينيه حتى لا تسرق .

فقال الباشا فى غضب :

ــ بلغه أننى سأقطم رقبته إذا عاد لفعل ذلك .

وانطلقت السيارة وعن يمينها ويسارها أعواد القطن وقد برئت من آفاتها تنتظر جموع الفتيات العاملات على جنى حملها العزيز ، ووصلت إلى شريط من الأرض يحرثه محراث يجره ثور ، فوقف الباشا يرقب العمل وقد مالت الشمس للغروب ، ولمح الفلاح يلكز الثور فى بطنه لكزة قوية فانتفض من الغضب وانطلق إلى الرجل والغيظ يأكل قلبه ، وانقض عليه يخنقه ويصيح به :

ــ أتريد أن تقتله ؟ أتريد خراب بيتى ؟ يا ابن الكلب ستخرب بيتى .

وظل يضغط على رقبة الرجل بقوة ، والرجل يحاول أن يخلص رقبته من اليدين الحديديتين اللتين تكتمان أنفاسه ، وأسرع عثمان يصيح :

ــ يموت فى يدك يا باشا .. الرجل سيموت .. سيموت ..

فقال الباشا وهو يهز الرجل هزات عنيفة :

ـــ والله لأن يموت هو وأهله أهون من أن يموت الثور ..

ودفع الرجل دفعة قوية فسقط على الأرض يتدحرج .

واختفى قرص الشمس فى الأفق الغربى ، فخرست الآلات ، وأخذ الرجال والنساء يعودون إلى القرية ، وراح الأولاد يسوقون الثيران والعجول إلى حظائرها ، وغفت الحياة ولم يعد يتنفس فى ذلك الفضاء المترامى الأطراف إلا الزرع وحراس الليل ..

وهجعت الأصوات وما كان يهتك غلالة السكوت إلا صوت سيارة الباشا ، وهى منطلقة فى طريق عودتها بالقرب من حقول الذرة ، ودوى فجأة فى المكان صوت رصاصة منطلقة ، فصاح عثمان فى السائق :

ـــ أسرع .. الرصاص مصوب إلينا ..

وانطلقت السيارة تسابق الريح والباشا يزمجر ويسب ويلعن ، ويهدد ويتوعد ، ويرغى ويزبد ، وعثمان صامت لا يفتح شفتيه بكلمة ..

ووقفت السيارة أمام السراى ، وهبط الباشا منها وهو حانق ، والتفت إلى عثمان وقال :

ـــ لا بد أن أعرف الليلة ذلك المجرم الذى أراد قتلى ، لن أبرح العزبة قبل أن أعرفه وأعرف لماذا يريد قتلى ، وماذا سيستفيد من موتى .. يقتلنى أنا ؟! أنا الذى أغرقت كل هؤلاء الكلاب بأفضالى ، أنا الذى أشبعتهم بعد جوع وكسوتهم بعد عرى ، يا للجحود ! يفكرون فى قتلى أنا ؟!

وقال عثمان فى ملق :

ـــ تفضل أنت يا باشا ، ولن تغمض لى عين قبل أن أعرف الفاجر ابن الفاجرة ..

فقال الباشا فى إصرار :

ـــ لا بد أن أعرف من هو قبل أن أسافر الليلة ..

وراح الباشا يصعد فى الدرج يحس كأن حملا ثقيلا على ظهره ، وعاد عثمان بالسيارة إلى القرية ..

ومر الوقت وئيدا وئيدا والباشا ثائر يكاد الغضب يمزق صدره ، وسمع صوت سيارة قادمة من بعيد فخف إلى الشرفة ينظر وهو يلهث من الغيظ ، وقفت السيارة عند باب السراى وهبط منها عثمان ، فأسرع الباشا يستقبله عند رأس السلم ، فلما لمحه صاعدا ، قال فى لهفة :

ــ هيه ! ماذا وجدت ؟

فصمت عثمان وإن أسرع فى الصعود ، فصاح الباشا به :

ــ انطق ..

فقال عثمان ليثير حب الاستطلاع فى الباشا ويؤجج نار لهفته :

ــ والله لا أدرى ماذا أقول ..

وكان عثمان قد وصل إلى حيث وقف الباشا ، فدنا منه الباشا وقال :

ــ قل ..

ــ ماذا أقول ؟ كل ما سمعته همهمة .. شائعات ليس لها من سند ، ولا يمكن أن يصدقها عقل !

فقال الباشا وقد ضاق به ذرعا :

ــ قل ماذا سمعت ؟

ــ ما سمعته لا يعقل ، ولا يمكن أن ينطق به لسان ..

فقال الباشا فى عنف :

ــ تكلم .. انطق .. قل ..

فقال عثمان فى استسلام :

ــ أقول وأمرى لله ، وأستغفر الله ..

وصمت قليلا ثم قال :

ــ يقولون إن عبد الخالق هو الذى حرض على الباشا ، مجرد قول ..

وقال الباشا فى ثورة :

ــ عبد الخالق يريد أن يقتلنى ليرثنى ، لينفق أموالى التى جمعتها بعرق الجبين على الفارغين والرقعاء من الممثلات ؟ لا يا عبد الخالق لن أموت قبل أن أقتلك حسرة وكمدا ، سأعيش يا عبد الخالق لأمرر حياتك ولأسقينك العلقم والصاب ..

والتفت إلى عثمان وقال آمرا :

ــ اطلب عبد الخالق الآن وقل له الباشا لم يمت ولن يموت قبل أن يواريك التراب ..

ووقف عثمان صامتا ، فصاح الباشا به :

ــ تحرك ..

واتجه عثمان إلى التليفون وراح يطلب :

ــ ألو .. أريد القاهرة ..

وقال الباشا وهو يغادر الغرفة :

ــ بلغه كل ما قلته لك .. فاهم ؟! قل له إن الرجل الذى أجره خائب مثله .. فاهم ؟! قل له إن الباشا سيعيش حتى يدفنه .. فاهم ؟!

وغاب الباشا فى القصر ، وجلس عثمان ينتظر المكالمة وقد تهللت أساريره ، وارتسمت على شفتيه بسمة انتصار ..

وعاد الباشا بعد أن ارتدى ثيابا فاخرة وتأنق وتعطر ، وقال لعثمان :

ــ سأسافر الآن إلى الإسكندرية ، ولا تنس أن تقول للكلب عبد الخالق كل ما قلته لك .

فقال عثمان مظهرا اهتمامه بالباشا :

ــ أتسافر بالسيارة أم بالقطار ؟

ــ بالسيارة .

ــ أليس من الأفضل أن تنتظر حتى الصباح ، الطريق مظلم و ...

فقاطعه الباشا قائلا :

ـــ سأختنق لو بت هنا الليلة .

وهبط وعثمان فى أثره ، وركب سيارته الفاخرة وانطلق ، وعاد عثمان إلى التليفون مسرورا ، فقد قطع بما دبره الخيط الواهى الذى كان يربط الباشا بابنه البكر ، ولن تعييه الحيل أن يبعد حلمى عن العزبة إذا فكر يوما فى أن يدس أنفه فى أعماله كما فعل أخ له من قبل .

وعاد ينمق الحديث الذى سيدور بينه وبين عبد الخالق ، ورن جرس التليفون رنينا متصلا ، فرفع السماعة فى نشوة وقال :

ـــ ألو .. عبد الخالق بك من فضلك .. من يريده ؟ قولى له : عثمان ابن عمك .

وقلب سماعة التليفون فى يده فى غبطة ، ثم وضعها على أذنه واضطجع ينعم بالمشاعر التى تفجرت بين حناياه ، وجاء الصوت من الطرف الآخر :

ـــ ألو .. أنا عبد الخالق .

ـــ مساء الخير يا عبد الخالق بك .. آسف أن أزعجك فى هذه الساعة ، ولكن الباشا كلفنى بأن أبلغك رسالة ما كنت أحب أن أحملها إليك ، ولكن ...

وصمت ، وقال عبد الخالق فى لهفة :

ـــ قل ، ماذا قال لك ؟

ـــ قال لى ، وأرجوا أن تعذرنى فالقول قول الباشا ، قال إن الرجل الذى أجرته لقتل الباشا خائب مثل سعادتك .

فقال عبد الخالق فى حدة :

ـــ ولكننى لم أؤجر أحدا لقتل الباشا ، ولم يخطر ذلك على قلبى أبدا ..

فقال عثمان وهو يتبسم :

ـــ أنا واثق كل الثقة أنك لم تفعل ، ولكنك تعرف الباشا ، فأرجو أن

تسمح لى حتى أبلغك رسالته .. قال : إنه لم يمت ولن يموت قبل أن يوارى سعادتك التراب ..

آسف يا عبد الخالق بك ، ولكن هذه هى رسالة الباشا . أرجو أن تغفر لى وأن تقبل عذرى .

ـــ ولكن يا عثمان هذا ظلم . هذا افتراء . لم أفكر أبدا فى قتل الباشا

فقال عثمان متظاهرا بالإشفاق :

ـــ أعلم هذا ، ولكن ما باليد حيلة ، انتهت رسالة الباشا ، تسمح سعادتك تضع السماعة .

وسمع عثمان صوت السماعة ، فألقى بسماعة التليفون وفرك يديه سرورا .

٣١

انسابت السيارة فى طريق الكورنيش والباشا غارق فى تفكيره ، كان الظلام ثقيلا ، ورائحة البحر تتسلل إلى الأنوف ، والسيارات الحربية فى غدو ورواح ، وقد جلس إلى سور الكورنيش بعض بائعات الهوى والجنود ، وانبعثت ضحكات خليعة وصيحات مخمورة فى عربات الحنطور .

وانحرفت أمام سيارة الباشا عربة حنطور راح السائق يتفاداها فى جهد ، ونظر الباشا فرأى جنديا بريطانيا فى مكان الحوذى وقد وضع على رأسه طربوشه ، وقبض بيديه على أعنة جوادين هزيلين يكادان أن يسقطا إعياء ، والتقت عينا الباشا بعينى البريطانى ، فقال الجندى فى صوت رفيع :

ـــ ما رأيك فى أن نتسابق وللفائز جنيه .

وضحك رفاقه الجالسون فى العربة ، ومالوا على الفتيات اللاتى كن إلى جوارهم يلثمونهن ، وقال قائل منهم :

ـــ ارفع الرهان إلى خمسة جنيهات ليشرب كل منا بجنيه ، إننا سنكسب

الرهان بلا شك .

وقال جندى رفيع جدا وهو يكور يده ويضرب بها فى الهواء :

ـــ سنكسبه بهذا سواء أهُزمنا أم انتصرنا .

وقال الجالس مكان الحوذى وقد رفع إبهامه وسبابته على هيئة V : Victory النصر لنا .

وضاق صدر الباشا ولكنه اضطر إلى الصبر ، رأى السائق يحاول أن يمر أمام الخيل فنهاه عن ذلك خشية أن يدفع السكير القابض على الأعنة بالخيل إلى الأمام فترتطم بالسيارة ، وقال له :

ـــ اصبر حتى يتأهب للسباق ثم انطلق أنت بأمان .

وأطل الباشا برأسه من النافذة القريبة منه وقال للحوذى باللغة العربية :

ـــ لا يمكن أن يبدأ السباق وهو يسد علينا الطريق ، الواجب أن نقف نحن وهو فى صف واحد .

وراح الحوذى يقول للجنود بلغة إنجليزية ركيكة :

ـــ قبل الرجل الرهان وهو يطلب أن نقف نحن وهو فى صف واحد .

وصاح الرجال المخمورون فى نشوة :

ـــ هذا عدل ، وما من رجل عاقل يرفض المعقول .

وراح الحوذى يعاون القابض على الأعنة على أن تعود الخيل إلى سواء السبيل ، وتقدمت السيارة ليقف عن يسار العربة ، ووقعت عينا الباشا على فتاة صغيرة بيضاء البشرة ذهبية الشعر جالسة بين جنديين ، فأتأرها النظر برهة ثم قال للسائق :

ـــ انطلق .

وانطلقت السيارة وانطلقت فى أثرها الصيحات واللعنات والسباب ، وعاد الباشا واضطجع فى جلسته ، وإذا بصورة الفتاة التى رآها تلح على ذهنه ، وإذا به يتذكر الفتاة النمساوية التى كان يعاشرها حلمى والتى طردها من البلاد

وهى حامل بحفيده ، وخطر له أنها لو كانت وضعت أنثى ، فقد تصبح بعد عشرين سنة كهذه الفتاة الصغيرة ترفه عن الجنود فى بلد ما إذا ما نشبت الحرب ، وما أيسر الأسباب التى تنشب من أجلها الحروب .

وضايقه ذلك الخاطر الذى لا يدرى سبب وفوده على رأسه فى هذه الساعة ، وأضفى على روحه مسحة من كدر ، وراح يطرد ذلك الوهم السخيف الذى يعكر صفو نفسه بعد أن بدأت تهدأ وتهفو إلى المشاعر الرقيقة التى تدغدغ روحه كلما فكر فيما هو مقبل عليه الليلة .

ووقفت السيارة أمام فيلا من طبقتين تطل على الكورنيش وعلى شارع خلفى ، لها بابان يؤدى كل منهما إلى شارع ، ويقود إلى الفناء الواسع الذى قامت الفيلا فى وسطه . وتقدم الباشا ثابت الخطو ، ولم يصعد فى الدرج الرخامى الكبير المواجه لطريق الكورنيش بل دار حول الفيلا ، وقبل أن يصل إلى الدرج الخلفى المواجه للباب الخلفى ، صعد بضع درجات فى سلم ضيق جانبى وبلغ بابا صغيرا وأزاح غطاء سحريا فى الحائط فإذا بجرس تحته ، وراح يضغطه ضغطا خاصا كأنما يبعث إشارة لاسلكية .

ومرت لحظات سمع بعدها صوت قادم يهرول ، وفتح الباب فى حرص وظهرت الست أنهار فى ثيابها السوداء الطويلة التى تخفى صدرها وذراعيها وساقيها ، ولما وقعت عيناها على الباشا تهللت أساريرها وقالت :

— أهلا وسهلا ، والله لقد فكرت فى سعادتك من لحظات .

فقال الباشا وهو يبتسم :

— قلب المؤمن دليله .

فقالت وهى تفسح له الطريق :

— تفضل . تفضل . كم أنا مسرورة ، والله أكاد أطير من الفرح .

وتقدم الباشا وقد ارتسمت على وجهه سعادة ، وتألقت عيناه ببريق خاطف كله مرح وعربدة ، وقالت :

ـــ والله هذه ليلة مباركة .

وانطلقا إلى الغرفة الشرقية .. كان بابها مطعما بصدف ، وفى أركانها حوامل مسدسة الشكل مصنوعة صناعة عربية ، عليها أباريق من نحاس أحمر ، وفرشت أرضها بسجادة عجمية كبيرة وانتثرت فيها مقاعد أسطوانية من الجلد وأسندت إلى الحائط أرائك منخفضة أمامها مناضد قصيرة مطعمة بالصدف ، وكانت الأسجاف المصنوعة من المخمل مسدلة على النوافذ والأبواب ، وتدلت من السقف ثريا أسطوانية من نحاس أصفر بها مصابيح كهربية تسلط أنوارها إلى السقف فينعكس منه الضوء هادئا نقيا شاعريا .

وكان فى صدر المكان صورة كبيرة لامرأة عارية ، اضطجعت فى مخدعها فى وضع يسمح بإبراز كل مفاتنها ، وعن يمينها ويسارها تمثالان من برونز لرجلين عاريين يتطلعان إلى الصورة فى نهم ، وقد سلط نور كشاف على الصورة والتمثالين جميعا .

وعلقت على الحائط الأيمن صورة لآدم وحواء وهما يرتكبان الخطيئة الأولى ، وعلى الحائط الأيسر صورة امرأة عارية من ظهرها قد التفتت تنظر من فوق كتفها وتغمز بعينها .

وجلس الباشا تحت الصورة الكبيرة التى تكاد تغطى صدر المكان ، وروائح المسك والعنبر تملأ أنفه ، وظلت الست أنهار واقفة ، فرفع الباشا رأسه وقال لها :

ـــ اجلسى .

وجلست على الأرض عند قدميه ، وقالت :

ـــ مضت مدة طويلة لم تشرفنا فيها .

فقال الباشا وهو يخلع طربوشه ويضعه إلى جواره :

ـــ ألا لعنة الله على الألمان والإنجليز والأمريكان وعلى حلفائهم ..

وصمت قليلا ثم قال :

— وكيف حال فتياتك الصالحات ؟

فقالت وقد تهللت أساريرها :

— بخير . وقد أحضرت من القاهرة فتاتين رائعتين كأنما صنعتا من قشدة : إحداهما سبع عشرة سنة ، والثانية تزيد عليها سنة ، خفة دم ، وقوام وجمال ، كلما سمعت الصغرى وهى تغنى تفور دمائى فى عروقى ، ويعود إلى الشباب .

فقال الباشا مجاملا :

— أنت الخير والبركة يا ست أنهار ، إن ذبلت الوردة رائحتها فيها .

فقالت وهى تتنهد :

— من ذا الذى يركب السوارس الآن ؟!

وقامت فالتفت إليها الباشا وقال :

— إلى أين ؟

— أحضر لك الوارد الجديد .

وخرجت وقام الباشا يخلع جاكتته ويفك رباط عنقه ثم جلس وقد شرد ببصره وانبسطت أساريره ، وراح يرقب الباب فى لهفة وشغف

وعادت الست أنهار وهى تدفع أمامها فتاتين رائعتين ، أجمل ما فيهما الشباب المترقرق فى وجناتهما والحيوية المتدفقة والكهرباء التى تشعها العيون ، ورفت على شفتى الباشا بسمة وجرى ريقه وراحت تنبت فى جنباته مشاعر رقيقة حالمة ، وربت بكفيه على الأريكة يدعوهما للجلوس إلى جواره .

وجلست الفتاتان عن يمينه ويساره ، وجلست أنهار عند قدميه وقالت للصغرى :

— غنى .

وارتفع صوت الفتاة آسرا عذبا حنونا ، وراحت تغنى أغنية مشهورة بعد أن بدلت كلماتها بكلمات تروى أغنية جنسية صارخة وتهللت أسارير الباشا وأحس كأن الشباب يراق فى روحه ، والحيوية تتدفق فى عروقه ، واللذة

تدغدغ مشاعره ، فراح يهز رأسه طربا وهو يعصر الفتاتين بذراعيه ويضمهما إليه .

وانسلت أنهار من الغرفة وغابت قليلا ثم عادت تحمل الشراب ووضعته على نضد أمام الباشا ، فراح يصب الخمر فى كأس واحدة ويقدمها إلى الفتاة التى عن يمينه فترشف منها رشفة ، ثم يقدمها إلى التى عن يساره فترشف رشفة ، ثم يضع الكأس على شفتيه ويرشف ما فيها فى سعادة وانشراح .

وراح الباشا يضع شفتيه حيث وضع الكأس من قبل ويعب خمر الشفاه ، ونهضت أنهار وخرجت من الغرفة وقد أحكمت إغلاق الباب خلفها . وفاضت نشوة الباشا فراح يغنى مع الفتاتين الأغنية التى تروى دقائق عملية جنسية كاملة مترعة باللذة .

٣٢

كانت بثينة ورفعت فى غرفة الاستقبال وحدهما ، بثينة تقص عليه بعض ما يضايقها وهو يصغى إليها مسرورا ، فقد روى أمله الذى يعيش عليه أنها بدأت تفتح له قلبها وتبثه متاعبها وتشكو إليه ضعف زوجها ، وهى بحديثها هذا تزيد الغشاء الذى يفصل بينه وبينها رقة على رقته .

قالت بثينة وهى تزفر :

— اتهم الباشا عبد الخالق بأنه حاول قتله ، ففزع عبد الخالق وانخلع قلبه ، وراح يعدو وهو يلهث إلى مكتب الباشا وإلى قصره ويتصل بالعزبة ليقسم للباشا بأنه لا صلة له بذلك الذى أطلق عليه الرصاص فى العزبة وليطالبه بإبلاغ النيابة لتحقق الأمر حتى تظهر براءته ، ولكنه لم يجد الباشا ، قيل له إنه فى الإسكندرية ليتعاقد على صفقة كبيرة ويزور مكتبه فى البورصة .

وراح طول الليل يقسم لى إنه لا يد له فى محاولة قتل الباشا وظل يبرئ نفسه

حتى حطم أعصابى ، وكان يحسب أن براءته من دم الباشا تسرنى وتثلج صدرى ، ولو أنه قال لى إنه هو الذى حرض على قتله لارتفع درجات فى عينى ، ولتيقنت أنه لم يسلم بهزيمته أمام جبروت الباشا ، أما ذلك التخاذل الذى اعتراه فيحز فى نفسى حزا ويؤكد لى أن معركته مع الباشا قد انتهت .

لم يطق الصبر حتى الغد ليذهب لمقابلة الباشا ، صور له وهمه إنه قد عاد الليلة ، فذهب إليه ينفى ما اتهم به ويقسم بأغلظ الأيمان أن كل ما قيل ظلم وزور وبهتان ، إننى أستطيع أن أسمع دفاعه من كثرة ما ردده على مسامعى .

وتململت فى مقعدها وخفضت الساق المرتفعة لترفع فوقها الساق الأخرى ، ورفعت يرقب الساقين فى اشتهاء ، وقالت فى تصميم :

ـــ لو ألقى عبد الخالق سلاحه فلن ألقى سلاحى أبدا ، سأظل شوكة فى جنب الباشا تقض مضاجعه .

وجاءت الخادم وقالت :

ـــ مرسى بك وشعبان بك .

ـــ فليتفضلا .

ونهضت لاستقبالهما ، ودخل شعبان وكرشه أمامه ومرسى خلفه ، وصافح بثينة وهو يضغط على يدها بيده الخشنة ، ثم صافح رفعت وهو يبتسم ابتسامة ملق لعله يتقى بها لسانه ، ثم عاد والتفت إلى بثينة وقال :

ـــ أرجو أن ترسلى الخادم ليحضر بعض حاجات بسيطة من تحت بلا قافية ، وقولى له إنها فى السيارة من وراء ولا مؤاخذة .

وقالت له بثينة وهى تنصرف :

ـــ ولِم كل هذا التعب ؟

فقال وهو يجلس بالقرب من رفعت :

ـــ هذه أشياء بسيطة يا شيرين .

وغابت بثينة عن أعينهم ، ومال رفعت على شعبان وقال له :

ـــ حاذر ، لقد خانك لسانك وذكرت اسم صديقتك بدل أن تذكر بثينة .

فقال شعبان فى إنكار :

ـــ لم يحدث ذلك أبدا ؟

ـــ ألم تقل يا شيرين ؟!

فقال شعبان وهو يضحك :

ـــ يا شيرين يعنى يا عزيزتى بالفرنسية يا إكسلانس .

فقال رفعت فى سخرية :

ـــ آسف ، لم يرسلنى أهلى إلى مدارس الجيزويت .

فدنا منه شعبان وقال :

ـــ صل على النبى يا إكسلانس ، من لم يعلمه أبواه علمته الأيام والليالى ..

فقال رفعت وهو يبتسم :

ـــ حكم . الله يفتح عليك .

ورن صوته ساخرا فى أعماقه : « الله يلعن أبوك » ، وأحس مرسى أن رفعت يتأهب ليمرغ شعبان فى التراب ، فقال لينقذ صديقه :

ـــ لماذا لا تأتى لتسهر معنا الليلة ؟

وفهم رفعت أن مرسى يحاول أن يرشوه سكوته ، فقال ساخرا :

ـــ أين يا إكسلانس ؟ فى شارع سليمان باشا ؟!

ووخزت سخريته مرسى ، ولكن الوخزة لم تؤلمه وقال فى هدوء :

ـــ نعم ، فى شارع سليمان باشا ، فى بيتى يا أخى .

فقال رفعت وهو ينظر إلى شعبان :

ـــ يسرنى ذلك يا شيرين ..

وابتسم مرسى راضيا ، ونظر إلى شعبان نظرة خاصة كأنما يقول له : « اطمئن فقد قبل الرشوة » ! وجاءت بثينة ونهض الجميع يفسحون لها

مكانا ، وجلست بين رفعت وشعبان ، وهم شعبان بمحادثتها ، وإذا برفعت يقول له :

ـــ ماذا فعلت فى قضية الرشوة الأخيرة ؟

فقال مرسى وهو يبتسم :

ـــ حفظت فى مكتب الحاكم العسكرى .

فقال رفعت فى دهش :

ـــ كيف تحفظ والتهمة ثابتة ؟!

فقال شعبان فى زهو :

ـــ حفظت قضية الرشوة برشوة أكبر منها .

وقال مرسى وهو يهز يده هزات تدل على عظمته :

ـــ كل موظفى مكتب الحاكم العسكرى أصدقائى .

فقال رفعت فى زراية :

ـــ من رواد شارع سليمان باشا ؟!

واعتدل شعبان وقال لرفعت ، وإن كان يأكل بثينة بعينيه :

ـــ صل على النبى يا إكسلانس . كل شىء له ثمن .

وشردت بثينة لحظة تفكر ، ترى ماذا يقصد بكلامه هذا ؟ أيريد أن يوحى إليها بشىء ؟ إنه وعد بإقراض عبد الخالق ما يريد ، ولكنه لم يتقدم خطوة بعد ذلك الوعد ، أيريد ثمنا لتنفيذ وعده ؟! وإذا كان يريد ثمنا ، فما هو ذلك الثمن ؟! وقال رفعت :

ـــ أهذا مذهبك ؟

فقال شعبان وهو يضحك :

ـــ هذا دينى .

فقال رفعت فى حدة :

ـــ يحرق ...

فقال شعبان فى هدوء :

ــ إننى أزداد كل يوم إيمانا به ، ما من إنسان قدمت له رشوة إلا قبلها .

فقال رفعت فى إنكار :

ــ كل من وضعت فى يده مالا أخذه ؟

فقال شعبان يشرح وجهة نظره وهو مغتبط :

ــ ليست الرشوة مالا فقط ، الرشوة أنواع . إن أردت أن ألقنك درسا فيها فتعال ، والمثل يقول : سل مجربا ولا تسل طبيبا يا إكسلانس .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ والله لقد أصبح يحزننى أن يمشى لى موضوع دون أن أدفع فيه ، صرت أجد فى رشوة الناس لذة .

وقال مرسى وهو يضحك :

ــ أنا واثق أنه سيدخل الجنة « غمزا » .

وأرادت بثينة أن توجه الحديث وجهة أخرى فقالت لمرسى :

ــ لماذا لا تأتى الست هذه الأيام ؟ هل قررت هجرنا كما فعل الأستاذ ؟

فقال رفعت ليلتقط طرف الحديث :

ــ الست معذورة .

فقال مرسى :

ــ إى والله ، إنها مشغولة هذه الأيام ..

فقال رفعت ساخرا :

ــ إنها غارقة فى شهر عسل جديد .

فقالت بثينة فى دهش :

ــ تزوجت ؟! متى ؟ وكيف تتزوج دون أن نعلم ؟.

فقال رفعت يخز مرسى :

ــ تزوجت زواجا لا يعلن عنه ، لا يعلم به إلا الصفوة ..

فقال مرسى فى ضيق :

ـــ يا شيخ حرام عليك !

وقال شعبان :

ـــ أكل لحم الناس حرام يا إكسلانس .

وقال معرضا به ليسكته :

ـــ والرشوة حلال يا شيرين !

وابتسمت بثينة ، وراح رفعت يقول :

ـــ هجرت سيدة غنية زوجها وطلبت منه أن يطلقها لتعيش مع الست ، إنها تفضلها على زوجها ، وهى معها الآن تسعد بشهر العسل ..

وقال مرسى وهو يلوح بيده :

ـــ اتق الله يا شيخ ..

وقال شعبان :

ـــ يا ما فى السجن مظاليم ..

وقالت بثينة وهى راضية :

ـــ لسانك ! ستشنق يوما بسبب لسانك ..

فقال مرسى وهو يرفع أكف الضراعة :

ـــ يا ليت !

وضحكت بثينة وضحك شعبان ، وقال رفعت :

ـــ لولا أن الله ستار أمر بالستر لقلت اسم السيدة الغنية ..

وقال شعبان :

ـــ حرام ، كلنا لنا ولايا ..

ونظر إليه رفعت وهو يغمغم : « حرام يا ابن الكلب ! » وصمت مرسى وأطرق ولم تنبس بثينة بكلمة ، وضايق رفعت ذلك الصمت ، كان يرجو أن يلحوا عليه لمعرفة اسم السيدة الغنية ، ولكنهم لم يفعلوا ، ولم يستطيع أن يصبر

على كتمان ما يعرف ، فقال :

ــــ ربنا أمر بالستر ، لكن لا بد أن تعرفوا من هى حتى لا تظنوا أننى أتهم بلا بينة ، إنها فتحية امرأة مراد باشا ..

فقالت بثينة :

ــــ لسانك !

فقال مرسى :

ــــ يستحق القطع ..

وقال رفعت :

ــــ القطع أنواع يا شيرين الله يقطعك ..

ودخل عبد الخالق وهو ساهم ، ولمحه شعبان فنهض لاستقباله قائلا :

ــــ يا مساء النور يا عبد .

واغتصب عبد الخالق ابتسامة ، وراح يصافح الجميع ، ولما اقترب من بثينة قالت له بصوت خافت :

ــــ قابلته ؟

فقال عبد الخال فى صوت متهدج :

ــــ لم يعد بعد من الإسكندرية ..

والتفت عبد الخالق إليهم وقال :

ــــ عن إذنكم دقيقة ..

وانسحب عبد الخالق وهو مطرق ، وقال شعبان :

ــــ لم يعجبنى عبد الخالق وهو داخل ولا مؤاخذة ، رأسه مشغول يا ترى ما الذى يشغل باله ؟

فقالت بثينة :

ــــ إنه متوعك قليلا ، لم ينم ليلة أمس ..

ولمعت عينا رفعت ببريق سرور ، أسعده أن بثينة لم تتحدث مع شعبان

ومرسى بما أفضت به إليه ، وأرضى غروره أنه قد أصبح مستودع أسرارها ، ولم يعد بينه وبين ما يشتهى إلا خطوة واحدة ، والأيام كفيلة بأن تقطعها ، إنه صبر سنوات وفكرة أن يضمه وبثينة مخدع واحد تداعب خياله ، وقد أينعت الفكرة وسيحين حتما أوان قطافها ..

وقال شعبان وهو يرنو إلى بثينة :

ـــ كأسان كفيلان بإطارة كل تعب ..

فقالت بثينة :

ـــ لقد شرب كثيرا البارحة ..

وقال مرسى وهو يتبسم :

ـــ الوحدة غير مستحبة لا فى الحب ولا فى الشرب ..

ثم قال مرسى فى لهجة تمثيلية :

ـــ لو كانت الوحدة رجلا لقتلتها ..

فقال رفعت وهو ينظر إلى مرسى فى استخفاف :

ـــ أتريد أن تفعل بها أكثر مما تفعل الآن ؟! إنك تعاون الناس على قتلها كل ليلة وتيسر لهم السبل ، أنت رجل عظيم ، زعيم أكبر حزب ..

فقال شعبان فى بلاهة :

ـــ ماذا تقول يا إكسلانس ؟! لا أفهم مما تقول شيئا ، عن أى حزب تتكلم ؟ أنا أعرف أن مرسى لا دخل له فى السياسة ، لا هو وفدى ولا دستورى ولا حتى من الإخوان ..

فقال رفعت وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـــ إنه زعيم حزب : « أعداء العزلة » ..

فقالت بثينة وهى تبتسم :

ـــ حرام عليك يا رفعت ، البلد زاخر بمن يستحقون هذه الزعامة ..

وقال شعبان فى ضيق :

ـــ صل على النبي يا إكسلانس ، إننا لا نفهم اللف والدوران ، كلمنا كلاما مكشوفا ولا مؤاخذة ..

فقال رفعت وهو يحنى له رأسه :

ـــ حاضر يا شيرين ..

وعاد عبد الخالق وجلس بالقرب من مرسى ، وقال شعبان :

ـــ الشراب يا سادة ..

ونهضت بثينة وسارت وقد سدد شعبان عينيه إلى أبرز ما فى ظهرها ، وراح رفعت يسعد بالتطلع إلى ساقيها المتناسقتين اللتين طالما حلم بتمرير يده عليهما ..

ومال شعبان على رفعت وقال فى توسل :

ـــ خفف عنا الله يسترك ..

فقال له رفعت فى سرور :

ـــ وهل فعلت شيئا ؟

فقال شعبان فى عتاب :

ـــ وهل تريد أن تفعل بنا أكثر مما فعلت ؟ إنك ولامؤاخذة تعرينا ..

فقال رفعت وهو يبتسم فى خبث :

ـــ وهل تريد إلا أن تتعرى يا شيرين ؟

ورأى شعبان أن يجاريه لعله يستطيع أن يكسبه إلى جانبه ، فلكزه فى رفق وقال :

ـــ عرى عن عرى يفترق ..

وطفقا يتعاتبان ، وقد مال مرسى على عبد الخالق ، وراح يوسوس له :

ـــ أنت فى حاجة إلى راحة ، إلى تغيير حياتك هذه التى تحياها ، لماذا لا تفكر أن تأتى عندى ليلة ؟

فقال عبد الخالق فى بساطة :

— فى المسرح ؟

فابتسم مرسى ابتسامة ترجمتها : « يا عبيط » وقال :

— لا .. عندى فى البيت ، عندى كل وسائل الترفيه ، ممثلات ، فتيات صغيرات ، ويسكى ، بيرة ، حشيش ، تعال ليلة لتعيش فى الجنة ..

وانقشع القلق المستبد بعبد الخالق ، وصفت نفسه ، فقال لمرسى :

— ربنا يوعدنا ..

وأخرج مرسى من جيبه بطاقة ، وقدمها إلى عبد الخالق قائلا :

— إذا هفت نفسك ليلة إلى دخول الجنة فاطلبنى فى هذا الرقم .

وجاء الشراب ، ودارت الكئوس على الرجال الذين كانت كل أفكارهم تدور حول الرذيلة ، كان رفعت وشعبان يشتهيان امرأة واحدة ، وكان عبد الخالق يفكر فى الجنة التى وعده بها مرسى ، أما مرسى فقد كان راضيا عن النصر الذى أحرزه ، سيغلق ذات ليلة قريبة الباب على عبد الخالق وإحدى فتياته ، وسيصبح عبد الخالق من زبائنه ، وإنه ليرجو أن يسحب بثينة كما سحب زوجها وأن تصبح من حوريات جنته ..

وقاموا إلى المائدة العامرة بكل ما جاء به شعبان ، وجلس شعبان إلى جوار بثينة ، وقد صور له طول حرمانه الذى قاساه أنه ما أن يدخل الطبقة الأرستقراطية حتى ينال كل نسائها ، فراح يمد رجله من تحت المائدة ليداعب بها رجل بثينة ..

وأحست بثينة حركته ، وفهمت لأول مرة معنى قوله : إن لكل شيء ثمنا ، ووضح فى ذهنها الثمن الذى يطلبه لإقراض زوجها ، فسحبت رجلها بعيدا عن رجله وقد ملأها شعور بالتقزز والاشمئزاز

٣٣

كان عثمان عاكفا على ورقة يحسب ما سيربحه من بيع قطنه وما يحتمل أن يأخذه عند وزن قطن الباشا وبيعه دون أن يثير شكوك عمه ، فما كانت سرقاته كبيرة يسهل افتضاح أمرها ، كان يؤمن بأن أفضل السرقة أدومها وإن قلت ..

وراح يجمع ما معه على ما سيبيع به قطن أرضه على ما قرر أن يسرقه فوجد أن حاصل الجمع أقل من ثمن قطعة الأرض التى فاوض صاحبها على شرائها ، فعزم على أن يرفع سرقاته حتى يغطى ذلك الفرق الذى كشفه ، فقد كان يكره الاقتراض أو أن يكون مدينا لإنسان ..

علم الباشا ذات يوم أنه اشترى أرضا جديدة ضمها إلى أرضه ، فسأله دون لف أو دوران عن مصدر ثمنها ؟ فقال له وهو يضطرب يكاد أن ينخلع قلبه : إنه يعتمد على الستر والبركة .. وراح يحصى دخله من أرضه وما ادخره من راتبه ، ويبخس الثمن الذى دفعه ، ويقسم بأغلظ الأيمان بأن الله يحبه لأنه يقع دائما على « لقط » قلما تتاح لغيره ، وأن كل ذلك بفضل دعاء الوالدين وتعففه عن الحرام ، فالحلال يربو ، والحرام يذهب الحلال ..

واقتنع الباشا أو تظاهر بالاقتناع ، واطمأن عثمان إلى أن كل ما سرقه قد هضم ، وراح يمهد لسرقاته الجديدة بالتظاهر بالتعفف والتقوى وتعمد إقامة الصلاة فى مكتبه فى الأوقات التى يعلم أن الباشا سيمر به فيها ، وراح يحفظ عن ظهر قلب الأحاديث النبوية التى تحض على الزهد والقناعة والأمانة ليرددها على مسامع الباشا كلما خلا به ، وما أكثر ما يخلو له وجهه ..

كان الباشا يحفظ القرآن والأحاديث منذ أيام دراسته فى الأزهر ولكنه ما كان يعمل بما يحفظ ، وقد سره أن يجد ، على الرغم من فسقه ، فى ابن أخيه الرجل الصالح الذى يقيم الشعائر وينتهى بما نهى عنه الدين ، فقد كانت جذور

الدين فى وجدانه ، يتشدد فى إخراج زكاة ماله ، وينتصر على شح نفسه ، ولكنه كان يضعف أمام كأس ، ويتهافت لصدر ناهد وضحكة ناعمة ونظرة ساهية فيها نداء ..

وسمع عثمان وقع أقدام ، فرفع رأسه عن الورقة التى أمامه ، ورأى عبد الخالق وهو يتقدم نحوه باسر الوجه ، فراح يخفى الورقة فى ارتباك ، كأنما ضبط متلبسا بجريمة ، ثم هب واقفا يجمع شتات نفسه التى ذهبت شعاعا ، وقال عبد الخالق فى صوت متهدج :

ـــ الباشا موجود ؟

وقرأ عثمان الخوف فى عينى ابن عمه ، فهدأت نفسه وأفرخ روعه ، وراح يتقدم نحو عبد الخالق ثابت الخطو ، وقال :

ـــ من الأفضل ألا تقابله الآن ..

فقال عبد الخالق فى إنكار :

ـــ لماذا ؟

فقال عثمان وهو يضع يده على كتف عبد الخالق :

ـــ تريث حتى يذهب غضبه ..

وقال عبد الخالق وهو يتقدم :

ـــ بل لا بد أن أقابله الساعة ..

واعترض عثمان طريقه ، فقال له عبد الخالق وهو ينظر إليه شزرا :

ـــ أتمنعني يا عثمان من مقابلة أبى ؟

فقال عثمان فى لين :

ـــ أرجوك ألا تصر على هذه المقابلة .. إنى أبغى مصلحتك ، اصبر حتى تصلح الأيام ما حدث وينسى الباشا ما فعلته ..

فثار عبد الخالق قائلا :

ـــ أتتهمنى يا عثمان بفعل ما حدث ؟

ـــ أنا لا أتهمك ، وما خطر ذلك على قلبى أبدا ، ولكن الباشا مقتنع تمام الاقتناع أنك الذى حرضت على قتله ..

فقال عبد الخالق وهو يدفع عثمان عن طريقه :

ـــ لا بد أن يعرف الباشا الحقيقة ..

وخشى عثمان افتضاح أمره إذا ما تقابل الابن والأب ، فقال فى نعومة :

ـــ إننى أحبك يا عبد الخالق ، وأنت واثق من ذلك ، وأتمنى لك كل خير ، وأستحلفك بحق هذا الحب ألا تصر على مقابلة الباشا وألا تسعى إليه حتى لا تفسد كل شيء وتزيد الأمور تعقيدا ..

وصمت قليلا وقال له :

ـــ ألا تثق فى ؟

ولم ينبس عبد الخالق بكلمة وإن نفى فى قرارة نفسه هذه الثقة ، وقال عثمان :

ـــ ما دمت تثق فىّ وفى حسن نواياى ، دع لى هذا الأمر وأنت مطمئن ، وأنا كفيل بإصلاح ما فسد ..

واشتد وجيب قلب عبد الخالق ، وربت مخاوفه فقرر أن يفر من نفسه الواجفة باقتحام الخطر ومواجهة واقعه ، فقال فى عناد :

ـــ بل لا بد أن أقابله الآن ..

وسد عثمان الباب بجسمه وتشبث بالأرض ، فلم يجد عبد الخالق بدا من اقتلاعه من طريقه ودفعه بعيدا وفتح الباب فى عنف ، ونظر الباشا فألفى أمامه ابنه مبهور النفس ، زائغ البصر ، يتفصد العرق منه ، فأوجس خيفة ، ومشت فى جوفه رهبة ، وتوترت مشاعره ولكنه رأى أن يدارى خوفه بصياحه ، فهب واقفا وقال فى ثورة :

ـــ ما الذى جاء بك ؟ أجئت أن تقتلنى بعد أن أخفقت محاولتك لاغتيالى ؟ لا أظن ، فأنت أجبن من أن تقابلنى وجها لوجه ، شيمتك الطعن من الخلف ،

اخرج .. اغرب عن وجهى ، لا أريد أن أراك ..

وتقدم عبد الخالق وهو يصيح فى انفعال :

— أقسم بالله العظيم ثلاثا أننى لا يد لى فيما جرى .. تقطع يدى قبل أن تمتد إليك ..

فقال الباشا فى حدة :

— تريد أن تقتلنى ، أن ترثنى ، أن تنفق أموالى فى حماقاتك ، ولكن لا يا عبد الخالق .. لن أموت ، ولن تقتلنى ، ولن تسعد بأموالى . لست ابنى ، إننى برىء منك .. اخرج .. اخرج ..

ودخل عثمان وراح يدفع عبد الخالق دفعا ، فنحاه عبد الخالق جانبا وهو يقول :

— دعنى ، دعنى .. لن أبرح مكانى حتى تبلغوا النيابة .. بلغوا النيابة لتحقق معى . أريد إظهار براءتى ..

فقال الباشا وهو يتقدم من عبد الخالق :

— أقسم بالله العظيم لو أن ملكا هبط من السماء وقال لى إنك برىء ما برأتك ، أنت قاتل .. زوجك ملطخة بدمائى وإن لم أقتل .. أدار بذهنك المريض أننى أصفح عن قاتلى ؟! أحسبت أنك لو ذرفت دموعك الخادعة سيلين لك قلبى !؟ أنت واهم .. إننى أمقتك كمقتك لى ، اخرج .. اخرج ..

وراح الباشا يدفعه وهو يقول :

— لا أريد أن أراك ..

فقال عبد الخالق وقد خنقته عبراته :

— أبى ، هذا ظلم ، هذه ..

وقاطعه الباشا فى حنق :

— لست أباك .. ولست ابنى .. ابنى مات ، أما أنت فمجرم .. قاتل ..

سفاح ، اذهب لا أريد أن أراك ..

وشحن الجو بمشاعر غليظة من الحقد والغضب والقسوة ، واختلطت توسلات عبد الخالق ومطالبته بإبلاغ النيابة والتحقيق معه حتى تثبت براءته بالسباب والصياح وهدير الغضب المتدفق من حنجرة الباشا ، وجعل الباشا يدفع ابنه دفعا حتى أخرجه من الغرفة وأغلق الباب خلفه وهو يشهق ويزفر فى انفعال ..

وسار عبد الخالق مطرق الرأس ممزق القلب ، ضيق الصدر بالمشاعر القاسية الفوارة التى كانت تطعن روحه طعنا قاسيا مريرا ، وقد كاد ينقض ظهره ذلك اليأس الذى طغى وفاض حتى غمر كل ما عداه من مشاعر وإحساسات ..

وراح عبد الخالق يجر رجليه جرا ، وعين عثمان الشامتة تتبع خطاه ..

٣٤

كان الباشا يتحدث فى مرارة وحلمى يحاوره وهو أكثر منه هدوءا ، فما كانت إقالة الوزارة تحز فى نفسه وتهدد مصالحه ، وكانت أمينة هانم فى غدو ورواح وهى عابسة ، كان يحزنها ويقبض قلبها أن ترى الباشا غاضبا ..

قال حلمى لأبيه وهو يحاوره :

ـــ ألم أقل لك إن كتاب الإقالة قد كتب يوم كتابة تكليف رفعة الباشا بتأليف الوزارة ؟!

فقال الباشا فى غضب :

ـــ أتعرف أن الإنجليز كانوا يريدون خلع الملك يوم ٤ فبراير وأن رفعة الباشا أنقذ عرشه لما قبل تشكيل الوزارة ؟ كان السير مايلز لمبسون يرسل للملك خرائط خطط الحلفاء العسكرية وهى مختومة ، وكان الملك بعد أن يطلع عليها

يعيدها إلى المندوب السامى بعد أن يطويها ويختمها ، وقد ضبط الإنجليز جاسوسا تونسيا وهو فى طريقه إلى قوات المحور ، ولما فتش وجدت معه آخر صور الخرائط التى أرسلت للملك ، وتيقن الإنجليز أن الملك على صلة بأعدائهم ، فحاصروا قصر عابدين بالدبابات ، لم تكن هذه الحركة مجرد مظاهرة لإرغام الملك على قبول تكليف رفعة الباشا بتأليف الوزارة كما قيل ، بل كانت حركة جادة غايتها خلع الملك الذى كان فى قصره جهازان للإرسال على صلة بقوات المحور ..

وقال حلمى وهو يرقب ثورة أبيه :

ــ ولماذا لم يخلعوه ؟

ــ لأنه أظهر لهم الخضوع ..

ــ سمعت من أحد رجال حاشية الملك أن السير مايلز لمبسون لما قدم للملك إقرار تنازله عن العرش ، قال له الملك : إن الورقة التى كتب فيها التنازل أقذر من أن تكون وثيقة تاريخية ، وأنه يرى أن يكتب التنازل على ورق فاخر ..

وقال الباشا فى ضيق :

ــ هذه دعاية الحاشية والبطانة ، كان الملك يرتجف رعبا ، وكان كل من فى القصر يكاد يموت خوفا ، كانوا يتهامسون بأنباء الدبابة التى كسرت باب القصر ودخلت فناءه ، وشغل كل منهم بإنقاذ حياته ..

ــ ولماذا سمح الإنجليز بإقالة رفعة الباشا ؟

لأن أحمد ماهر الذى ينادى دائما بزج البلاد فى أتون الحرب سيعلن الحرب على المحور ، سيشترك فى قتال جثة هامدة ..

فقال حلمى فى بساطة :

ــ لأن الإنجليز هم الإنجليز مصلحتهم فوق كل فوق اعتبار ، أخذوا من رفعة الباشا كل ما يمكن أن يأخذوه فتركوه للملك يفعل به ما يشاء ، حتى يتخلصوا مما وعدوه به ، وحتى يأخذوا من القادم الجديد مغانم جديدة . إنهم

ينون سياستهم على أن يأخذوا دون أن يعطوا ..

وجاءت أمينة هانم وقالت :

ـــ إلهام فى الصالون ..

فقال الباشا وهو ينهض :

ـــ إننى ذاهب إلى المكتب ..

ولم تعترض الهانم ، والتفتت إلى ابنها وقالت :

ـــ تعال يا حلمى اقعد معنا .. البنت لا تزال تودنا ..

كانت إلهام تزور بيت الباشا بين الفينة والفينة ، لم تكن تجد مبررا واحدا لقطع صلتها بهؤلاء الناس الذين عرفتهم بعد زواج أختها من ابنهم ، إنهم يرحبون بها دواما ، وهى لا تستطيع أن تقتنع بمنطق أختها ، ولا تجد للعداوات مكانا فى قلبها ..

ودخل حلمى على إلهام فوضعت ابنها على مقعد بجوارها ، ونهضت تصافحه وقد أشرق وجهها بابتسامة عذبة ، وقال حلمى وهو يجلس :

ـــ وكيف حال بدر الدين ؟

فقالت فى غبطة :

ـــ بخير ، سافر بالأمس إلى السعودية ..

فقالت أمينة هانم فى استغراب :

ـــ لا وقت حج ولا وقت زيارة !

وضحكت إلهام قائلة :

ـــ سينشئ هناك شركة للمبانى ..

ومد حلمى يديه إلى الصغير وحمله ، وراح يقبله فى حنان ويضمه إلى صدره فى وجد ، ولاحظت أمينة هانم ما يفعله حلمى فخفق قلبها أسى ، وكادت دموعها تترقرق فى مقلتيها ، ولكنها جاهدت حتى كبحت جماح عواطفها وقالت فى صوت خافت :

— ولماذا ينشئ شركة هناك ؟ ألا يجد مجالا لنشاطه هنا ؟

فقالت إلهام فى زهو :

— العمل هنا كثير ، وقد شيد فى القاهرة أكثر من عمارة فخمة ، إننى كلما مررت بواحدة منها أحسست أنها قطعة منى أحبها كما أحب ابنى ..

والتفتت إلى ابنها فوجدت حلمى يناغيه ويمرر ذقنه على خده ، فابتسمت سرورا ثم قالت :

— ولكن على الرغم من نجاحه هذا فإن آماله عريضة ، يريد أن يكون له نشاط خارج البلاد ..

وقامت أمينة هانم وأخذت الصغير من ابنها وقبلته وقالت :

— لا يا إلهام ، أنت أحلى منه وأبوه أحلى منه ..

فقالت إلهام فى حماسة :

— لا يا ماما ، إنه جميل ..

وكان جميلا حقا ، ليت حلمى أنجب طفلا مثله ، أو ليته أنجب طفلا أقل منه جمالا ، وقالت الهانم وهى تضمه وإن كانت فى قرارة نفسها تتمنى لو أنه كان ابن حلمى :

— سيأتى حلمى له بعروس جميلة ..

فقالت إلهام فى سرور :

— ندفع مهرها من الآن ..

وأحس حلمى كأن الكلمات تحز روحه ، أين هذه التى يتحدثون عنها ؟ سميرة لم تحمل ، وإيفا التى حملت منه طردها بما فى بطنها ، ترى أوضعت إيفا ذكرا أم أنثى ، وما شكل ذلك الذى وضعته ؟ إنه أكبر من ابن إلهام ، إنه يستطيع أن يتحدث الآن ، أن ينادى : ماما ، وأن يتلفت حوله ويجد لكل الصغار آباء ، ترى ماذا ستقول له إيفا إذا ما سألها يوما عن أبيه ؟ أتقول له أن أباه قد ذهب إلى الحرب ولم يعد كآلاف الآباء الذين ذهبوا ولم يعودوا ؟ أتقول

له الحقيقة وتطلب منه أن ينسى أباه النذل الذى لفظه هو وأمه وألقى بهما بين براثن المجهول الذى لا قلب له ، ليتها لا تفعل .. ليتها تصور له أباه فى صورة مشرقة تنير له مستقبله .. إن إيفا عاقلة ولن تقدم أبدا على تحطيم قلب ابنه البائس الذى ما حرمه إلا جبنه ..

ترى ما اسمه أو ما اسمها ؟! وأين هو أو هى الآن ؟ وماذا تفعل أو يفعل ؟ وما أدراه أن إيفا لا تزال على قيد الحياة وأن ما كان فى بطنها قد كتب له أن يرى النور ؟ لو كانت إيفا حية لكتبت إليه تنبئه بمكانها وبأخبار ابنه ، ولكن كيف ينتظر أن تكتب إليه بعد أن تخلى عنها ورفض حتى مجرد مقابلتها قبل أن ترحل ؟ كانت أمنيتها أن تودعه ، أرسلت إليه ترجوه أن تراه للمرة الأخيرة قبل أن تذهب ، ولكنه أعرض عن ذلك الرجاء ، وفر بعيدا حتى لا يضعف وينطلق إلى المطار يلقى عليها نظرة أخيرة ، نظرة وداع ..

ليت إيفا تصفح عن ضعفه وعن قسوته وتبعث إليه برسالة .. إن قلبه ليخفق بالحب لذلك الشىء الذى كان فى بطنها وكتب عليه ألا يراه ، إن وجدانه قد غمس فى المرارة بعد أن انقشعت مخاوفه عن الحقيقة البشعة التى تنغص عليه حياته .. حقيقة أنه كان أقسى قلبا على فلذة كبده من الوحوش الضارية التى تغمر صغارها بالحنان ..

لو أن سميرة قد أنجبت له غلاما لوجد فيه منفسا لمشاعره المذخورة ، ولكن عقم سميرة جعل نفسه تذهب حسرات على إيفا وعلى وليدها .. ليت سميرة تحترم ماضيه الحزين ، ولا تحاول أن تؤجج نيران تعاسته ، وأن تطفىء بصيص النور المتسلل فى ظلام نفسه اليائسة ..

التمس منها ذات يوم أن تعرض نفسها على الطبيب لتعالج عقمها ، فثارت وأصرت على عدم الذهاب إلى الطبيب قبل أن يذهب هو ، فما أدراها أن العيب ليس منه ؟ وراح يرمقها فى دهش ، فهى تعلم أمر إيفا وابنه الذى كانت تحمله فى بطنها ، فكيف يبلغ بها عنادها حد اللجاجة والمكابرة ؟! وقرأت ما كان

يدور فى رأسه فقالت فى قسوة : أأنت واثق أن إيفا حملت منك ؟ وما أدراك أنها لم تحمل من آخر وأرادت أن تلحق ما فى بطنها بك ؟ كنت غنيا وإنه لمن المستحب أن يكون أبو ابن السفاح غنيا ليظل كنزا يغترف منه ..

عرضت به فى قسوة ، وسفهت أحلامه دون أن ترحمه ، وزلزلت صرح ذلك اليقين الذى امتدت جذوره فى أعماق ضميره ، ولم يخالجه الشك لحظة فى نسب ابنه إليه قبل أن تلقى سميرة فى وجهه أدخنة الريبة وتزرع فى جوفه سحب الحيرة ، أيعقل أن إيفا التى وهبته كل شيء وهى راضية النفس كانت تخونه ؟!.. وتحركت عقارب غيرته وأخذت تلسعه لسعا أهون منه لسع النار ..

وهدأت نفسه بعد أن برأ الجرح الذى أصاب رجولته ، وعادت إليه ثقته فى أن ما حملته إيفا كان من صلبه ، فسميرة أصبحت لا تطيق أن ترى بالقرب منها أحدا له ولد ، إنها تتشاجر دائما مع الخادم وتقسو عليها لأن لها ولدا ، وقسوتها عليها تربو يوم يأتى ابنها معها ، إنها تصبح قذى فى عينيها ومرارة فى حلقها ، أفيعقل أنها تطيق أن يكون له هو من غيرها ولد ؟

وأفاق من شروده على حركة بالقرب منه فالتفت فرأى إلهام تستأذن فى الانصراف ، وأمه تقسم أنها لا تزال فى شوق إليها وأن المدة القصيرة التى أمضتها معها لم تطفئ ذلك الشوق ..

ونهضت إلهام وحملت ابنها وصافحت أمينة هانم ، ومدت يدها إلى حلمى فصافحها ومال يطبع قبلة على خد الصغير ..

ودارت إلهام وقد تعلقت عيون حلمى وأمه بالصغير الذى تحمله على ذراعها ، ولما غابت عنهما قالت الأم فى حسرة :

— ما أكثر أولاد الفقراء .. سنة أخرى وتخلف إلهام ولدا آخر ..

فقال حلمى وهو يتحامى نظرات أمه :

— لم يعد بدر الدين فقيرا ، والمستقبل له ..

فقالت أمينة هانم وهى تمصمص بشفتيها :

— حكمتك يا رب ، تعطى الفقراء الأولاد بالكوم ..
ثم التفتت إلى ابنها وقالت :
— شد حيلك يا حلمى وهات لنا نونو ..
فقال حلمى وهو يطأطئ رأسه :
— كل شيء بأمر الله ..

٣٥

كانت الأضواء الحمراء والخضراء تتلألأ فى شارع سليمان باشا ، فقد خففت قيود الإضاءة بعد أن طردت قوات المحور من شمال أفريقية وبدأ ظلها ينحسر من أوربا ، وتترنح فى عقر دارها تحت ضربات القوات الجوية الساحقة ..

وكان الجنود البريطانيون يملئون الشوارع ويلفون أذرعهم حول أرتيستات الحرب ويترنحون وهم يطلقون ضحكاتهم المخمورة ، وما كان الناس ينظرون إليهم شزرا ، فما هى إلا أيام ثلاثة ثم يجلون عن القاهرة والإسكندرية ، إنهم يمضون فى مرح آخر أيامهم فى المدينة التى شهدت أسعد أوقاتهم التى قضوها بعيدا عن أوطانهم ..

وكان عبد الخالق ومرسى ينطلقان فى الشارع فى طريقهما إلى شقة مرسى ، فقد صارت المكان الذى يقضى فيه عبد الخالق أغلب لياليه بعد أن استكان لاضطهاد أبيه وضاق بتحريض بثينة إياه على الثورة فى وجه الباشا ، ذلك التحريض الذى لم ينقطع ليلة ، والذى بات يؤلم روحه اليائسة ..

وراح عبد الخالق يتفرس فى الفتيات السمراوات اللاتى سينقطع مورد رزقهن بعد أيام ثلاثة فأحس المأساة فى أعماقه ، ستستيقظ القاهرة يوما وإذا بشوارعها غاصة بفتيات لا هن أرتيستات ولا هن خادمات ، خاليات

الوفاض ، يعض الجوع أجوافهن ، لا يصلحن إلا لتقديم أجسامهن ، والشباب المتعطش إليهن لا يملك ما يدفعه لهن ، إنها مشكلة ليس لها علاج ، مشكلة وافدة من مشاكل الحروب تبهر أبصار آلاف الفتيات ببريقها الخداع ، ثم تطحنهن وتلقى بهن فى تيار الحياة منبوذات ..

وكان عبد الخالق لا يطيق التفكير طويلا فى مشكلة من المشاكل ، فالتفت إلى مرسى وقال :

— ستصبح كل هؤلاء الفتيات وقودا جديدا لأفرانكم ..

وضحك عبد الخالق ، وابتسم مرسى وقال :

— وما قيمة الوقود إذا لم يوجد الراغبون فى الدفء ، أو كان الراغبون فيه لا يستطيعون دفع ثمنه ، أو كان القادرون على الدفع يفضلون الكهرباء على الفحم ..

وصمت قليلا ثم قال :

— No Johny, no money.

وسرعان ما نسى عبد الخالق كل ما حوله وراح يفكر فى نفسه ، إنه يأمل أن تتحسن أسعار القطن بعد أن أصبحت الملاحة بين أوروبا ومصر ميسرة ، وهو يرجو أن يعود إلى التجارة لعله يعوض خسائره ، إنه فى حاجة إلى مال يبدأ به من جديد بعد أن كادت أموال بثينة تنفد ، أبوه لا أمل له فيه ، وشعبان يعد ويسوف ويطيل التسويف ، وقد انتهى أكثر من عام ولا شىء غير الهدايا والورود ، ولم يبق أمامه إلا أن يلجأ إلى تاجر من تجار الإسكندرية سبق له أن أقرضه قرضا حسنا ، لعل الرجل يمده بالعون الذى يفتح له الطريق ، والتفت إلى مرسى وقال :

— سأسافر غدا إلى الإسكندرية ..

وقال مرسى فى حماسة :

— وحدك ؟

وأحس عبد الخالق رنة غريبة فى السؤال ، فقال :

— نعم ، وحدى ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟!

فقال مرسى وهو يبتسم :

— كم ليلة ستمضيها هناك ؟

— ثلاث ليال أو أربعا ..

وأخرج مرسى ورقة من جيبه ووقف يكتب فيها ، ثم دفع بها إلى عبد الخالق وقال :

— خذ هذا العنوان ..

وقرأ عبد الخالق العنوان وقال وهو يبتسم :

— أشكر لك ، إننى لا أنزل فى بنسيونات ، لا يزال لنا بيت هناك ..

— هذا عنوان جنة الإسكندرية ، ستعيش فيها مع أجمل الحوريات أمتع الليالى ..

فأشرق وجه عبد الخالق بالابتسام وقال :

— وماذا أعددت لنا الليلة ؟

وقبل مرسى أطراف أصابعه وقال :

— تحفة ..

وغمز بعينه وقال :

— عذراء السينما ..

فقال عبد الخالق وهو ينظر إلى مرسى من طرف عينه :

— يا فاجر !

فقال مرسى وهو يهز كتفيه :

— والله لا دخل لى فى هذا ، إنها هى التى أطلقت على نفسها هذا اللقب ، والأغرب من اللقب تبريرها له ، إنها تقول وهى تضحك أنها سمت نفسها عذراء السينما لأنها لا تكاد تذكر متى كانت عذراء ..

فقال عبد الخالق وهو ينظر إلى مرسى بكل وجهه :

ــ لا بد أنها عجوز طال بينها وبين البكارة الأمد .

فقال مرسى بعد أن قبل أطراف أصابعه :

ــ إنها رائعة ، لم تجاوز بعد الحادية والعشرين ..

وصمت قليلا ثم قال :

ــ تصور أنها تعمل فى السينما منذ سنتين اثنتين وتبنى الآن عمارة ضخمة ..

فقال عبد الخالق وهو يهز رأسه :

ــ حقا السينما كنز ..

فقال مرسى وهو يبتسم فى خبث :

ــ إخواننا العرب هم الكنز .

ــ ألم تنفعها السينما ؟

ــ أتاحت لها فرص الإعلان عن نفسها فى الصحف والمجلات ، وقد رفع ذلك أجرها .

ــ فى السينما ؟

ــ لا ، عند إخواننا العرب .

وساد الصمت بينهما لحظات ، ثم لكز مرسى عبد الخالق لكزة خفيفة بمرفقه وقال :

ــ ستساهم الليلة فى العمارة بنافذة .

وابتسم عبد الخالق وقال :

ــ أحب أن أساهم فيها بباب غرفة نوم .

ودخلا من باب العمارة وهما يضحكان ، واتجها إلى الأسانسير ففتح لهما العامل الأسود الباب وهو ينحنى ، ثم دخل وأغلق الباب خلفه ، وراح الأسانسير يصعد والعامل الأسود ينظر إليهما وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه البيضاء ، والتمعت عيناه ببريق فصيح يعلن أنه يعرف إلى أين هما ذاهبان وماذا

سيفعلان .

ووضع مرسى المفتاح فى قفل الباب الذى تعددت المفاتيح التى تولج فيه ، ودلفا إلى غرفة الاستقبال ، وسرعان ما خفت « رحمة » زوجة مرسى إليهما ، إنها امرأة إسرائيلية ممتلئة الجسم ، بيضاء البشرة ، صفراء الشعر ، مكتنزة الصدر ، كانت تدير البيت ، وتشرف على راحة الرواد ، وما كانت تتردد فى تلبية رغبة من يطلبها .

صافحت عبد الخالق فى شوق وبالغت فى الترحيب به ، ومال مرسى نحوها وقال هامسا :

— من هنا الليلة ؟

— الست فى الغرفة الرابعة .

— مع من ؟

— مع ليزا .

— ومن فى الغرفة الثالثة ؟

— موظف من وزارة التموين أرسله شعبان بك .

— وعبد الخالق بك ؟

— له الغرفة الثانية .. أعددت فيها كل شىء .

واتجه مرسى إلى عبد الخالق وقال له وهو ينحنى ويشير بيده نحو الباب :

— تفضل .

وقام عبد الخالق ودخل الغرفة التى أعدت له ، كان السرير فى الركن الأيمن وإلى جواره كومودينو فوقه وعاء كبير من الصينى الأبيض المزين بورود زرقاء ، فيه إبريق من الصينى زخرفته هى نفس زخرفة الوعاء ، وقد ملئ ماء ، وأمام السرير صوان له مرآة كبيرة وتثبتت مرآة أخرى على الحائط المواجه للصوان ، فكان السرير ينعكس فى المرآتين أسرة كثيرة على مدى البصر ، وكان ضوء الثريا المتدلية من السقف مسلطا على السرير كما تسلط الأنوار على

المسرح ، وقد امتزجت الأضواء الحمراء والصفراء والزرقاء امتزاجا فنيا يحرك المشاعر الهاجعة .

ووضعت فى الغرفة مائدة مستديرة عليها مفرش أبيض ناصع وحولها كراسى من الخيزران وضعت على قواعدها حشايا صغيرة مكسوة بكريتون مشجر ، وقد أُسدل على النافذة الوحيدة بالغرفة ستار من نفس قماش كسوة الحشايا . وتوسطت المائدة زجاجة خمر وكأسان فارغتان وبعض صحاف صغيرة بها فستق وزيتون وأنشوجة وبعض أنواع من السّلطات .

واضطجع عبد الخالق فى مقعد وقد مال به حتى لمس ظهره حافة السرير ، وظل مرسى واقفا ، فالتفت عبد الخالق إليه وقال له :

— اقعد .

فقال له مرسى وهو يمرر يده على ذقنه :

— يا لضيعة الوقت الذى تنفقه معى !

ودخلت فتاة ممشوقة القد ، بديعة القوام ، خصر نحيل وصدر ممتلئ وأرداف منتفخة ، وشعر أسود طويل مسترسل ، ووجه كأنه القمر ألقى على مخمل أسود ، تزينه عينان سوداوان تنفثان سحرا ، وفم مستدير وأنف صغير ، كانت رائعة الحسن ، ولكن كان أجمل ما فيها خفة ظلها .

ومدت يدها تصافح عبد الخالق فى رشاقة ، وقال مرسى :

— عبد الخالق بك ، ابن سليم باشا شلبى .

فقالت فى رقة :

— تشرفنا .

وكادت سحب من الكدر تنتشر فى صدر عبد الخالق لذكر اسم أبيه ، ولكن الموقف لم يكن ليحتمل الكدر فسرعان أن تبددت تلك السحب قبل أن تتجمع ، وقال مرسى :

— عذراء المسرح .

فابتسم عبد الخالق وقال :

ـــ آنسة طبعا ؟!

فضحكت قائلة :

ـــ طبعا . ما دام لم يتوج زيجاتى مأذون .

وسحب عبد الخالق كرسيا فجلست فيه ، واتجه إلى كرسى قريب منها وجلس ، وقال مرسى وهو ينسحب :

ـــ أمنيتها أن يسمح لها بالرقص فى أحد الأفلام عارية .

فقالت له وهى تضحك :

ـــ ستحقق أمنيتى يوم تصبح أنت للسينما رقيبا ..

فقال عبد الخالق وهو يصب من الزجاجة فى الكأس :

ـــ الجمهور يطالب بمشاهدة هذه الرقصة ..

فقالت وهى تغمز بعينها :

ـــ طلبات الجمهور أوامر .

وأغلق مرسى الباب خلفه فى حرص ، ثم عاد وفتحه ووضع المفتاح من الداخل ، وعاود إغلاقه فى رفق شديد ، وأسرع إلى التليفون وراح يدير قرصه فى نشوة وفى عينيه المضعضعتين بريق سرور ، وقال :

ـــ ألو .. شعبان بك ؟.. يا مساء السرور .. سيسافر عبد الخالق إلى الإسكندرية غدا وحده ، وسيغيب ثلاث ليال أو أكثر . هذه فرصة طيبة ، ستكون بثينة وحدها ، شد حيلك .. ماذا ؟.. لا أظن أن رحمة تستطيع أن تفعل شيئا .. كيف تدعو سيدة لا تعرفها إلى زيارتها ، ولا أظن بثينة تلبى مثل هذه الدعوة .. رفعت ؟ يا حفيظ ! الله يخفيه .. مساء النور يا إكسلانس .

ووضع سماعة التليفون وذهب إلى غرفة الاستقبال فلم يجد أحدا ، وأسرع إلى المطبخ فلم يجد رحمة ، وبحث عنها هنا وهناك دون جدوى ، وراح يمر على الغرف فألفاها مغلقة كلها ، وهز رأسه هزات دلالة على أنه قد فهم ، وعاد إلى

غرفة الاستقبال وألقى بنفسه فى مقعد كبير غاص فيه وقد شرد ببصره ، ورفت على شفتيه بسمة انتصار .

٣٦

راحت بثينة تشارك ابنها فى لعبه ، كانت تقذف إليه بالكرة فإذا أمسكها بيديه صاحت مهللة لتدخل على نفسه السرور ، وإذا أفلتت منه أخذت تشجعه على أن يعدو خلفها ليحضرها ويعيد قذفها إليها ..

وكان الغلام مغتبطا فقلما كانت أمه تلاعبه ، كانت تتركه فى غرفة لعبه مع مربيته ، وكانت تمر به فى غدوها ورواحها وتمنحه بسمة عابرة ، إنه يحس فى تلك الليلة أن أمه له وحده ، وأنه صاحبها ..

وجرت الكرة ودخلت تحت صوان ملابسه ، وحاول أن يمد يده ويخرجها ولكنه أخفق ، فالتفت إلى أمه يلتمس عونها ، فذهبت بثينة إليه وسجدت ومدت يدها تحت الصوان تبحث عن الكرة ، ونظر الغلام إلى أمه الساجدة ، فداعبت خياله فكرة أن يمتطيها ، فوضع يديه على كتفيها ثم اعتلى ظهرها وراح يجذبها من شعرها الأسود جذبا خفيفا وهو يحثها على السير به ..

ودارت به فى الغرفة دورات وهى منتشية بمشاعر الحنان والحب التى تعربد فى جوفها ، وكانت ضحكاته البريئة تتدسس كالبلسم إلى وجدانها فتستشعر راحة تنتشر فى أرجائها ، وفاضت عواطف الوجد حتى غمرت كل مشاعرها ، فمدت يدها وجذبته من فوق ظهرها وطفقت تضمه فى وله وتقبله فى هيام ثم تدغدغ صدره بذقنها فتعلو ضحكاته ويرفس برجليه وذراعيه ، وتنتقل إليها عدوى الضحك فتنطلق ضحكاتها من قلبها حتى تغرورق عيناها بالدموع .

وجاءت الخادم وقالت :

— شعبان بك فى الصالون ..

فتركت ابنها ونهضت واتجهت إلى مرآته الصغيرة وتناولت مشطه وراحت تصلح به شعرها ، ثم أخذت تمرر يدها على ثوبها وتبسط ثنياته ..

وانطلقت إلى غرفة الاستقبال هادئة وإن كانت تحس فى أعماقها ضيقا ، كانت تفضل أن تمضى الليلة مع ابنها تداعبه وتغذيه بفيض حنانها ، وتنعم بالمشاعر النقية الصافية التى ما كانت تحسها إلا إذا خلت بابنها وعاشت فى دنياه الساحرة العبقة بأريج المحبة الخالصة ونفحات النشوة الطاهرة ..

وقبل أن تدلف إلى الغرفة ملأ أنفها عبير عطر فواح .. فرفت على شفتيها بسمة هازئة ، فما كان يستعمل ذلك العطر النفاذ إلا الغوانى الكاعبات ، ولكن ها هو ذا شعبان ، ثرى الحرب النفاح ، محدث النعمة ، قد تضمخ بزجاجة كاملة !

ودخلت عليه فهب واقفا ، كان يرتدى بذلة كحلية أنيقة وكرفاتة حمراء ، وفى صدره وردة حمراء ، وأطل من جيبه منديل أحمر ، وبرز كرشه أمامه فأضاع كل الجهود التى بذلت ليبدو وسيما ، كان شعره مقصوصا وحلقت ذقنه ونعمت حتى كادت الدماء تنبثق منها ، واختفت البقع السوداء المنتشرة فى وجهه تحت طبقة رقيقة من الكريم ، ولكن الكرش البارز كان كمغناطيس يجذب الأنظار إليه ، فلا ترى شيئا سواه ..

وقالت بثينة فى رقة :

— بونسوار ..

فقال وهو يحنى رأسه :

— بونسوار شيرى ..

تعلم من طول معاشرته للطبقة الجديدة التى دس فيها أن ينطق بعض الكلمات الفرنسية نطقا صحيحا ، ولكن لهجته كانت تفضح أصله ، وإذا ما تجاوز الكلمات التى وقرت فى ذهنه تعثر وخلق كلمات تبعث على

الضحك .. وما كان يخجل من ضحكات السخرية التى كان يقابل بها ، بل كان يشترك مع الساخرين ويضحك ببرود !

وجلست بثينة وجلس بالقرب منها ، لا يفصل بينه وبينها إلا ذلك الفراغ الذى يفصل بين المقعدين .. إنه لو مال قليلا للمس رأسه رأسها ، ولوضع جبهته على جبهتها ، ولحك أنفه بأنفها ، ولأطبق شفتيه على شفتيها ..

وقال وهو يلعق صدرها بعينيه :

ـــ وأين عبد الخالق بك ؟!

فقالت وقد بدأت تضيق بنظراته الوقحة :

ـــ مسافر إلى الإسكندرية ..

ونبتت فى جوفه مشاعر لذيذة يفسد استمتاعه بها ذلك القلق النابع من مخاوفه ، كان يخشى أن يسىء التصرف فتفر منه الفرصة الذهبية التى ترقبها طويلا ، ومد يده فى جيبه وأخرج علبة من المخمل الأحمر وفتحها فى عناية ، وتناول منها سوارا من الماس وقال :

ـــ هات يدك ..

ومدت يدها فى قلق ، وراحت ترقبه وهى حائرة ، فلف السوار حول معصمها وقال :

ـــ هدية بسيطة ، عربون صداقتنا ..

وقالت وهى تغتصب ابتسامة :

ـــ متشكرة ..

ورفع يدها إلى فمه وقبلها ، وأحست وقع شفتيه الملتهبتين على بطن يدها فهمت بأن تجذب يدها من يده ، ولكنها آثرت أن تتحمل حتى تمر هذه اللحظات الحرجة دون أن تنفعل أو تبدى امتعاضا ..

ومرر يدها على ذراعها البضة ، فأحست كأن أصابعه وقدة نار ، وانتشرت سحابة من الكدر فى وجهها .. وتحركت الثورة فى ضميرها ،

وهمت بأن تهب غاضبة ، ولكنها أبعدت ذراعها عنه وهى ترميه بنظرة غاضبة ..

وحسب أنها تبعد يدها عنه دلالا ، فمد يده إلى عنقها ومررها على جيدها وهو يقول :

ـــ ما خلق الماس إلا لهذا ..

وهبت واقفة والشرر يتطاير من عينيها ، وظل هادئا يبتسم فى بلاهة ، فقد أعمته شهوته الطاغية عن أن يحس الثورة المتأججة فى جوفها ، وكادت شفتاها تنفرجان عن الحمم المحتشدة على طرف لسانها ، ولكنها كبحت جماح نفسها وخرجت من الغرفة وتركته وحده ..

وشرد ببصره وراح يفكر فيما يفعله بعد أن استنفد كل الدروس التى تلقاها فى فن المغازلة على يد مرسى .. كان يسير خلف الفتاة التى يغازلها ويلقى على مسامعها كلمة غزل نابية فترد عليه بكلمة زجر كلها تحريض على متابعة معاكستها فيسبها سبا رقيقا وهو يتغزل فى محاسنها ، فتسبه بكلـ ات مشجعة ، فيتقدم إليها ويدفعها بيده ، فتضرب صدره بيدها ثم يضحكـ ن وينطلقان معا يتناجيان .. كان هذا حاله قبل أن يعرف بنات الهوى ، وقبل أن يندمج فى الطبقة الراقية التى كان يصور له وهمه أنه ما أن يندس فيها حتى ينال كل نسائها ، فلما عاش بينها وجد أن الأمر أصعب مما كان يتخيل ..

ستعود بثينة عما قليل فماذا يصنع ؟ إنها لا تزيد على أى أنثى أخرى عرفها ، فلو أنه طوقها بذراعيه وقبلها قبلة حارة فستقاومه دلالا ثم تستسلم له ، إنها لا تستطيع أن تصده لأنها لو فعلت لذاب القرض الذى تبنى عليه كل آمال مستقبلها ..

وطن النفس على أن يغتصب منها قبلة ، ويدك حصون مقاومتها بمفاجأته لها ، وراح يجمع شتات أمره ليستجيب للشهوة العمياء التى تحركت كالأفعى تنفث سمومها ، وانتشرت أبخرة الرغبة تحجب كل تفكيره ، فنامت أشباح

الفضيلة التي كانت منزوية في ضميره ، وتحفز الوحش الكامن في نفسه ليطفئ ظمأه من الري المبذول الذي لا يفصل بينه وبينه إلا وثبة واحدة ..

إنه يطمع فيها وهي تطمع في ماله ، وقد قال أمامها أكثر من مرة إن لكل عطاء ثمنا ، ولا بد أنها أحست أنه قد جاء يتقاضى ثمن ما سيبذله لزوجها ، فذهبت تتأهب لإرضائه حتى يبسط يده المغلولة إلى عنقه ..

ورفت على شفتيه بسمة رضا ، وراحت تطوف به آمال عريضة تدغدغ حواسه وترضي غروره .. ولمح بثينة قادمة وفي يدها ابنها فغاضت البسمة ، وعكر صفو نفسه كدر ، ولكن لم يدب اليأس في قلبه ، ولم تتقوض قصور أمانيه ..

وجلست بثينة وأجلست ابنها معها في نفس الكرسي بحيث يقوم حائلا بينها وبين شعبان ، وابتسم شعبان للغلام ومرر يده على خده مداعبا ، وقال وهو يرنو إلى بثينة في وله وقال :

ـــ هات بوسة ..

وأشاح الغلام بوجهه ، ومد شعبان يده يجذب الغلام من ذقنه ليلتفت إليه وقد تعمد أن يلمس ظهر يده صدرها ، فرمته بثينة بنظرة تصيح به .. يا وقح ! ولكنه لم يأبه لنظرتها وقال :

ـــ حرام أن يستيقظ هذا الصغير حتى الساعة ..

والتفت إلى الصبي وقال :

ـــ اذهب ونم ، وسننام نحن أيضا ..

وانفرجت أسنانه عن بسمة خبيثة ، وعجز عن أن يسيطر على المشاعر العارمة الموارة في جوفه ، فنهض ووضع يده حول ظهر بثينة ووضع شفتيه على خد ابنها وضم الاثنين معا إلى صدره ثم رفع شفتيه ليتحسس بهما وجنة بثينة ، فهبت غاضبة والشرر يتطاير من عينيها وصاحت فيه والحنق يتفجر في جوفها تفجيرا :

ـــ سافل .. سافل ..

وخلعت السوار من يدها وألقت به فى وجهه وهى تصيح فى انفعال :

ـــ اخرج .. اخرج وإياك أن تعود إلى هنا مرة ثانية ..

فقال فى ارتباك :

ـــ صلى على النبى .. صلى على النبى ..

وابتعدت عنه وهى تزأر :

ـــ اخرج وإلا ناديت الخدم ليلقوا بك خارجا ..

ورأى الغلام ثورة أمه وأحس بغريزته أنها فى خطر دون أن يدرى مبعثه ، فبكى وجرى إليها يلف ذراعيه حول ساقيها ويخفى وجهه فى ملابسها ، وانحنى شعبان والتقط السوار ، ثم دار على عقبيه وقال وهو ينصرف :

ـــ فقر وعنطزة ..

وخرج وبثينة ترقبه وهى تشهق وتزفر فى صوت مسموع ، وتضم ابنها إليها فى قوة ، وتتخلل شعره بأصابعها المتشنجة ، وبدأ غضبها ينقشع رويدا رويدا فركعت على ركبتيها وقبلت ابنها وراحت تجفف دموعه التى جرت على خديه ، وتربت على ظهره فى حب وحنان ..

٣٧

الليل ساج ، والقمر يسكب أضواءه الساحرة على الكون فيكسو أديم الأرض ومياه البحر بغلالة من فضة ، والهواء يهب منعشا من البحر يداعب الأفئدة ، والسيارات الحربية الصفراء ، التى موهت بألوان خضراء حتى تخدع طائرات الأعداء ، محملة بالجنود وبالمهمات ، منطلقة إلى الميناء ، فقد كانت القوات البريطانية تجلو عن الإسكندرية لتستقر فى ثكناتها على طول القناة ..

وكان عبد الخالق يسير على الكورنيش يتفرس فى وجوه الأهالى التى علاها

البشر ، ويرقب قطار السيارات الحربية الممتد على طول الطريق ، ويمد بصره إلى البحر الذى تكسرت أمواجه تكسر صفحة معرجة من لجين ، ومس أذنيه حوار بين شابين ، قال أحدهما لصاحبه وهو يحاوره :

— لماذا كل هذه الفرحة ؟ إذا كان الإنجليز قد غادروا القاهرة والإسكندرية فهم فى بورسعيد والإسماعيلية ، فى أراض مصرية ..

فقال الآخر فى حماسة :

— الجلاء لا يمكن أن يتم دفعة واحدة ، هذه خطوة طيبة ..

— هذه سخرية بعقولنا ، إن رأوا فى أى وقت أن يعودوا لاحتلال القاهرة أو الإسكندرية ، من ذا الذى يمنعهم ؟!

— المعاهدة التى بيننا وبينهم ..

— آنست ..

وراح عبد الخالق يتأهب لعبور الطريق ليصل إلى الجانب الآخر منه ، ويستقل سيارة تحمله إلى العنوان الذى أعطاه مرسى له ، حتى إذا ما وجد فرجة بين السيارات الحربية اندفع منها مسرعا يجتاز الطريق ..

ووقف على الطوار الآخر يفكر ، لقد وضعت الحرب أوزارها ، وها هى ذى القوات البريطانية تجلو عن القاهرة والإسكندرية ، ولم تشترك مصر فى الحرب على الرغم من إعلانها على قوات المحور ، لقد قتل أحمد ماهر ظلما ، فلو أن قاتله قد تريث قبل أن يصدر حكمه الجائر لما سفك دما بريئا ..

كان عبد الخالق يؤيد كل حكومة تناوئ الوفد . لا كرها فى الوفد وسياسته ، ولا لأنه يحبذ سياسة منافسيه ، بل شماتة فى أبيه الذى يزداد جبروته كلما تربع حزبه فى كرسى الحكم ، كان فى قرارة نفسه يتمنى أن يزول كل نفوذ للباشا ، بل أن يزول الباشا نفسه الذى يجعل أحلامه كلها كابوسا ..

وأشار لسيارة قادمة واندس فيها وأمر السائق أن ينطلق فى طريق الكورنيش ، وراح يقرأ أرقام المنازل فوجد أن الرقم الذى يقصده لا يزال

بعيدا ، فاتكأ فى جلسته وشرد بذهنه يفكر فيما هو مقبل عليه ، فالتمعت عيناه سرورا ..

وأمر السائق أن يقف أمام فيلا من طبقتين ، وجعل يتفرس فى رقمها ، فلما اطمأن إلى أنها مقصده هبط من السيارة وراح يتقدم فى خطى وئيدة ، ودلف إلى فناء الفيلا ثم راح يصعد فى الدرج الرخامى المواجه للباب المطل على الكورنيش ، حتى إذا بلغ الباب الكبير وقف لحظة يتلفت ، ثم وضع يده على الجرس ..

وفتح الباب عن خادم ترتدى ثوبا أسود فوقه مريلة بيضاء وعلى رأسها قلنسوة بيضاء منشاة ، قالت :

— أفندم ؟..

قال فى هدوء :

— الست أنهار موجودة ؟

ففتحت الباب وفسحت له الطريق وقالت :

— تفضل ..

ودخل فوجد ردهة واسعة ، فرشت أرضها بسجاجيد عجمية فاخرة .. وصفت فيها مقاعد وثيرة مكسوة بمخمل أحمر ، وفى جانب منها حوض زجاجى كبير به ماء وأعشاب وأسماك حمراء صغيرة ، وفى الجانب المواجه لأسماك الزينة سلم يقود إلى الطبقة الثانية من الفيلا ..

وجلس فى مقعد يكشف القادم من الداخل ، وراح يقلب وجهه فى اللوحات الزيتية التى تزين الجدران ، والتماثيل القائمة فى الأركان ، والأسجاف المنسدلة على النوافذ والأبواب ، والبرافانات المزينة بنقوش يابانية رائعة تنم عن ذوق رفيع ، فأحس راحة ، كان المكان لا يقل روعة عن أماكن اللهو التى زارها فى باريس ..

وجاءت سيدة وقور تمشى هونا ، حتى إذا دنت منه ابتسمت فى ترحيب ،

وقام يستقبلها ، وقالت فى هدوء .

ــ أنا أنهار ، أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك ؟

فقال عبد الخالق يقدم نفسه :

ــ أنا صديق حميم لمرسى ..

فتهللت أسارير أنهار وقالت :

ــ أهلا وسهلا .. صديق مرسى صديقنا ، إننا لن ننسى أبدا ما فعله مرسى لنا أيام كنا فى القاهرة ..

وتصافحا ، وسرعان ما ذاب التحفظ الذى كان بينهما ، قال عبد الخالق :

ــ حدثنى مرسى طويلا عن جنتكم حتى اشتقت لدخولها ..

فقالت أنهار وهى تبتسم فى رضا :

ــ تحفظ فى كل ما يقوله مرسى عنا ، إنه يبالغ فى مدحنا لأنه مغرض ، ليس من سمع كمن رأى ..

فقال عبد الخالق مداعبا :

ــ إننى لا أكتفى بالنظر ..

فقالت له أنهار متملقة :

ــ وهل يكتفى بالنظر من كان فى مثل شبابك ؟

وأشارت بيدها ناحية السلم الذى يقود إلى الطبقة الثانية ، وقالت :

ــ تفضل ..

وراحا يصعدان فى الدرج الخشبى المغطى ببساط طويل أحمر . حتى بلغا الردهة الواسعة المؤثثة بأثاث فاخر ينطق بالبذخ ، ونظر عبد الخالق عن يساره فألفى ممرا طويلا على جانبيه غرف مغلقة ، وسارت أنهار حتى بلغت بابا فى صدر المكان ففتحت وقالت :

ــ تفضل ..

ودخل ، إذا بغرفة استقبال من طراز لويس الرابع عشر ، وفى ركن من

أركان الغرفة أباجورة ضخمة غاية الضخامة ، رائعة غاية الروعة ، وضعت على نضد صغير مرتفع ، قوائمه رفيعة بها حفر دقيق آية فى الجمال ، وتدلت من السقف ثريا على شكل كمثرى هائلة صيغت من كرستال يبهر الأبصار ، وزينت الحوائط بلوحات حوريات عرايا فى أوضاع تبرز الفتنة والإغراء ..

وجلس وأنهار واقفة أمامه تقول :

ـــ إننى أحب أن أحيى الأصدقاء بكأس ، فهل لك فى كأس نشربها معا ؟

ـــ هذا شرف عظيم لى ..

فقالت وهى تبتسم :

ـــ هذا كرم منك أن تضيع وقتك معى ..

وخرجت ، وراح عبد الخالق يتطلع إلى اللوحات وإلى التحف المنثورة على النضد ، ومد يده وتناول صندوقا مذهبا وفتحه وأخرج منه سيجارا ، ثم تناول المقص الصغير وقص به طرفه ثم راح يشعله ، وينفث الدخان فى نشوة ..

وعادت أنهار تحمل صينية فضية عليها كأسان صغيرتان وإناء على شكل زجاجة من معدن أبيض ، ووضعت الصينية أمام عبد الخالق ثم جلست وتناولت الإناء وأخذت ترجه رجا وهى تقول :

ـــ هذا كوكتيل أنهار ، لا يقدم إلا لأعز الأصدقاء ..

وملأت الكأسين ثم قالت :

ـــ تفضل ..

وتناول كأسا وتناولت كأسا وقالت :

ـــ فى صحتك ..

وغيبت ما فى الكأس فى جوفها ونظرت إليه .. فقال لها :

ـــ ما ألذ خمر جنتك ..

فقالت وهى تغمز بعينها :

ـــ كل ما عندنا لذيذ ..

فقال وهو يبتسم :

— أذوق ..

ونهضت قائلة وهى تضحك :

— الظاهر أن مرسى لم يملأ عينك ..

— وستظل عينى فارغة لأننى لا أشبع من الجمال ..

وانحنت قائلة :

— اسمح لى أن أعرض ما عندى من أصناف ..

فقال فى لهفة :

— أرجوك ..

وخرجت وبقى وحده يحس أن روحه بدأت تتفتح ، وملأته النشوة فراح يغدو ويروح فى الغرفة وهو يدندن بأغنية مرحة ويدور حول نفسه دورات ، ومضى بعض الوقت ثم عادت أنهار ومعها أربع فتيات صغيرات يرتدين ثيابا شفافة لا تكاد تخفى شيئا وإن أضفت على الأجسام جمال الغموض المفضوح ، كن ممشوقات القد تتراوح أسنانهن بين التاسعة عشرة والرابعة والعشرين ، وكن نماذج من الجمال والخفة حتى إن عبد الخالق راح ينقل بصره بينهن وهو فى حيرة ..

وقالت أنهار وهى تقدم ذات الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين :

— إن كنت من هواة الأدب ، فطروب تحدثك عنه حديث الخبير ، إنها متخصصة فى الأدب الفرنسى ..

فقال عبد الخالق وهو يضحك :

— أنا من هواة قلة الأدب ..

فقالت طروب وهى تبتسم :

— أنت واقعى ..

فقالت فتاة تشع الخفة من عينيها :

ـــ قال المعرى رأيه فيك ، فإن كنت واقعيا حقا فتعال واقعنا ..

وضحك الجميع وقالت أنهار :

ـــ هواة الأدب يطلقون على طروب اسم المعرى ..

فقال عبد الخالق وهو يتفرس فى محاسنها :

ـــ كل ما فيها فصيح ..

وقالت أنهار وهى تقدم أصغر الأربع وأخفهن :

ـــ وإن كنت من هواة الطرب فزين العابدين تشنف آذانك بكل طريف ..

فقال عبد الخالق فى دهش :

ـــ زين العابدين ؟!

فقالت أنهار وهى تضحك وتميل عليه :

ـــ هذا ليس اسمها ، هذا اسم الأغنية التى تتفنن فى غنائها وتلبسها كل يوم معنى جديدا ..

فقالت طروب وهى تبتسم :

ـــ وإن كان يروى الحقيقة الأزلية ..

وراحت زين العابدين تغنى فى دلال وغنج :

ـــ حاسب يا جميل وانت ..

فصاح عبد الخالق فى نشوة وهو يجذبها من يدها :

ـــ تعال يا جميل ..

والتفت إلى الأخريات وقال :

ـــ ولن يفوتنى كل هذا الجمال أبدا ، فأنا متعطش دائما إلى الحسن ..

ونظر إلى سقف الغرفة وقال :

ـــ اللهم لا تحرمنا من نعمة الظمأ ..

ولف ذراعه حول خصر الفتاة التى تشع الخفة من عينيها ، وانسلا من الغرفة ..

٣٨

دخل عبد الخالق عابسا مجهدا ، وكانت بثينة تداعب ابنها فلما رأت الأسى والوهن والذبول فى وجه زوجها ، طلبت من ابنها أن يذهب إلى غرفته ، ومر الغلام بأبيه واقترب منه لعله يقبله بعد خمسة أيام مرت دون أن يراه ويمنحه الهدية التى جلبها معه ، ولكن الأب سار مطرقا دون أن يداعب ابنه أو يعبث فى شعره أو يربت على ظهره فى حنان كما اعتاد أن يفعل كلما قابله ..

وقالت بثينة وهى تنظر إليه تحاول أن تغوص بها فى أعماقه لتكشف أغواره :

ــ خيرا ، ماذا فعلت ؟

فقال عبد الخالق وهو يرتمى فى مقعد قريب منها :

ــ لا شىء ، اعتذر الرجل عن أن يقرضنى ما طلبته ، قال إنه يقاسى أزمة طاحنة ..

ــ وماذا نويت أن تفعل ؟

فقال وهو يمرر يديه على وجهه الشاحب :

ــ عزمت على أن أذهب إلى مرسى ليطلب من شعبان أن يفى بوعد من الوعود الكثيرة التى وعدنا بها ..

فقالت فى حدة :

ــ إننا لا نريد من شعبان شيئا ، وقد طلبت منه ألا يعود إلى هذا البيت أبدا ..

فقال وهو ينظر إليها فى دهش :

ــ لماذا ؟

فقالت منفعلة :

ــ لأنه جاء إلىّ فى غيبتك وراح يغازلنى فى قحة ، حسب أنه سيشترينى

بالسوار الذى أهداه إلىّ ..

وتحرك غضبه وقال :

ــ سوار ؟ ومتى أهداك ذلك السوار ؟

ــ جاء ليلة أن سافرت وحده ، وقدم إلىّ سوارا ليكون عربون صداقة بينى وبينه ، ثم مد يده يعبث بذراعى ، فألقيت بالسوار فى وجهه ..

وقال عبد الخالق وهو يصرف أنيابه غيظا :

ــ الكلب ..

وصمت دون أن يرغى ويزبد ويهدد ويتوعد وينفعل انفعالا يتناسب مع النبأ الخطير الذى آذى مسامعه ، وضايق بثينة ذلك الصمت وزاد فى ضيقها تلك الاستكانة التى تلف زوجها وتتسم بها كل تصرفاته ، لقد خمدت روح الكفاح فيه ، وصار يمد يده إلى أموالها فى يسر دون أن تثور نخوته مرة ويتأفف مما يفعل .. إن معين أموالها يكاد أن ينضب ، فماذا سيفعل إذا ما تبخر ذلك النذر اليسير المتبقى مما ادخرته ؟ والتفتت إليه وقالت فى عزم :

ــ لا بد أن تقابل الباشا وأن تطالبه بحقك ، إنك لا تطلب منه إحسانا ، فالعدل يقضى أن يعطيك كما يعطى حلمى ، أنت أبنه ، فلماذا يغدق على حلمى ويحرمنا ؟ لماذا ؟..

وقاطعها قائلا :

ــ قال لى أكثر من مرة إنه حر فى أمواله ، وما من مرة قابلته فيها إلا وثار فى وجهى واتهمنى بأننى أتمنى موته ، وقد قسا علىّ دون رحمة بعد أن اتهمنى بمحاولة قتله ..

فقالت بثينة فى حقد :

ــ ليتك قتلته ..

فقال فى فزع :

ــ لم أحاول أبدا أن أقتله ..

فقالت فى مرارة :

— أنا واثقة أنك لم تفعل وأنك لا تستطيع أن تقوم بعمل حاسم ..

واستشف أنها تعرض به ، فقال فى ضيق :

— هذا رجل حطمنى ، قضى علىّ ..

فقال بثينة فى حدة :

— لا تظلم الرجل ، إنه قاس ظالم يستحق الحرق ، ولكن العيب فيك .. فيك أنت .. إنك تسالم لأنك لا تستطيع أن تقاتل ، تستكين لظلمه لأنك أضعف من أن تقف فى وجهه ، لا تستطيع أن تفعل شيئا إلا أن تتمنى موته ، شأن كل عاجز ، يرضيك أن تلقى بكل لوم عليه وأنت الضحية المفترى عليه ..

فهب واقفا وقال فى حدة :

— لقد ثرت فى وجهه أكثر من مرة ..

فقالت وقد زوت ما بين حاجبيها غضبا :

— إنك لم تثر عليه أبدا ، كنت تصيح أمامه لتفر من الخوف المنتشر بين جنباتك ، لتهرب من نفسك الواجفة المذعورة التى ترتجف فرقا ..

وعجز بطبعه عن أن يستمر فى ثورته فقال :

— ماذا كنت تريديننى أن أفعل ؟!

فقالت وقد شردت ببصرها ، والشرر يتطاير من عينيها :

— لا شىء ، ولكننى أنا التى سأمرغ الباشا فى الوحل ..

وأحس راحة لما رأى أن المشادة التى شبت بينه وبين بثينة قد خمدت ، ولم يشتغل ذهنه بالتفكير فيما ستفعله زوجته لتمرغ الباشا فى الوحل ، وراح يجر رجليه ليرتمى فى فراشه يستريح من التعب الذى يدب فى أوصاله ، ومن الصداع الذى يدق رأسه ..

وخرج من الغرفة دون أن يخطر على باله أن يقبل زوجته ، فقد كان كلما

عاد بعد ارتكاب خطيئة يبالغ فى تدليلها ويمطرها بقبلاته ، كان يحس فى أعماقه أنه أساء إليها وأن مناغاتها وإغداق الحنان عليها كفارة عما فعل ، أما اليوم فإنه منهوك قد همد فيه كل إحساس وكاد يتعطل منه كل تفكير .. ووقفت بثينة ترقبه وهو ينسحب والرغبة الأكيدة فى إذلال الباشا تملأ نفسها ، وإن لم تكن تتبين الوسيلة التى ستحطم بها أنفه وتذل كبرياءه ..

وراح عبد الخالق يغط فى نومه .. وتقضت ساعات وأتى المساء ، فنهض من رقاده ، وكان أول ما فعله أن ذهب إلى البار ، ومرت بثينة به وهو يشرب فألقت عليه نظرة غاضبة ولكنها لم تنبس بكلمة ..

وارتدى ثيابه وعاد إليه رونقه بعد ذلك النوم العميق الذى سعد به ، والشراب الذى عبه ، وقالت له بثينة :

— إلى أين ؟

فقال دون أن يلتفت إليها :

— ذاهب لأقابل حلمى ..

فقالت فى نبرات هازئة :

— وماذا سيفعل لك حلمى ؟

فقال وقد بدأ البرم يسرى فى نفسه :

— يكلم الباشا ..

فسخرت قائلة :

— ليكون واسطة بينك وبين أبيك . ما شاء الله !

واستشعر ضيقا ، ولم يكن مبعث ذلك الضيق سخريتها منه ، بل كان مبعثه أنه وجد نفسه يكذب فى يسر دون أن تختلج فيه خلجة ، إنه لن يقابل حلمى ولن يذهب إليه ولكنه منطلق إلى مرسى ليعيش عنده الحياة التى أصبح يستريح إليها ، وينسى فى غمرتها متاعبه وتبكيت بثينة الذى أخذ يشتد على مر الأيام حدة ..

وانسل هاربا من البيت ، وانطلق مسلوب الإرادة إلى شارع سليمان باشا ، وبقيت بثينة وحدها تفكر فى زوجها الذى كانت تحبه بكل جوارحها ، فألفت حبها له بدأ يفتر ، وبردا كريها أخذ يتدسس فى مشاعرها ، وضاقت بوحدتها ، ففكرت فى أن تنطلق لزيارة إلهام ..

وراحت ترتدى ثيابها لتفر من وحدتها ، وأتمت زينتها واتجهت إلى الباب وإذا بها تجد رفعت أمامها ، فقالت :

— أهلا وسهلا ..

وفرحت بلقائه كما لم تفرح بلقائه أبدا من قبل ، وقالت وهى تعود أدراجها :

— تعال .. تفضل ..

فقال دون أن يتقدم :

— آسف .. لا أريد أن أؤخرك ..

فقالت فى بساطة :

— كنت خارجة لأننى ضقت بوحدتى .. أما وقد جئت فلم يعد هناك ما يبرر الخروج ..

وسره قولها ، وقال وهو يدخل :

— ألم يعد عبد الخالق بك من الإسكندرية بعد ؟

— عاد فى الصباح وخرج الآن ليقضى بعض مصالحه ..

وجلسا فى غرفة الاستقبال وحدهما ، ورفعت يستشعر لذة لهذه الخلوة ، وكأنما أراد أن يطمئن إلى أن أحدا لن يأتى لينافسه فى التمتع بمحادثتها ، فقال :

— هل سيأتى مرسى وشعبان الليلة ؟

فقالت بثينة فى هدوء :

— لن يدخلا بيتى أبدا ..

فقال وقد أحس راحة :

— لماذا ؟

— لأنهما وضيعان ..

وجاءت الفرصة التى كان يتحينها والتى كان سيعمل على خلقها إن لم تسنح له ، فقال :

— إنى أعجب كيف سمحتم لهما أن يندسا بينكم طوال المدة التى انقضت ؟!

وضيعان ؟! هذه كلمة أرق من أن تصورهما ، تصورى لقد ضبطت زوجة مرسى اليهودية ذات ليلة مع شاب فى سيارة ، وقد اقتادها البوليس إلى القسم ، ولما ظهر أنها متزوجة أرسل لزوجها ليتسلمها ، فلما جىء بها أمامه لطمها لطمة قوية وقال لها :

— ألم أقل لك حاذرى ، البوليس يتعقبك !..

فقالت بثينة وهى تبتسم :

— لسانك !

فقال فى حماسة :

— أقسم بالله العظيم أن هذا حدث ، وأن ضابط البوليس الذى وقعت الحادثة أمامه هو الذى قصها علىّ ..

وصمت قليلا ثم قال :

— أتعرفين ماذا كان يعمل شعبان قبل أن يصبح من أكبر تجار السوق السوداء ؟

— قلت لى مرة إنه كان نجارا فى الجيش الإنجليزى ..

— واتفق هو وأمباشى المخازن الإنجليزى على سرقة المخازن وبيع ما بها واقتسام ما يبيعه شعبان مناصفة بينهما ، ولما جمع بعض المال الحرام راح يتاجر فى أقوات الناس ويهرب الشاى والسكر والزيت من القاهرة إلى الأرياف ، لقد وضع الشاى مرة فى نعش ميت وحمل النعش فى سيـــارة ذهب بها إلى

بنى سويف ، وباع هناك الشاى فى السوق السوداء ، ووضع ذات مرة فى أرضية سيارة رحلات جوالات السكر ، ثم تطوع بأن يتحمل مصاريف رحلة تلاميذ مدرسة أهلية قريبة منه ، واندس التلاميذ فى السيارة ، واختفت الأجولة تحت أقدامهم ، وكانوا كلما اقتربوا من نقطة حراسة فى الطريق ، حرض التلاميذ على أن يهتفوا بحياة الملك ، فتمر السيارة فى يسر ، واستمر هذا الحال حتى بلغت السيارة مقصدها فى سلام ..

وقالت بثينة وهى تبتسم :

ـــ وما الذى جمع مرسى بشعبان ؟

ـــ لما اتسعت أعمال شعبان وجد أن بعض الموظفين يتعففون عن قبض الرشاوى ، فلم ييأس منهم ، كان يضايقه أن يجد موظفا متمردا على نفوذه ، فأعد جرسونييرة فى مصر الجديدة وأخرى فى شبرا وثالثة فى الجيزة يغرى بها الموظفين الذين يترفعون عن أخذ المال ، وقد نجحت فكرته حتى أن أغلب الموظفين الذين كانوا روادا لبيت مرسى يمموا وجههم شطر شعبان .. وضايق ذلك مرسى ، فذهب إلى شعبان يحتج على منافسته غير المشروعة ويهدد ويتوعد ، ولما كان شعبان من طبعه أن يرشو كل من يتصل به فقد اتفق مع مرسى على أن يكون مدير جرسونييراته لقاء مبلغ من المال ، ووعده بأن يستعمل بيته فى بعض الحالات ..

فقالت بثينة فى استنكار مفتعل :

ـــ حرام عليك ، لكأن كل موظفى الدولة كانوا من رواد بيت مرسى !

ـــ موظفو كل وزارة يلهون عادة فى أماكن واحدة ، وقد حدث أن موظفى الوزارة التى تهم شعبان كانوا يسهرون عند مرسى ..

فقامت وقالت :

ـــ لعنة الله على شعبان وعلى مرسى .. هيا نخرج ..

وقام مسرورا وهو لا يكاد يصدق أذنيه ، فقد كانت أول مرة يخرج فيها هو وبثينة وحدهما ..

راح حلمى يطوف حول أرض أبيه فى سيارة جيب ، وكان يقوم بذلك الطواف كلما كان فى العزبة ، وكان يمتلئ زهوا إذا مد بصره إلى الأفق البعيد الأخضر قبل أن يتزوج سميرة ، كان يجد فى الأرض الواسعة التى لا تحد آمال مستقبله ، ومسرح أحلامه ، ويا طالما رأى نفسه بعين خياله فى سيارة وإلى جواره أبناؤه يحدثهم عن الثلاثمائة فدان التى حولها الباشا إلى عشرة آلاف من الأفدنة بالجهد والعرق والصبر الطويل ، وكثيرا ما كان يروى لأطفاله الأعزاء الذين يراهم بوهمه قصة الكفاح التى أثمرت أعظم نجاح يخطر على قلب إنسان مغرق فى التفاؤل ، مؤمن بالحظوظ ..

كان هذا حاله قبل أن يتزوج سميرة ، أما بعد أن تزوج وتقضت سنون طويلة دون أن ينجب أطفالا فقد وئدت الآمال وتبددت الأوهام ، وصارت الأرض الواسعة الفسيحة مصدر آلامه ، ومنبعا للألم والحزن والمرارة التى تسرى فى روحه سريان الصديد ، وكان يؤجج نيران أحزانه حث أمه له على أن ينجب أطفالا كأنما كان بيده أن يفعل وقصر دون تحقيق أمانيه ..

وكان يفر من واقعه الأليم ليهيم فى ذكريات لياليه المترعة بالحب فى صدر شبابه ، كانت إيفا الواحة الظليلة فى صحراء حياته الجرداء ، يترد بمائها إذا جفف الحرمان حلقه ، ويتفيأ ظلها إذا كتم أنفاسه هجير أيامه القاسية ، فهى أم ولده الذى بات يتمنى أن يضمه إلى صدره لقاء هذه الأرض كلها التى كانت تبعث فى نفسه دفئا كاذبا عجز عن أن يبدد برودة وحدته السارية فى وجدانه كريح الشتاء فى الجسم المقرور ..

ولمح تحت شجرة فتاة صغيرة نائمة ، كانت ممزقة الثياب ، حافية القدمين ، وضعت خدها على الأرض وراحت فى سبات ، فهبط من سيارته وذهب إليها

خافق القلب ، ووقف عند رأسها ينظر إليها وقد تحركت عواطفه وراحت مشاعر الحنان تتدفق فى رفق إلى جوفه .. وظل يرنو إليها وأحاسيس نبيلة تراق فى جنباته حتى تغمر روحه ، وانبثقت فى عينيه لؤلؤتان صيغتا من الرحمة ، ولفه عالم مسحور كله رقة ، فركع إلى جوارها ومال عليها يطبع على خدها قبلة أبوية ظلت حائرة على شفتيه سنين طوالا ..

وفتحت الفتاة عينيها ، فلما رأته هبت مذعورة ، خشيت أن ينالها بالأذى ، وقرأ الرعب فى عينيها ، فابتسم ابتسامة لطيفة ليسكن قلبها الواجف الطمأنينة ، ومد يده إليها وجذبها فى رفق ثم وضع فى يدها قطعة من النقود ، وجعلت الفتاة تنقل بصرها بينه وبين ما فى يدها فى إنكار ، كانت لا تصدق عينيها ، فمرر يده على شعرها وقال :

— إنها لك ..

وتركها ، فراحت تعدو فى فرح وهو يرقبها وكنوز فؤاده تمده بمشاعر غنية بأرق العواطف ، وشرد يفكر .. لو أن إيفا قد وضعت أنثى لكانت الآن فى مثل سن هذه الفتاة ، ترى أين هى الآن ، أتهيم على وجهها فى الطرقات أم أن إيفا ألحقتها بمدرسة ؟! وإذا كانت تتعلم ، فأى لغة تتحدث ؟ وأية مبادئ تغرس فى نفسها ؟ وبماذا تؤمن ؟ وأية عقائد تعتنق ؟ إنها ابنته من لحمه ودمه ولكنها صارت غريبة عنه ، حتى لو قدر لهما أن يلتقيا يوما ، فما أعمق الهوة التى تفصل الآن بينه وبينها ..

وتبددت المشاعر النبيلة التى أحسها لحظات وسرعان ما عاد إلى واقعه المرير الذاخر بالألم ، المفعم باليأس ، فانطلق إلى سيارته وراح يعدو بها ليفر من وحدته التى تخز روحه وخزا قاسيا وتعصف بكيانه عصف الريح بأوراق الخريف ..

وبلغ السراى فراح يصعد فى الدرج الرخامى كأنما يهرب من أشباح تطارده ، وخف إلى حيث كان الباشا ليحاوره ويجاذبه أطراف الحديث الذى

ينسى فيه آلام نفسه ، وعذاب ضميره ، ووقدة النار المشتعلة دواما فى جوفه ، والحسرة التى تعصره عصرا ..

قال الباشا وهو يلقى بالصحيفة التى كانت فى يده يقرأ فيها :

ـــ كيف قبل النقراشى باشا أن يعلن الملك الحرب وتدخل الجيوش فلسطين قبل أن يوافق البرلمان على ذلك ؟ أعلم أن النقراشى باشا كان فى رأيه ألا يزج بمصر فى هذه الحرب والقوات البريطانية فى القناة خلف ظهره ..

فقال حلمى ليفر من ذاته القلقة ويندمج فى الجو الجديد الذى خلقه أبوه :

ـــ جميع السلطات الآن فى يد الملك ، تخطى رؤساء الوزارات فى أكثر من مناسبة فلم يثر أحد منهم أو يفكر فى الاستقالة ، فاستمرأ الملك سلب السلطات وجمعها فى يده ، دعا ملوك الدول العربية ورؤساءها إلى اجتماع أنشاص دون علم الوزارة ، ولم يحتج صدقى باشا أو يقدم استقالته ، وأمر النقراشى باشا بحل أزمة البوليس حلا لا يتفق ورأى النقراشى باشا ، فنفذ الرجل الأمر السامى الكريم ، واليوم يشن حرب فلسطين ليتسابق هو والملك عبد الله على أيهما يكون له شرف الصلاة أولا فى بيت المقدس .. إننى لأعجب كيف قبلت الدول العربية أن يكون الملك عبد الله القائد الأعلى للجيوش ، إن معنى ذلك وضع الأمر فى يد جلوب باشا الذى سينفذ ما يراه الإنجليز ..

فقال الباشا وهو يلوى شفته :

ـــ أمر هذا الملك يحيرنى ، يقول للذين ينصحونه ليتستر فى نزواته فى استخفاف : لن يبقى من الملوك الحاليين إلا ملك إنجلترا وملوك الكوتشينة ، ومع ذلك يجمع ملوك الدول العربية ورؤساءها ليبعث القومية العربية ويتطلع إلى أن يكون على رأسها ..

فقال حلمى وهو يبتسم :

ـــ لا تناقض بين أفعاله ، إنها تتسم كلها بالرعونة ..

ـــ لو صبر قليلا لحصل على موافقة البرلمان على دخول الحرب ، قبل أن

تنساب الجيوش على أرض فلسطين ، ولحافظ على الكيان الدستورى ، فما أحسب أن هناك من يعترض على خوض غمار الحرب ضد الصهيونيين الذين جاءوا ليغتصبوا قطعة من الوطن العربى ..

فقال حلمى وهو ينظر إلى أبيه :

ـــ الشيوعيون لا يوافقون على قتال إسرائيل ..

فقال الباشا فى غضب :

ـــ لأنهم يتلقون الأوامر من موسكو ، وموسكو اعترفت بإسرائيل ..

قال حلمى وهو يقطب جبينه :

ـــ إننى فى حيرة حتى الآن من أمر القنابل التى كانت تلقى على المحال وفى دور السينما ، أكان الإخوان هم الذين يلقونها أم الشيوعيون ؟

فقال الباشا فى حماسة :

ـــ الشيوعيون وراء كل تدمير ..

ـــ والقنبلة التى ألقيت فى حارة اليهود ؟

ـــ إذا كان الإخوان قد ألقوا قنبلة ، فقد ألقى الشيوعيون عشرا ، سياستهم هى أن يضعوا أصبعهم فى أى ثقب يجدونه ليوسعوه ، وأن يسكبوا الزيوت على نارية أية فتنة مشتعلة ، لا تتحقق أهدافهم إلا إذا عمت الفوضى .. إننى كنت أعارض صدقى باشا وسياسته ، ولكننى كنت أؤيده بكل جوارحى فى الشدة التى كان يقمع بها الشيوعيين ..

ودخلت أمينة هانم وجلست وهى تقول لحلمى :

ـــ والله لا أدرى لماذا لم تأت معك سميرة ؟

فأحس حلمى كأنما انتزع من مأمنه الذى يهرب إليه ليواجه واقعه البشع الذى يحز فى نفسه ويجثم على صدره كالكابوس ، وقال فى صوت فيه أسى :

ـــ ذهبت إلى الإسكندرية تمضى الصيف مع أهلها ..

فنظرت إليه أمه نظرة فاحصة وقالت :

ـــ ولماذا لم تأت معك تمضى معنا أياما ثم تسافران معا إلى الإسكندرية ؟ هل تشاجرتما ؟

وفطن الباشا إلى أن زوجه ستفتح أبواب الموضوع الذى طالما حادثته فيه وألحت فى تنفيذه على الرغم من معارضته لها ، إنه أول موضوع تعارض فيه رغباته وتتحداه بسببه تحديا يتنافى مع طبعها الذى لا يعرف إلا الاستكانة والتصديق على كل ما يراه ، فقال :

ـــ ذهبت كما تذهب كل الزوجات تمضية بضعة أيام عند الأهل والأحباب ..

ولم تلتفت إلى ما قال وقالت لابنها :

ـــ حرام أن تضيع عمرك معها ..

وقال الباشا فى فزع :

ـــ ما هذا الكلام ؟!

فقالت الأم فى إصرار :

ـــ كيف يعيش مع امرأة عقيم ؟ كيف ترضى له أن يحرم أعز ما فى الوجود ؟!

وشرد بصر حلمى وعلاه وجوم ، ولزم الصمت وإن راحت مشاعره تصرخ بين جنباته وتئن أنين المثخن بالجراح ، المحروق بنار الحرمان الطويل ، وعجب الباشا من تأكيد زوجته أن سميرة امرأة عقيم ، كيف لم يخطر على بالها أن العيب قد يكون فى حلمى ؟ إن الأم لا تستطيع أن تتصور أى عيب فى ابنها ، أما هو فلولا يقينه من أن الفتاة النمساوية قد حملت من ابنه لراودته فكرة أن العيب قد يكون فيه ، قال الباشا ليكسر تيار حماستها المتدفق :

ـــ أعرف أزواجا أنجبوا أطفالا بعد أكثر من عشر سنوات من زواجهم ، فلماذا هذا اليأس ؟

ومالت عواطف حلمى مع أمه ، كان يرى رأيها ، ولكنه لم ينبس بكلمة

حتى لا يغضب أباه ، وقالت أمينة هانم :

ــ إننى لا أطلب من حلمى أن يطلقها ، إنه يستطيع أن يمسكها بمعروف ويتزوج من أخرى تنجب له ذرية .. كل من تزوجوا معه أنجبوا أولادا ، إلهام خلفت ولدا وبنتا ، بثينة ابنها فى المدرسة ، كل من تزوجوا قرت عيونهم بأولادهم ، فلماذا يحرم حلمى الولد ؟!

وهاجت أشجان حلمى حتى ترقرقت الدموع فى عينيه ، وأشاح بوجهه عن أمه وأبيه ، وفكر فى أن ينهض وينصرف يخفى ضعفه الذى تبدى ، ويكفكف عبراته بعيدا عن العيون ، ولكنه أحس حرجا فظل جالسا يتلظى بالنار التى كانت ترعى فى أحشائه ..

لم يكن الباشا يشفق على سميرة ، إنه كان يتحامى غضب محفوظ باشا ، فهو يرجو أن يتعاونا معا على رفع حلمى إلى كرسى الوزارة ، الأمل الذى يعيش لتحقيقه ، لذلك وطن النفس على أن يبذل كل ما فى طاقته ليبقى على الخيط الرفيع الذى يربط ابنه بسميرة ، حتى لا يوغر صدر أبيها على ابنه فيعرقل مساعيه بنفوذه الذى يزداد كل يوم قوة فى الحزب فقال :

ــ أصبح السفر إلى الخارج الآن ميسورا ، فلماذا لا يسافران ليعرضا نفسيهما على الأخصائيين ؟

وضايق حلمى قول أبيه « ليعرضا نفسيهما » فهو يعلم علم اليقين أنه أب لابن لفظه فى قسوة قبل أن يرى النور ، ترى هل خالجه هو أيضا ذلك الشك الذى أرادت سميرة أن تبثه فى صدره ؟!

وقالت الأم فى استسلام :

ــ افعل ما تراه وإن كنت أدرى أن سفرهما ليس له لزوم ..

وساد الصمت بينهما وقد عزم حلمى على عدم السفر ، بدأ يخشى أن يتضح أن العيب منه فتنهار الذكريات الجميلة التى تلقى بصيصا من النور على ظلام حياته ..

٤٠

كان الناس يتدافعون بالمناكب فى شارع فؤاد الأول بعد الغروب ، وأضواء المحال تتألق والأنوار الحمراء والخضراء تقتحم العيون ، والوجوه هادئة ناعمة سعيدة كأنما البلاد لا تحس الحرب المريرة التى يخوض غمارها أبناء أعزاء دفع بهم إلى أتونها ملك متهوس دون تسليح ، وخرج حلمى من محل لعب أطفال وخلفه عامل يحمل الهدية التى اشتراها ، ينطلق فى أثره وهو يشق الجموع المتدفقة على الطوار كالسيل فى طريقه إلى سيارته التى وقفت على جانب الطريق ..

وتمهل حلمى حتى مر الترام والأتوبيس الذى كان يتلمس طريقه بين الترام والسيارات المنسابة على مهل عند تقاطع شارعى فؤاد الأول وعماد الدين ، ثم فتح باب سيارته فى حرص وجلس خلف عجلة القيادة ، ومد يده وفتح الباب الآخر وتناول من عامل المحل الصندوق الذى كان يحمله ووضعه إلى جواره وانطلق ..

كان حلمى وهو فى طريقه إلى بيت أخيه يفكر فى الجفوة القائمة بين أسرته الصغيرة الغارقة فى دنياها حتى آذانها ، وراح يسأل نفسه عن سبب العداوة الناشبة بين الباشا وبين أخيه ، فلم يجد سببا واحدا معقولا ، فكره الباشا لعبد الخالق ليس له أساس ، ولكن هل الباشا يكره ابنه حقا ؟ هل يمكن لأب أن يمقت فلذة كبده ؟! ولماذا لا يكون مصدر ذلك العنف الذى يواجه به الباشا عبد الخالق شدة حبه إياه ، وأنه لا يعنفه إلا ليقومه ليراه فى حال أفضل من حاله الذى لا يرضيه ؟

إنه لا يدرى حقيقة شعور الباشا نحو عبد الخالق وزوجته وابنه ، ولكن هو لماذا انقطع عن زيارة أخيه ؟ إنه كان كذلك الشاب الذى ورث عن أهله قضايا

فاستمر فيها ولج فى الخصومة دون تفكير ، اندفع فى تيار الجفوة أسوة بأمه وأبيه ، ولو أنه تدبر الأمر قبل أن يستفحل وكان رسول سلام لكان البلسم للجروح ولبرئت النفوس بدل أن تتعفن ..

وهمس فى نفسه هامس أنه كان يجد راحة للعداوة المشتعلة بين الباشا وأخيه ، كان يسعده أن يخلو له وحده وجه أبيه ، إنه أنانى لا يحب إلا نفسه ، وأنانيته هذه هى التى جعلته يضحى بإيفا وابنه لينجو من عار توهمه ، وإنه ليقاسى الآن من عواقب أنانيته ، ويجنى مرارة الحرمان التى غرست بذورها بيده يوم اقتلع فى قسوة شجرة سعادته ..

وألقى على الصندوق الموضوع إلى جواره نظرة عابرة فخفق قلبه خفقات ناعمة وانتشرت فى روحه سحابة خفيفة من الأسى ، فهو يحمل إلى ابن أخيه هدية كان يتمنى فى أعماقه لو أنه حملها إلى ابنه ، وأراد أن يفر من أحزانه التى تحركت لتعصف به فراح يقرع نفسه ويتهمها بالحسد ..

وأخذ يقارن بين النعم التى أنعم الله بها عليه وبين شقوة أخيه ليطفئ أوار النار التى اندلعت ألسنتها فى جوفه ، إنه قرة عين أبيه بينا عبد الخالق قذى فى عينه ، إنه يحس حنان الأم وأخوه لا أم له ، إنه غارق فى العز وأخوه محروم ، إنه .. وإنه ..

واستمر يعد النعيم الذى هو فيه حتى كادت نفسه تهدأ ، وإذا بصوت كفحيح الأفعى يوسوس فى صدره : عبد الخالق قد جمع أطارف كل سعادة فى ابنه وأنت أبتر ، فتقوضت كل حججه ، وثارت براكين غضبه ، وزحفت عقارب غيرته تنهش قلبه ، وضاق بهذه المشاعر البغيضة فراح يقاومها جاهدا ليكتم أنفاسها ..

كان صادق الرغبة فى أن يتطهر من هواجس نفسه الشريرة ، وإنه ليبذل غاية الجهد فى القضاء على وسوساته الخبيثة التى تمرض قلبه ، ويا طالما حسب أنه انتصر على ضعفه وسحق عواطفه المتعفنة ، ولكن ما يلبث أن يكتشف أنه

واهم وأن عواطفه البغيضة لم تلفظ أنفاسها ، بل هي هاجعة تحت الرماد سرعان ما تستيقظ كالغول إذا ما نفخ فيها نافخ ..

ووقفت السيارة أمام بيت أخيه ، وحمل الصندوق فى يده وسار وقد اختفى الرجل الشرير الذى يحسه فى نفسه ، وبدأت مشاعر رقيقة تنبثق فى وجدانه ، وهدأت نفسه وانبسطت أساريره .

ودق الجرس وكانت بثينة قريبا من الباب ففتحته ، ولما وقعت عيناها عليه لم تخف عجبها وقالت فى دهش :

— حلمى ؟! أهلا وسهلا .. تفضل ..

ودخل حلمى وهو يتلفت ، ولما رأى ابن أخيه ذهب إليه وصافحه وقبله ثم ضمه إلى صدره فى حنان وتناول يده فى يده وسار يسعد بالمشاعر العذبة التى كانت تنسكب فى روحه ..

وجلس حلمى وعاود ضم ابن أخيه إلى صدره وتقبيله ثم دفع بالصندوق إليه ، فتناوله الصبى مسرورا وقالت له أمه :

— ألا تشكر عمك ؟

فقال الصبى وهو يسرع بفك الصندوق :

— متشكر يا عمو ..

وراح حلمى وبثينة يرقبانه وهو يمزق بيديه الصغيرتين الورق الذى يلف الصندوق وقد أشرقت عيونهما بالسرور ، وملئت نفوسهما رضا ، وأخرج الصبى من الصندوق قطار سكة حديد كبيرا ، فصاح فى فرح :

— جميل ! متشكر يا عمو .. متشكر يا عمو ..

ورفت بسمات على الشفاه ، وقالت بثينة لابنها :

— اذهب به إلى غرفتك ..

فقال حلمى وهو يرنو إليه فى حنان :

— دعيه ..

ثم التفت إلى بثينة وقال :

ـــ وأين عبد الخالق ؟

ـــ خرج ، صار يقضى كل أوقاته خارج البيت ، لا أدرى أين يذهب ..

ـــ ولماذا لا يفكر فى زيارتنا ؟

فقالت وهى ترنو إليه فى إنكار :

ـــ كيف يفكر فى زيارتكم بعد أن طرده الباشا واتهمه بأنه المحرض على قتله ؟ لقد قضى عليه الباشا ، وأصبح لا عمل له إلا أن يشرب ويهيم على وجهه ليفر من البيت الذى يذكره بالظلم الذى يقاسيه ، صار عاجزا عن أن ينفق على بيته ، وأن يظهر بالمظهر الذى يليق بأمثاله ، إنه ضحية قسوة ليس لها ما يبررها ..

وأطرق حلمى قليلا ثم قال :

ـــ إننى لا أبرئ نفسى من اللوم ، فلو أننى تدخلت بين أبى وأخى وحاولت إصلاح ما بينهما قبل أن تتغلغل العداوة فى النفوس لما تدهورت العلاقة بينهما وبلغت هذا الحد من السوء ، أعدك أننى سأكفر عن تقاعسى ، وسأبذل كل جهدى لأقضى على هذه الجفوة ..

ـــ أتظن أن قلب الباشا يمكن أن يصفو لعبد الخالق بعد أن أقنع نفسه أن ابنه يكرهه ويتمنى له الموت ؟!

فقال حلمى وهو يبتسم :

ـــ لا أستطيع أن أصدق أن الباشا يحمل غلا لعبد الخالق ، إنه قد ثار عليه فى ظرف من الظروف وقد صفت نفسه بعد تلك الثورة ، ولكن كبرياءه تمنعه من أن يظهر الصفح ، حتى لا يعد ذلك منه ضعفا ، إننى على يقين من أن الباشا يفضل الموت على أن يبدو ضعيفا أمام إنسان ..

وراحت بثينة تصغى إليه وهى لا تصدق كلمة واحدة من حديثه ، وإن كانت فى قرارة نفسها تتمنى أن يكون صادقا فى سفارته بين زوجها وأبيه ، وأن

تكلل جهوده بالنجاح ، فقد تدهورت حالتها وحالة زوجها حتى أشرفا على الإفلاس ..

وقال حلمي فى هدوء ، وإن لونت المرارة نبراته :

ـــ أنت أدرى بشعور الوالدين نحو أبنائهم ..

وأحست المرارة التى فى صوته فملأت الشماتة صدرها ، وجاءت الخادم وقالت :

ـــ إلهام هانم هنا ..

ونهضت بثينة وهى تقول :

ـــ مرحبا ..

وتقدمت إلهام بين ابنها وابنتها ، ولمحت حلمي واقفا ، فوسعت من خطوها وذهبت إليه تصافحه وتقول فى بساطة :

ـــ أين أنت ؟ ولماذا لا نراك ؟ بلغ تيزة أننى غاضبة ، زرتها أكثر من مرة وزارتنى مرة واحدة ثم انقطعت زيارتها ..

فقال حلمي وهو يبتسم :

ـــ كنت على حق فى غضبك لو كانت تخرج ولا تزورك ، ولكنك تعلمين أن خروجها أندر من الكبريت الأحمر ..

فقالت بثينة وهى تضحك :

ـــ ما أكثر الأشياء النادرة فى هذه الأيام ..

وقالت إلهام وهى تجلس :

ـــ وأنت ؟

ـــ أنا مقصر ، أعترف بذلك ..

ومال على ابنها وابنتها يقبلهما ، وبثينة ترقبه وفى صدرها تشف ، وبقيت إلهام تنظر إليه ولم يتحرك فى جوفها إحساس واحد مريض ..

وذهب الطفلان إلى ابن خالتهما يشاركانه فى لعبته ، فقالت لهم بثينة :

— اذهبوا إلى غرفة ميمى ..

فقال حلمى وهو ينظر إليهم وقد انعكست فى عينيه مشاعره الرقيقة :

— دعيهم ..

— يستطيعون أن يلعبوا فى حرية فى غرفة ميمى ..

وانصرف الأولاد والعيون الوالهة تتعقبهم ، ثم التفت حلمى إلى إلهام وقال :

— وكيف حال بدر الدين ؟

— بخير ..

— ولماذا لا نراه ؟

— غارق فى عمله ..

وقالت بثينة لتسمع حلمى :

— وهل انتهى من بناء فيلتكم الجديدة ؟

وأشرق وجه إلهام وراح السرور يمرح فيه وقالت :

— على وشك أن تنتهى ..

وشردت ببصرها قليلا ثم قالت وقد توجت شفتيها بسمة عذبة ..

— كنت أقول : الذى لا يملك شيئا يملك كل شىء ، الأنهار والحقول والنجوم والشمس والقمر والنسيم والرياح والأرض المنبسطة التى لا تحد كلها له ، ملك يمينه ، وكنت مؤمنة بهذا القول ، وقد ازددت به إيمانا بعد أن أصبحنا نملك فيلا ، صرت أحس أن هذه الفيلا هى التى ملكتنى ، جعلت كل تفكيرى ينحصر فيها ، كيف أفرشها ؟ وماذا أضع فى هذه الغرفة وفى تلك ؟ والستائر التى سأضعها على النوافذ والأبواب ما نوعها ؟ ما لونها ؟ والحديقة كيف أنسقها ؟ وأين أضع المرجوحة ؟.. كان عالمى الدنيا الواسعة الفسيحة فإذا بهذه الفيلا تحصر كل آمالى فى بضعة أمتار من الأرض فوقها طبقتان من البناء ..

وضحكت مسرورة ، وقال حلمى :

— ولكن ما نملك يربطنا بالأرض التى نملك فيها ، ويزيدنا حبا لها ، إن

للملكية لسحرا ..

قالت إلهام فى غبطة :

— والله لقد قلت لبدر الدين قبل أن يشترى أرض الفيلا : إننى أفضل أن أكون مالكة لكل ما فى الكون من جمال على أن تستعبدنى بضعة أمتار من الأرض ..

وقالت بثينة وهى تضحك :

— لا أمل فيك ، أفسدتك الروايات التى تقرئينها ..

وقالت إلهام وهى تضع ساقا على ساق :

— الصلاح والفساد شىء نسبى ..

وأحست بثينة رغبة ملحة فى أن تخز حلمى وتثير شجونه ، فقالت لتجر إلهام إلى الحديث الذى تود أن تنفذ إليه :

— دائما تجادلين ، وما أكثر ما تظهر الأيام خطأ رأيك ..

فقالت إلهام وهى تلقى برأسها إلى الخلف :

— اذكرى وقائع ..

فابتسمت بثينة .. لقد وصلت إلى هدفها أسرع مما كانت تقدر قالت :

— كنت أقول لك إن الخلافات التى بين الملك والملكة ستنتهى بالطلاق ، وكنت تعارضيننى فى ذلك ، وها هو ذا فاروق يطلق فريدة .

فقالت إلهام فى هدوء :

— كنت أقدر حكمى على أساس أن الملك شخص طبيعى ، ولكن جميع أعماله أثبتت أنه شاذ ، يطلق دون أن يستشير رئيس وزاراته أو يأبه بحكومته ، ودون أن يفكر فى أنه يعبث فى الوقت الذى ينهزم فيه الجيش الذى زج به فى الحرب دون تدبير ..

قالت بثينة وهى تضحك ضحكة انتصار :

— كان لا بد أن تقدرى أنه بشر ، يريد وريثا لملكه ولم تنجب له فريدة هذا

الوريث ، لو كنت مكانه لفعلت ما فعله ، بل لو كنت رجلا موسرا ، لا ملكا ، وزوجتي عاقر لطلقتها ..

وأربد وجه حلمي ولم يقو على قمع الثورة التي نشبت فى جوفه وراحت تزلزل كيانه ، فقام مستأذنا وإلهام ترقبه فى إشفاق وقد فطنت إلى أن أختها تعمدت طعنه ..

وصافح إلهام دون أن تلتقى عيناه بعينها ، وصافح بثينة وهو منفعل ، وانصرف لا يلوى على شيء حتى إذا غاب عن الأنظار التفتت إلهام إلى أختها وقالت فى عتاب :

— لماذا هذه القسوة ؟

فقالت بثينة وهى تضحك فى شماتة :

— لأنه يستحقها ، إنه ما جاء اليوم إلا ليسخر مني ويوهمنى أنه نادم على ما بين عبد الخالق والباشا من جفوة ، وأنه سيكون حمامة سلام بينهما ..

فقالت إلهام فى حماسة :

— قد يكون صادقا فيما قال ..

فقالت بثينة ساخرة :

— من ربى خير من اشترى .. إنه مثل أمه ناعم كالثعبان وفى جوفه سموم .. لدغنى مرة ولن يلدغنى مرة أخرى ..

— لم يكن بينه وبينك إلا كل خير ..

— لن أنسى أبدا أننى كنت مخلب القط الذى استعمله فى الخلاص من عشيقته النمساوية ثم سخر من أحلامى ، لن أنسى ذلك ما حييت ..

٤١

كانت الرياح تصفر ، والبرد يخترم الأجسام ، والسماء ملبدة بالغيوم ، والعتمة منتشرة على الرغم من أن الوقت كان العاشرة صباحا ، وكان الباشا خلف مكتبه يرتدى بالطو سميكا وحلو عنقه كوفية من الحرير الأبيض ، وجلس أمامه حلمى عارى الرأس يعبث بصحيفة أخبار اليوم ويرقب أباه وهو يرشف القهوة فى لذة ..

وسرح حلمى بخياله ينمق الحديث الذى سيفضى به إلى الباشا وينتقى الألفاظ التى لا تثير غضبه ، فهو يعلم أن الموضوع الذى سيخوضه ليس حبيبا إلى قلبه .. ووضع الباشا فنجان القهوة على المكتب ، وقبل أن ينغمس فى عمله ، قال حلمى دون أن يرفع بصره عن الصحيفة التى كان يعبث بها :

ـــ وعدتنى أن تبعث إلى عبد الخالق براتبه الشهرى من أول العام الجديد ، ولم يبق على مولده إلا يومان ..

فقال الباشا فى ضيق :

ـــ خذ ثلاثين جنيها غدا وأعطه إياها ..

فقال حلمى وقد رفع رأسه عن الصحيفة :

ـــ وماذا يفعل بثلاثين جنيها فى الشهر ؟

فقال الباشا فى غضب :

ـــ والله إنه لا يستحق منها مليما واحدا ، لولا أنك ألححت علىّ ما أعطيت الذى يتمنى موتى أموالى بغير حساب ..

فجمع حلمى أطراف شجاعته وقال :

ـــ إنك يا باشا تظلمه ..

فقال الباشا فى حدة :

ـــ إننى أظلم نفسى بترتيب هذا المبلغ له فى كل شهر ، إنه ما من مرة يرى فيها عثمان إلا ويقول له : متى نقرأ نعى عمك فى الصحف ؟ إنه يكرهنى حتى إنه يجد غضاضة على نفسه أن يقول أبى حتى فى تمنيه الموت ، لماذا تبلغ به البغضاء هذه القسوة ؟..

وراح يقول فى مرارة :

ـــ متى نقرأ نعى عمك فى الصحف ؟ عمك ؟! كأنما يبرأ من أبوتى له ..

فقال حلمى وهو يضيق عينيه ويزوى ما بين حاجبيه :

ـــ من أبلغك هذا ؟

ـــ عثمان .. عثمان نفسه .. وهذا القول ليس غريبا على عبد الخالق الذى حرض على قتلى ..

ـــ أنا واثق أن عبد الخالق لم يفعل شيئا من ذلك ..

ـــ وهل يفترى الناس على عبد الخالق ظلما وعدوانا ؟ لا دخان بغير نار ..

ـــ وإذا كان الناس يعرفون الذى حرضه عبد الخالق على إطلاق النار ، فلماذا لم يرشدوا إليه ؟

ـــ لأنهم يعتقدون أن الإرشاد عن المجرمين خيانة للأخلاق ..

ـــ وكيف عرفوا أن هناك اتفاقا بين عبد الخالق ومن حرضه على إطلاق النار عليك ، بعد إطلاق النار بساعات قلائل ، كأنما كان اتفاقهما فى سوق عام ؟!

ـــ ما أسرع انتشار الأخبار فى الريف ..

ـــ هذه إشاعة أطلقها من له غرض فى إطلاقها فتلقفها الناس وراحوا يتناقلونها .. وما أكثر ما ترتفع الشائعات إلى مرتبة الحقائق ، بل ما أكثر ما تكون الشائعة أرسخ قدما من الحقيقة ..

فقال الباشا وهو ينظر إلى ابنه بعينين واسعتين :

ـــ لماذا كل هذا الدفاع الحار عن عبد الخالق ؟

ـــ لأننا ظلمناه .. قضينا عليه ..

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟ أن أذهب إليه وأركع على ركبتى أمامه وألتمس منه الصفح ؟!

فقال حلمى وقد حسب أن الباشا قد لان ، وأن تحقيق ما يهدف إليه صار قريبا :

— ترتب يا باشا لعبد الخالق راتبا شهريا يمكنه من أن يحيا حياة كريمة ..

فقال الباشا فى ثورة :

— والله لن أدفع إلا الثلاثين جنيها ، وإن ألحفت فوالله لن أدفع إليه شيئا ، فإنى أدفعها إليه وأنا كاره ..

وفُتح الباب ودخل عثمان يهرول ويقول :

— قُتل النقراشى باشا ، قُتل فى وزارة الداخلية ، قتله شاب يرتدى ثياب ضابط بوليس ، ويقال إنه من الإخوان المسلمين ..

قال حلمى وهو يسرح بخياله :

— هذه نهاية الحرب بين النقراشى والإخوان المسلمين ..

فقال الباشا وهو يرنو إلى ابنه فى إنكار :

— بل هذه هى بداية الحرب بين السعديين والإخوان المسلمين ..

وقال عثمان وقد وقف عند رأس الباشا كعادته ومال يلتقم أذنه :

— سمعت أن الشيخ حسن البنا قال بعد أن حل النقراشى جمعية الإخوان : « سأحل وسطه » وها هو ذا قد نفذ وعيده ..

قال حلمى :

— ألم يتسرع النقراشى فى حل الإخوان ؟

قال الباشا :

— لو صبر عليهم قليلا لقاموا بانقلاب مسلح ، كانوا يقولون فى حرب فلسطين بعد أن ظهر الفساد فى الجيش ، وعلموا أن الملك كان يرتدى ثياب القائد ويذهب بها إلى نادى السيارات يلعب القمار للصباح ، بينما كانوا

يجودون بدمائهم فى الحرب المقدسة : « لقد تركنا خلفنا الجهاد حقا » .. وتذرعوا بحرب فلسطين وراحوا يجمعون الأسلحة ويكدسونها فى مخازن داخل البلاد لليوم الذى يقومون فيه بالانقلاب ..

قال حلمى :

ـــ سمعت أن النقراشى باشا كان مقتنعا بأن حوادث إلقاء القنابل والمتفجرات يرتكبها الإخوان المسلمون ..

قال عثمان :

ـــ لا يمكن أن أبرئ الشيوعيين من هذه الحوادث إن كان الإخوان قد ألقوا قنبلة ، فقد ألقى الشيوعيون عشرا ..

ونظر عثمان إلى الباشا ليقرأ فيه آى الإعجاب ، فقد سمع من الباشا هذا الرأى أكثر من مرة ، فراح يكرره حتى اعتنقه ، قال الباشا :

ـــ لم يقصر النقراشى باشا رحمه الله فى محاربة الإخوان ومحاربة الشيوعية ..

فقال عثمان :

ـــ رحمة الله ! دنيا ..

ووضع حلمى الصحيفة التى كانت كل عناوينها الضخمة تروى أفعال النقراشى باشا ، وقال :

ـــ لم يقصر الرجل فى محاربة الدنيا كلها ، إنه لما لجأ إلى مجلس الأمن يعرض عليه خلاف مصر مع إنجلترا ، لم يكن يؤيده فى المجلس إلا مندوب الصين ، فقام مندوب إنجلترا وطلب منه أن ينهض ويلطم مندوب الصين لطمة حتى يضمن عداوة دول المجلس جميعها ..

قال عثمان ليرضى الباشا :

ـــ لقد عادى العالم كله وأرضى الملك ..

فقال الباشا :

ـــ الحق كان رحمه الله رجلا ..

وضايق عثمان أنه قال ما لم يصادف هوى فى نفس الباشا ، كان يحسب أن الباشا حانق على النقراشى منذ انشق على الوفد ، وأن كل قدح فيه سيرضيه ، ولم يدر بخلده أن الباشا يرضى عن كل من يحارب الشيوعية ولو كان من الإنجليز ..

ورن جرس التليفون ، ورفع الباشا السماعة وقال :

— ألو ..

وارتسمت على محياه آى الاهتمام ، وفطن حلمى إلى أهمية الحديث فتعلقت عيناه بوجه أبيه ، وقال الباشا وقد تهللت أساريره ، ورفت على شفتيه بسمة عذبة :

— صباح الخير يا رفعة الباشا .. حاضر .. حالا .

ووضع سماعة التليفون ونهض وهو يقول :

— رفعة الباشا يطلبنى حالا لاجتماع الحزب ..

فقال عثمان فى لهفة :

— خيرا ؟

قال الباشا وهو يسير نحو الباب :

— لا أدرى بعد سبب هذا الاجتماع :

فقال حلمى :

— سيتدارس الوفد الموقف بعد مقتل النقراشى باشا ..

وخرج الباشا وعثمان وحلمى فى أثره ، وهبطوا جميعا ، وأسرع عثمان إلى باب السيارة يفتحه ، واندس الباشا فيها وأمر السائق أن يسرع إلى الحزب ..

ووقف عثمان يرقب السيارة خافق القلب ، ثم التفت إلى حلمى وقال :

— أتظن أن من المحتمل عودة الوفد إلى الحكم ؟

فقال حلمى :

— من المستحيل أن يعود الآن ..

قال عثمان فى ابتهال :

— ليته يعود ..

ونظر حلمى إليه فى دهش وقال :

— ما الذى يهمك من عودة الوفد ؟

فابتسم عثمان قائلا :

— وعدنى الباشا بالبكوية لو عاد الوفد ..

فابتسم حلمى فى سخرية ورمقه فى زراية ، فقد بدأت ثقته فيه تتزعزع ، ولولا يقينه من أن محاربته ستغضب الباشا لشن عليه حربا لا هوادة فيها ، إنه عرف كيف يتسلل إلى نفس الباشا ، ولن يكون نزع جذوره من أعماقه بالأمر السهل ..

وانصرف حلمى وعاد عثمان إلى المكتب وهو يمنى نفسه بعودة الوفد ، والإنعام عليه بالبكوية ..

وسرح بخياله وراح يغمغم فى نشوة : عثمان بك .. سعادة عثمان بك .. حضرة صاحب العزة عثمان بك ، إننى لست أقل من الذين نالوا هذه الرتبة .. وسيدفع الباشا للملك ما دفعه غيرى للحصول عليها .. سأنالها بثمنها ..

وانتشرت فيه سعادة ما كان يشوبها إلا قلقه من ألا يعود الوفد إلى الحكم ، وتقضى وقت وهو ينعم بأوهامه ، وعاد الباشا إلى المكتب فخف إليه فى قلق :

— خيرا ؟

قال الباشا وهو يجمع بعض أوراقه :

— كلف الملك عبد الهادى باشا بتأليف الوزارة ..

وسرى فى صدر عثمان حزن ثقيل ، وأطرق فى ضيق ، ولكن الآمال التى كانت تداعبه لم تلفظ أنفاسها ، فسيعود الوفد إلى الحكم يوما وينال الرتبة التى صار يحلم بها ..

٤٢

كانت الشمس تميل للغروب ، وكان النسيم يهب من البحر يلطف الحر اللافح ، فقد كان الوقت الأيام الأخيرة من يوليو ، ولم يكن على شاطئ البحر إلا بعض الصغار وقلة من الرجال والنساء انتثروا أمام الكبائن ، فاليوم آخر أيام رمضان ..

وفى كابينة منعزلة تمدد فى الكراسى الطويلة الموضوعة أمامها عبد الخالق وكان يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا أبيض وحذاء أبيض من المطاط ، وإلى جواره بثينة فى ثوب أبيض قصير يكشف عن صدرها وذراعيها وساقيها ، وقد وضعت وهى مضطجعة ذراعيها تحت رأسها وعلت ساقا على ساق ، فبرز صدرها فى إغراء ، وفى الكرسى المجاور لها نام رفعت على جانبه بحيث يمسح بعينيه كل مفاتنها ويطلق لخياله العنان ..

وكان ميمى فى ثياب البحر ، يبنى قصورا على الرمال سرعان ما يغمرها الموج ثم ينحسر عنها وقد سواها بالأرض ، فيعود ميمى لتجميع الرمل وتشييد قصوره فى جد ونشاط ..

وكان عبد الخالق يشرد يفكر فى حاله ، وفى أبيه الذى يجود عليه بثلاثين جنيها فى الشهر ، بينما الأيام كلها رخاء والقطن ارتفعت أثمانه حتى بلغت مائة وأربعة من الريالات للقنطار ، فلو أن أباه قبل أن يقرضه المال الذى طلبه لانقلب عسره يسرا ، ولسعد بحياته بدل شظف العيش الذى يقاسيه ، والحرمان الذى يذل كبرياءه ..

إنه وهو جالس فى ظل كابينة بدر الدين لا يحس الراحة التى يستشعرها غيره من المصطافين ، فما كان يدور بخلده أن ينزل هو ضيفا على إلهام وزوجها أياما ثم لا يجرؤ أن يدعوهما لتمضية بضعة أيام عنده ، فشتان بين الحياة التى يعيشها

والحياة التى أصبح يكابدها ، إنه كلما جلس إلى مائدتهما هو وزوجته وصديقه تقاصرت نفسه ، واستشعر هوانا وغمرته حسرة ، فقد أصبح من رواد موائد غيره بعد أن كان صاحب مائدة عامرة يؤمها كل يوم ألوان من البشر ..

وراح يتساءل فى مرارة : أين الأستاذ وأين عوده ؟ وأين الممثلة الكبيرة ؟ وأين الرجال والنساء الذين كانوا يحفون به ويلبون أية إشارة من أصبعه ؟ انفضوا جميعا من حوله بعد أن ذابت أمواله ، لم يبق له صديق إلا رفعت الأصيل وكأسه التى يغرق فيها همومه ، وبيت مرسى فى شارع سليمان باشا الذى يفر إليه من دنياه البغيضة ، وفيلا أنهار التى يزورها كلما وجد أن رصيده من الذكريات الجميلة الذى يعيش عليه فى لياليه الباردة الحالكة الظلام التى تسرى الحرارة فى جنباتها الموحشة بدأ ينفذ ..

وكانت بثينة تفكر فى أختها إلهام التى استأذنت هى وزوجها من بضع دقائق ليعدا مائدة الإفطار لضيوفهما ، كانت تسخر منها كلما تحمست لبدر الدين قبل أن تتزوج منه ، وكانت تسفه أحلامها وترميها بالسذاجة ، وها هو ذا بدر الدين يسعدها ويشق طريقه ويحث الخطا نحو قمة النجاح ، ولكن هل سيمتلك ذات يوم خمسة آلاف من الأفدنة ؟ إن حلمى لا يفصل بينه وبين أن يصبح مالكا لخمسة آلاف من الأفدنة إلا موت الباشا ..

وأخذ رفعت يفكر فيما حدث له وهو فى طريقه إلى الكابينة ، راحت فتاة تنظر إليه بعينين جائعتين فرماها بنظرة خاطفة ، وإذا بالفتاة تقول له وهى تبتسم : « عينك ! اليوم آخر يوم فى رمضان ! » ترى أكانت الفتاة تنهاه أم تغريه ؟ إنها كانت تغريه بالنظر وبما بعد النظر ، إنها ككل حواء تتظاهر بالتمنع وهى راغبة ..

وراح ينظر إلى مفاتن بثينة ، إنه فى قرارة نفسه واثق أنها كتلك الفتاة التى قالت له فى إغراء : عينك .. ويا طالما قالت له بثينة : لسانك ! وعيناها تشتعلان رغبة ، ولكنه لا يجد فى نفسه الشجاعة التى تهتك الحجاب الرقيق

الذى يفصل بينه وبينها ، ذلك الحجاب الذى صار أوهى من خيوط العنكبوت ..

وأراد رفعت أن يقطع الصمت السائد بينهما فقال :

— حيرت استقالة إبراهيم باشا عبد الهادى الناس ، استقال قبل العيد بثلاثة أيام ، ولم يكن هناك سبب وجيه للاستقالة أو لعدم تأجيلها إلى ما بعد العيد ، فإبراهيم باشا نفذ سياسة النقراشى فملأ بالإخوان وبالشيوعيين السجون والمعتقلات ، وقتل الشيخ حسن البنا فى مستهل حكمه ، ومما زاد فى غرابة الأمر أن الملك أعلن أن الوزارة القومية التى شكلها سرى باشا من الأحزاب جميعا هى هدية الملك إلى شعبه فى العيد ، كأنما يعلن بطريقة مستترة أن وزارة إبراهيم باشا هى الضحية التى ضحى بها ، إنه يحب دائما أن يخرق الناموس والتقاليد ، ضحى بالوزارة فى عيد الفطر بدلا من عيد الأضحى ..

فقالت بثينة وهى تضحك :

— لأنه زنديق ..

واعتدل عبد الخالق فى مقعده وقال :

— سمعت سببا معقولا لحقد الملك على عبد الهادى باشا ..

قالت بثينة :

— ممن سمعته ؟

إنه سمعه فى بيت مرسى ، وما أكثر الأسرار التى فى بيوت اللهو والمواخير وحول موائد الشرب واللعب .. فقال :

— سمعته من موظف من موظفى السراى كان يشرب كأسا معى .

واعتدل رفعت وسدد نظرة إلى صدر بثينة العارى ومرر لسانه على شفتيه الجافتين يبللهما وقال :

— قل .. الله يفتح عليك ..

وقال عبد الخالق وهو ينظر إلى رفعت من فوق جسم بثينة الممدود فى

الكرسى الطويل الذى يصرخ بالإغراء :

ـــ وجد أن سبب هزيمة الجيش فى فلسطين هو عدم وجود فرقة مدرعة ، فتقرر رصد مبلغ فى ميزانية الدولة لتكوين هذه الفرقة ، وأدرج مبلغ أربعين مليونا من الجنيهات لهذا الغرض ، وأدرك الملك ألا تمر هذه الفرصة دون أن يستفيد منها ، فطلب إدراج مبلغ مليون من الجنيهات لإصلاح يخته المحروسة ، وحرض ياوره البحرى على طلب شراء يخته فخر البحار لتدريب البحارة عليه ، وقد طلب الملك ثمنا له أربعة وسبعين ألفا من الجنيهات وكان قد اشتراه بستة وثلاثين ألفا ..

فقالت بثينة فى دهشة :

ـــ يريد أن يبيعه بضعف ثمنه بعد أن استعمله ؟

قال رفعت فى بساطة :

ـــ سيقبض ستة وثلاثين ألفا من الجنيهات ثمن شرف استعماله لليخت ، والله لقد باع الشرف بثمن بخس ، دراهم معدودة ..

فقالت بثينة وهى تضحك :

ـــ اللهم ارزقنا بهذه الدراهم المعدودة ..

واستمر عبد الخالق :

ـــ وعرضت الأوراق على إبراهيم باشا ، وكان عنده وزيران من وزارته ، فلما رأى ما يطلبه الملك ثار وقال : « أهو ابن اللبوة فى حاجة إلى مال ؟ » وبلغ ما قاله رئيس الوزراء إلى الملك ..

ولم تستطع بثينة أن تصبر حتى يتم زوجها حديثه ، قالت :

ـــ ومن الذى بلغ الملك ما قاله رئيس وزارته ؟

قال رفعت :

ـــ وزير من الوزيرين اللذين سمعا السب ، إنها فرصة يتقرب بها إلى الملك ..

قال عبد الخالق :

ــ وعرف إبراهيم باشا أن ما قاله وصل إلى الملك ، واتهم كل وزير منهما الآخر بأنه هو الذى خان الأمانة .. وتيقن إبراهيم باشا قبل أن يرغم على الاستقالة أن الوزيرين بلغا الملك ما قاله تقربا إليه وزلفى ..

قال رفعت :

ــ أمر هذا الملك غريب ، يملك كل شىء ويهوى السرقة ، يسرق الأدوية من المستشفيات فى أثناء الحرب ، ويسرق على موائد القمار ، ويسرق التحف من المتاحف ..

قال عبد الخالق :

ــ ويسرق السُّلطة من وزرائه ، ويسرق الأراضى من الأوقاف ..

وقالت بثينة :

ــ ويسرق الزوجات من أزواجهن ..

وقال رفعت :

ــ إنه لا يعطى إلا الألقاب ..

وقال عبد الخالق معترضا :

ــ حتى الألقاب يقبض ثمنها ، أصبحت أروج تجارة فى مملكته .. قطعة من الورق يقبض ثمنا لها خمسة آلاف أو عشرة آلاف من الجنيهات ..

قال رفعت :

ــ تصرفاته كلها استهتار ، فى غرفة نومه بركن فاروق بحلوان صورة امرأة عارية ، وعلى الحائط القريب منها بعض آيات قرآنية ..

قالت بثينة وهى ترنو إليه رنوة ذات مغزى :

ــ وما الذى أدراك بما فى غرفة نومه ؟

قال رفعت وهو يضحك :

ــ لم أحظ بعد بشرف أن يغلق على وعليه باب ..

قال عبد الخالق :

ــ فما أدراك بهذه الدقائق ؟

قال رفعت :

ــ جاء بعض رجال الحاشية لامرأة من بائعات الهوى ، وإن كانت زوجة موظف كبير ، وقالوا لها : الملك يريدها ليلة ، فراحت تتأهب للحدث الجليل ، وفصلت ثوبا دفعت فيه سبعين جنيها ، وحملت إلى ركن حلوان وأمضت مع الملك ليلة ، وفى الصباح دفعوا لها خمسين جنيها ، فراحت تولول وتصيح : أدفع من جيبى عشرين جنيها بعد ليلة خاسرة ؟! إنها هى التى تقص ما فى الركن من متناقضات ..

قالت له بثينة :

ــ أهذا كلام يقال فى رمضان ؟

فقال رفعت وهو ينظر إليها فى اشتهاء :

ــ نسلى صيامنا ..

وصمت قليلا ، ثم قال لعبد الخالق :

ــ أتعرف كيف تسلى امرأة مرسى اليهودية صيامها ؟

قال عبد الخالق :

ــ لا ..

ونظر رفعت إلى بثينة نظرة خاطفة وقال وهو يبتسم :

ــ الصيام عند اليهود قاس ، إنهم يمسكون عن الطعام والشراب من غروب الشمس حتى غروب شمس اليوم التالى ، ورحمة زوجة مرسى يهودية متدينة لا يفوتها شيء من شعائر الدين ، إنها تصوم وتسلى صيامها بأن تغلق الباب عليها وعلى صديق من أصدقائها حتى تغيب الشمس ..

فقال عبد الخالق وهو ينهض :

ــ قم ، لقد أفطرت قبل أن ينطلق المدفع ..

فقال رفعت وهو ينهض :

ــ لماذا ؟

فقالت بثينة وهى ترفع صدرها لتنهض :

ــ لأنك خضت فى عرض رحمة ..

فقال رفعت وهو ينظر إلى بثينة فى اشتهاء :.

ــ أصوم أصوم وأفطر على رحمة !

ونادت بثينة على ابنها ، وراح عبد الخالق ورفعت يدخلان الكراسى فى الكابينة ، وعبد الخالق يدندن : « رمضان ولى هاتها يا ساق » وأغلق باب الكابينة وانصرفوا وقرص الشمس يكاد يمس قرص الشمس المنعكس فى الماء ..

٤٣

سار حلمى مطرق الرأس ، باسر الوجه ، منقبض الصدر ، تمور فى جنباته مشاعر من الأسى والحزن ، فقد صارت حياته مع سميرة جحيما لا تطاق ، إذا مكث معها فى البيت خلقت أسباب النكد لتنغيص عيشه ، وإذا خرج وحده سلقته بلسانها وراحت تتهمه بأشياء لا وجود لها إلا فى خيالها المريض ، وإذا خرجت معه أتت من صنوف الحماقات ما يحرجه ويخجله ويجعله ينكمش ليتحامى نظرات الرثاء التى تصوب إليه .. وراحت مآسى حياته معها تنثال على رأسه ، تذكر أنها كانت جالسة ذات يوم إلى مائدة الطعام معه ومع أمه وأبيه ، وكانت أمه تتحدث حديثا عابرا ، فصور لها وهمها أن أمه تعرض بها وتريد أن تنال منها ، فتحركت حماقتها ، ولم تحاول أن تكبح جماحها بل أطلقت لغضبها العنان ، وراحت تبكت أمه فى قحة وبذاءة ، وتكهرب الجو ، وثارت ثائرته وكاد ينفجر فيها ليمزق كيانها تمزيقا لولا أن تدخل الباشا بلباقة وأطفأ النار التى

أججتها والتى كادت تأتى على العلاقة المتوترة التى تربطه بها ..

وذهبت معه ذات ليلة لزيارة صديق ، ورحب الرجل وزوجته بها أطيب ترحيب ، ودار الحديث بينهم رقيقا ، كله مجاملة ، وراحت تبث فى حديثها ألغاما وتتعمد الاصطدام بصديقه ، وأحس الرجل تحفزها للوثوب فراح يتحاشى الفخاخ التى تلقيها فى طريقه ، ونجحت أخيرا فى أن تثير الرجل وتجرح كبرياءه فندت منه كلمة جافة ، فاهتبلت الفرصة التى كانت تتحينها وألقت فى وجه الرجل بسباب أقسى على النفس من طعنات الخناجر ، كانت تغار من صداقته له فراحت تحطم فى قسوة هيكل تلك الصداقة الذى ثبتت للأعاصير سنين طويلة ..

وزارته إلهام وابنها ذات يوم ، فلما رأتهما اربد وجهها وعلته صفرة تحاكى صفرة الموتى ، وراحت تبدى عدم ترحيبها بتلك الزيارة ، وكانت تصوب للغلام نظرات ذاخرة بالمقت والحقد ، وأحست إلهام بالجو المتوتر الذى ساد زيارتها فانسحبت سريعا ، وما إن غادرت هى وابنها البيت حتى هبت سميرة تنتقد كل حركة أتاها الصغير وتتهمه بسوء التربية ، ثم راحت تسأله فى قسوة عن العلاقة التى كانت بينه وبين إلهام قبل أن يتزوجها ، ورفضت أن تذهب معه لرد الزيارة بحجة أن إلهام لا تأتى إلا لتراه هو ، لتعيش معه لحظات تبعث فيها ماضيها ..

وجاء إلى بيته فى مستهل حياته الزوجية ، قبل أن يكتشف أن زوجته عاقر ، بعض أصدقائهم وزوجاتهم ، وأمضوا معهم ليلة عامرة بالبهجة والسرور ، وما أن انصرفوا حتى قالت له إنها لا تحب أن يكون بيتها ملتقى الفارغين ، وما كان يعرف حقيقة نفسها بعد ، فاستجاب لرغبتها السخيفة ولم يدع أصدقاءه لزيارته ، ولو عرف من مبدأ الأمر أنها تخشى أن يدب التلف إلى أثاث بيتها وأنها تغار من معارفه وأنها تريد أن تفصله عن كل ماضيه ، لحطم كل أثاث البيت وأصر على دعوة أصدقائه يمضوا لياليهم معه ، وليته فعل .

إنها تصارحه فى قحة أنها تكره أمه لأن أمه تكرهها ، وهى ترفض أن تذهب معه إلى العزبة ما دامت أمه فيها ، ويا طالما أحس بالحرج كلما ذهب إلى العزبة وحده وسألته أمه عنها ، كان يعتذر فى كل مرة بسبب واه ، وكان يستشعر فى أعماقه أن أمه لا تصدق معاذيره ، وإن كانت لا تنبس بكلمة حتى لا تزيد آلامه اشتعالا ..

كان لا يخطر له على قلب أن سيأتى يوم مهما حدث يرفع فيه يده ليضرب زوجته ، ولكن ذلك اليوم جاء وتكرر مجيئه ، فقد اضطرته أكثر من مرة إلى أن يضربها حتى يسكت القذائف القاتلة لرجولته المتدفقة من لسانها السليط الذى يلتذ بتمزيق كل مقدس ، إنه كلما ضربها أحس أنه فقد إنسانيته ، وطفقت تعذبه نظرة الاحتقار التى يسددها لنفسه ..

وصرخت فى وجهه أكثر من مرة تطلب منه أن يطلقها ، وقد هم فى كل مرة أن ينفذ الرغبة التى تزهو بإعلانها والتى يتمنى من أعماقه أن تتحقق ، ولكنه كان يقمع تلك الرغبة المدمرة التى يشتهيها ، فعزيز على النفس تقويض الحياة حتى ولو كانت حياة شقية تعيسة ..

وفاضت كأس مرارته ، فوطن العزم على أن يفصم عرى ذلك الزواج الذى أذله سنوات حتى كاد يتلف نفسه ، وأن يتحرر من الهوان الذى تردى فيه ، ومن الحرمان الذى يقاسيه ، ومن الروح الخبيثة التى غمرت دنياه بالمقت والكراهية والحقد والحسد والغيرة ..

ودخل على أبيه وهو مثقل بالأفكار التى أرهقته ، فألفى عثمان قد بسط أمامه مجلة وراح يقول له :

ـــ الصحف والمجلات كلها تتحدث عن الإقطاع وعن ضرورة تحديد الملكية ، لماذا تسمح الحكومة ببث هذه الآراء الهدامة فى نفوس المحرومين ؟

كان منفعلا يخشى على أراضيه التى هدر فى سبيل جمعها كل كرامة ، ونظر إليه الباشا وقال له :

— اطمئن ، إنها مقالات لا جدوى منها ، تكتب لإرضاء جمهرة القراء المحرومين ..

وجلس حلمى يصغى إلى الحديث الدائر بين أبيه وعثمان دون أن يشترك فيه ، كان يرجو أن ينتهى حتى يفاتح أباه بما عزم عليه وجاء إلى العزبة من أجله ، وقال عثمان :

— ليس من الحكمة إثارة طبقة على طبقة ، هذه المقالات تزيد حقد المحرومين على ملاك الأراضى وتغذى حسدهم ، ومن يدرى ماذا يكون غدا ؟

قال الباشا فى هدوء :

— لن يحدث شىء ما دام الملك على رأس البلاد ، إنه يملك مديريات بأكملها ، أيعقل أنه يصدق على مشروع يهدف إلى تحديد الملكية ؟ نادى خطاب العرش سنة ١٩٤٥ بتحديد الملكية بخمسين فدانا ، وأعد مشروع قانون فى عهد إبراهيم باشا عبد الهادى بنزع ثلث الزمام من كل من يملك أكثر من مائتى فدان ، ولم يقدم المشروع إلى البرلمان لأن الملك رفضه .. تحديد الملكية يا عثمان وهم من الأوهام ..

قال عثمان وهو يهز كتفيه :

— خوض الصحف والمجلات فى هذا الموضوع يقتلنى ، البذرة يا باشا إذا بذرت فى الأرض وتعهدت بالرعاية لا بد أن تنمو وتنبت ، هذه المقالات التى تكتب هى المياه التى تروى البذرة ..

وطوى الباشا المجلة وهو يقول :

— ما أوسع أحلام الكتاب ..

وحمل عثمان المجلة وراح يغمغم :

— ويل للذين يصلون من الذين لا يصلون ..

وخرج عثمان إلى مكتبه ، وظل حلمى مطرقا يجمع أطراف نفسه ، وقرأ الباشا الأسى المرتسم على وجه ابنه ، فقال له :

— ما الذى يشغل بالك يا حلمى ؟

وقال حلمى وهو يفرك يديه فى عصبية ، دون أن يرفع رأسه :

— أصبحت الحياة مع سميرة لا تطاق ..

فقال الباشا وهو ينظر إليه فى إشفاق :

— اصبر يا حلمى ..

— نفد صبرى ولم أعد أحتمل الحياة معها ، سأُطلقها ..

فقال الباشا فى فزع :

— أتطلقها الآن ؟ بعد أن اقترب تحقيق الأمل الذى عشت له سنوات ؟ أمنيتى فى الحياة أن أراك وزيرا وقد عملت لها طويلا ، فلما لاحت تباشير النجاح تأتى لتقوض كل ما بنيته فى لحظة ؟! الانتخابات على الأبواب ، وسيعود الوفد إلى الحكم قريبا ، وقد ذهبت أنا ومحفوظ باشا إلى فؤاد باشا سراج الدين وفاتحناه فى أمر تعيينك وزيرا ، فوعد الرجل بتعيينك فى أول تعديل وزارى يجرى بعد تشكيل الوزارة ، أتظن أنك لو طلقت سميرة سيقف محفوظ باشا مكتوف اليدين ؟ إنه سينقض الغزل الذى غزلناه معا . وسيكتم أنفاس الأمل الذى أشتهيه بكل جوارحى ، لا يا حلمى لن تطلق سميرة ..

فقال حلمى فى ضيق :

— إننى أتلظى فى الجحيم ..

فقال الباشا وهو يدنو منه :

— احتمل يا حلمى وتجلد حتى تصبح وزيرا ثم طلقها بعد ذلك ، سميرة لا تهمنى ، ولولا أننا فى حاجة إلى محفوظ باشا لوقع الطلاق من سنين ..

وصمت حلمى ، وسرح الباشا ببصره وراح يقول ليدخل الطمأنينة إلى قلبه :

— إننا إذا عدنا هذه المرة إلى الحكم ، وسنعود قريبا ، فلن نقف للملك فى التفاهات ، قال لى سراج الدين باشا إن رأيه ورأى رفعة الهائم أن يعمل الوفد

على أن يبقى فى الحكم طويلا ، ولن يستطيع أن يحقق ذلك إلا بمهادنة الملك ، هذه سياسة حكيمة وقد أيدتها وباركتها وهنأت سراج الدين باشا على سداد رأيه ، وقد قال لى إنه لن يسمح بأى صدام بين الوفد والسراى ، ستطول مدة حكمنا ، وستصبح وزيرا ، أفلا يستحق ذلك منك بعض الصبر ؟!. كل ما أبغيه هو مصلحتك أنت ..

كانت أعز أمانيه أن يصبح هو وزيرا ، ولكن ثقافته وقفت حجر عثرة فى سبيل أطماعه التى لا تعرف حدودا ولا قيودا ، فراح يبذل كل جهد ليحقق فى ابنه ما عجز أن يحققه فى نفسه ، وقد أخذ من رفعة باشا ومن رفعة الهانم ومن سكرتير الوفد وعودا قاطعة بتعيين ابنه وزيرا ، ولن يدع هذه الفرصة تتسرب من بين يديه حتى لو قاسى ابنه فى حياته الزوجية ما قاسى وتقلب على الجمر ..

وتيقن حلمى أن أباه لن يلين قلبه لشكواه مهما جأر بالشكوى ، حتى يحقق أهدافه ، فما كان الباشا ممن يجزعون للضحايا الذين يسقطون تحت أقدامهم وهم منطلقون نحو غاياتهم ، فآثر أن يطوى نفسه على النار التى تسرى فى أحشائه ..

وقام حلمى فى تثاقل وسار وهو ساهم حتى غادر المكتب ، وانطلق إلى السيارة الجيب الواقفة فى الفناء الذى تطل عليه سراى الباشا وفيلا الضيافة ، وجلس خلف عجلة قيادتها وراح يدور بها حول الأرض الخضراء التى كانت تزهو بنضارتها ..

ودلف إلى القرية وترك السيارة وسار على قدميه وهو يحمل صندوقا من الورق لف بورق السلفان ، وبلغ بعض أطفال صغار ، حفاة الأقدام ، ممزقى الثياب ، لوثت وجوههم بالتراب ، وعلا القشف أيديهم حتى كون طبقة خشنة كصدف الأسماك ، كانوا يلعبون ، فلما رأوه يدنو منهم وقفوا ينظرون إليه فى ريبة ويتأهبون لإطلاق سيقانهم للريح إذا ما بدر منه بادرة عداء ..

ومزق ورق السلفان خافق القلب وفتح الصندوق ، وراحت مشاعر رقيقة

تراق فى جوفه ، وتحرك حنانه وهو يمد يده إلى الصندوق ويخرج منه المارون جلاسيه وقطع الشيكولاتة الصغيرة الفاخرة الملفوفة فى ورق مفضض أحمر وأخضر وأزرق ، ويقدمها إلى الأولاد الذين كانوا يتناولون ما يقدمه إليهم فى خوف وشك ..

وسكنت الطمأنينة أخيرا قلوب الأطفال فالتفوا حوله فرحين ، وهو سعيد بالعواطف النبيلة التى تحركت فى أعماقه ومشاعر الأبوة التى وجدت منفسا لها ، وتذكر فى هذه اللحظات الذاخرة بأنبل ما فى البشرية من إحساسات إيفا ووليده المجهول الذى يرجو بما يفعله أن يقيض الله له صاحب قلب رحيم يعوضه الحنان الذى فقده قبل أن يخرج إلى النور ..

ونفذ ما فى الصندوق ، وخف الأولاد إلى أهليهم فرحين بما يحملون وهو يرقب سرورهم مغتبطا ، وقد هامت روحه فى فوف من النشوة والراحة والرضا ، فقد أثلج صدره أن أدخل البهجة على قلوب المحرومين ..

وأسرع الأولاد بالشيكولاتة إلى دورهم ، وقدموا ذلك الذى أعطاهم إياه حلمى إلى ذويهم وهم يتصايحون ، وفتحت الأوراق المفضضة فى حرص ، وذاقت طفلة المارون جلاسيه فعافته نفسها وبصقته اشمئزازا ، وتناول فلاح قطعة الشيكولاتة من ابنه وراح يقلبها فى يده فى مرارة ويفكر فى حيرة فيما يفعله ليقسم هذه القطعة الصغيرة على كل من فى الدار ، وأحس ضيقا ، كان فى غنى عن الورطة التى وجد نفسه فيها لو لم يعط حلمى ابنه قطعة الشيكولاتة التى لم يحلموا بها يوما ، وفاض ضيقه فقال :

ــ ليته أعطانا ثمن هذه القطعة لنكمل ثمن كيلة الذرة ..

واجتمع الرجال فى الليل يسخرون من ابن الباشا الذى لا يحس ما هم فيه من ضنيق ، فراح يوزع على الأطفال الذين ينهش بطونهم الجوع أفخر أنواع الشيكولاتة !

٤٤

كانت بثينة جالسة فى غرفة الاستقبال ترتدى روبا من الصوف الأزرق ، فوق ثيابها المنزلية ، وقد وضعت ساقا على ساق وضمت الروب إليها من البرد فبدت استدارة فخذها وامتلاؤه ، وكان فى رجليها شبشب من قماش الروب زين بوردة كبيرة ، وظهر من ساقها جزء صغير ناصع البياض كان إغراؤه أشد فتنة من الصدور العارية ، وكانت عيناها الخضراوان تنفثان دفئا لذيذا ..

وجلس رفعت بالقرب منها ، كان الوقت النصف الثانى من شهر يناير ، وكانت الرياح الباردة تصفر فى الخارج ، وكان يستشعر البرد القارص قبل أن يجلس إلى بثينة ، فلما جلس إليها وراح يحادثها راح الدفء يسرى فى روحه ..

صارت أسعد ساعات حياته تلك التى يمضيها إلى جوارها ، يحادثها أو يصغى إلى حديثها ، وكان تطلعه إلى عينيها أو شعرها الأسود الفاحم أو لحمها الذى كان فى لون الخوخ يضفى على نفسه سعادة غامرة ، كان فى أول أمره يشتهيها كما يشتهى أية أنثى أخرى ، ولكن طول معاشرته لها جعلت روحه تألف روحها وتحبها وإن لم يفتر اشتهاؤه لها ..

إنه يحس أن فقده إياها ، لو قدر له أن يفقدها سيحز فى نفسه ، وسيترك روحه فارغة ، ويجعل حياته تافهة ، فحرص على ألا تبدر منه بادرة تغضبها ..

وسوست له نفسه أكثر من مرة أن يلف ذراعه حول خصرها ، وأن يضم صدرها الناهد إلى صدره المتلهف إليها ، وأن يضع شفتيه الظمآنتين الملتهبتين على شفتيها ، ولم يصغ إلى الوسوسات المشتهاة ، لا تعففا منه ، بل خشية أن تغضب عليه غضبها على شعبان ، وتطرده من جنتها التى يحبها على الرغم من أنه لا يروى غلته منها ..

قص عليها مئات النكات المكشوفة وهو يرجو أن تقرب صدره من

صدرها ، وقد هتكت تلك النكات كل حجاب بينه وبينها إلا غلالة رقيقة هفهافة لا تمزقها إلا يد تمتد إليها ، ويده ترتجف فرقا إذا دنت منها ، وبات أمله الوحيد أن تمتد إليها يدها هى أو تهب عاصفة هوجاء تعصف بالغلالة الواهنة التى صمدت للزمن ، وتحدت كل إغراء ..

ولم ييأس من غده ، فكان يحضر النكات التى سيلقيها على مسامعها قبل أن يذهب للقائها ، كان كالمحضر الذى يعد نقاط محاضرته فى عناية قبل أن يواجه جمهوره ، وقد نمق قبل أن يأتى الليلة حديثه الذى سيخوضه ، واختار الشخوص التى سيخوض فى أعراضها .. قال ليفتح أبواب الحديث :

— أين ميمى ؟

— نام من البرد .

— وعبد الخالق بك ؟

— لم يعد بعد .

واعتدل فى جلسته يتأهب للولوج فى الموضوع الذى يريد أن يدور الحديث حوله ، قال :

— أظن أن عودة الوفد إلى الحكم ضايقت عبد الخالق بك .

فقالت وهى تبتسم استخفافا :

— والله لا أدرى ما الذى يضايقه فى هذا ؟ الباشا يبطش به سواء أكان الوفد فى الحكم أم كان فى خارجه .

— إنه يعتقد أن طغيان الباشا يزيد كلما كان حزبه فى الحكم .

— أكثر اعتقاداته أوهام .

ولم يكن يهمه فى كثير أو قليل ما يعتقده عبد الخالق ، إنه يريد أن يصل إلى حديث السياسة ، قال :

— هل سمعت بما قاله رفعة الباشا للملك فى أول مقابلة بينهما بعد نجاح الوفد فى الانتخابات ؟

فقالت وهى تبتسم ، إذ فطنت إلى أنه يريد أن يسليها ، فما كانت السياسة تهمه أصلا :

ـــ أبدا

قال وهو يقلد رفعة الباشا :

ـــ لى طلب واحد يا مولاى . فالتفت الملك مذعورا إلى سرى باشا الذى أفهمه أن رفعة الباشا لا مطلب له هذه المرة إلا أن يرضى مولاه ثم عاد ينظر إلى رئيس وزرائه وقد أوجس منه خيفة ، وإذا برفعة الباشا يقول : لا مطمع لى إلا أن أُقبل يد مولاى .

قالت بثينة فى إنكار :

ـــ لا أصدق أن هذا حدث .

ـــ وهل كان أحد يصدق أن يعود الوفد إلى الحكم بعدما كان بينه وبين الملك بسبب ٤ فبراير ، وبعدما أُطلق الرصاص على رفعة الباشا وأُطلقت المفرقعات على بيته لنسفه ، وبعد أن اتهمت رفعة الهانم الملك بأنه هو المدبر لهذه المحاولات ؟!

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ من عجيب المصادفات أن رفعة الباشا دائما على موعد مع فضائح الأسرة المالكة ، فعندما كان فى الحكم سنة ١٩٤٣ ذاعت فضائح الملكة نازلى فى فلسطين وراح الناس يتحدثون عن علاقاتها بضباط الحلفاء ومغامراتها فى فندق الملك داود وسافر رفعة الباشا وعاد بالملكة نازلى وبالأشرطة السينمائية التى التقطت لها وهى تسكر وتعربد وترقص واليوم يعود رفعة الباشا للحكم ، وفضائح الملكة فى أمريكا تزكم الأنوف .

فقالت بثينة وهى تضم الروب إليها وتغطى ساقها التى تعرت :

ـــ ولكن الملكة فى أمريكا منذ أربع سنوات .

ـــ ولم يتحدث الناس عن طيشها ونزواتها من قبل بمثل الصراحة والمرارة

التى يتحدثون بهما الآن ..

ـــ وماذا كان الدافع لسفرها إلى أمريكا ؟

ـــ إجراء عملية جراحية ، يقال إنها أخرجت حصوة من الكلى

قالت بثينة فى دهش :

ـــ ومن أين جاءت لها الحصوة ؟

فاستغل النكتة التى كان الناس يتندرون بها فى هذه المناسبة . قال :

ـــ أصلها نامت مع طوب الأرض .

فضحكت وقالت :

ـــ لسانك !

فقال وهو يضحك :

ـــ هذا ليس لسانى ، هذا لسان الشعب .

وتفتحت نفسه ، كان خوضه فى الأعراض هوايته ، وراح يقول :

ـــ ويهمس الناس أن الملكة ستزوج الأميرتين فايقة وفتحية فؤاد صادق ورياض غالى .

فقالت فى إنكار .

ـــ هذه إشاعات ، من غير المعقول أن تزوج فتحية رياض غالى .

ـــ ما أيسر أن يعلن إسلامه .

ـــ هل أقفرت البلاد من الرجال ولم يعد بها إلا رياض غالى هذا ؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـــ المسألة مسألة ظروف ، كان رياض غالى فى حاشية الملكة والأميرتين ، وكان شابا والملكة تعطف على الشبان ، وتطور عطفها على رياض غالى فأصبح عشيقها ، وعزمت على أن تربطه بها فقررت أن تزوجه ابنتها القاصر .

فقالت بثينة وهى تهز رأسها نفيا :

ـــ هذا لا يمكن أن يصدقه عقل .

فقال وهو ينظر إليها نظرة جائعة :

ـــ وما دخل العقل فى هذا ؟ هذا شىء يطير العقل .

ـــ لا يمكن أن أصدق أن أما تفعل هذا ..

ـــ نازلى جديرة بأن تفعل أكثر من هذا ، إنها تتشبث بالحياة ، منذ نشأتها تحب .. تحب الحياة .

ـــ وهل الملك يعرف هذا ؟

ـــ وأكثر من هذا ، وقد طلب من حكومة الولايات المتحدة إخراجها وإخراج أختيه من بلادها ، ولكنها رفضت أن تتدخل فى حرية الناس .

فقالت بثينة وهى تنظر إليه نظرة كلها إغراء :

ـــ آه من لسانك !

فإذا بصوت يهمس فى أغواره : آه من عينيك ! وقال :

ـــ لسانى فى هذه المسألة أرحم لسان .

فقالت بثينة وهى تبتسم :

ـــ لماذا ؟

فقال وهو يضيق عينيه :

ـــ لأننى أشتهى أن أبتلى بما ابتليت به الملكة .

فقالت فى دهش :

ـــ أتشتهى أن تزوج بناتك القاصرات من ...

ولم يدعها تتم حديثها وقال فى فزع :

ـــ لا .. لا .. أشتهى أن تتاح لى الظروف التى تجعلنى أتشبث بالحياة تشبثها بها ، فأنا أحب ما تحبه . أحب الحياة .

كان هذا آخر سهم فى جعبته أطلقه ليهتك الغلالة الرقيقة التى تحول بينه وبينها ، ولكن الغلالة ظلت مسدلة لم يثلمها حديثه ، فرفت على شفتيه ابتسامة باهتة ، وأسبل عينيه حتى لا ترى القلق الحائر فى مقلتيه .

ودخل عبد الخالق متجهم الوجه ، مقطب الجبين ، وألقى عليهما تحية فاترة ، ثم رمى الصحيفة التى كانت ملفوفة فى يده على النضد الذى كان أمام رفعت وبثينة فى ضيق ، واستأذن فى أن يذهب إلى غرفته دقائق معدودة ثم انصرف .

وتناول رفعت الصحيفة وبسطها وراح يقلب صفحاتها ، ثم صاح :

— ألم أقل لك ، ها هو ذا المستشار الصحفى لديوان الملك يقص قصة اعتزام الملكة تزويج ابنتيها من فؤاد صادق ورياض غالى ، كريم ثابت نفسه يكتب المأساة .

فقالت بثينة :

— هذه نكبة تزلزل العرش .

وأدنت رأسها من رأسه وراحا يقرآن النبأ فى لهفة ، وملأ عبيرها أنف رفعت فتعطلت كل قدرة على متابعة القراءة ، وتحركت عواطفه ، وفكر أكثر من مرة فى أن يدير وجهه وأن يضع شفتيه على خدها ، ولكنه كان أجبن من أن يأتى مثل هذا العمل الذى قد تكون عاقبته وبالا عليه .

وعاد عبد الخالق وهو حزين وارتمى فى مقعد قريب منهما وهو يزفر فى صوت مسموع ، وفطنت بثينة إلى كربه ، فقالت له :

— ما بك ؟

فقال عبد الخالق فى حنق :

— أكاد أنفجر .

فقامت بثينة إليه وقالت له فى حنان :

— قل لى ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟

فقال فى صوت محموم :

— أنعم على حلمى وعلى عثمان برتبة البكوية ، هان على الباشا أن يدفع لهما عشرة آلاف من الجنيهات ، حلمى ابنه وعثمان ابن أخيه ، أما أنا فعدوه ، عدوه

الذى يتمنى موته والذى يحرض على قتله ! طلبت منه ألفين من الجنيهات لأعاود التجارة فى هذه الأيام التى كسب كل من فى السوق ، وكل الدخلاء على التجارة ، فثار وأرغى وأزبد وقال لى إننى أريد أن أخرب بيته . أن يدفع لى أنا ألفين من الجنيهات خراب بيوت ، أما أن يدفع لحلمى وعثمان عشرة آلاف من الجنيهات فى سبيل لقب فشىء بسيط لا يخرب البيوت .

إنه يكرهنى ، فلماذا يريد منى أن أحبه ؟ إنه يتلذذ بتعذيبى .. يسعده أن أتلوى من الحرمان ، ينشرح صدره لعذابى ، فلماذا يثور فى وجهى كلما رآنى ويقول : إنى أتمنى موته ؟ إنه هو الذى جعلنى أتمنى زواله . ليته يموت وأستريح ، ليته يموت .

وساد المكان أسى ، وران الحزن على قلب بثينة ، وفاضت شجونها حتى ترقرقت لؤلؤتان فى عينيها ، وضاق رفعت بالقلق المتأرجح فوق الرءوس وتمنى أن ينصرف وأن يفر بنفسه من هذا الجو البغيض ، ولكنه أرغم روحه على البقاء إرغاما حتى يبرهن على أصالته وأنه يشارك أصدقاءه فى الضراء كما شاركهم فى السراء ، وراح عبد الخالق يتمتم فى حنق :

— متى سيموت ؟! متى سأقرأ نعيه فى الصحف ؟!

٤٥

وقف الباشا أمام المرآة يربط كرفاتته فى عناية ، وجلست أمينة هانم ترقبه قائلة :

— إلى أين الليلة ؟

فقال وهو حريص على إبراز أناقته دون أن يلتفت إليها :

— عندنا اجتماع فى الحزب .

فقالت دون أن تقصد شيئا :

ـــ ما أكثر اجتماعات الحزب هذه الأيام ! الدنيا صيف وجئنا إلى الإسكندرية للراحة .

فقال الباشا فى زهو :

ـــ كيف نعرف الراحة ونحن نفاوض الإنجليز على الجلاء . ونحقق قضايا الأسلحة الفاسدة ، ونراقب الصحف الأجنبية التى لا هم لها إلا التشهير بالملك ..

فقالت له فى سذاجة :

ـــ والله لا أفهم لماذا تنكر الملك باسم فؤاد باشا المصرى لما سافر إلى أوروبا ؟ العالم كله يعرف أنه الملك فاروق ، وقد نشرت كل الصحف ذلك ، وإذا تحدث عن الملايين التى يخسرها فى القمار لا تقول خسر فؤاد باشا المصرى ، بل تقول الملك فاروق ، وإذا رقصت سامية جمال فى دوفيل ، وإذا أحاطت به غانيات باريس وبائعات الهوى ، فالصحف العالمية تتحدث عن استهتار الملك فاروق لا عن استهتار فؤاد باشا المصرى ، ففيم كان تنكره ؟!

فقال الباشا وهو يبتسم :

ـــ ما الذى حدثك عن كل هذه الأشياء ؟

فقالت أمينة هانم فى زهو :

ـــ حلمى بك .

فقال الباشا وفى عينيه بريق غبطة :

ـــ أمنحه الملك رتبة البكوية لينضم إلى أبواق الدعاية التى تعمل ضده وليشترك فى حملة التشهير به ؟!

فقالت أمينة هانم وهى تنهض :

ـــ لا يمن علينا الرتبة ، فقد دفعنا ثمنها .

ودنت منه وقالت :

ـــ هل سيتزوج الملك حقا من ناريمان صادق ؟

— وما الذى يمنع زواجه إياها ؟

— سمعت أنه قيل للملك إنها لا تصلح ملكة لمصر .

— الصحف كلها تقول إنه بهذا الزواج يتقرب من شعبه .

فقالت وهى تتحاشى أن تنظر إليه :

— سمعت رأيا لا أحب أن أقوله حتى لا تغضب .

فابتسم قائلا :

— قولى ولن أغضب .

فقالت فى تردد :

— إنك لا تحب أن تسمع فى هذه الأيام قدحا فى الملك .

قال وهو يرتدى الجاكتة :

— وماذا سمعت ؟ قولى .. فناقل الكفر ليس بكافر .

— ولن تغضب ؟

— ولن أغضب .

لم يكن يهمها الملك ولا شأن لها بالسياسة ، فكل أمانيها أن ترضى الباشا وألا تثير غضبه ، فلما وعدها بأنه لن يغضب ، اطمأنت وقالت :

— قيل أن الملك قد سرق من شعبه كل شيء إلا أزواجه ، وقد أراد بانتزاع ناريمان من زكى هاشم أن يتم له سلب كل شيء ، فقد سرق فيها كل أزواج الناس ..

ونظر إليها فى دهش ، إنه يعرفها جيدا ، لا تستطيع أن تفكر هذا التفكير الذكى .

وحسبت أنه غضب منها فارتجفت وقالت :

— كنت لا أحب أن أقول لك هذا ، ولكنك أكدت لى أنك لن تغضب .

لماذا تظن أن هذا القول يغضبه ؟ إنه هو وزملاؤه يتندرون بتفاهات الملك ويسخرون من تصرفاته وتصرفات رجال حاشيته الذين أصبحت

واجباتهم إشباع شهواته ، فإذا كان لا يسمح بالتشهير بالملك فى بيته فإنه ينفذ سياسة حزبه التى بنيت على التغاضى عن كل ما يأتيه الملك من منكرات ، وحتى لا ينقل عنه أو عن أهل بيته ما قد يسيء إلى العلاقات الطيبة التى يرجى أن تسود بين الوفد والسراى ، واقترب منها وهو فى طريقه نحو الباب وقال :

ــ من قال هذا ؟ حلمى ؟

وارتبكت ، ليتها لم تقل شيئا ، إنها لا تحب أن تسيء إلى ابنها ولكن لسانها خانها ، وصمتت وأطرقت قليلا ثم قالت :

ــ ألم تقل لى إنك لن تغضب ؟

قال الباشا وهو يخرج :

ــ قولى لحلمى يمسك لسانه .

وغاب الباشا عن عينيها ، وذهبت إلى المرآة ونظرت إلى صورتها فى غيظ وقالت فى ثورة :

ــ حمارة .. حمارة .. طول عمرك حمارة !

وانطلقت سيارة الباشا فى طريق الكورنيش ، وراحت نسائم البحر تداعب وجهه فتنعش روحه ، ووقفت السيارة أمام فيلا أنهار ، وهبط الباشا بعد أن أمر السائق أن يعود فى الساعة الواحدة .

ودخل من الباب الذى يواجه الكورنيش ودار حول الفيلا ، وصعد فى السلم الجانبى ودق الجرس المسحور ، ومر بعض الوقت وهرعت أنهار إليه وفتحت الباب فى حرص وراحت ترحب بالباشا وتقوده إلى الغرفة الشرقية .

ووقفت أمام الفيلا سيارة أجرة ، هبط منها عبد الخالق واتجه إلى الدرج الرخامى الكبير وصعد فيه ثم دق الجرس . وفتحت الباب الخادم التى ترتدى ثوبا أسود فوقه مريلة بيضاء ، وتغطى جزءا من رأسها قلنسوة بيضاء منشاة ، فلما رأته ابتسمت له فى ترحيب وسارت أمامه تقوده إلى الطبقة الثانية وهو يتفرس فى جمال تكوينها ، إنه رآها كثيرا ، ولكنه لا يعرف اسمها ، فقال لها :

ـــ ما اسمك ؟

فقالت وهي فى طريقها دون أن تلتفت إليه :

ـــ وفيقة .

ودخل غرفة الاستقبال ، وسرعان ما خفت إليه أنهار وقالت دون أن تجلس :

ـــ كوكتيل أنهار ؟

فقال وهو يبتسم :

ـــ ويسكى وزين العابدين .

فقالت وهى تلوى شفتها :

ـــ آسفة زين العابدين الليلة مع ضيف عزيز .

وأحست أنها جرحته فقالت :

ـــ إنه ليس أعز منك ، ولكنه جاء قبلك .

فقال وهو يهم بالانصراف :

ـــ لا بأس . أعود ليلة أخرى ، غدا أو بعد غد .

فقالت أنهار وهى تضع يدها على كتفه لتمنعه من النهوض :

ـــ والله لن تغادر بيتى وأنت غاضب أبدا . كل فتياتى تحت أمرك .

فقال فى إصرار :

ـــ أريد زين العابدين .

فقالت فى توسل :

ـــ ألا تقبل عذرى ! آتيك بكل الأخريات واختر منهن من تشاء ..

فقال وهو يرنو إليها فى خبث :

ـــ إذا كان ولا بد فهات وفيقة .

ـــ وفيقة ؟!

فهز رأسه أن نعم ، وقرأت الإصرار فى عينيه فقالت فى استسلام :

ـــ أمرك ..

ووضع الشراب أمامه ، ومر بعض الوقت ثم عادت أنهار ومعها وفيقة ، كانت ترتدى ثوبا من الحرير المشجر ، التصق بجسمها وأبرز مفاتنها ، ونظر عبد الخالق إليها فى إنكار وقال :

ـــ لا . لا . أريدها كما كانت بثوبها الأسود ومريلتها البيضاء .

قال أنهار فى استسلام :

ـــ أمرك .

ولم تعترض ، علمتها السنون الطويلة التى قضتها فى أقدم مهنة عرفها البشر أن تحترم نزوات الرواد وأن ترضى شذوذهم .

وغرقت الفيلا فى الظلام ، كانت الشبابيك مغلقة ، والأسجاف مسدلة ، وقد اختفت النجوم من رقعة السماء ، وراحت أشباح تدخل من بابى الفيلا فى حذر متسترة بالليل ، وضرب حولها نطاق ، وصعد رجل فى الدرج الرخامى ، وصعد آخر فى الدرج الخلفى ، وتسلل ثالث إلى الباب الجانبى ، ودقت الأجراس الثلاثة فى وقت واحد ، وفتحت الأبواب وإذا برجال البوليس يتدفقون منها إلى الداخل .

وندت من فم فتاة صرخة ، ودب فى المكان ذعر ، واقتحمت الأبواب فساد الهرج وارتسمت على الوجوه آيات الهلع والرعب ، وتجسمت للرجال معالم الفضيحة فأطرقوا فى خزى ، أما النسوة فكن يصرخن ويولولن وهن متهالكات ، فقد تمثلت لهن قسوة ما ينتظرهن من إجراءات ، وراحت أنهار تهدد الضابط الذى كان على رأس القوة التى داهمت الفيلا وتقسم له بأغلظ الأيمان أنها ستخرب بيته ، وتنقله إلى أقاصى البلاد .

وحشر الرجال والنساء فى البوكس حشرا ، وصعد الباشا صامتا دون أن ينبس بكلمة ، كان مطرقا كاد يتعطل تفكيره ، وصعد عبد الخالق وجلس أمام الباشا وقد كان ما هو فيه يشغله عن كل ما حوله .

(الحصاد)

واعتادت العيون على الظلام ، وتحركت السيارات وراح كل من فى البوكس يدير عينيه فى المكان ، والتقت عينا الباشا بعينى ابنه ، فانخلع قلبه وغاض لونه وامتقع حتى صار وجهه يحاكى وجوه الموتى ، واستشعر خزيا وغمرته أحاسيس قاتلة كلها ذل وهوان ، وأطرق وهو يشتهى أن تشق الأرض وتبتلعه ليفر من العار الذى يقاسيه .

كانت نظرات ابنه ذاخرة بالهزء والسخرية والشماتة ، وكانت تلهب روحه بسياط حامية ، وتطعن كبرياءه طعنات مسمومة تزلزل كيانه ، وتغتال إنسانيته ، وتمرغه فى أوحال الخسة والدناءة والفجور .

إنه يحس الساعة أنه يلغ فى الدنس ولوغا وابنه ينظر إليه فى زراية ، فتتقاصر إليه نفسه ويدب فى وجدانه ذلك الضعف الذى يزيد فى إحساسه بالضعة والحقارة والهوان .

ونظر عبد الخالق إليه وأدام النظر ، فإذا بمشاعر الضيق التى كان يستشعرها تتبخر ، وإذا بلذة تنبت فى أغواره سرعان ما تنمو حتى تملأ كل جنباته ، فهذه أول مرة يرى الباشا فيها وهو متخاذل لا يقوى على أن يرفع أمامه رأسه .

أين كبرياؤه ؟! أين غطرسته ؟! أين جبروته وقسوته ؟! أين اعتداده بنفسه وزهوه ؟! أين ذابت كل مقومات رجولته ! إنه تناثر .. ذهبت نفسه شعاعا .. استلت منه كرامته فصار أهون من أن يخيفه .

ونظر إلى زين العابدين الجالسة إلى جوار أبيه فامتعض ، لم تكن فتاته المفضلة وحده ، بل كانت فتاة أبيه ، كان وأبوه يشتركان فى فتاة واحدة ، وبدأت السعادة التى يحسها تغيض ، وتحركت آدميته فراح يمسح بيده المشاهد البشعة التى راحت تتتابع فى ذهنه ويقشعر بدنه ويتلوى من الألم .

ووقفت السيارة أمام القسم وهبط من كانوا فيها وساروا مطأطئى الرءوس يجرون أرجلهم جرا ، ووقفوا أمام الضابط المختص ، وراحت أنهار ترغى وتزبد ، وتهدد وتتوعد ، وصاح الضابط فى وجهها صيحة غاضبة

فانكمشت ، وأخذت تنظر إلى الباشا تلتمس عونه ، فأرخى الباشا جفنيه وظل ساكنا .

وفتح الضابط دفتر الأحوال ، وراح يكتب فيه ، ثم رفع رأسه وأشار لعبد الخالق أن يقترب ، ودنا عبد الخالق من الحاجز الخشبي الذى يفصل بين الضابط وبين القاعة التى غصت بالرجال والنسوة وعساكر البوليس .

وقال الضابط :

ـــ اسمك ؟

فقال عبد الخالق فى صوت خافت :

ـــ عبد الخالق .

ـــ واسم أبيك ؟

ـــ سليم باشا شلبى .

والتفت إلى الباشا وقال فى قسوة :

ـــ أقدم لك سعادة سليم باشا شلبى . أبى .

ووقف القلم فى يد الضابط ، وتعلقت عيناه بوجه الباشا ، وراحت أنهار تنقل عينيها بين الباشا وابنه وهى فى حيرة ، ونظرت الفتيات إلى الرجلين فى ذهول وقد فغرت أفواههن من الدهشة .

وراح الباشا يجمع أطراف شجاعته التى تفرقت أباديد ، وقال للضابط وهو يشير إلى التليفون :

ـــ تسمح ؟

ولم تتحرك شفتا الضابط ، ومد الباشا يده وتناول التليفون ووضعه على الحاجز الخشبى وراح يدير قرصه ، وقال :

ـــ ألو .. منزل معالى وزير الداخلية ؟!.. قل لمعالى الوزير سليم باشا شلبى يريد أن يحدثه الآن فى أمر هام .

عثمان جالس فى مكتبة بالإسكندرية ، إنه دائم الاتصال بالمحلج والبورصة ، فالمضاربات على شراء القطن تشتد بعد أن قدر أن السوق فى حاجة إلى أربعة ملايين ونصف مليون من القناطير من القطن الأشمونى بينا إنتاج الأشمونى فى تلك السنة كان أربعة ملايين وحسب .

كان يستفسر عما يبيعه على يحيى وفرغلى وربير خورى ليوغسلافيا ويبلغ الأنباء للباشا ، وكان يصغى إلى محدثيه مسرورا ، ولم يكن مصدر سروره ارتفاع أسعار القطن ، بل تلك النشوة التى يحسها كلما سمع محدثه يقول له : سعادتك ، فقد أصبح بعد أن أنعم عليه برتبة البكوية يستشعر زهوا لذيذا لدغدغة تفخيم الناس له كلما حادثوه ..

وصار يكثر من دق الجرس للفراش ، ليدخل عليه ويقول له : أى خدمة أؤديها لسعادتك .. أمر سعادتك .. ماذا تريد سعادتك ؟ إنه يستشعر أنه أصبح شيئا له خطره بعد تلك البراءة التى تشهد أنه من حملة الألقاب ومن الصفوة ..

قال له مرة أحد شانئيه : إن الألقاب قد وزعت بغير حساب حتى لم يعد فى مصر من الأفندية إلا عمر أفندى ويوسف أفندى ، ولم تغضبه هذه السخرية بل زادته زهوا ، فقد سره أنه أصبح من المحسودين ..

ودخل الفراش عليه وقال له :

ــ بعض الصحفيين يطلبون مقابلة سعادتك ..

وانبسطت أساريره وغمرته نشوة ، أصبح قبلة الصحافة بعد أن أنعم عليه باللقب ، جاءوا إليه يسألونه فى مشاكل اليوم ، ستظهر صورته فى الصحف ويسجل رأيه ، أصبح من المفكرين وأصحاب الرأى فى البلد ، وفرك يديه

سرورا وقال :

— قل لهم : تفضلوا ..

وخرج الفراش ، ومد عثمان بك يده إلى كرافاتته يصلحها ، ورفع طربوشه ومرر يده على شعره ، ثم أعاد وضع طربوشه على رأسه فى عناية ، ودخل ثلاثة شبان ، على شفاههم بسمة وفى عيونهم خبث ، وخف عثمان بك إليهم وراح يصافحهم فى حرارة ويقول لهم فى ترحيب :

— أهلا وسهلا .. تفضلوا ..

وجلسوا فى المقاعد القريبة من مكتبه ، وذهب إلى مقعده ، وقبل أن يجلس فيه قال :

— قهوة ؟ كوكاكولا ؟ ليمون ؟

والتفت الشبان بعضهم إلى بعض ، وقال الذى على عينيه نظارة وفى وجهه حب الشباب :

— ليمون ..

ووافق الآخران على طلبه ، وجلس عثمان ومال إلى الخلف ، قليلا ثم قال :

— خيرا ؟

وعاد الشبان يتبادلون النظر ، ثم قال الذى على عينيه نظارة وفى وجهه حب الشباب :

— نريد أن نقابل الباشا ..

وغاضت البسمة التى كانت على شفتى عثمان ، لم يكن هو قبلتهم كما صور له وهمه ، ولكنه ما يزال القنطرة التى يمرون عليها فى طريقهم إلى الباشا ، قال :

— أأستطيع أن أعرف ماذا تريدون من الباشا ؟

فقال أحدهم :

— نريد أن نحدثه فى أمر خاص ..

وقال عثمان وهو يرقب البسمات الساخرة التى تتراقص على الشفاه :

ـــ سر ؟

قال الثلاثة فى نفس واحد :

ـــ نعم سر ..

وبدا الاهتمام فى وجه عثمان ، وقال :

ـــ الباشا لا يخفى عنى أسراره فأنا كاتم سره . قولوا ماذا تريدون من الباشا ؟

وعاد التلفت ، وقال الذى على عينيه نظارة :

ـــ نريد أن نتحدث معه عن حادث الأمس ..

والتمعت عيناه ببريق خبيث ، وانفرجت شفتاه عن أسنانه الصفراء ، وراح الآخران يسلطان على عثمان أنظارهما التى كانت تروى خبيئة نفسيهما ، وفطن إلى النظرات الشريرة فحزر أن فى الأمر فضيحة ، فقال فى اهتمام :

ـــ حادث الأمس ؟ لم يقع بالأمس أى حادث غير عادى ..

فقال الذى على عينيه نظارة فى سخرية :

ـــ قد يكون هذا الحادث مألوفا فى حياة الباشا ، ولكنه من الحوادث المثيرة التى تهم الصحافة ..

وشرد بصره ، وقال وهو يرسم بسبابته وإبهامه خطين متوازيين فى الهواء :

ـــ تصور أثر هذا العنوان فى الصحف : « شيخ من الشيوخ يضبط فى بيت للدعارة » ..

وقال آخر :

ـــ العنوان الذى أفضله : « باشا وابنه فى بيت سرى » ..

وقال الثالث وهو يحرك يده فى الهواء نفيا :

ـــ لا .. لا .. الباشا لا يستحق هذه الفضائح ..

وقال الذى على عينيه نظارة :

ـــ هذا موضوع تدفع لنا الصحف فيه ثمنا طيبا .. وآه لو أعطيناه صحف

المعارضة ..

ولم يكن كل ذلك التهديد والتلميح يهم عثمان ، إنه فى شوق عظيم لمعرفة أسرار فضيحة الباشا ، فقال فى دهاء :

ــ وما الذى تعرفونه عن فضيحة الأمس ؟

فقال قائل منهم :

ــ نعرفها بكل دقائقها ، نعرف أن الباشا كان فى فيلا أنهار ..

قال عثمان فى إنكار :

ــ وما وجه العجب أن يكون فى فيلا أنهار ؟

ــ وجه العجب أنه كان مع فتاة فى غرفة ، وأن ابنه كان مع فتاة أخرى فى الغرفة التى فوقها ..

فقال عثمان :

ــ هذا افتراء ، لأن حلمى بك فى العزبة ، ولم يكن فى الإسكندرية أمس ..

فقال الذى على عينيه نظارة :

ــ الذى ضبط مع الباشا ابنه عبد الخالق ..

وأراد عثمان أن يسترسلوا فى حديثهم ليكشف كل جوانب الفضيحة فقال :

ــ الباشا لم يضبط ، هذا كذب ، من ذا الذى ضبطه ؟

فقال الذى على عينيه نظارة فى سخرية :

ــ لست أنا !

وقال آخر :

ــ ضبطه البوليس ، وحمله هو وابنه إلى القسم ، وقد اتصل الباشا بوزير الداخلية ..

وانتشرت فى نفس عثمان غبطة ، هتكت الغلالة التى كانت تستر سر علاقة

الباشا بأنهار ، وعرف حقيقة تلك الصلة القوية التى كانت تربط الباشا بجمعية الفتيات الصالحات ، ودوى اسم « جمعية الفتيات الصالحات » فى أغواره دويا ساخرا ، وطافت بوجهه موجة من السرور على الرغم من التقطيبة المرتسمة على جبهته ، وقال :

— وماذا تريدون الآن ؟

— نريد أن نقابل الباشا ..

— لماذا ؟

فقال الذى على عينيه نظارة فى استخفاف :

— ليروى لنا تفاصيل مغامرته ، ليقص علينا مشاعره لما كان هو وابنه فى البوكس معا !

وأراد عثمان أن يوغر صدور الشباب على الباشا بالتظاهر بالدفاع عنه ، حتى ينشروا الفضيحة ، إنه يريد أن يذل كبرياءه ليستمر نفوذه الذى بدأ يحس أن حلمى يعمل على زعزعته ، فقال :

— هذه قحة ..

وتكهرب الجو ، وأنذر بهبوب العاصفة ، وإذا بقائل يقول فى لين :

— إنه يمزح .. أنت أعرف الناس بما تريد ..

وخطرت على باله فكرة أن يدخل على الباشا الآن يخبره خبر الشبان الثلاثة ، ويقول له ضمنا إنه عرف السر الذى حيره سنين طويلة ، سر الست أنهار التى أرسل إليها قبل نهاية رمضان زكاة الصيام ، ونهض وقال للشبان :

— سأرى رأى الباشا فى هذا الأمر ..

ودخل على الباشا ووقف عند رأسه والتقم أذنه وقال همسا :

— ثلاثة شبان فى مكتبى يقولون إنهم صحفيون وأنهم يريدون مقابلتكم الآن ..

فقال الباشا وهو ينظر إليه بعينين مفتوحتين :

— لماذا ؟

وتظاهر عثمان بالارتباك وقال :

— يريدون أن يتحدثوا ..

وصمت قليلا ، وراحت السعادة تنتشر فى جوفه ، سر أن يجد الباشا فى مأزق ، وكان يسعده أن تنكشف لعينيه عيوب الناس ، وقال الباشا فى حدة فقد فطن إلى ما جاءوا من أجله :

— ماذا يريدون ؟

— يريدون أن يأخذوا قرشين ثمن سكوتهم عن حادثة الأمس ..

أطرق الباشا قليلا ، وأسرع عثمان يسرد ما عرفه على مسامع الباشا حتى ينال منه ويعلمه أنه مطلع على نقط ضعفه ، قال :

— هددوا بالكتابة عن الست أنهار وجمعية الفتيات الصالحات وضبط أب وابنه فى ماخور واحد ..

واربد وجه الباشا وانشرح صدر عثمان ، فهو ليس وحده الشرير ، بل الشر فى كل البشر ، واستشعر لذة لما وجد الباشا ينكمش ويتلفت فى حيرة كفأر وقع فى المصيدة ..

وقال الباشا فى تخاذل :

— أعطهم شيئا واصرفهم ، إننى لا أحب أن أقابلهم ..

وخرج عثمان مرفوع الرأس ، وإن كان فى قرارة نفسه يحسد الباشا على لياليه الجميلة التى يمضيها فى أحضان الغوانى الكاعبات ، وتمنى لو أن الفرصة تتاح له ليسعد بما سعد به الباشا ..

وعاد عثمان إلى مكتبه ، وتعلقت العيون به ، وظل صامتا برهة ليثير اهتمام الشبان ، وضاق الذى على عينيه نظارة بصمته ، فقال له :

— خيرا !

فقال عثمان وقد أسبل عينيه :

— الباشا لا يأبه بتهديداتكم بعد أن تدخل معالى وزير الداخلية وحفظ الموضوع ..

وتقلصت جباه الشبان ، ولاح الغضب فى عيونهم ، وسر عثمان عبثه بهم ، فالباشا لم يقل شيئا ، ولكنه ما كان ليدفع فى يسر ، وقال الذى على عينيه نظارة :

— إذا كان الباشا لا يريد أن .. أن يقابلنا فلا يلومن إلا نفسه ..

فقال عثمان وهو ينهض :

— لا داعى لهذا التهديد ، فإذا كان الباشا لا يريد أن يقابلكم ، فأنا على استعداد للتفاهم معكم ..

وأشار لذلك الذى على عينيه نظارة وقال :

— تعال ..

وقام الشاب وتبعه ، حتى إذا بلغا بابا جانبيا مد عثمان يده وفتح الباب وقال :

— تفضل ..

ودخل الشاب ودخل عثمان خلفه ، ثم اتجه عثمان إلى خزانة فتحها وأخرج منها ثلاثين جنيها وقدمها إلى الشاب وهو يقول :

— هذا لكم ..

فقال الشاب فى إنكار :

— ثلاثون جنيها فقط ثمن سكوتنا ؟!

فقال عثمان فى عزم :

— لن أدفع مليما واحدة فوق هذا المبلغ ..

فقال الشاب فى تخاذل :

— هات خمسة جنيهات أخرى ..

فقال عثمان فى عناد :

— لا ..

وقال الشاب فى إصرار :

— والله لن أغادر هذا المكان قبل أن آخذ خمسة جنيهات أخرى ..

وأطرق عثمان قليلا ثم قال :

— سأدفع لك هذه الجنيهات الخمسة من جيبى ، ولكن لا بأس ..

ومد يده إلى الخزانة وأخرج منها خمسة جنيهات قدمها إلى الشاب .. ووقف الشاب قليلا ثم قال :

— أرجو أن تقول لزملائى إنك أعطيتنى ثلاثين جنيها فقط ..

وابتسم عثمان مسرورا ، فكل الناس مثله لا أمانة عندهم ، وخرج الشاب وعثمان خلفه ، وتعلقت عيون الشابين الآخرين بهما ، وقال عثمان :

— أعطيته ثلاثين جنيها ولو أن الباشا كان يصر على عدم دفع مليم واحد ..

ومد الشاب الذى على عينيه نظارة يده ، وصافح عثمان فى حرارة وهو يقول له :

— شكرا ..

وخف الشابان الآخران إليه يصافحانه ويتمتمان بعبارات الشكر ، ثم انصرفوا ..

ودخل عثمان على الباشا متهلل الأسارير ، وقال الباشا فى لهفة :

— ماذا فعلت ؟

فقال عثمان وهو يبتسم :

— أعطيتهم خمسين جنيها على ألا ينبسوا بكلمة ..

وزفر الباشا فى راحة ، وهمس فى أغوار عثمان هامس ضعيف يقول فى تأنيب : « يا لص » ، وسرعان ما تلاشى ذلك الصوت وغمرته السعادة التى فاضت بين جوانبه ..

عادت بثينة إلى دارها قبل أن ينتهى موسم الصيف فى الإسكندرية ، ضاقت بوحدتها التى كانت تحسها فى الغرفة المتواضعة التى كانت تمضى لياليها فيها هى وابنها بينا زوجها يقضى أغلب لياليه فى الخارج لا تدرى أين يذهب .. دعتها إلهام مرات إلى فيلتها الأنيقة بسيدى بشر ، وسعدت بسهرات ممتعة ، ولعب ابنها مع ابنى خالته وملىء سرورا ، وكان بدر الدين كعادته لطيفا يبالغ فى إكرامها كلما جاءا لزيارته ، وقد عرض عليهما أن يمكثا معهم حتى نهاية الصيف ، ولكنها ضاقت بذلك الكرم وفرت من الهوان الذى تستشعره كلما دخلت بيت أختها ..

التمست من عبد الخالق مرارا أن تقطع موسم الصيف المذل وأن تعود إلى دارها ، ولكنه كان يرجوها أن تتريث لأنه يقوم ببعض اتصالات يرجو من ورائها أن تتاح له فرصة العودة إلى تجارته وتعويض ما خسره فى هذه الأيام التى انتعشت فيها تجارة القطن وارتفعت أرباحه .. كانت تحس فى نبراته أنه يكذب ، فكانت تصبر على مضض ظنا منها أنه لا يلجأ إلى الكذب إلا ليوهم نفسه أن الفرص لا تزال أمامه ، وأنه سيعود سيرته الأولى لو واتاه بعض الحظ الذى جافاه سنين طوالا ، فكانت تمد له فى حبل الأمل حتى لا يصطدم ويقوضه يأسه ..

وجاءها ذات صباح وقال لها : إنه قرر العودة إلى القاهرة ، وراح يجمع حوائجه ، فجعلت تتأهب للرحيل دون أن تسأله علة هذا التحول الفجائى ، فلعله أفاق من وهمه وثاب إلى رشده ، ولاحت له حقيقة أمره وتيقن أنه يجد فى أثر سراب ، فما كان لمن أخفق وفى يده ماله ومال زوجه أن يشق طريقه نحو النجاح وهو بلا سند ولا مال ..

وتمددت فى فراشها وأضاءت نور الأباجورة ، وتناولت مجلة تقرأ فيها ، فابنها فى غرفته يلعب وعبد الخالق يغرق همومه فى كأسه ، إنه يشرب وحده ، وأمسى لا عمل له فى البيت إلا أن يشرب وأن يشرد بذهنه الساعات دون أن يفتح فمه بكلمة ، فصارت تنفر من مجالسته وتهرب إلى كتاب أو مجلة ..

واندمجت فى القراءة ، وأخذت تقلب صفحات المجلة ، وبلغت أخبار المجتمع فأخذت تقرأ الأخبار فى شغف ، وبلغت خبرا ما إن قرأت بعض أسطر منه حتى خفق قلبها فى شدة ، وكاد بصرها يزوغ ، فاعتدلت فى فراشها وعكفت على قراءته مرهفة الحس ، وقد انتشرت فى حناياها رهبة ، وراحت دماؤها تتدفق حارة إلى وجهها ، وتحرك حنقها واستشعرت جفافا فى حلقها ، كان الخبر يروى قصة باشا من أعضاء الشيوخ ضبط هو وابنه البكر فى بيت بدار للدعارة ، وكان الخبر مكتوبا بطريقة تكشف عن الباشا وابنه ، حتى إنها تيقنت بعد أن أتت على الخبر أنهما سليم باشا وعبد الخالق زوجها ..

وطعنت كبرياؤها ، واضطرمت نيران غضبها ، واشتعلت غيرتها ، وتدفقت فى جوفها المرارة حتى غمرت كل وجدانها ، فقفزت من الفراش حانقة ، وانطلقت إلى حيث كان عبد الخالق وهى قابضة على المجلة فى غضب ، وكل خلجة فيها ترتجف ثائرة ..

ولمحها عبد الخالق وهى مقبلة عليه ، فوضع كأسه أمامه وافتر ثغره عن بسمة ترحيب ، ونظر إليها وقرأ فى عينيها الثورة المتأججة فى صدرها ، وسرعان ما غاضت بسمته ، وجعل يتطلع إليها فى قلق :

وقذفت إليه بالصحيفة وقالت فى انفعال :

— اقرأ ..

وتناول الصحيفة وهو يرنو إليها فى حيرة ، ومالت وأشارت بأصبعها إلى الخبر وقالت فى حدة :

— اقرأ ..

وراح يقرأ ، وما لبث أن غاض لونه واضطرب نفسه وزاغت نظراته ، وقبل أن يأتى على الخبر نحى المجلة جانبا وأطرق وقد لفه خزى وانكسار ، لم يجد فى نفسه قدرة على الإنكار فاستسلم ..

وصاحت بثينة فيه :

ـــ هذا جزائى ؟! أهذه مكافأتى على تضحياتى ووقوفى إلى جانبك ؟!

فقال عبد الخالق فى ذل :

ـــ هذا الرجل حطمنى ، قضى على ..

فصاحت بثينة فيه :

ـــ اسكت .. كفى أعذارا ، كنت أخدع نفسى وأرغمها على أن تصدق أوهامك ، وإن كنت فى قرارة نفسى واثقة من أنك لا تصلح لشىء ، وأنك تتلمس الأسباب لتنسب إلى غيرك إخفاقك .. الباشا حطمنى .. الباشا قضى علىّ .. وأنت أهون من أن يحطمك أحد أو يقضى عليك أحد .. أنت فارغ .. تافه .. خامل لا تحسن إلا أن تعيش لنفسك ولطيشك ولنزواتك ..

وقام وقد اكفهر وجهه وقال :

ـــ كفى .. كفى أرجوك ..

وقالت فى حدة وقد اتسعت عيناها من الغضب :

ـــ أنت تخوننى ؟! أنت الذى احتملت الهوان من أجله تمرغنى فى الوحل ؟! والله لن تخمد لى نار حتى أمرغك أنت والباشا فى الطين ، صدقت كذبك ، شددت أزرك لما تخلى عنك أهلك ، أعطيتك أموالى لما حجب الباشا عنك أمواله ، فتحت قلبى فطعنته ، قابلت وفائى بالخيانة ، ويا ليتك خنتنى مع امرأة تستحق أن يضحى فى سبيلها بالكرامة ، ولكنك خنتنى مع امرأة تبيع نفسها لكل من يدفع لها الثمن .. أنت وأبوك فى بيت واحد ! أنت وأبوك مع امرأة واحدة ! ياللحقارة !

وراح يخفى وجهه بيديه ، ويزور عنها ، فقالت فى قسوة :

ــ أتتألم ! أيجرح شعورك كلامى ؟! لو كنت تحس لما أقدمت على ما فعلته ، ولما تركتنى وحدى الليالى لتعب من لذاتك ، ولما أنفقت مالى على بائعات الجسد ..

ونظر إليها فى توسل وقال :

ــ إننى أخطأت ، وأعدك أننى لن أعود إلى ذلك أبدا ..

فقالت فى زراية :

ــ أتظن أننى أصدق أنك نادم ! هيهات أن تعود الثقة بعد أن تتزعزع ، لقد تلقيت درسا مريرا على يديك ويدى الباشا ولن يمر ذلك الدرس بسلام ، الباشا يقول من يزرع يحصد ، وقد زرعتما الحنظل فى نفسى ، ولا أحسب أن من يزرع الحنظل ينتظر جنى الورد ..

وحسب أن ثورتها بدأت تخبو ، فاقترب منها ، وهم بأن يضع ذراعه على كتفها ، فدفعت ذراعيه بعيدا عنها كأنما تدفع أفعى تريد أن تلتف حول عنقها ، وقالت فى غضب :

ــ إياك أن تمسنى أو يدور بخلدك أنك قادر على أن تمسح من صدرى إساءتك بريائك ، انتهى كل خير بيننا ، لقد سقطت من عينى وبت أكره نفسى لأننى وثقت فيك يوما ، كنت أحسبك طرازا آخر تختلف عن أبيك ، فإذا به قد غرس فيك الخسة التى تزخر بها نفسه .. أنت ابنه لم يورثك إلا أسوأ ما فيه ، كرهته لأنه اضطهدك ، ولأنه قسا عليك ، وإذا بك قاس مثله لا تحب إلا نفسك ..

وقال فى استخذاء :

ــ بثينة !

ــ كفى نفاقا ، خدعتنى طويلا ولكننى لن أخدعك ، حبى اقتلعته من جذوره ، أغلقت قلبى دونك ، لم تعد شيئا ..

فقال فى توسل :

— بثينة ، إنى آسف وإنى أعذر ثورتك ، أعلم أننى جرحتك ، فاغفرى لى وساعدينى على أن أضمد جرحك ..

فقالت فى إصرار :

— جرحى قد تقيح وهيهات أن يبرأ ، نفسى قد فسدت بعد أن كفرت بكل القيم ، أنت الذى زعزعت إيمانى ، أنت الذى استللت من بين جنبى كل نبيل ، أنت الذى قضيت على ، إننى انتهيت .. انتهيت ..

فقال فى ذلة :

— بثينة ! إننى تائب فاقبلى توبتى ..

واشتدت نيران ثورتها التى كادت تخمد اشتعالا ، فقالت وهى تشيح بوجهها عنه كأنما تتحاشى أن تقع عيناها على شىء بغيض :

— اذهب بعيدا عنى لا أريد أن أراك .. لا أريد أن أراك .

فقال فى استسلام وإن كانت مشاعر الأسى تنعكس على وجهه :

— ذاهب .. إننى ذاهب حتى تهدأ نفسك .

فقالت فى نحيب :

— لن تهدأ نفسى أبدا ، ولن أغفر لك ما حييت .

وانسل من الغرفة وهو مطرق ، وغادر البيت وهو حزين ، وارتمت بثينة فى مقعد قريب والحنق يأكل صدرها ، والغضب يستبد بها ، وأفكار سود تنثال على رأسها ، ورغبة فى البكاء تخنقها ، ولكن عينيها عصيتا أن تجودا بالدموع .

ومر الوقت وحزنها يتضخم ، وغضبها يربو ، وحنقها يزيد ، فقد كانت الرؤى البشعة التى تتخايل لعينيها تغذى الثورة المتأججة بين الضلوع .

ودخلت الخادم عليها وقالت :

— رفعت بك فى الصالون .

وقامت وهى ساهمة ، وانطلقت إلى الصالون باسرة الوجه ، فى صدرها حزن ثقيل ، ومدت يدها إلى رفعت تصافحه وشفتاها مزمومتان ، وعيناها

ذابلتان ، وروحها غارقة فى الظلام ، ونظر إليها رفعت فى إنكار وقال :

ــ ما بك الليلة ؟ مريضة ؟

قالت فى صوت تخنقه العبرات :

ــ تصور ! عبد الخالق يخونني .

وأجهشت بالبكاء ، وأخفت وجهها فى صدره وتشبثت به ، فراح يمرر يده على شعرها فى حنان ، أحس فى تلك اللحظة أن الغشاء الرقيق الذى كان يفصل بينه وبينها قد تهتك ، وضمها إلى صدره وهو غارق فى السرور ، ثم راح يمسح دموعها ، بشفتيه ، وطفق يعصرها عصرا وقلبه يخفق بالنشوة بين جنبيه .

٤٨

كان الباشا جالسا فى مقعد وثير وقد التف بعباءة من الصوف ، ولف رأسه بمنشفة بيضاء فالبرد قارس ، وهو خارج من الحمام ، وتناول المصحف وراح يرتل بعض آيات القرآن فى صوت مسموع ، ويهتز اهتزازا خفيفا وهو يقرأ ، وأقبلت أمينة هانم تحمل صينية عليها إبريق الشاى وفنجانان ، وضعت الصينية على نضد قريب وراحت تصب الشاى وهى تصيخ سمعها إلى ترتيل الباشا وقد لاح فى وجهها الرضاء والانشراح .

وقدمت إلى الباشا فنجانه ، فأخذ يرشف منه رشفة ويستمر فى القراءة ، وجعلت أمينة هانم تشرب الشاى وهى صامتة تخشى أن تحدث بشفتيها صوتا يعكر ذلك الصفاء الذى ينساب فيه صوت الباشا الزاخر بالورع والتقوى .

ووضع الباشا المصحف فى حرص ، والتفت إلى زوجته وقال :

ــ سنحج هذه السنة ، أمرت عثمان أن يدفع الرسوم وأن يشترى لنا حقيبتين وخرجا وبشاكير الإحرام .

فقالت الزوجة فى انفعال :

— أبقاك الله لى . هذه الحجة هى التى سنكسبها من دنيانا ، اللهم أمتنا على الإسلام .

وصمتت قليلا ثم قالت فى انشراح :

— سأحتاج إلى بعض ثياب بيضاء وإلى طرحة بيضاء .

— أعدى كل حاجاتك ولا تنسى الصور .

وقامت تحمل صينية الشاى وهى مغتبطة ، وتذكرت ابنها حلمى فقالت :

— سأقف بباب الكعبة وأدعو الله أن ينصف حلمى ويرزقه الذرية .

ونظرت إلى السماء وهى خارجة وقالت فى حرارة :

— اللهم بحق هذه الأيام المفترجة ارزق حلمى ابن أمينة المكسورة الخاطر بزوجة صالحة تعطيه الولد .

ومس دعاؤها أذنى الباشا فشرد يفكر فى ابنه الذى حرم الذرية ، كان يفكر فى الزواج بأخرى غير سميرة العاقر ، ولكنه هو الذى أشار عليه بإرجاء ذلك إلى ما بعد تعديل الوزارة وتعيينه وزيرا حتى لا يوغر صدر محفوظ باشا فيقف فى طريقه ، ويعارض تعيينه ، إنها أمنية حياته أن يصبح ابنه وزيرا ، ولكن ظروف الوزارة القاسية حالت دون التعديل الذى وعد به سكرتير الوفد ، شغلت بمفاوضة إنجلترا على جلاء قواتها من منطقة القناة ، ولم تثمر المفاوضات وأعلن رفعة الرئيس إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وأن الحكومة أعدت للأمر كل عدة .

وقدمت إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وتركيا مذكرة إلى الحكومة المصرية بإنشاء قيادة الشرق الأوسط ، ورفضت الوزارة هذه المذكرة ، وأقر البرلمان إلغاء المعاهدة والتشريعات المتصلة بها ، وصدق الملك على الإلغاء فورا ، وما كان يدور بخلد الحكومة أن يصدق على الإلغاء بمثل هذه السرعة ، ولكنه فعل ليحرج الحكومة ، ويزيد العلاقات المتدهورة بينها وبين إنجلترا سوءا على سوء .

وأمرت الحكومة العمال الذين يعملون فى المعسكرات البريطانية بعدم التعاون مع الأعداء ، فتركوا أعمالهم وهاجروا إلى القاهرة لتعينهم الحكومة فى الوزارات والمصالح ، وقطع التموين عن القوات البريطانية ، وألفت فرق من الفدائيين من الشبان الجامعيين ، ومن الإخوان المسلمين .

ودمر البريطانيون « كفر عبده » وأمروا بالأمس قوة بلوك النظام المصرية بالانسحاب من دار المحافظة بالإسماعيلية لأن وجودها يهددهم ، وأمر وزير الداخلية هذه القوة بأن تقاوم حتى آخر رجل وألا تستسلم أبدا ، وأطلق الإنجليز مدافعهم عليها وقتلوا ثمانين جنديا منهم .

إن الحوادث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولم تلتقط الحكومة أنفاسها يوما ، وإنه ليخشى أن تطيح هذه الحوادث بالوزارة قبل أن يعين ابنه وزيرا ، فيكون قد عذب ابنه وجعله يتقلب على نيران الحرمان دون أن يكون لذلك العذاب ثمرة تبرر احتماله .

لقد بلغه فى هذا الصباح أن قوات بلوك النظام الموجودة بالقاهرة تجمهرت وسارت إلى جامعة فؤاد الأول ، وأن الطلاب خطبوا فى جموع الثائرين منددين بمذبحة أمس ، ذاكرين أن وظيفة البوليس حفظ الأمن لا مقاومة الجيوش المسلحة ، وأن الطلبة وقوات بلوك النظام فى طريقها إلى مجلس الوزراء للاحتجاج على تصرف وزير الداخلية .

إنه يعلم أن وزير الداخلية فى شغل هذا الصباح بأمر خاص ، إنه يشترى لنفسه عمارة من عريضة ، ويحسب أنه لم يسمع بهذا الذى حدث فى الجامعة ، وفكر فى أن يقوم ليتصل به ويخبره بهذه الفعال التى يخشى مغبتها ، ولكنه سخر من ذلك الخاطر الذى راوده . فلا بد أن موظفى وزراته قد اتصلوا به وأنه يعمل الآن على إطفاء هذه الفتنة .

وعاد الباشا إلى تناول المصحف ، وراح يقرأ فيه والوقت يمر والأحداث تتلاحق سراعا ، ودخل عليه حلمى مكفهر الوجه فى عينيه هلع وقال :

ـــ القاهرة تحترق .

فوضع الباشا المصحف وقال فى فزع :

ـــ كيف هذا ؟

قال حلمى وهو يلتقط أنفاسه :

ـــ حرق الغوغاء كازينو أوبرا وشيكوريل وشبرد وكل دور السينما ، النيران مندلعة فى كل مكان .

قال الباشا فى حدة :

ـــ وأين البوليس :

قال حلمى فى يأس :

ـــ البوليس لا يحرك ساكنا ، رأيت عسكرى البوليس يغدو ويروح فى اطمئنان وكازينو أوبرا يحترق ، كأنما الأمر لا يعنيه .

فقال الباشا فى حنق :

ـــ انتهز الشيوعيون الأوغاد فرصة اضطراب النظام وراحوا يخربون ، إنهم يريدون إذاعة الفساد حتى ينقضوا .

فقال حلمى فى مرارة :

ـــ ما أكثر طوائف المخربين الذين يشتركون فى حريق القاهرة ، الإخوان المسلمون يحطمون الحانات ويريقون الخمور ويشعلون فى البارات النيران ، وشبان مصر الفتاة يشتركون معهم فى إحراق الملاهى ودور اللهو ، والشيوعيون يؤججون نيران الفوضى ، والذين لا خلاق لهم ينتهزون هذه الفرصة ليسرقوا وينهبوا .

قال الباشا وهو يغدو ويروح فى قلق :

ـــ هذه فوضى . هذا إجرام .

قال حلمى وهو يجلس :

ـــ والغريب أنها فوضى منظمة ، سيارات تأتى محملة بالبنزين وتترك للمخربين حمولتها ثم تعود أدراجها لتجلب وقودا جديدا .

قال الباشا وهو يزفر فى ضيق :

ــ هذه كارثة ، أين فؤاد باشا ؟ لماذا يسكت على هذه الفوضى ؟ لماذا لا يأمر البوليس بالقبض على العابثين ؟!

قال حلمى وهو يرقب أباه الذى يغدو ويروح ثائرا :

ــ رجال البوليس حاقدون عليه لأوامره التى أصدرها بالأمس ، ولن يطيعوا له أمرا ، لقد أفلت زمام الأمر من يده .

وصمت قليلا ثم قال :

ــ أمر خطير . المحرضون على هذه الفوضى ينفثون المرارة فى نفوس الدهماء . ويحرضونهم على كل راكب سيارة ، إنهم يعترضون طريق السيارات ويحطمونها ، ولا يترددون فى اشعال النيران فيها ، لقد ألقوا على الحجارة .

فقال الباشا فى غضب :

ــ هذه أعمال الشيوعيين . لا يمكن السكوت على هذا ، إذا كان البوليس قد تمرد فأين الجيش ؟

قال حلمى وهو يطرق برأسه ويعبث فى يديه :

ــ كبار ضباط الجيش فى القصر الآن يحتفلون بمولد ولى العهد .

قال الباشا وهو يصيح فى ابنه كأنما هو الملوم على الذى يقع :

ــ أوَلم يسمع الملك بهذه الأحداث ؟!

ــ لا شك أنه قد سمع بها وأثلج لها صدره .

قال الباشا فى دهش :

ــ أثلج لها صدره ؟! هل يرضى عن إحراق القاهرة ؟!

ــ ما دام فى هذه النكبة التدليل على ضعف الحكومة ، إنها فرصته التى يتحينها .

قال الباشا فى غضب :

ــ هذا إجرام .. هذا إجرام ، أين فؤاد باشا ؟ أين فؤاد باشا ؟

واتجه إلى التليفون وأدار القرص دورات ووجد الرقم الذى يطلبه مشغولا ، فألقى بالسماعة فى ضيق ، وظل فى غدو ورواح وهو قلق .

وعاد إلى التليفون يدير قرصه ، وقال فى لهفة :

— ألو .. فؤاد باشا موجود ؟.. ذهب إلى السراى ؟.. متشكر .

وألقى بسماعة التليفون وقال لابنه :

— ذهب فؤاد باشا إلى السراى يطلب الاستعانة بالجيش لإعادة النظام .

قال حلمى فى يأس :

— انتهينا .

وضايقت نبرات صوته الباشا ، فقال فى غضب :

— ماذا تقول ؟!

فرفع حلمى رأسه وقال فى مرارة :

— أقول انتهينا ، لقد أقررنا بعجزنا عن حفظ النظام لما طلبنا الاستعانة بالجيش ، ولا أحسب أن الملك سيدع هذه الفرصة تمر بسلام .

فقال الباشا فى حدة :

— وماذا سيفعل ؟

قال حلمى وهو يهز رأسه أسفا :

— ما فعله مع كل وزارة وفدية .

— أتظن أنه سيقيل الوزارة ؟

— إننى لا أظن ، أنا واثق أنه سيقيلها .

وتدفقت الدماء الحارة إلى رأس الباشا ، حتى إنه لم يعد يطيق المنشفة الملفوفة حول رأسه ، فجذبها فى غيظ وهو حانق ، كان يضايقه أنه ضحى بابنه على مذبح مطامعه دون جدوى .

الساعة السادسة مساء ، والظلام يلف كل شيء ، والسحب تحجب نجوم السماء ، والبرد قارس ، وبثينة واقفة خلف زجاج النافذة ترقب الطريق ، فقد تأخر ابنها عن العودة من المدرسة ، طلب منها فى الصباح القسط الثانى من المصاريف وقد وعدته بأن تدفع له غدا ، فقبل على مضض ، وقال لها إنه سيتأخر اليوم فى العودة لأنه سيشاهد مباراة الكرة التى ستجرى بين مدرسته ومدرسة أخرى ، وإن مباراة الكرة فى مثل هذا الفصل من الشتاء تنتهى قبل الخامسة ، فما الذى أخره حتى الساعة ؟

كان يقلقها غيابه عن البيت وكان يضايقها أن يترك دروسه وينهمك فى اللعب ، وكانت تشفق عليه إذا سهر ليؤدى واجباته ، ويا طالما عاونته على إنجاز ما يكلف به ليطمئن قلبها إلى أنه قد دخل فراشه وهو قرير العين .

إنها تحبه بكل جارحة من جوارحها ، وترجو أن يصبح شيئا . وقد رأته أكثر من مرة كبدر الدين زوج أختها يشق طريقه بعرق جبينه ، إنها كانت تعارض فى زواج أختها ببدر الدين وكانت غاية أمانيها أن تزف لحلمى ، فما بالها إذا ما فكرت فى مستقبل ابنها لم تتمن له أن يشب كعمه أو أبيه ؟ لأنها تحب ابنها حبا آخر يختلف عن حبها لأختها ، لأنها تريد لابنها حياة كريمة ، بينا كانت تريد لأختها حياة ناعمة كلها ترف وسعادة .

وأطرقت تفكر فى حقيقة شعورها لما كانت تجاهد لتزويج إلهام بحلمى ، أكانت حقا تستهدف مصلحة أختها أم كانت تعمل لمصلحة نفسها ؟ إنها تحس الساعة أنها كانت أنانية وأنها كانت تريد أن تصبح ثروة الباشا كلها فى قبضة يدها هىَ لأنها الأخت الكبرى ، ولأن إلهام ستطيعها وتنفذ كل ما تشير به عليها .

وضايقتها لحظة القوة التى عاشتها فاعترفت فيها لنفسها بأنانيتها ، فسرعان ما هاجمت هذه الحقيقة وأخذت تقنع نفسها أن زواج إلهام بحلمى كان أفضل لها من زواجها ببدر الدين ، فحلمى سيرث يوما خمسين ألف فدان ولن يستطيع بدر الدين أن يجمع مثل هذه الثروة مهما كافح فى الحياة ..

وقبل أن تطمئن إلى دفاعها عن نفسها وسوس فى جوفها صوت عقلها : أتحب أن يكون ابنها كعمه ينتظر موت أبيه ليرث ثروته ، أم كبدر الدين يعتمد على نفسه فى بناء مستقبله ؟ ولم تتردد لحظة ، فضلت أن يكون ابنها من طراز زوج أختها ، وبررت لنفسها ذلك بأن ما يسعد الرجل يختلف عما يسعد الأنثى ، فالرجل يزداد رضا كلما عظمت أهميته وشعر بنفعه ، والمرأة تزداد سعادتها كلما كثر المال الذى تنفقه ، إنها تفضل أن تكون زوجة عبد الخالق بعد أن يموت أبوه ويرث ثروته على أن تكون زوجة بدر الدين يهجرها من أجل عمله أشهرا طويلة ..

وقفزت إلى ذهنها مشكلة مصاريف ابنها ، وتذكرت أنها ذهبت يوما لأمينة هانم على مضض ، وأخبرتها أنها فى حاجة إلى مصاريف ميمى ، وأن ما يغله البيت الذى ورثته عن أهلها والثلاثين جنيها التى يبعث بها الباشا إليهم فى أول كل شهر لا تكاد تكفى معيشتهم ، كانت تطمع فى أن تقول لها إن الباشا سيتكفل بمصاريف حفيده ، ولكنها اعتذرت بضيق ذات يدها وبأنها لا تستطيع أن تفاتح الباشا فى هذا الأمر ، وانصرفت من عندها غاضبة وقد وطنت النفس على ألا تعود إليها أبدا ولو ماتت جوعا ، وزاد فى حنقها أنها علمت أن أمينة هانم بعثت فى نفس اليوم إلى فقراء الحسين أضعاف المبلغ الذى طلبته لسداد مصاريف ابنها ..

ودفع حلمى القسط الأول ، إنها لم تفاتحه فى هذا الأمر ولم يذكر له عبد الخالق عنه شيئا ، جاء بعد يومين من ذهابها إلى أمه ، ووضع فى يدها المبلغ ، وقال تلميحا أن يظل ذلك سرا ، إن أمر أمينة هانم يحيرها ، فهى واثقة من أنها

تمقتها كل المقت ولا تحب لها الخير ، فإذا لم تكن هى التى دفعت ابنها لسداد مصاريف ميمى فمن ذا الذى أخبره ، ولماذا لح حلمى بضرورة أن يظل الأمر سرا ؟ أيخشى أن يغضب هذا الدفع أمه أم الباشا ، أم يغضبهما معا ؟ لا بد أنه فهم من حديث عارض لأمه حاجة أخيه إلى مصاريف المدرسة فجاء من تلقاء نفسه يقدم عونه ، واستراحت إلى هذا التعليل ، فقد كانت تستريح لكل تعليل يسلب أمينة هانم كل فضل أو معروف ..

وغادرت النافذة وانطلقت إلى حيث عبد الخالق فألفته ارتدى ثيابه وتأهب للخروج ، وقد مال يشرب كأسا يطفئ بها ظمأه الدائم ، فما كان يحتمل أن تمر ساعات دون أن يشرب ، وكان يفزعه أن يفيق من الخمر التى تغفو تحت تأثيرها أحاسيسه وتخمد آلام نفسه التى يجبن عن مواجهتها ..

ونظرت إلى وجهه المحتقن بالدم وقالت :

ـــ ألا تكف عن الشراب قليلا ؟ ألا ترحم نفسك ؟

فقال وهو يلقى بما فى الكأس فى جوفه :

ـــ لولا أننى أرحمها ما شربت كل هذا الذى أشربه ..

فقالت فى ضيق :

ـــ إنك تنتحر ..

فقال فى فزع :

ـــ بعد الشر ، إننى أشرب عصير الحياة ..

ودارت على عقبيها لتغادر المكان ، وتعود إلى النافذة ترقب أوبة ابنها الذى غاب ، والذى لم يحس أبوه غيابه ، وإذا بصوت عبد الخالق يمس أذنيها :

ـــ بوسى .. بوسى ..

والتفتت وهى تظن أنه يناديها وهو يدللها ، وإذا به قد زم شفتيه ومدهما ليتلقى قبلاتها ، فابتسمت ابتسامة خفيفة وانطلقت إلى النافذة ترقب الطريق .. وغادر عبد الخالق الدار .. وانساب فى الشارع ، ولمحته زوجته

فجعلت تلاحقه بعينيها وهى شاردة تفكر ، إنها تعلم أنه ذاهب إلى مرسى يقضى ليلته مع كأسه وفتاة من الفتيات اللاتى يغص بهن البيت ، فلم تغضب ولم تتحرك غيرتها ، فقد انزلقت إلى نفس الهاوية وتردت فيها ..

كانت فى حاجة إلى عطف وحنان ، وكانت ثائرة لا تجد من تفضى إليه بمتاعبها ، فما إن دخل عليها رفعت حتى راحت تمرغ وجهها فى صدره وتقص عليه أشجانها ، وغمرها بحنانه حتى نسيت نفسها واستسلمت لرقته ، فلما أفاقت لنفسها وجدت أنها قد زلت ..

وثارت على ضعفها واحتقرت الهوان الذى لطخها ، ووطنت النفس على ألا تعود إلى الدناءة التى قارفتها ، ولكنها ما أن ترى رفعت وما أن يدعوها إلى ما تخشاه حتى تنقاد مسلوبة الإرادة ، إنها أضعف من أن تصده ، فى داخلها امرأة أخرى تشتهيه ولا تعصى له رغبة ، وإنها لتمقت تلك المرأة وتتمنى مخلصة أن تتخلص من سيطرتها عليها ..

إنها اجتازت ذلك الحاجز الذى يفصل بينها وبين السقوط ، وهى الآن تهوى ، وما كان لمن تهوى أن تتحكم فى سقوطها ، ستصل إلى الحضيض ، إلى الوحل الذى تمرغت فيه كل من سمحت لرجلها أن تزل ..

وتملكها رعب ، وهمس فى أعماقها هامس يوسوس لها أنها ستصبح ذات يوم كرحمة زوجة مرسى التى طالما سخر منها رفعت ، ستنتقل من رجل إلى رجل بنفس السهولة التى تنتقل بها العملة من يد ليد ، وأفزعها ذلك الخاطر وراحت تنفيه فى قوة ، إنها سقطت حقا ، وهذا مما تأسف له ، ولكنها لم تتبذل فى سقوطها ، إنه هو عبد الخالق الذى دفعها إلى أحضان رفعت ، فلولا أنه خانها وجرح كبرياءها ما هان عليها أن تفرط فى نفسها .. إنها استسلمت فى لحظة ضعف للحنان الذى كانت متعطشة إليه ، وما دار بخلدها أبدا أن رفعت سيستغل ضعفها ..

ثار شرفها ، وهى تعلم أن العلاقة التى بينها وبين رفعت سيذيع خبرها

يوما ، إنها لا تخشى أن يصل ما كان بينها وبين رفعت إلى مسامع الباشا أو إلى عبد الخالق فلم يعد لهما وزن فى حياتها ، كل ما تخشاه أن تؤثر هذه العلاقة فى مستقبل ابنها ، أن تلوث شرفه ، أن تعكر صفو حياته ، وهى تفضل أن تموت على أن تكون سببا فى الإساءة إلى من تفضله على روحها ..

وعزمت على أن تقطع كل علاقة بينها وبين رفعت ، أن تصده إذا جاءها ، أن تصم أذنيها عن وسوسات المرأة الشريرة الأخرى الكائنة فى سريرتها ، إنها ما كانت تدرى أن فى أعماقها امرأة فاجرة ، تستجيب لنداء الشهوة دون أن تخجل أو تموت كمدا ..

ورأت سيارة فخمة تقف أمام الباب ، إنها سيارة إلهام ، وراحت تنظر فى اهتمام وقد انقشعت الأفكار التى كانت تراودها ، ورأت سائق السيارة يهبط مسرعا ويفتح الباب ، وهبط ابن إلهام ثم ابنتها ثم إلهام نفسها وقد تدثرت فى بالطو من الفراء الفاخر ، فانتشرت بين جوانحها موجة خفيفة من الأسى ، وغادرت النافذة ، وراحت تتأهب لاستقبال أختها ..

وتعانقت الأختان ، ومالت بثينة على الصغيرين تقبلهما ، وقالت إلهام :

— أين محمد ؟

فقالت بثينة وهى تجلس :

— لم يعد بعد من المدرسة .. قال لى فى الصباح إنه سيتأخر ، ولكننى ما كنت أظن أنه يتأخر إلى هذه الساعة ..

فقالت إلهام وهى تبتسم :

— لعله تعلم الشقاوة ..

فقالت بثينة وقد شردت ببصرها :

— أوه ، لا يزال صغيرا ، لم يبلغ العاشرة ..

فقالت إلهام فى بساطة :

— ابن الوز عوام .. طالع لعمه ولأبيه ..

قالت بثينة لتجارى أختها :

ـــ ولجده ..

فقالت إلهام وهى ترفع يدها لتبرأ مما تقول أختها :

ـــ لا أعرف شيئا عن جده ..

وهمس فى جوف بثينة هامس يقول فى سخرية : « وأمه » ، فاربد وجهها ولاحظت إلهام التغير الذى طرأ على أختها ، فقالت لها :

ـــ ماذا بك ؟

ـــ يقلقنى غياب ميمى ..

ـــ لماذا لا تتصلين بالمدرسة ؟

ـــ وهل سنجد أحدا هناك ؟ ننتظر قليلا ..

وراحت الأختان تتجاذبان أطراف الحديث ، وابن إلهام وابنتها جالسان صامتين ، فالذى يلعبان معه غائب عن البيت ، وسمع وقع أقدام صغيرة ، والتفتت العيون إلى مصدر الصوت ، وصاح ابن إلهام فى فرح :

ـــ ميمى جاء ..

وخف الصغيران إليه ، وذهب إلى أمه دون أن يحفل بهما ، وقالت له :

ـــ لماذا تأخرت ؟

ولم يجب عن سؤالها ، بل قال فى ضيق :

ـــ كنت سأطرد من المدرسة اليوم ، لأننى لم أدفع المصروفات ..

وتضاءلت بثينة وقالت :

ـــ غدا صباحا أسلمها لك ..

فقال فى عناد :

ـــ أريد أن أتسلمها الآن ..

فقالت له أمه فى حدة :

ـــ قلت لك غدا ..

فقال فى ثورة :

ـــ قلت لى أمس ذلك ، لن أنام قبل أن أتسلم المصروفات ..

فقالت لتسكته :

ـــ حلمى بك سيحضرها الليلة ..

كانت تكذب ، وضايقها ذلك الكذب ، وفطن ابنها إلى أنها تكذب ، فقال وهو يصرخ ويلوح بيديه :

ـــ لا بد أن أتسلم المصروفات الآن ..

وضمته إلهام إلى صدرها وقالت :

ـــ ستأتى معنا وتبيت عندنا وغدا صباحا أذهب معك إلى المدرسة ..

وسكت وهدأت نفسه ، فقد كان واثقا من أنها ستفي بما وعدت ، فما وعدته بشيء إلا نفذته ، وانقبض صدر بثينة وقالت لابنها فى حدة :

ـــ قلت لك عمك سيحضر المصاريف الليلة ..

وقالت له إلهام :

ـــ اذهب واستعد لتأتى معنا ..

وجرى محمد مسرورا ، وجرى خلفه ابنا خالته وهما يتصايحان سرورا ..

وفكرت بثينة فى أن تثنيه عن الذهاب مع خالته ، ولكنها تذكرت أنه سيبكي وسيستمر فى البكاء حتى يتسلم المصروفات وما كان معها ما تدفعه له ، فآثرت الصمت على مضض ..

وانصرفت إلهام وابناها ومحمد ، وقد راح الأولاد يستبقون إلى السيارة ، وذهبت بثينة إلى النافذة تنظر فرأت أختها وهى تدخل السيارة الفخمة والسائق يغلق الباب خلفها ، فتحركت فى صدرها غيرة أنكرتها ولكنها عجزت عن وأدها ..

وعادت إلى غرفتها وتمددت فى فراشها وسرح خيالها ، إن رفعت عما قليل سيحضر ليستصحبها إلى بيته الذى شهد دنسها ، وإنها لتنفر من أن تستمر فى هذه

الحياة الشائنة التى ولجت أبوابها دون أن تفكر أو تتدبر ، فقد وجدت نفسها مدفوعة إليها تسير فيها وقد سلبت إرادتها قوة لا تستطيع لها دفعا ، وهى الآن مسيطرة على كل حواسها ، إنها فى كامل وعيها وهى تقرر راضية أنها ستقطع كل علاقة بينها وبين رفعت ، وستطلب منه أن ينسى ما كان بينه وبينها ، وألا يعود لزيارتها ..

واطمأنت إلى قرارها ، وراحت تغذيه بعزيمتها ، ولكن ما أن جاءت الخادمة تقول لها أن رفعت فى غرفة الاستقبال حتى استيقظت المرأة الفاجرة الكامنة فى أغوارها ، وسلبتها كل إرادة واستبدت بها ، فقامت فى نشاط وراحت تصلح زينتها منتشية ، ثم ذهبت إلى رفعت لتنطلق معه إلى بيته لتسكت صراخ الوحش الساكن فى جسدها ..

٥٠

كان حلمى فى سيارته فى طريقه إلى جاردن سيتى ، وكان يرقب السيارات والترام والغادين والرائحين بعينيه ، أما فكره فقد كان يهيم بعيدا ، قرأ فى صحف الصباح أن الفرقة النمساوية التى كانت تعمل بها إيفا عادت إلى القاهرة ، وأنها ابتداء من الليلة ستمارس عملها بالحلمية بالاس ، إنه مذ قرأ ذلك النبأ وهو يعيش فى ذكرياته ، تداعبه آماله فينشرح صدره وتنبثق فيه مشاعر زاخرة بالحنان والنشوة ، وما يلبث أن يتدسس اليأس إلى قلبه فيغيض تفاؤله ويغمر وجدانه الأسى ، وظل يترجح بين الرجاء واليأس والأمل والقنوط والفرح والحزن طوال يومه ، ينتظر المساء فى لهفة ، وها هو ذا الليل قد أقبل ولم يبق بينه وبين الذهاب إلى الحلمية بالاس غير ساعة ..

لم تبرح إيفا خياله لحظة مذ قرأ نبأ وصول فرقتها إلى القاهرة ، رآها بعين خياله وهو يراقصها أول ليلة وقعت عليها عيناه ، ورآها وهى فى بيتها الذى

أجره لها ، ويا طالما رآها وهو يضمها إلى صدره فى وله وحنان ، وسرى فى ضميره صوتها الذى لم يبارح أذنيه طول السنين التى تقضت مذ آخر ليلة رآها فيها حتى يومه هذا ، ورن صوتها واضحا فى أذنيه تقول له إنها حامل وأنه سيصبح أبا ، كل خلجة فيه ترتجف حنانا لذلك النبأ ، نفسه تتفتح له ، الدموع تنبثق من عينيه ، جنبات روحه تضاء بالأمل ..

وأنكر شعور الضيق الذى أحسه تلك الليلة لما أفضت إليه بالنبأ ، لو كان يدرى لتشبث بها وما ترك سعادته التى يفتقدها تنساب بين يديه ، ولما فر منها ، أين هى إيفا ، أين ابنها الذى تنصل منه ؟ أين فردوسه الذى هجره ليتلظى فى جحيم الحرمان ؟

وراح يجرى وراء آماله .. فرأى نفسه ينساب فى الحلمية بالاس ، ورأى إيفا أمامه ، إنها ترتدى نفس الثوب الذى كانت ترتديه أول ليلة رآها فيها ، إنها مشرقة الوجه كما كانت ، لم تنل منها السنون ، إنها لا تزال صغيرة لم تتجاوز بعد العشرين ، وستظل فى خياله صغيرة مهما شاب الزمن ، وناداها بصوت زاخر بالحنان واللهفة :

— إيفا !

والتفتت فى نشوة ، والتمعت عيناها سرورا ، وجرت إليه كالطيف ترتمى فى أحضانه وتغمره بالقبل وهى تهمس فى وجد :

— حلمى .. حبيبى ..

وقال فى صوت متهدج تخنقه عبراته :

— أين ابننا ؟ أين الحبيب ؟ أين ؟ أين ؟

فقالت وهى تجذبه فى رفق وفى عينيها هيام :

— تعال .. إنه هنا ..

وانطلقا وهو يكاد ينوء من الشوق ، وانسابا فى عالم من الضباب ، وفتحت بابا وإذا بغلام لم يتبين ملامحه قائم فى وسطها ، فنظر إليه خافق القلب ، تكاد

روحه تفر إليه ، وجرى نحوه ملهوفا ، وضمه إلى صدره ليطفئ نار الشوق المتأججة فيه ، وراح يهتف فى حب :

— ابنى !.. ابنى !..

وسالت دموعه غزيرة على خديه ..

وأفاق من أحلامه ، وأخرج منديلا راح يكفكف به عبراته ، ووقفت السيارة أمام قصر أبيه ، فهبط منها وراح يصعد الدرج متمهلا حتى تنقشع انفعالاته ، ودخل على الباشا وهو يجاهد ليبدو هادئا ، وقال :

— مساء الخير ..

قال الباشا فى انشراح :

— مساء النور ..

وذهب إلى أمه وقبل يدها ، فراحت تربت عليه فى حنان ، وجلس إلى جوارها ، وقبل أن يستقر فى مجلسه قال الباشا :

— ماذا فعلتم عند رفعة الباشا ؟ والله كنت أريد أن أذهب معكم ولكن ..

وقال حلمى قبل أن يتم أبوه حديثه :

— كانت روح الرجل المعنوية عظيمة ، وكان مزاجه رائقا ، لما قدمنا إليه الكأس التذكارية قلبها بين يديه وقال : عظيم ! ماذا كتبتم عليها ؟ فقال قائل : كلمتكم المأثورة : من أجل مصر وقعت المعاهدة ، ومن أجل مصر ألغيتها ، فابتسم رفعة الباشا وقال : لهذا الكلام أقلنا ..

وابتسم الباشا وقال :

— وما رأى رفعة الباشا فى الحالة الحاضرة ؟

— إنه مسرور لأن على باشا ماهر أعلن أنه سيسير على سياسة سلفه العظيم ..

فقال أمينة هانم فى استغراب :

— إذا كان على ماهر سيسير على سياسة سلفه ، فلماذا أقيل رفعة الباشا ؟

قال الباشا وقد شرد ببصره :

ـــ يخيل إلىّ أن الملك ضالع فى حريق القاهرة ، لماذا لم يرسل بعض رجال حرسه لإخماد الفتنة قبل أن يستفحل أمرها ؟! وكيف طاوعه قلبه على أن يخطب فى ضباط جيشه ويقول لهم : إنه ابن إبراهيم باشا وإنه يضع ابنه وديعة فى أيديهم ، ثم يدعوهم إلى تناول الغداء والنيران مندلعة على بعد أمتار من قصره ؟! لقد رفض أن يقابل فؤاد باشا لما طلب مقابلته ، كان يبيت الغدر بالوزارة ..

قال حلمى :

ـــ بلغنى أن حيدر باشا كان يتردد فى إنزال الجيش إلى الشوارع لإعادة الطمأنينة ، قال للملك إنه يخشى أن ينضم الجيش إلى الشعب فتكون الكارثة ..

وأرادت أمينة هانم أن تدير دفة الحديث لتغير اتجاهه ، فما كانت تحب حديث السياسة ، فقالت :

ـــ لماذا لا تأتى يا حلمى لتحج معنا ؟

قال حلمى وهو يبتسم :

ـــ سيئاتى حتى الآن قليلة ، سأنتظر حتى يتضخم رصيدها ثم أتطهر منها وأكفر عنها مرة واحدة ..

قال الباشا مداعبا :

ـــ يثاب المرء رغم أنفه ..

وابتسم حلمى وضحكت أمينة هانم ، وصمت الباشا ، أحس بعد أن قال قولته أنه كان يعبر عن حاله ويسخر من نفسه ، فهو لم يتب إلا بعد أن ولى شبابه وتسربت فتوته من بين يديه ، إنه تائب على الرغم منه ، حقيقة أنه ثاب إلى رشده بعد أن ضبط هو وابنه فى منزل أنهار ، وقرر بعد ذلك الخزى الذى كاد يعصف به ألا يعود إلى اللهو أبدا ، ولكنه كان يحس قبل ذلك أنه قد بلغ الحرج

وأن حياته الخاصة قد انتهت .. فقد كل لذة حسية ولم يبق أمامه إلا حلاوة الإيمان ..

وقالت أمينة هانم وهى تنظر إلى ابنها فى إشفاق :

— أريد بعد عودتى من الحج إن شاء الله أن أفرح ..

قال حلمى مداعبا :

— سأقيم عند عودتك حفلا أعظم من الحفل الذى أقيم ليلة زفافك ..

فقالت وهى تنظر إليه فى وجد :

— أريد أن أفرح بك أنت ..

وصمت الباشا وإن كان فى قرارة نفسه يؤيد رأى زوجته ، لم يعد هناك ما يبرر إمساك ابنه لسميرة بعد أن أقيلت الوزارة قبل أن يصبح ابنه وزيرا ، وهو يشك فى احتمال عودة الوفد إلى الحكم قبل انقضاء عشر سنين أخرى .. وحرام أن يظل ابنه يقاسى الحرمان على أمل واه قد يتعذر تحقيقه ..

وشجعها صمت الباشا وعدم معارضته لها ، فقالت :

— سأدعو الله وأنا واقفة عند باب بيته أن يرزقك بزوجة ولود تمنحك الذرية الصالحة ..

ونظر حلمى إلى ساعته ، إن موعد ذهابه إلى الحلمية بالأس يقترب ، وتبخرت الطمأنينة التي غمرته لما اندمج فى الحديث مع والديه وعاد إلى جوفه ذلك القلق الذاخر بالأمل واللهفة والمشاعر المشتهاة ، وقام مستأذنا وقد عاد طيف إيفا يحتل خياله ..

واندس فى سيارته ، وانطلق فى طريقه إلى الحلمية خافق القلب ، فى جوفه رهبة وأحاسيس غامضة استغلقت عليه ، فما كان يدرى : أهى مزيج من الأمل واليأس ، من الفرح والحزن ، من اللهفة والشوق ؟ لم يكن فى نفسه شىء واضح إلا صورة إيفا التى حفرت فى قلبه وعمقتها يد السنين ، وهو يراها بعينيه أكثر وضوحا من صورة سميرة التى غادرها من ساعات قليلة ..

سميرة تشاركه فى فراش واحد ولكن إيفا أقرب إليه منها ، إنه لا يسمع حديثها بينا يصغي إلى همسات إيفا وبينه وبينها المجهول الذى لا يعرف له حدودا ، وما أكثر ما ضم سميرة إليه فى الظلام وفى خياله إيفا ، يصغي بوهمه إلى عذب مناجاتها ويبثها ، وهو يهمس ، الشوق الرقراق المعربد فى الحنايا ، وكانت أقسى لحظات حياته تلك التى تخرجه فيها سميرة من أحلامه بأن تسأله فجأة عما يشغل ذهنه وهو معها ، فيهوى من سماء رؤاه المجنحة ..

إن السنين التى تقضت منذ هجرته إيفا لم تمح حبها من سويداء قلبه ، بل راحت ترضعه الحنان الدافق فى نفسه الذى لم يجد له منفسا يتسرب إليه فترعرع وازدهر ، وأمدت صورتها بهالة من نور لم ترها عيناه فى واقع حياتها ولكنها كانت تزداد فى خياله تألقا وفى ضميره قدسية ، فتجسمت إيفا فى وجدانه أملا يرتجى ..

وفكر فيما يفعله لو أن مدير الفرقة أعطاه عنوانها ، إنه لن يتردد فى أن ينطلق إليها يلتمس منها الصفح عن نذالته التى كفر عنها بالعذاب الطويل الذى كابده منذ أن تخلى عنها ، ويطلب منها أن تعود معه هى وابنه ليعوضها عن الحرمان الذى احتملا وطأته القاسية ويمسح من نفسيهما المرارة التى عكرت طعم حياتهما ، ويذيقهما حلاوة الحب الفياض الذى يستطيع أن يضفيه الرجل المحب على شريكة حياته وعلى ابنه الذى يخفق له القلب رحمة ومحبة ..

وانبثقت فى نفسه مشاعر فتية عذبة كادت تطمرها حياته الراكدة ، وروحه التى كادت تصدأ ، وأيامه المكرورة التى لا إرهاصات فيها ولا إحساسات كبيرة توقظ عواطفه الهاجعة ، فالشعور الذى لازمه هو إحساسه بالضيق من حياته الفاترة التى يحياها مع سميرة مرغما ..

فكر فى أن يهجر سميرة أكثر من مرة وأن يتزوج بأخرى ، ولكنه لم يقدم على تنفيذ الفكرة التى تراوده فى يقظته ومنامه لأسباب كثيرة كان يتعلل بها ، والحقيقة أنه كان يخشى فى قرارة نفسه السحيقة ألا تمنحه من سيتزوجها الولد

الذى يشتهيه ، فآثر أن يصبر لعل إيفا تعود إليه هى وابنه الذى أصبح واقعا لا رغبة تشتهى ..

ووقفت السيارة أمام الحلمية بالاس وغادرها وقد اشتد وجيب قلبه وتحركت مخاوفه ، وأرهفت حواسه ، وراح يتقدم وهو مفتوح العين متوتر الأعصاب ، وأدار عينيه فى المكان كأنما يبحث عنها .. ووقف نظره طويلا عند النضد الذى التقى بها عنده أول مرة ، وخفق فؤاده حنانا ، وغام وجهه بسحابة من الأسى ، وغمرته إحساسات زاخرة بالحيوية ..

ومست أذنيه الموسيقى الحالمة ، لم تكن الفرقة تعزف القطعة التى كانت تعزفها يوم راح يرقص مع إيفا ، وعلى الرغم من ذلك انسلت إلى وجدانه وأثارت أشجانه وهيجت أرق الذكريات التى تتكون منها حياته ، وسار كالمسحور السارى فى عالم صيغ من المشاعر الرقيقة والعواطف النابضة بالحب والهيام ..

وانطلق إلى مكتب المدير واستأذن فى مقابلته وأذن له ، فدخل على الرجل وصافحه وقال له :

ـــ آسف لإزعاجك ، ولكن الأمر له أهمية خاصة عندى ..

فقال الرجل وهو يشير فى أدب إلى مقعد قريب منه :

ـــ أنا فى خدمتك ..

وجلس حلمى وجلس الرجل وهو مقبل عليه بكليته ، وقال حلمى :

ـــ كانت فرقتكم هذه تعمل هنا فى أيام الحرب ..

ـــ نعم ..

ـــ وكانت إيفا تعمل معكم ..

وقطب الرجل جبينه وراح يفكر وهو يردد فى إنكار :

ـــ إيفا ؟!.. إيفا ؟!

قال حلمى ليعاونه فى تفكيره :

— كانت شابة صغيرة وكانت تغنى وحدها .

وعاد الرجل يفكر ويردد اسمها :

— إيفا ؟!.. إيفا ؟!

قال حلمى فى حماسة :

— إننى أذكر بعض أغانيها .

وراح يغنى بعض أغانى إيفا ، فهو يحفظها عن ظهر قلب ، وما أكثر ما ترنم بها فى وحدته وهو دامع العين كسير الفؤاد !..

وراح الرجل يصغى إليه وهو مطرق ، وانبسطت أساريره فجأة وقال :

— آه ! إيفا ! تذكرتها — إنها سافرت فجأة .. غادرتنا دون أن تودعنا .. كانت حزينة .

قال حلمى فى لهفة :

— إنها هى ، ألم تقابلها بعد أن هجرتكم ؟ ألم تحاول أن تتصل بكم ؟

قال الرجل وهو يهز رأسه نفيا :

— أبدا .

— ألم تتصل بأحد من فرقتكم ؟ ألا يعلم أحد منكم أين هى ؟

وأحس الرجل اللهفة التى فى صوته ، فقال فى رقة :

— آسف إننى لا أستطيع أن أعاونك ، فما أكثر الذين يعملون معنا ثم ينفصلون عنا ولا نسمع عنهم شيئا بعدها أبدا ، العالم واسع يا سيدى ، وكل إنسان مشغول بنفسه الآن عن غيره وعن الدنيا التى حوله .

— هل لى أن أطلب منك خدمة ؟

— تفضل .

وأخرج حلمى من جيبه بطاقة وقدمها إلى الرجل وهو يقول :

— هذا عنوانى ، فإذا قدر لكم أو لأحد من فرقتكم أن يعرف أين هى فأرجوك أن تبلغنى .

قال الرجل فى حماسة :

ـــ أعدك أننى سأفعل .

وقام حلمى وصافح الرجل وانصرف وهو مطرق يسير فى الظلام . وإن كانت الأنوار فى كل مكان تأتلق ، فقد انطفأ بصيص النور الذى كان يجاهد ليشق طريقه فى دياجير نفسه التى تراكمت فى وجدانه على مر السنين .

٥١

قام عبد الخالق من فراشه زائغ البصر ، يحس دوارا فى رأسه وفتورا يسرى فى روحه ، ومد بصره إلى النافذة القريبة منه فألفى نور النهار قد انطفأ ، كانت الشمس فى غروب ولكن خيل إليه أن الكون غارق فى ظلام ثقيل .

ونظر إلى المرآة القريبة منه فرأى وجهه ذابلا ، وبريق عينيه قد خبا ، وارتخى جلد وجهه فخلف تجعدات تحت جفون عينيه وانتفاخا على شكل هلالين ، فتدسس إلى ضميره الأسى ، وتملكه شعور مرير بأن الشيخوخة قد دبت فيه ولما يبلغ الخامسة والأربعين .

وانتصب على قدميه وسار خطوات ليتناول الروب فانبهرت أنفاسه وضاق نفسه وأحس أنه يختنق ، فأخذ يمرر يده على رقبته ويجذب جلدها كأنما يحاول أن يفسح طريقا للهواء الذى يلتقطه فى جهد ، ثم راح يرتدى الروب فى خمول .

وشعر بوخزات فى قلبه ، وبارتفاع فى دقاته ، وبألم فى عضلات ذراعيه ، وبإعياء شديد ، وطافت بذهنه فكرة أنه قد يموت ففزع وانتشرت فى وجهه رهبة ، واتسعت عيناه رعبا ، وراحت أفكار متخاذلة تتوافد إلى رأسه ، إنه لو مات لكان وجوده فى هذه الحياة عبثا ، كانت حياته التى عاشها حرمانا كلها ، قسوة كلها ، وهو يرجو أن تسعد حياته وأن يعوض ما فاته بعد موت

أبيه .

وراح يوهم نفسه أن ما يحسه إن هو إلا تعب طارئ ما أسرع أن يزول ، وأن الشيخوخة المبكرة التي تدب في أوصاله ما هي إلا شيخوخة كاذبة سرعان ما تنقشع إذا ما أشرقت عليها شمس سعادته ، فما يضخمها إلا استسلامه لذلك القنوط الذى عشش فى وجدانه ومد جذوره فيه .

ولم يطمئن إلى أوهامه ، ولم ينجح فى اقتلاع القلق الذى بذر فى أعماقه ، فإذا بأفكار سود تعاود هجومها : أنه مريض وأن الفناء يدب فيه وأن ثروة أبيه كلها عاجزة عن أن تجلب له سعادته المفقودة إن كان قد كتب عليه أن يموت .

وارتفعت حرارته ، وأحس أن رأسه يكاد ينفجر ، وأن نفسه مكروب ، وأن أفكاره القاسية تزيد فى عذابه ، فوسع من خطوه ليتناول من الخمر ما يقضى على وعيه الذى لا هم له إلا تنغيص حياته وإشعال نار قلقه لتحرق روحه وتعذبه عذاب الهون .

وتناول زجاجة الخمر بيد مرتعشة وراح يصب منها فى الكأس فإذا بالسائل يرتجف ويسقط خارج الكأس بعضه ، ورفع الكأس بيده الأخرى وقربها من الزجاجة ولم يعد يرى ما فى يديه بوضوح ، انسدلت على عينيه غشاوة ، وران على ذهنه ضباب ، وأخذت تزحف إلى نفسه غيبوبة لتسدل ستارا ثقيلا يحول بينه وبين وعيه .

وجاهد ليرى ما حوله، وركز كل مشاعره فى عينيه، ومد بصره وراح يدور به فى أرجاء الغرفة ، وإذا به يرى الصور تتراقص ، والأسجاف تهتز ، وقطع الأثاث لا تستقر فى مكانها ، إن كل شىء يدور ويدور ويدور ويعلو ويعلو ويعلو ، وراح يمرر يده على وجهه دون شعور بعد أن سقطت الزجاجة والكأس من يديه دون أن يحس ، وتقضت لحظات لم يشعر فيها بشىء ، وفتح عينيه فإذا بهما نصف مغمضتين ، ورأى الثريا البلورية ولا شىء غيرها ، ثم راحت تمحى من أمامه رويدا رويدا حتى غاب عن الوجود .

وخفت إليه بثينة وابنه بعد أن صك آذانهما صوت سقوط الزجاجة والكأس ثم ارتطام جسم ثقيل بالأرض ، ومالت عليه بثينة ورفعت رأسه فى رفق ، ثم وضعت ذراعها تحته وجعلت تربت على وجهه بكفها ، وارتمى ابنه فوقه وراح ينادى فى فزع :

ـــ بابا !.. بابا !

ثم أجهش بالبكاء ، وأحست بثينة أن يدا قوية تهصر قلبها ، وترقرق الدمع فى مقلتيها .. حرك مشاعرها حزن ابنها ولوعته ، وأرادت أن تدخل الطمأنينة على قلب ابنها الذى نم وجهه عن عمق الأسى الذى يكابده ، فقالت له :

ـــ بابا بخير .. بابا بخير .

ورأت أن تشغله عن التفكير فى أبيه الممدود أمام عينيه فاقد الوعى ، فقالت له :

ـــ هات زجاجة الكولونيا .

وأسرع محمد وهو يتلفت فى قلق ، وقلبه يدوى بين جنبيه رهبة ، وأوجس خيفة ، وعاد وهو يحمل زجاجة الكولونيا وإن لم يكن يعى تماما الحركة الحسية التى يأتيها ، كان غارقا فى الانفعالات المتباينة التى كانت تتدفق فى غزارة فى جوفه .

وقربت الزجاجة من أنف عبد الخالق الذى علا وجهه شحوب واصفرار ، وبدأ يلتقط أنفاسه فى جهد وقد تعلقت بصدره عينا ابنه الذى تقلصت قسمات وجهه من الألم ، وفتح عبد الخالق عينين واهنتين دون أن يرى شيئا ، ثم راح النور يتسرب إلى شعوره شيئا فشيئا ، وأخذت السحب التى تحجب المرئيات تنقشع رويدا رويدا ، ورأى وجه بثينة ودار ببصره حتى وقع على وجه ابنه وقرأ الألم فى محياه فانقبض ، وأراد أن يمسح ذلك الأسى الذى جثم على صدر حبيب الفؤاد ، فاغتصب ابتسامة باهتة كانت أقسى من وقع الخنجر فى قلب محمد .

ومال محمد وهو يحاول أن يكبت الفزع الذى استولى عليه ، وقال فى

صوت متهدج :

ـــ بابا ! كيف أنت الآن ؟

فقال عبد الخالق فى صوت خافت :

ـــ بخير ، الحمد لله .

وأراد أن ينهض ولكنه عجز عن أن يهم واقفا ، وجعلت بثينة تعاونه ، وخف محمد يمد إليه يد المساعدة وهو كسير القلب ، وجاهد عبد الخالق حتى انتصب على قدميه وقد لف ذراعا حول عنق زوجته والذراع الثانية على كتف ابنه ، وسار وهو بينهما يجر نفسه جرا .

وبلغا غرفة النوم ، واتجها به إلى السرير ، وراحا يتعاونان على وضعه فيه ، وتمدد مبهور النفس ثم أطبق جفنيه ، فقال محمد فى فزع :

ـــ سيغمى عليه ثانية .

قالت بثينة فى لهفة وهى تتلفت :

ـــ الدكتور !. الدكتور !.

وخرج محمد يعدو فى الطريق ، وقد راح وهمه يصور له أن كل ثانية يتأخرها قد تكون القاضية على أبيه الحبيب ، فيزيد فى سرعته ويتضخم إحساسه بالزمن فتطول اللحظات والدقائق ويربو الاضطراب والقلق والخوف من المجهول ..

إنه يحب أباه حبا عميقا تغلغل فى أعماق نفسه ، فقد غمره بحبه وحنانه ، وهو كل من له فى دنياه ، إنه لا يدرى ماذا تساوى حياته لو خلت منه ، إنه لشىء بشع بغيض أن يموت .

وراح صوته يتساءل فى حيرة فى أعماقه وهو يعدو ويلهث : لماذا يموت ؟ لماذا يموت ؟ لماذا يموت ؟ وماذا يضير العالم لو بقى حيا ؟ بل ماذا تستفيد الدنيا من موته ؟ إنه يريده . إنه فى حاجة إليه . إنه لا يستطيع أن يعيش بدونه ، سيبقى من أجله . سيعيش من أجله .. سيعيش .. سيعيش .

ودخل على الطبيب وطلب منه فى لهفة أن يسرع لإنقاذ أبيه ، وانطلق الرجل معه ، وركبا السيارة ، وانسابت فى الطريق ومحمد يبتهل فى أعماقه ألا يعوقها عائق ، يتعجل الزمن ويتمنى أن تطوى الأرض طيا .

وسار أمام الطبيب ، وكلما وجد أنه سبقه يعود إليه ويسير أمامه وما يلبث أن يسبقه ، ويستأنف العودة إليه وهو يرنو إليه فى توسل كأنما يستحثه على الإسراع ، ودخل غرفة النوم ، واتجه الطبيب إلى المريض المسجى وراح يفحص عنه فى عناية ، وقد تعلقت به عيون بثينة ومحمد .

وراح الوقت يمر فى بطء شديد ، ووضع الطبيب السماعة على القلب وقطب جبينه ولاح فى وجهه الاهتمام ، وأحس محمد الانفعال الخفيف الذى عبر عنه الرجل بانقباض سريع فى عضلات وجهه سرعان ما انبسط ، فاشتد وجيب قلبه ، وران عليه الحزن والقلق .

وجلس الطبيب يكتب الروشيتة فى صمت ، ومحمد يرقبه فى اهتمام ، ورفع الطبيب رأسه وقال :

ـــ يجب أن يبدأ تناول الدواء من الآن .

وخطف محمد الروشيتة ، وخرج يعدو فى الطريق ليحضر الدواء ، وسارت بثينة خلف الطبيب ، حتى إذا ما غادرا الغرفة التفتت إليه وقالت :

ـــ ماذا وجدت ؟

فقال الدكتور فى أسى :

ـــ الحالة خطيرة .

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ إنه فى حاجة إلى عناية وعلاج طويل . ينبغى ألا يغادر الفراش أبدا .

فقالت بثينة وهى تنظر إليه بعينين مفتوحتين :

ـــ ماذا عنده يا دكتور ؟

ـــ قلبه ضعيف . حذار من الكحول أو أى نوع من الخمور .

وقبل أن ينصرف قال :

— ينبغى ألا يغادر فراشه ، فالهبوط من السرير أو الصعود إليه يجهده ، وسأمر غدا لأراه ..

ودار على عقبيه وسار وقد أطرقت بثينة ونزل بقلبها هم ثقيل ، وعادت إلى زوجها وجلست إلى جواره وقد سرح خيالها وجعلت الأفكار السود تنثال على رأسها ، وظلت فريسة لأوهامها حتى عاد ابنها يحمل الدواء .

وراحت تناول زوجها الدواء فى حنان ، ثم جلست تعبث فى شعره وابنها ينظر إليهما خافق القلب ، يرجو ألا يحرمه الله منهما . فهما قرة عينه وكل دنياه . وجعل الوقت يمر والسكون يخيم على المكان ، وعبد الخالق هاجع لا يكاد يحس ما حوله ، ومحمد مطرق قد استسلم لعواطفه وبثينة تجمع شتات نفسها لتحزم أمرها وتستقر على رأى .

وجاءت الخادم وقالت :

— رفعت بك فى الصالون .

ورفعت بثينة رأسها وقالت لها :

— قولى له تفضل ..

ودخل رفعت ووقعت عيناه على عبد الخالق الممدود فى فراشه فوقف صامتا برهة ، وقال :

— ماذا جرى ؟ كان بالأمس بخير .

ونظرت بثينة إلى ابنها نظرة سريعة ، ثم التفتت إلى رفعت وقالت :

— لا شىء . إنه بخير . تعب بسيط .

وجلس رفعت ولم ينبس بكلمة ، وظل مطرقا وهو ضيق بذلك الجو الذى وجد نفسه فيه ، إنه قادم ليضم بثينة إلى صدره ويمطرها بقبلاته ، ثم يجذبها وهى مسلوبة الإرادة إلى بيته ليعب كأس اللذة وهو نشوان بنصره ، مزهو بنفسه ، فقد نال ما عز على شعبان وعلى ماله الوفير .

وأراد أن يفر من ذلك الجو البغيض فقال :

ـــ أظن أن من الأفضل أن يترك وحده فى هدوء ليستريح .

ونهض ، ونهضت بثينة ، وبقى محمد إلى جوار أبيه وهو حائر لا يدرى أيسافر مع خالته إلى الإسكندرية أم يبقى إلى جوار أبيه المريض !، وخرج رفعت وهى فى أثره ، حتى إذا ما ابتعدا عن الغرفة التفت إليها وقال :

ـــ ماذا قال الطبيب ؟

فقالت فى أسى :

ـــ الأمر جد خطير . قلبه ضعيف .

وصمتت قليلا ثم قالت فى عزم :

ـــ لن أدعه يموت ، لن يموت أبدا قبل أبيه ، فلو مات قبله لضاع كل شىء ، لن أتركه يموت .. سيعيش حتى يموت الباشا .. يجب أن يعيش حتى يموت الباشا . أتفهمنى ؟! يجب أن يعيش .

٥٢

جلس حلمى فى مكتب أبيه يقرأ صحف الصباح والرسائل ويراجع الحسابات ، وكان يضيق بعثمان بك وبتصرفاته ، إنه لا يستطيع أن يمنحه الثقة العمياء التى منحها إياه الباشا ، فهو يشك فى ذمته ، وقد فاتح أباه مرة فى أمره وقال له إنه لا يستطيع أن يصدق أن عثمان لا يسرقه ، فابتسم الباشا فى هدوء وقال له : ما هى النسبة التى تقدرها لسرقاته ؟ ٥ فى المائة من الإيراد ؟ لنفرض أن هذا واقع ، فإذا ما طردناه وجئنا بآخر أقل كفاية منه فبأى نسبة سيهبط الإيراد ؟ سيهبط بنسبة ٢٠ فى المائة على الأقل ، أى أننا سنخسر إذا ما غيرناه بآخر أكثر منه أمانة وأقل منه كفاية ، ١٥ فى المائة من الإيراد ، لا يا حلمى إننى لست مستعدا لتحمل هذه الخسارة ، إننى لن أتردد فى طرد عثمان إذا ما جئتنى

بآخر فى نفس كفايته ولا يسرق ما يسرقه .

وسكت حلمى على مضض ، إنه واثق أن أباه لن يغفر لعثمان إذا ما ضبط متلبسا بجريمته ، وإنه يقول ما يقول ليدلل على براعته ولأنه يأمن جانب عثمان ، لذلك عزم ألا يحدث أباه مرة أخرى فى هذا الموضوع قبل أن يضع يده على جسم الجريمة الذى يزلزل أركان تلك الثقة العمياء . وراح حلمى يراجع الحسابات ويرصد تصرفات ابن عمه بعين مفتوحة .

وأقبل الباشا وعثمان فى أثره يحدثه ويقول له إنه استطاع أن يحجز له مكانا فى الباخرة التى ستنقل آخر فوج من الحجاج ، ووضع الترتيبات التى تكفل له العودة فى الباخرة التى ستعود بالفوج الأول ، ثم قال فى تملق إنه فعل ذلك لأن مصلحة العمل لا تحتمل غيابه طويلا .

ونهض حلمى ليترك مكانه لأبيه ، وصك أذنيه ملق عثمان فأحس أنه يستهدف أن يطعنه بهذا القول ، فرماه بنظرة شزراء وهو يرد على تحية الباشا ، وجلس الباشا خلف مكتبه ، والتقم عثمان أذنية يروى له فى صوت خافت كل صغيرة وكبيرة حدثت فى المكتب ، حتى المواضيع التى تصرف فيها حلمى راح يأخذ رأى الباشا فيها ، وتململ حلمى فى مقعده وأحس ضيقا ، ولكنه صبر على مضض وإن كان يصرف أنيابه غيظا .

ونظر عثمان إلى حلمى فى ضيق نظرة خاطفة ، وسرعان ما أسبل جفنيه حتى لا تفضحه عيناه ، كان يريد أن يفضى إلى الباشا بكلام لا يستطيع أن يقوله أمام حلمى . وكان يرجو أن يستأذن حلمى وينصرف ، ولكنه استرخى فى مقعده ووضع ساقا على ساق ، إنه سيمكث طويلا .

وانسحب عثمان مضطرا ، لم يكن أمامه إلا أن يصبر حتى يذهب حلمى ، وإن كان الصبر على الإفضاء بفضائح الناس يضايقه وينقض ظهره ، إنه لم يجد من يفضى إليه بفضيحة الباشا والست أنهار وجمعية الفتيات الصالحات دون أن يخشى أن يصل ما يقول إلى مسامع الباشا ، فراح يروى الفضيحة فى لباقة على

بعض صغار العمال الذين لن يصلوا أبدا إلى الباشا وهو يظهر لهم أنه يؤثرهم بحبه وأنه يأتمنهم على الأسرار لمكانتهم عنده ، فالنوم لا يعرف إلى عينيه سبيلا ، إذا ما كانت فى صدره فضيحة مكتومة .

وأغلق عثمان الباب خلفه ، والتفت الباشا إلى حلمى وقال له :

ـــ ما الأخبار ؟

قال حلمى فى اهتمام :

ـــ ألغى الملك انتخابات نادى الضباط .

قال الباشا دون اكتراث :

ـــ تصرف طائش من تصرفاته الطائشة .

ـــ عدم إطاعة أوامر الملك وانتخاب رئيس للنادى غير الرئيس الذى أشار به دليل على وجود حركة تذمر فى الجيش .

قال الباشا وهو يلوى شفته السفلى زراية :

ـــ الجيش يا بنى هو حصن الملك الحصين ، وهو يغدق عليه بغير حساب ، إنه سنده فى طغيانه ، ويعتمد عليه فى تركيز كل السُّلطة فى يده ، فمن له غير الجيش ، الأحزاب كلها تكرهه ، الشعب انفض من حوله ، ساء الناس استهتاره وطيشه .

ـــ ألم تقرأ منشورات الضباط الأحرار ؟ إنها لا تتسم بالولاء للملك أبدا ، إنها تتحدث عن حزب فلسطين وعن الأسلحة الفاسدة التى كان يتجر فيها بطانة الملك :

ـــ هذه فورة حماسة ما أسرع أن تخمد .

قال حلمى وهو يتلفت إلى أبيه بجسمه كله :

ـــ قابلت صديقا أمريكيا يعمل فى السفارة الأمريكية ، وقد حدثنى عن منشورات الضباط الأحرار وانتخابات نادى الضباط حديثا يختلف عن حديث المصريين جميعا ، إنه يرى فى ذلك حدثا خطيرا ، انقساما فى الجيش ، حركة

تذمر لها ما بعدها .

قال الباشا ساخرا :

ـــ إنه لا يفهم المصريين كما نفهمهم ، إننا نثور ونثور ثم نهدأ فجأة ، هذه المنشورات ستوزع ويستمر توزيعها حتى يدب اليأس فى قلوب موزعيها فتختفى ذات يوم ثم ينساها الناس ، فما أكثر المنشورات السرية التى وزعت ثم أسدل عليها ستار النسيان .

وصمت الباشا قليلا ثم قال :

ـــ هل يذكر أحد الآن الكتاب الذى أبلغه زعماء المعارضة إلى الديوان الملكى عشية وصول الملك إلى الإسكندرية من رحلته فى أوربا ؟

ـــ إننى أذكره ، وأحفظ فقرات منه ، لقد وصفه رفعة الرئيس بأنه إجرام سافر ، الحق إنها لشجاعة أن يوجه مثل هذا الكتاب للملك .

وشرد حلمى ببصره ، وراح يلقى ببعض فقرات منه فى تؤدة :

ـــ « يا صاحب الجلالة .. إن احتمال الشعب مهما يطل لا بد منه إلى حد ، وإننا لنخشى أن تقوم فى البلاد فتنة لا تصيبن الذين ظلموا وحدهم ، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس مالى وسياسى وخلقى ، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة ، بعد أن مهدت لها آفة الحكم أسوأ تمهيد » .

قال الباشا وهو يهز رأسه استخفافا :

ـــ إنك تذكره لأنك تشتغل بالسياسة ، أما الناس كلهم فقد نسوه .

قال حلمى فى هدوء وهو يبتسم فى ثقة :

ـــ إن كانوا قد نسوه فأثره لا يزال ساريا فيهم ، فالمنشورات والخطب الوطنية والمقالات الثورية كحقن التقوية ، ينسى المرء وخزها وإن استفاد بمفعولها دون وعى منه ، تقاوم الضعف وتعيد بناء الخلايا الميتة .

قال الباشا وهو يبتسم فى زهو :

ـــ فيك تفاؤل الشباب .

— ما من وزارة تستمر فى الحكم أكثر من شهر ثم تقال أو ترغم على تقديم الاستقالة . فحتى متى يستمر هذا الحال ؟!

قال الباشا وهو يضحك :

— حتى يصبح الملك رئيس الوزراء .

قال حلمى فى تأكيد :

— إنه الآن رئيس الوزراء .

قال الباشا وهو يبتسم :

— لو كان رئيس الوزراء ما عمل على إخراج نجيب باشا الهلالى الذى يأتمر بأمره ليستقيل ..

— يقال أنه سيقبض ثمن إقالة نجيب باشا ، إنه لا يهمه أن يكون زيدا أو عمرا الذى يرتدى ثوب رئيس الوزارة ما دام هو الرئيس الفعلى ، وما أكثر الذين يفرحون لارتداء ثوب رياسة الوزارة ..

قال الباشا فى دهش :

— هل بلغك إشاعة المؤامرة التى دبرت فى باريس ؟

— ما أسرع انتشار الإشاعات ، بلغنى أن عبود باشا وكريم ثابت باشا وأنطون بولى اجتمعوا فى باريس ، وقد دفع عبود باشا لعملاء الملك مليونا من الجنيهات الاسترلينية للتخلص من وزارة نجيب باشا ..

قال الباشا فى اهتمام :

— مليونا من الجنيهات الاسترلينية أم مليونا من الفرنكات السويسرية ؟ سمعت أن الذى عرض مليون من الفرنكات السويسرية .

قال حلمى وهو يهز كتفيه دلالة على عدم الاكتراث :

— الإشاعات تقول إن الذى عرض مليون ، ولست واثقا أكان مليونا من الجنيهات الاسترلينية أم من الفرنكات السويسرية .. الهدف من الإشاعة أنه استعداد لقبض ثمن أى شيء حتى إقالة الوزارة ..

قال الباشا مازحا :

ـــ إننى لا أستطيع أن أنكر حقيقة استعداده لقبض ثمن ما يعطى فقد أعطيته بيدى ..

ودخل عثمان وقال :

ـــ هل سنسافر إلى العزبة قبل السفر إلى الحجاز ؟

أخبره الباشا أكثر من مرة أنه سيزور العزبة قبل سفره ، وقد حدد موعد تلك الزيارة ، ولكنه دخل ليقطع حبل الحديث الدائر بين الباشا وحلمى لعل حلمى يستأذن فى الانصراف ويجد الفرصة للإفضاء إلى الباشا بالفضيحة التى يضايقه كتمانها فى صدره ولو لساعة أو بعض ساعة ، قال الباشا :

ـــ سنسافر إلى العزبة يوم الجمعة ونعود منها يوم السبت إن شاء الله ..

وقام حلمى واستأذن فى الانصراف ، فانشرح صدر عثمان ، وتهللت أساريره ، وراح يفكر فيما سيقوله للباشا ..

خرج حلمى ومال عثمان على أذن الباشا وقال وهو يتصنع الثورة :

ـــ ما كنت أظن يا باشا أن سيأتى يوم يتمرغ فيه شرفنا فى الوحل ..

فالتفت إليه الباشا فى فزع وقال فى حدة :

ـــ ماذا تقول ؟

قال عثمان وهو يهز رأسه أسى :

ـــ أصبحنا مضغة فى أفواه الناس ..

فهب الباشا منتصبا وقال نافد الصبر :

ـــ انطق .. ماذا جرى ؟

قال عثمان وهو مطأطئ الرأس :

ـــ الناس كلهم يتحدثون عن العلاقة الشائنة بين بثينة زوجة ابن عمى وصديق زوجها ..

فدنا الباشا منه وقال فى ثورة :

— من قال لك ذلك ؟

— علاقة بثينة برفعت حديث المجتمعات كلها ..

— وأين زوجها الأعمى ؟

— إنه لا يشك فى شىء .. يعتقد أن رفعت أوفى صديق ، إنه الصديق الوحيد الذى لم ينفض من حوله كما فعل الآخرون ..

وراح الباشا يذهب ويجىء فى الغرفة وهو يئن كوحش جريح :

— الكلبة ، إننى لن أسكت أبدا على هذا الهوان ، لن أسكت على تلويث شرفى ، سأدق عنقها ، سأقتلها إن لن تكف عن هذا العبث .. سأذهب إليها وأضع حدا لهذه المهزلة ..

وصمت قليلا وهو يشهق ويزفر فى صوت مسموع ، ثم قال :

— لا .. لا .. ما كان لشريف مثلى أن يذهب إلى عاهرة ، إنها لا تستحق أن ألوث قدمى بدخول بيتها النجس .. الكلبة ! إننى سأدعو زوجها الغافل ليأتى إلى هنا ، وسأترك له أمر تأديب من خانته ، إنه خامل ، ولكن ما أظن أن يقبل أن يكون مغفلا وأن تخدعه امرأة ..

ورأى عثمان أن ينفخ فى النار التى أشعلها فقال :

— لن يصدق عبد الخالق كلمة فى حق زوجته ..

قال الباشا فى غضب :

— لو كان الذى يجرى فى عروقه ماء لثارت نخوته ، أيقف مكتوف اليدين وهو يسمع أن زوجته تخونه وأن الناس كلها تهمس بحديث هذه الخيانة ؟!

قال عثمان ليحقر من ابن عمه ويثير الباشا :

— عبد الخالق لن يفعل شيئا ..

قال الباشا وهو يزأر :

— إن لم يفعل شيئا فسأقتلها ، ثمنها طلقة !

وصمت قليلا ثم قال فى حدة :

— ابعث إلى عبد الخالق أن يأتينى غدا ..

وراح يقطع الغرفة جيئة وذهوبا وهو يزمجر :

— الكلبة ! الفاجرة ! لوثت شرفى ، لا بد أن أغسل هذا العار بدمها ..

٥٣

قام الباشا فى الفجر ، وبعد أن صلى وقرأ القرآن راح يتأهب للسفر إلى العزبة قبل أن تشرق الشمس ، وفيما هو عاكف على تنسيق حقيبته رن جرس التليفون ، فذهب إليه وهو يعجب لذلك الذى يطلبه فى عماية الصبح ، ورفع السماعة وقال فى نبرات تنم عن الضيق .

— آلو !

وسمع صوت حلمى يقول :

— صباح الخير يا بابا .. هل قرأت الصحف ؟

قال الباشا فى اهتمام :

— لم تصل الصحف إلىّ بعد .. ماذا فيها من أنباء ؟

— استقال حسين سرى باشا ، استقال بعد أن مكث فى الحكم ثلاثة أسابيع فقط ..

— ولماذا استقال ؟

— لم تذكر أسباب الاستقالة الحقيقية ، ولكن يقال إن المعركة الخفية بين الضباط الأحرار والقصر قد اشتدت ، ويقال إن الملك عير سرى باشا وقال له إن استقالته فرار من الميدان وجبن لا يليق برئيس وزارة ، ولكن سرى باشا أصر على الاستقالة .

— والوزارة الجديدة ؟

— عهد الملك إلى الهلالى باشا بتأليفها ؟

— وهل تم تأليفها ؟

— يقال إنه مشغول بتأليفها ..

قال الباشا فى حدة :

— لا وفقه الله .. إننى مسافر الآن إلى العزبة ..

— من رأيى أن تسافر إلى الإسكندرية لتكون بالقرب من أقطاب الحزب ، فالجو مشحون بالاحتمالات ..

— لا أظن أن شيئا هاما سيحدث ..

— بل أعتقد أن شيئا ما سيقع ، فلا أظن أن المظاهرات التى هتفت بسقوط فيفى وحافظ عفيفى ، والشتائم القاذعة المكتوبة على الحوائط فى كل الأحياء التى تنعت الملك وأمه بأقبح الصفات ، وهذه التطورات السريعة التى نعيشها الآن ليس لها دلالتها ، أحس أن شيئا هاما لا أدرى ما هو ستتمخض عنه الأيام القادمة ، من رأيى أن تذهب إلى الإسكندرية ..

وانطلقت السيارة فى الطريق الزراعى قاصدة الإسكندرية ، كان حلمى قابضا على عجلة القيادة يصغى إلى حديث الباشا ، وكان جالسا إلى جواره يتحدث عن وزارة حسين سرى التى استقالت وعن وزارة الهلالى التى ألفت بالأمس ، ثم قال :

— عجيب أن ما من وزارة مكثت فى الحكم فى الأيام الأخيرة أكثر من شهر ..

قال حلمى وهو يرقب الطريق :

— الجو مشحون بالاحتمالات ، سيحدث شىء ما ، شىء لا أدريه ..

قال الباشا وهو ينظر فى ساعته :

— لن يكون هناك استقرار إلا إذا عاد الباشا للحكم ..

— عودة رفعة الباشا الآن إلى الحكم غير محتملة ..

— إذا انتهت هذه الأزمات بعودة رفعة ماهر باشا فلن ينقضى شهر حتى

نكون فى الحكم .. افتح الراديو نسمع نشرة الأخبار .

ومد حلمى يده وأدار الراديو ، وانبعثت الموسيقى التى تسبق الأخبار ، وأطرق الباشا وقد أرهف سمعه ، وبدأ المذيع يقرأ النشرة ، كان ما يقرؤه مثيرا حتى إن حلمى خفف من سرعة السيارة حتى يعى كل كلمة مما يذاع ..

راح المذيع يعلن أن الجيش وضع يده على أداة الحكم ، وأنه ما ثار إلا للفساد الذى استشرى فى الجيش ، وأن المقصود من الحركة هو تطهير صفوف الجيش ، وانتهت قراءة النشرة وكانت تطمئن الأجانب على أرواحهم وأموالهم ، وظل الباشا صامتا برهة إلى أن قال حلمى :

— هذه بداية ثورة ..

وأفاق الباشا من شروده وقال :

— بل هذه حركة لا يقصد بها إلا تطهير الجيش ..

— انتقلت بهذه الثورة السُّلطة من يد الملك إلى يد الجيش ، أصبحت يد الجيش هى العليا ..

فقال الباشا وهو يمرر يده على جبهته :

— يخيل إلىّ أن للجيش بعض مطالب سيستجيب لها الملك ثم يعود الحال إلى ما كان ..

قال حلمى وهو يزيد فى سرعة سيارته :

— بل أعتقد أن الأمر أخطر من هذا ، لا بد أن يستدعى رفعة الباشا من الخارج ليكون قريبا من مسرح الحوادث ..

— أتظن أن الجيش يطالب بعودة رفعة الباشا إلى الحكم ؟

— كل شىء محتمل الآن ، ولا بد أن نكون على أهبة ..

وأثلجت فكرة احتمال عودة الوفد إلى الحكم صدر الباشا ، إن أمله فى أن يصبح ابنه وزيرا قد تجدد ، لم يعد هناك مكان للجفوة التى بدأت بينه وبين محفوظ باشا ، فقال لحلمى :

— اذهب بى إلى محفوظ باشا ، لنقرر ما ينبغى علينا فعله ..

وشرد حلمى يفكر ، كانت تتنازعه عواطف متباينة ، لا يدرى أيسر لقرب عودة الوفد إلى الحكم أم ييتئس ؟ إن معنى عودة الوفد إلى السُّلطة أن يدنو تحقيق الأمل الذى زرعه أبوه فى صدره وجعل يتعهده على مر السنين ويعمل له .. قد يصبح وزيرا ، وهذا ليس خيرا كله .. سيدفع الثمن باهظا ، سيضطر إلى البقاء مع سميرة وهو كاره ، وقد يضطر إلى ملاينتها وإظهار بعض العطف نحوها ، وهذا ثقيل على نفسه ، فما أقسى أن يمالئ فى عواطفه ، إنه يكرهها ، وأعز أمانيه أن يأتى اليوم الذى ينفصل فيه عنها ، وقد حسب أن ذلك اليوم قد دنا ، وإذا بحركة الجيش تحيى موات الأمل فى نفس أبيه ..

إنه لو خير بين الوزارة وبين ترك سميرة الساعة لما تردد لحظة ، إنه يفضل أن يتحرر من سجنه ، أن يعتق من رقه ، أن تفصم العرى التى تشده إلى زوجه ، ولولا الأمل الذى يداعب أباه ، ولولا أن الباشا جعل غاية أمانيه أن يراه وزيرا ، ما بقيت سميرة موصولة به ليلة واحدة ..

وقفت السيارة أمام فيلا على الكورنيش ، كانت تبعد بضعة أمتار عن فيلا أنهار ، وهبط الباشا من السيارة ومد بصره إلى فيلا أنهار دون إرادة ، وإذا به يعوذ بالله من الشيطان الرجيم فى سره ، ويلتفت إلى ابنه ويقول :

— ألا تأتى معى ؟

قال حلمى ويده على عجلة القيادة :

— سأذهب الآن إلى كابينة بدر الدين لأرى محمدا وأبلغه تحيات أبيه ، وسأعود للغداء ، أنا واثق أن سميرة لم تستيقظ بعد .

— ومتى سأراك ؟

— سآتى إلى البيت بعد الغروب ، بعد أن تكون قد استيقظت من نومك ..

قال الباشا وهو يبتسم :

— لا أحسب أنه ستغمض لنا عين هذه الأيام ..

وسار الباشا إلى الباب الداخلى لفيلا محفوظ باشا، وذكريات زين العابدين تلح على ذهنه ، وراح يدندن دون تفكير : «يا زين.. يا زين.. يا زين العابدين» وانتبه فجأة إلى ما هو فيه فأخذ يطرد الذكريات التى طافت به ، وطفق يتمتم ببعض السور القصار .

وانطلق حلمى بسيارته على الكورنيش ، وأسرع إلى كابينة بدر الدين ، فألفى إلهام جالسة أمام باب الكابينة فى كرسى طويل وقد ارتدت ثوبا بسيطا وغطت عينيها بنظارة سوداء ، وجعلت ترقب ولديها ومحمدا وهم يجرون ويخوضون فى الماء ، وما إن يبتعدوا قليلا حتى يعودوا إلى الرمال وهم يركبون الأمواج المجهدة التى تزحف إلى الشاطئ لتلفظ أنفاسها .

ووقف برهة يرقب الأولاد وهم يصيحون فى مرح ، فتحركت مشاعر رقيقة فى جوفه ، وخفق قلبه حنانا ، واستشعر رغبة فى أن يعدو إلى الأولاد يضمهم إلى صدره ويمطرهم بقبلاته ، وكبح جماح نفسه وتقدم خطوة من إلهام وقال :

— صباح الخير .

ورفعت إلهام رأسها ونظرت ، فلما رأته قامت تصافحه فى ترحيب :

— أهلا .. أهلا ..

وجذبت كرسيا من الكابينة ووضعته إلى جوارها وقالت :

— تفضل .

وقال وهو يجلس :

— كيف حال بدر الدين ؟

قالت وهى تبتسم راضية :

— بخير ، ما إن سمع إذاعة الصباح حتى هام على وجهه يتنسم الأخبار ، هل بلغك آخر الأنباء ؟

— لم أسمع إلا نشرة الأخبار ..

— يقال إن الجيش طلب من الملك أن يعزل رجال حاشيته ، وأنه استجاب لذلك الطلب .

— إنهم سيتساقطون من حوله كما يتساقط ورق الخريف ، ولكن كيف انتشرت هذه الأخبار هكذا سريعا ؟!

قالت إلهام وهى تصلح من ثوبها وتغطى ركبتها التى تعرت :

— أخبار تنتشر أسرع من الريح ، إننى دون أن أنتقل من مكانى تصل إلىّ كل أنباء القاهرة .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أتظن أن مطالب الجيش ستقف عند هذا الحد ؟

— لا أظن ، كلما استجاب الملك لطلب من مطالبهم سيتقدمون بطلب آخر .

— وأين ستقف المطالب ؟

— لا أدرى .

وجاءت فتاة تهرول حتى وصلت إلى حيث تجلس إلهام وقالت وهى تلهث :

— قدمت الوزارة استقالتها ، وطلب الجيش من الملك أن يكلف على باشا ماهر بتأليف الوزارة .

قال إلهام للفتاة :

— هل أذاع الراديو هذا النبأ ؟

قالت الفتاة فى ثقة :

— لم يذعه بعد ، ولكنه سيذاع فى نشرة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر .

وعادت الفتاة تهرول من حيث جاءت ، وقال حلمى :

— لو أذعن الملك لهذا الطلب فستصبح السلطة العسكرية والسلطة المدنية

فى يد الجيش .

وقالت إلهام فى حذر :

ـــ ألا يخشى أن تتحرك القوات البريطانية المعسكرة فى القناة إذا تطورت الأمور ؟

ـــ يخيل إلىّ أن الأحداث ستتلاحق وأن الإنجليز لن يجدوا أمامهم فسحة من الوقت ليفكروا فيما يفعلون ، فهم أهل مكر ، والمكر يحتاج إلى روية وصبر وتدبير ، ولكنهم يقفون مذهولين إذا ما فاجأتهم الأحداث ، ثم يعنون الفكر فى الاستفادة مما تتمخض عنه الأيام وتحويله إلى ما فيه مصلحتهم .

ونظر محمد وهو يلعب إلى ناحية إلهام فوقعت عيناه على عمه ، فراح يعدو نحوه ، ورآه حلمى ، فجعل يرقبه منشرح الصدر وقام يستقبله باسطا ذراعيه ، ولما دنا محمد منه توقف ولم يرتم فى أحضانه ، خشى أن يلوث له ثيابه ، فلف حلمى ذراعيه حوله وقبله قبلة أودعها الحنان الزاخر به قلبه .

وقال محمد فى لهفة :

ـــ كيف حال أبى ؟

ـــ بخير ، وقد كلفنى أن أعطيك منه هذه .

وضمه ثانية إليه وقبله فى حب . وأخذت إلهام تنظر إلى محمد وعمه وقد أحست المشاعر الرقيقة المتفجرة فى جوف حلمى ، ولمحت مسحة خفيفة من الحزن تكسو وجهه ، فاستشعرت دموعها تتحرك .

وقال محمد وهو ينظر إلى عمه نظرة فاحصة :

ـــ ما دام أبى بخير فلماذا لم تأت أمى لتمضية بقية الصيف معنا هنا كما وعدتنى ؟

قال حلمى وهو يعاود ضم ابن أخيه إليه :

ـــ لأن قلبها لا يطاوعها على أن تترك أباك وحده فى القاهرة .

وأطرقت إلهام ، كانت ذكية الفؤاد ، فطنت من نبرات صوته إنه يكذب

ليرضى ابن أخيه ، وأنه يكتم ما يمور فى جوفه من الألم ، فتضاءلت وجعلت تتلفت فى اضطراب ، فقد شمت رائحة الشائعات الدائرة حول أختها وعلاقتها برفعت ، ورأت بعقلها خيوط الخيانة ، وهمت أكثر من مرة أن تفاتح أختها فى الأمر الذى أقلقها ، ولكنها خشيت أن تنفخ فى النار السارية تحت الرماد فتعاون على اندلاع لهيبها ، فآثرت الصمت على مضض .

وراح محمد يدعو عمه إلى مشاركتهم فى مرحهم ، وجعل حلمى يبتسم ، كان يؤثر أن يبقى مع إلهام يحادثها ، فهو يشعر بارتياح لحديثها الذكى . واستمر محمد فى إلحاحه ، فخلع حلمى جاكتته ، وذهب مع ابن أخيه ، وطفق يعابث ابن إلهام وابنتها ويدغدغ قدمى محمد بإصبعه وقد قبض عليهما بيده ، ومحمد يضحك حتى تغرورق عيناه بالدموع ، وإلهام تنظر وتبتسم وإن تحركت الشفقة فى نفسها على الشاب الثرى الذى يهفو إلى الذرية وقد حرم الولد .

ومر الوقت وانصرف الناس ، والأحداث تتابع ، ومالت الشمس نحو الغروب ، والأخبار يحملها الأثير ، وتحملها النسائم ، وذهب حلمى إلى دار الباشا وما إن رآه أبوه حتى قال له فى لهفة :

— تعال . لماذا تأخرت ؟

ولم ينتظر الباشا رد حلمى وراح يتحدث فى حماسة ، قال :

— كلف رفعة على باشا ماهر بتأليف الوزارة . وقد أرسلنا إلى رفعة الباشا برقية نطلب منه فيها أن يعود .

— وماذا قررتم فى اجتماع الصباح ؟

— أن نؤيد حركة الجيش ، وعندما تستتب الأمور نقدم للقائمين على الحركة الشكر ونطلب عودة الجيش إلى ثكناته وتسليم الحكم للسياسيين .

وصمت الباشا قليلا ثم قال :

— ما دام على باشا صار رئيسا للوزارة فقد أصبحت عودة الوفد إلى الحكم

قريبة .

قال حلمى فى حذر :

ـــ الموقف مشحون بالاحتمالات .

ـــ سيستجيب فاروق لكل طلبات الجيش .

ـــ وإذا طلبوا منه أن يتنازل عن العرش ؟

نظر الباشا إلى ابنه فى دهش ، كأنما لم يدر ذلك بخلده من قبل ، وقال حلمى :

ـــ من المنتظر أن تتطور الأمور .

ـــ وهل تبلغ هذا الحد ؟

ـــ لولا هذا الهدف ما قامت حركة الجيش .

ومر يوم ومر آخر ولا حديث للناس إلا أنباء حركة الجيش واستيقظت الإسكندرية فى صباح يوم ٢٦ يوليو على أزير الطائرات التى ملأت الجو ، وتواترت الأنباء عن زحف الجيش إلى الإسكندرية لحصار قصر الملك .

وراح الراديو يذيع الرسالة التى وجهت إلى الملك :

« إنه نظرا لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته ..

ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير .

ولقد تجلت آية ذلك فى حرب فلسطين ، وما تبعها من فضائح الأسلحة وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر مما أفسد الحقائق وزعزع الثقة فى العدالة وساعد الخونة على ترسم هذه الخطى فأثرى من أثرى . وفجر من فجر . وكيف لا والناس على دين ملوكهم .

« لذلك فقد فوضنى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب من جلالتكم التنازل عن العرش لسمو ولى عهدكم الأمير أحمد فؤاد على أن يتم ذلك فى موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢) . ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ، والجيش يحمل جلالتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج » .

وبدأ يذيع الأمر الملكى بالتنازل عن العرش :

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان ..

لما كنا نتطلب الخير دائما لأمتنا ، ونبتغى سعادتها ورقيها ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنيب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ، ونزولا على إرادة الشعب :

قررنا النزول عن العرش لولى عهدنا الأمير أحمد فؤاد ، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه » .

وقام الباشا وعانق حلمى وقال له وهو يربت على كتفه فى حنان :

ـــ مبارك ، لقد اتفقنا على أن تكون وزيرا فى أول وزارة يؤلفها الوفد .

وابتسم حلمى ولم ينبس بكلمة ، لم يشأ أن يعكر سعادة الباشا الغامرة التى تدغدغ كل خلجة من خلجات نفسه ، بعد أن لاح له أن أمله الذى عاش فيه سنين طويلة سيتحقق فى يوم قريب ، وإن كان حلمى يحس فى أعماقه أن هذا الأمل قد وئد إلى الأبد .

٥٤

مضت أيام وليالى وأسابيع وهو طريح الفراش ، وقد عاده أخوه أكثر من مرة ، ولم يفكر الباشا فى أن يبعث إليه بتحية أو أمنية طيبة بالشفاء ، فما باله يرسل إليه يطلب منه أن يوافيه اليوم فى مكتبه ؟!

إنه ضاق بمرضه ، بتلك العداوة الناشبة بينه وبين الباشا التى لا يجد لها سببا ، وهو يرجو من أعماقه أن يكون أبوه قد ثاب إلى رشده وفطن إلى أن الجفوة التى بينه وبينه لا مبرر لها ، وأن الضراوة التى كان يعامله بها ظالمة ما كان يؤججها فى جوفه إلا عواطف قاسية يحركها وهم مريض أو مشاء بنميمة .

إنه يتمنى بكل جوارحه أن يسود الصفاء بينه وبين أبيه ، فحقده عليه الذى كان يجرى فى دمائه كالصديد قد تبخر ، والبغض المقيت الذى كان يسكن فؤاده قد تلاشى ، طهره مرضه من خبائث نفسه ، وهو يأمل أن يبرأ الباشا من إحساساته الغليظة التى تقسى قلبه على ابنه الذى لا ذنب له إلا أن أمه ماتت وتركته بلا سند ولا معين .

علمه مرضه أن العمر أقصر من أن ينفق فى مشاحنات وإحن وبغضاء وأحقاد ، إنه لو قدر له أن يعيش فلن يسمح لقلبه أن يخفق خفقة كره واحدة ، سيصفح عن الإساءة ، ويلتمس للناس المعاذير .

وقام ذابل العود ، شاحب الوجه ، غائر العينين ، رقيق النفس كأنه طيف ، ووقف أمام المرآة يرتدى ثيابه ، وكان بين لحظة وأخرى يديم النظر إلى الصفرة المنتشرة فى صفحة وجهه فيغيم وجدانه بسحائب من الأسى والحسرة ، وربط كرافاتته فأحس كأن حبلا لف حول عنقه وراح يضيق أنفاسه .

وجاءت بثينة ولمحها فى المرآة فراح يجاهد ليبدو قويا ، واغتصب ابتسامة رفت على شفتيه الذابلتين ، وجعل يرقبها بعينيه اللتين كاد بريقهما أن ينطفئ .

ودنت منه وقالت فى توسل :

ـــ لا تذهب ، أرجوك .

فقال فى هدوء :

ـــ تغير الهواء يفيدنى ، وأعدك أننى لن أتأخر .

وأسندت رأسها على ظهره وضمته بذراعيها وقالت :

ـــ إننى لا أطمئن لأية مقابلة بينك وبين هذا الرجل . لماذا يدعوك للذهاب إليه وأنت مريض ؟ لماذا لا يأتى هو لزيارتك ويقول لك ما يريد أن يقول ؟! إننى أوجس خيفة من هذه المقابلة ، أرجوك أن تستمع إلى نصحى مرة واحدة ولا تذهب .

فقال وهو يربت على كفها الموضوعة على قلبه فى حنان :

ـــ أعدك أننى سألتزم الهدوء .

حتى إذا أصبح وجهه إلى وجهها ضمها إلى صدره فى رفق ، وقبلها قبلة هادئة ثم قال :

ـــ هل سيسافر محمد ثانية إلى الإسكندرية مع خالته ؟

ـــ إنها تصر على أن يقضى باقى الصيف معها . .

ومدت يدها تعاونه على ارتداء جاكتته ، وسرح بخياله يفكر فى ابنه ، فخفق قلبه المريض حنانا ، وانبثقت دموع الشفقة فى ضميره ، وانتشرت فى حناياه قبل أن تصل إلى مقلتيه ، وراح يفكر فى أمر ابنه الحبيب ، فإذا كان هو قد أخطأ وأثار حفيظة الباشا عليه ، فابنه لم يقترف ذنبا ، وليس من شريعة الإنصاف أن يؤاخذ البرىء بالمسىء .

وسار الهوينى وبثينة إلى جواره ترجوه أن يبقى ، وتحاول أن تثنيه عن عزمه دون جدوى ، وراح يهبط فى الدرج متمهلا ، ووهمه يمده بالآمال العريضة المشرقة .. فيتخيل أن العداوة التى بينه وبين الباشا قد طويت ، وأن المحبة رفرفت على الجميع ، وأن الود الصافى ساد الأسرة التى كادت تودى بها

الأحقاد ، فانبثقت فى جوفه رقة حبيبة ، وما كان كيانه الواهى يحتمل إلا رقيق الأحاسيس ..

وركب السيارة التى كانت تنتظره ، إنها سيارة أبيه ، وهو يركبها لأول مرة منذ سنين ، وحركت تحية إرسال السيارة إليه وجده فانبثقت فى جوفه أطيب ما فى كنوز نفسه من مشاعر ، وفى لحظة نسى كل إساءات أبيه ، وتدفقت عواطف الحب التى يستشعرها الابن المحب لأبيه الرحيم ..

ووقفت السيارة ، وأسرع السائق يفتح الباب ، وهبط عبد الخالق منها فى بطء شديد ، وراح يتقدم الهوينى ، ويلتقط أنفاسه فى جهد ، ودخل على عثمان وقال فى صوت خافت :

— صباح الخير يا عثمان بك ..

وأسرع عثمان إليه يعانقه وهو يصيح فى ابتهاج :

— أهلا .. أهلا ..

كان مبتهجا لرؤيته حقا ، فقد كان يخشى أن يتخلف عن الحضور فتتأجل المعركة التى يشتهيها إلى حين .. وراح يربت على ظهره ويدفعه فى رفق إلى غرفة الباشا ، حتى إذا ما بلغا الباب مد يده وفتحه وقال وهو ينحنى انحناءة خفيفة :

— تفضل ..

ودخل عبد الخالق يدب فى ضعف ، وأغلق عثمان الباب خلفه ، ووقف وقد أرهف سمعه ولاح فى وجهه الاهتمام الشديد ..

وقال عبد الخالق فى صوت ضعيف :

— السلام عليكم ..

ونظر إليه الباشا فألفاه محطما ، وكاد قلبه يرق له ، وهم بأن ينهض إليه يسأله عما به ، ولكن كبرياءه أبت أن تحنى رأسها للابن الذى كاد ينطفىء ، فظل يرمقه فى عبوس وهو يتقدم نحوه ..

ومد عبد الخالق يده إلى أبيه ليصافحه ، فوضع الباشا يده فى يده وهو يتأفف

وما أسرع أن سحبها ، ولم يغضب عبد الخالق فقد آلى على نفسه أن يلتمس لأبيه كل عذر ، وأن يخفض له جناح الذل حتى يرضى وتصفو نفسه ..

وجلس عبد الخالق فى المقعد القريب من المكتب ، وظل صامتا وإن راح صدره يرتفع وينخفض ويزفر ويشهق فى صوت مسموع ، وطفق الباشا يرمقه برهة وقد تحرك حنانه ، وخشى أن يضعف فهب واقفا وقال فى حدة :

— أتعرف لماذا أرسلت إليك ؟

وفطن من حدة الباشا أنه ما أرسل إليه إلا ليعنفه على شىء لا يدرى ما هو بعد ، فعزم على أن يظل هادئا مهما فعل الباشا ، فقال :

— لا ..

قال الباشا فى قسوة :

— لأن امرأتك قد عبثت بشرفنا ، لوثت سمعتنا ..

وثارت ثائرة عبد الخالق على الرغم منه ، واحتقن وجهه بالدم ، وتطاير الشرر من عينيه ، والتفت إلى أبيه فى حنق وقال :

— اسكت ..

واستمر الباشا فى قسوة وراح يقول :

— الناس كلهم يتحدثون عن العلاقة الشائنة التى بينها وبين رفعت ..

وأحس عبد الخالق كأن سياطا من نار تلهب روحه ، فقام منفعلا وقال فى غضب :

— اسكت يا ظالم .. يا ظالم ..

ودنا وجه أبيه من وجهه وقال :

— لن تخرج من هنا حتى تطلقها ..

قال عبد الخالق فى ثورة :

— أنت ظالم .. أنت ظالم .. اتهمتنى بأننى أريد قتلك ، واليوم تطعننى فى عرضى .. تريد موتى .. لماذا هذه القسوة ؟ أنت قاس .. ظالم .. جبار ..

وراح الباشا يصيح به :

— زوجتك تخونك وأنت غافل ، طلقها ، لن تخرج من هنا قبل أن تطلقها ، لن تكون ابنى أبدا إذا بقيت معك هذه الفاجرة ، لن أقبل أبدا أن تكون زوجة ابنى عاهرا .. طلقها ، وإن لم تفعل فسأقتلها وأغسل بدمها عارها ..

وأحس عبد الخالق يدا قوية تضغط على عنقه وتكتم أنفاسه ، وجحظت عيناه ، وقال فى جهد وهو مبهور النفس :

— أنت تقتلنى .. تقتلنى ..

قال الباشا وقد اشتدت ضراوته :

— أن تموت أنت والفاجرة خير من أن أسير منكس الرأس بين الناس والهمسات ترتفع حولى ، والأصبع تشير إلى قائلة إن زوجة ابنى بغى ..

وتدفقت الدماء حارة فى شرايين عبد الخالق ، وأحس وخزا فى قلبه ، فوضع يده عليه كأنما يمنعه من أن يفر من مكانه ، ودارت به الغرفة فأه أهة خافتة ثم انهار ، ورأى الباشا ابنه ممدودا على الأرض أمامه فاقد الوعى ، فخف إليه مفزوعا ، وهو يهتف فى رعب :

— عبد الخالق ! عبد الخالق !

ورفع رأسه بين يديه وضمه إلى صدره وهو ينادى فى لهفة :

— عبد الخالق ! عبد الخالق !

وفتح الباب ودخل عثمان مهرولا ، وخشى الباشا أن يضبط وهو يضم ابنه فى حنان ، وأن يتهم بالضعف ، فراح يعيد رأس ابنه إلى الأرض فى رفق ويتعاون هو وعثمان على فك كرافاتته والتربيت على وجهه فى حنان ..

ومرت لحظات قلق وخوف وارتباك وصمت ، ثم فتح عبد الخالق عينين واهنتين ورأى وجه أبيه ، وفى مثل لمح البصر أدرك كل شىء ، فأشاح بوجهه استياء ، وفطن الباشا إلى الغضب المتطاير من عينى ابنه فنهض وألقى عليه نظرة

حائرة ، ثم جمع شتات نفسه وابتعد بعيدا وهو باسر الوجه مقطب الجبين ..

وعاون عثمان عبد الخالق على النهوض ، فلما انتصب على قدميه استنشق نفسا طويلا ثم دار على عقبيه وهو يزفر ، وسار لينصرف وهو محطم دون أن يلقى على أبيه نظرة ، وخف إليه عثمان يسنده بذراعه ، فدفع الذراع التى وضعت خلف ظهره ، وخرج يجر رجليه جرا ، وفى جوفه أتون نار ..

وجعل يترنح ، فبذور الشك التى غرسها أبوه فى جوفه كانت تطعن روحه طعنات قاتلة ، والضيق الذى يحسه يفوق ذلك الضيق الذى ينتابه فى ضعف قلبه ، وبلغ الطريق وهو يكاد ينوء إعياء ، ولمحه سائق سيارة الباشا فأسرع يفتح بابها لاستقباله ، ولكنه أعرض عنه وأشار لسيارة أجرة وارتمى فيها ..

وانبهرت أنفاسه وزاغت عيناه وبلغ قلبه حنجرته ، والأسى ينهش جوفه ، وأخذ يسأل نفسه فى مرارة : أحقا خانه رفعت وأصبحت بثينة كالنساء اللاتى قابلهن فى بيت مرسى وفى فيلا أنهار ؟! وهبت مشاعره تهوى بسوط عذاب فيئن ويتوجع ، وتعوى روحه عواء كلب جريح ..

وراح يسخر من نفسه ، لماذا كان يجاهد مرضه ويتشبث بالحياة ؟ إنها بغيضة مقيتة بشعة قد قلبها من صوان ، ليته مات واستراح من النار التى تسرى فى أحشائه ، ومن قبضة الهوان التى تكتم أنفاسه ، ومن لسعات الشك التى تحرق كيانه بنار أقسى من كل نار .

ووقفت السيارة أمام داره ، وغادرها وهو يوسع من خطاه ، لم يعد يحفل بقلبه المريض ، ولا بجسمه الذى شفه الهزال ، ولا بذلك الدوار الزاحف إلى رأسه ، لم يكن يخشى أن ينهار ، وانطلق لا يلوى على شىء ، وذهب إلى البار وملأ كأسه وألقى بما فيها فى جوفه ، ثم عاد وملأها مرة أخرى وعبها عبا ، كان يريد أن يكتم أنفاس وعيه الذى يعذبه عذابا لا يقدر على احتماله ..

وأحست بثينة دخوله ، وخفت إليه ، ولما رأته يشرب خمره فى شراهة ، اتسعت عيناها رعبا ، وهجمت عليه تنتزع الزجاجة من يده وهى تقول :

— هذا انتحار .. إنك تنتحر .. تقتل نفسك .. قلت لك لا تذهب .. هذا ما كنت أقدره ، أبوك لا يعرف الرحمة ، إنه ..

ودارت به الغرفة ومادت الأرض تحت قدميه ، وسقط مغشيا عليه ، وبثينة تصيح بالخادم أن تأتى إليها ، وحملتاه بينهما ونقلتاه فى جهد إلى فراشه ، وبلغت مسامع ابنه الجلبة المنتشرة فى المكان فأسرع إلى غرفة النوم مفزوعا ، ورأى أمه والخادم تسجيان أباه فى الفراش فخفق قلبه رعبا ، وجعل ينظر فى قلق يكاد من اضطرابه ألا يحس شيئا مما يجرى حوله ..

وبدأت الغشاوة التى رانت على ذهنه تتهتك ، فطن إلى أن أباه قد يموت الساعة ، فانبثقت الدموع من عينيه وارتمى على صدر أبيه وهو ينشج :

— بابا .. بابا ..

وأسرعت أمه إليه تطمئنه وفى قلبها أسى ، كان اهتمامها به أكثر من اهتمامها بزوجها الغائب عَن الوجود ..

وجاء الطبيب ، وأمر أن يخرجوا جميعا حتى بثينة وأن يتركوه مع المريض وحده ، وانسلوامطرقين ، وأغلق الطبيب خلفه باب الغرفة ، فجعلوا يذهبون ويجيئون أمام الباب المغلق وفى صدورهم قلق ..

وجاءت إلهام تستفسر عن صحة عبد الخالق ثم تعود مع ابن أختها إلى الإسكندرية ، ولما رأت الغرفة المغلقة والسهوم المرتسم على الوجوه ، خفق قلبها رهبة ، وذهبت إلى أختها وقالت فى صوت خافت مضطرب :

— ماذا جرى ؟

— استدعاه الباشا اليوم فذهب إليه ، ولما عاد من عنده ذهب إلى البار دون أن ينطق حرفا ، وأخذ يشرب ويشرب وهو يعلم أنه بذلك يقتل نفسه ..

وصمتت إلهام لم تنبس بكلمة ، وأطرقت فى أسى ، وراح الوقت يمر والعيون تتطلع إلى الباب المغلق ، وسمع وقع أقدام خلفهم ، فالتفتوا جميعا ، فإذا بحلمى يتقدم ، وبنظرة سريعة فطن إلى ما يجرى فتمهل ، وانطلقت بثينة

إليه وقالت فى ثورة :

ـــ هذا ما يأتينا من الباشا ، طلب عبد الخالق وهو يعلم أنه مريض ليقتله ..

فقال حلمى فى أسى :

ـــ بلغنى ما كان من الباشا فجئت أطيب خاطر عبد الخالق وأعتذر إليه ..

فقالت فى حدة :

ـــ يقتلون القتيل ويمشون فى جنازته ..

وفزع محمد لقول أمه ، وراح ينقل عينيه فى وجوه الواقفين لعله يستشف منها أحقا قتل أبوه ؟ وقال حلمى وهو منكس الرأس :

ـــ أعدك أننى سأصلح كل شىء ..

ونظرت إليه فى ريبة ، وقبل أن تنطق حرفا قال حلمى :

ـــ هذا وعد منى ..

وفتح باب الغرفة وخرج الطبيب متجهم الوجه ، وأسرع الجميع إليه ، وقالت بثينة :

ـــ ماذا وجدت يا دكتور ؟

قال الطبيب وهو يعبث بقلم فى يده :

ـــ الحالة خطيرة .. لا بد أن ينقل إلى المستشفى الآن ..

وساد الصمت القلق مدة ، ولم يمزقه إلا بكاء محمد ونشيجه فذهب إليه حلمى وضمه إلى صدره فى حنان وقال :

ـــ لماذا تبكى ؟ أبوك بخير ..

وراح يعبث فى شعره وهو يضمه ثم قال :

ـــ ستأتى معى حتى يبرأ أبوك ويعود إلى البيت ..

وذهبت إلهام إليهما وجذبت محمد من يده فى رفق وهى تقول :

ـــ بل سيأتى معى ليكون مع الأولاد ، إنهما ينتظرانه فى الإسكندرية ..

لم تكن تقصد جرح حلمى ، ولكنها حركت مواجعه دون أن تدرى ، فأطرق فى أسى وقد تدفقت فى حناياه مذلة وانكسار ..

تمدد عبد الخالق فى سريره فى المستشفى ، كان شاحب اللون ، ذهبت نضارته ، ولاح فى وجهه إرهاق شديد ، وفتح عينيه وراح يديرهما فى المكان فألفى على « الكونصول » سلة أنيقة بها ورود نادرة ، إنه لا يذكر من ذا الذى أرسلها ، ولا يكاد يرى من شدة الوهن البطاقة المثبتة بطرف السلة ..

وأرخى جفنيه على عينيه فى خمول ، وراحت مشاهد حياته تتتابع فى ذهنه وهو بين النائم واليقظان ، رأى طفولته التى يحن إليها كلما أحس حاجة للعطف والحنان ، فصورة أمه وهى تضمه إلى صدرها فى رفق تحتل صفحة خياله لحظات طوالا ، وما إن تخلى مكانها لصور أخرى حفرت فى نفسه ، حتى تعود وتطفو على سطح ذهنه الذى احتفظ بنشاطه على الرغم من الفتور الذى يغمر وجدانه وجسمه ..

ورأى رفاق شبابه الذين كانوا يلازمونه كظله لما كانت الد نيا مقبلة عليه ، الأستاذ بعوده يمضى أمسياته معه فى البيت وفى العزبة وفى الطريق ، والممثلة الكبيرة التى كانت تصر على أن تأخذ رأيه فى مسرحياتها قبل أن تعرضها على الجمهور ، وكادت صورة رفعت تبرز على شاشة خياله ، ولكنه نحاها بعيدا ، وهو يشيح بوجهه عنها ، إنه لا يريد أن يعكر صفو ذكرياته التى ينشرح لها صدره أو ينقبض منها انقباضا مشوبا بحنان له لذته ، أما الذكريات الغامضة بالأعاصير فهو يخشى أن يواجهها حتى لا تكسر عوده الضعيف ..

وطافت به ذكريات بيت مرسى ، ورأى بعين خياله رحمة زوجة صديقه التى كانت ترحب به أجمل ترحيب ، إنه يذكر تلك الليلة التى لعبت برأسه الخمر فيها ، ولم يكن فى الغرفة غيره وغيرها ، وراح يداعبها دعابات فاضحة وهى تضحك فى مرح ، وضمها إليه وأخذ يقبلها وهى تبادله قبلاته ، وطارت

الخمر فجأة من رأسه ، ودبت فى جسمه قشعريرة ، وسكن الخوف قلبه ، أفزعه أنه مقبل على زوجة صديقه التى تبيع نفسها لكل من يدفع الثمن ، إنه بطبعه لا يحتمل أن يخون رجلا يعرفه ، حتى إذا كانت مهنة ذلك الرجل أن يغلق الأبواب على الرجال والنساء ولا يحفل أن تكون بينهن زوجته ..

وراح يتساءل : كيف يخون الصديق صديقه ، وأطلت صورة رفعت لتحتل ذهنه وتثير عواطفه وتوقظ ذلك الشك القاتل الذى يهد روحه هدا ، وإذا به يفر منها ويفكر فى أنهار وفتيات أنهار ، وزحفت إلى رأسه صورة زين العابدين وهى تبتسم ابتسامة تكشف عن روحها المرحة الخفيفة ، وأصاخ سمعه ، خيل إليه أنها تغنى له إحدى أغنياتها الجنسية التى يشتهيها ، وأحس راحة ذهنية عجيبة ، وترك نفسه تهيم فى دنيا زين العابدين ، إن جسده هامد لا حركة فيه ، ولكن ذكريات فتيات بيت شارع سليمان باشا ، والفيلا التى تطل على الكورنيش تمده بشهوة فكريةَ تنساب فى روحه كالنسيم ..

ولم تطل لحظات صفوه ، قفزت إلى مسرح خياله صورة الباشا وهو أمامه فى البوكس وإلى جواره زين العابدين ، إنه وأباه كانا يشتركان فى فتاة واحدة ، ومن يدرى لعل الباشا شاركه كل فتيات حياته ، وراح يحرك رأسه على الوسادة البيضاء وفى وجهه ألم ، كأنما يحاول أن يمحو الصور البغيضة التى ينبض بها فكره ، ودوى فى أذنيه صوت الباشا يصيح فى ثورة : « طلقها .. طلقها .. لن تخرج من هنا قبل أن تطلقها .. زوجتك تخونك وأنت غافل .. طلقها .. الناس كلهم يتحدثون عن العلاقة الشائنة التى بينها وبين رفعت .. طلقها .. طلقها » وانبهرت أنفاسه وتقلصت عضلات وجهه ورفع يديه يصم بها أذنيه عن الصياح الذى يمزق روحه ويلهبها بنار قاسية غليظة ..

وأخذ يبحث فى نفسه عن ملجأ يحتمى فيه من العذاب الذى يقاسيه ، فراح يدور فى كهوف ذاته وهو فى حيرة ، وطفق يقلب ذكرياته كلها فى عجل ، لعله يجد من بينها ذكرى عطرة يتفيأ ظلالها بعد الضنى الذى قاساه فى جحيم

أبيه ، ولم يجد فى ماضيه حادثة إلا وقد ارتبطت برفعت ، إنه سرى فى حياته كالسم الزاحف فى عروقه وشرايينه ، أفسد كل ذكرى نبيلة ..

وتدسست إلى رأسه صورة شعبان ، وتذكر الحديث الذى دار بينه وبين بثينة عقب أن عاد من الإسكندرية ، قالت له : إن شعبان غازلها مرات ، وأنه انتهز فرصة غيابه وجاء يرادوها عن نفسها ، وأنها طردته وقررت ألا تطأ قدمه بيتها ، فلو كانت زوجة بغيا فلماذا طردت شعبان ؟ ولماذا لم تهبه نفسها وفى يده ما يغريها به ؟ وراح يتلمس براءتها ، وإذا بهامس يهمس فى أغواره : إنها لم تشتهه لأنه ثقيل الظل ، بينا كانت نفسها تتفتح لحديث رفعت ونكاته التى كانت تعتمد على الجنس ..

وخفق قلبه الضعيف فى شدة ، وزحفت أحاسيس ثائرة إلى صدره زادت الضيق الآخذ بتلابيبه ، واحتقن وجهه الذابل بالدم ، وراح يقلب رأسه على الوسادة ذات اليمين وذات الشمال فى حركة عصبية ، كأنما يحاول أن يفر من الرؤى الأليمة التى تلح عليه ..

ومس أذنيه وقع أقدام فأحس راحة ، سيهرب من نفسه التى لا ترحمه كلما انفردت به ، والتفت صوب الباب فوقعت عيناه على إلهام وولديها وابنه ، وخفت روحه إلى ابنه تستقبله ، ووسع محمد من خطاه وارتمى على صدر أبيه المنهوك وراح يقبله ..

وضم عبد الخالق ابنه إليه فى حنان ، وراح البشر يرقص على وجهه لأول مرة مذ دخل المستشفى ، وانتشر بصيص من الأمل فى جوفه كالشعاع فاستشعر راحة ، ووقفت إلهام تنظر وعلى شفتيها ابتسامة حزينة ، فقد مس شغاف قلبها ذلك اللقاء القلق بين الوالد المهزوم والابن الحائر الذى لا يقدر حقيقة ما ينتظره ..

وصافحت إلهام زوج أختها وسألته عن صحته ثم جلست بالقرب منه ، وعاد محمد إلى أبيه وقال :

— بابا ! نجحت .. تسلمت الشهادة ..

وقال الأب فى صوت خافت وإن رفت بسمة لطيفة على شفتيه :

— مبارك ..

وقال محمد وهو يقلب بصره فى أبيه وخالته فى فرح :

— وقد ذهبت مع أونكل بدر الدين إلى عمارته الجديدة التى يبنيها ، إنها عشرون طبقة ، وبها ثلاثة مصاعد ، إنها عمارة فخمة ، أونكل بدر الدين هو صاحبها ، إنه لا يبنيها لأحد ..

وأحس عبد الخالق فى حديث ابنه البلسم الشافى لجرح نفسه ، فنظر إليه فى حب ، وطاف بذهنه خاطر يتساءل : لماذا يعيش هذا البرىء يتيما ؟ وحسب محمد أن أباه ينظر إليه تلك النظرة إنكارا لحديثه ، فقال فى حماس :

— هو الذى قال لى إنها ملكه ..

والتفتت إليه إلهام وقالت وهى تنظر إليه نظرة خاصة كأنما تقول له تذكر :

— وماذا قال لك أيضا ؟

قال محمد وهو يضرب رأسه الصغير بكفه :

— آه ! قال لى إنه مضطر للسفر وطلب منى أن أبلغ بابا سلامه .

وسمع وقع أقدام تقترب ، والتفتوا إلى الباب وصاح محمد فى فرح :

— عمى حلمى ..

ودخل حلمى وصافح إلهام وأخاه ، ثم مال يطبع قبلاته على خدود الأولاد ، وجلس وهو يضم محمد إلى صدره ، وقال لأخيه :

— لولا الباشا فى الحجاز لجاء لزيارتك ..

وأسبل عبد الخالق عينيه خشية أن تكشف عن الإحساس الزاخر بالعداوة الذى انساب فى أحشائه ، وقالت إلهام لحلمى :

— العقبى لك يا حلمى بك ..

فقال وهو يعبث فى شعر ابن أخيه فى حنان :

— جمعا إن شاء الله ..

والتفت إلى أخيه وقال :

— وعبد الخالق معنا ..

وابتسم عبد الخالق ابتسامة يائسة ولم ينبس بكلمة ، وقالت إلهام لزوج أختها :

— ألم يقل الطبيب لك متى ستخرج ؟

قال عبد الخالق وهو ينظر إلى ابنه فى قلق :

— قال إن الأمر قد يطول شهورا ..

وراحت إلهام تتحدث إلى عبد الخالق ، وحلمى ينظر إلى ابن إلهام وإلى ابنتها نظرات حب ، ويسرح بخياله ويتذكر المحاولات التى كانت تبذلها بثينة لتزوجه من أختها ، إنه لو استجاب لمحاولاتها لكان هذا الفتى وهذه الفتاة ابنيه ، وخفق قلبه بمشاعر الأبوة المكبوتة ..

وراحت الأفكار تتدفق إلى رأسه ، إن ابنه من إيفا أكبر من ابن أخيه ومن ابنى إلهام ، ترى أهو ذكر أو أنثى ؟ أهو فى خفة محمد أم فى رقة ابنة إلهام ؟ إنه يحس إحساسا خفيا أنه ذكى وأنه صبى ، ولكنه ما كان بقادر أن يطمئن إلى صدق أوهامه ، فكل ما يحسه أمنيات .. ليته كان طفلا عاديا ، لا يميزه عن سائر الأطفال إلا أنه ابنه ، وأنه يستطيع أن يحسه وأن يراه ..

وأفاق إلى أنه استسلم لنفسه فى مكان لا يجوز له أن يسترسل فيه لشحطات خياله ، وأن يغيب عن الموجودين ، فأدار وجه محمد بيده حتى أصبحت عيناه فى عينيه وقال :

— ستأتى معى لنستقبل جدك عند عودته من الحج ..

ونظر إليه محمد مشدوها ، لم يكن يدرى ما يقول ، وأسرعت إلهام تقول :

— إنه سيعود معنا إلى الإسكندرية بعد أن يطمئن إلى أن أباه بخير ..

وقال حلمى وهو يمد يده إلى أخيه يتحسس بها جبهته :

ـــ إنه بخير ..

وابتسم عبد الخالق بسمة باهتة تنطق باليأس ، وأحس المرارة المتراقصة على شفتيه ، فجعل يجاهد حتى يبدو هادئا ليسكن الطمأنينة قلب ابنه ، ومد يده الواهنة يجذب محمد فى حنان من بين أحضان أخيه ، وضمه إليه وقلبه الضعيف يجود برقيق المشاعر ، وقال فى حب :

ـــ سافر يا بنى وتمتع بالصيف ، إنى بخير ، وسألحق بك قريبا .

ـــ قالت لى أمى لما سافرت أول الصيف إنها ستلحق بى ولكنها لم تفعل ، أما أنت فأنا واثق أنك ستأتى ..

وسمعت حركة وجلبة خفية ، وتقدم صبى يحمل ورودا وفى أثره بثينة ورفعت ، وتطلعت العيون إليهم ، وتقدمت بثينة إلى أختها تصافحها ثم التفتت إلى حلمى وقالت كأنما تعتذر عن تأخيرها :

ـــ المواصلات أصبحت صعبة ، ساعة أنقب عن سيارة خالية ..

وأحست العيون تتنقل بينها وبين رفعت ، وقد نبتت فيها شكوك ، فقالت وهى فى طريقها إلى زوجها :

ـــ قابلت رفعت على باب المستشفى ، كان صدفة ..

وقبل أن تتم حديثها مالت على زوجها وقالت :

ـــ كيف أنت الآن ؟

وأسبل عبد الخالق جفنيه ولم ينبس بكلمة ..

وتقدم رفعت إليه ولم يجرؤ على أن يمد له يده ، قرأ فى وجه عبد الخالق إعراضا عنه ، فقال وهو واقف خلف بثينة :

ـــ شد حيلك ..

وجلسوا جميعا وراحوا يتسامرون وعبد الخالق صامت لا يشترك فى أحاديثهم ، كان مشغولا عنهم بالمشاعر القاسية التى فجرها فى أعماقه إقبال بثينة ورفعت فى لحظة واحدة .. كانت بثينة فى زينتها العادية ، ولكن وهمه

جعل يصور له أنها تبالغ فى زينتها لترضى رفعت ، أما هو فهو رجل محطم مريض ليس فى حاجة إلى أن تتزين له امرأته ، أو تبرز له فتنتها ..

وجعل يرمق بثينة ورفعت من بين أهدابه ، ونار الغيرة تلتهم جوفه ، وتزلزل كيانه ، وتذيب ما بقى فيه من قوة ، وتقطع خيوط الرغبة الواهنة التى تربطه بالحياة ..

واختلس حلمى النظر إلى أخيه فألفاه يدير عينيه فى قلق غاضب فى وجهى رفعت وبثينة ، وقد ازداد وجهه شحوبا ، وضاقت أنفاسه ، فطن إلى العذاب الذى يقاسيه ، وتمنى أن تختفى بثينة ورفعت سريعا من أمام عينى أخيه ، وتملكه حزن وضيق ، ولولا بقية من حياء لأمرهما أن يخرجا سريعا وأن يغربا عن وجه المريض الذى يتلظى بنار الغيرة ..

٥٦

ركب حلمى السيارة الجيب ووضع على رأسه القبعة الكبيرة يتقى بها حرارة شمس أغسطس ، وراح يطوف بأرض أبيه ، ويمر بخريجى الزراعة الذين عينهم بعد سفر الباشا ، والذين اعترض عثمان بك على تعيينهم ، وقرر سلفا أن الباشا سيطردهم يوم يعود .

ولم يلتفت إلى اعتراضات عثمان ، بل كانت سببا فى إصراره على تعيينهم ، ولم يأبه لتحذيراته .. ولم يخش ثورة أبيه ، فهو يعرفه جيدا ، لا يهمه أن تعين هذا أو ذاك أو أن تستعين بمن تشاء ، فالعبرة عنده بالمال الذى يوضع فى يده ، وكل البشائر تدل على أن الغلة ستزيد ، والمال الذى سيدخل خزائن الباشا سيربو بفضل عناية هؤلاء الشبان الذين استعان بهم ، ويقطع دابر سرقات عثمان ..

إنه كان يشك فيه ولا يطمئن إلى تصرفاته ، وقد أفضى إلى أبيه أكثر من مرة

بما يساوره من ريب ، ولكن الباشا كان يصم أذنيه عن كل اتهام يوجه إلى عثمان ، على الرغم من أنه يشتهى الإصغاء إلى الوشايات ، فقد وقر فى ضميره من طول معاشرته له أنه لا يخونه ، وصار يعتقد فى أمانته ، ولن يزعزع عقيدته إلا برهان ساطع ، وقد جمع طوال مدة انفراده بإدارة العزبة أكثر من وثيقة تدمغ عثمان ، وتخلع عنه ثوب الأمانة الزائف الذى ارتداه دون وجه حق سنين طوالا ..

اختلف هو وعثمان بعد سفر الباشا بثلاثة أيام ، واشتد الخلاف بينهما يوم جاء بالشبان الذين يعاونونه الآن على حسن استغلال العزبة ، وقد اهتبل عثمان هذه الفرصة ليتظاهر بالغضب ، ويذهب إلى أرضه يشرف عليها ويرعاها وهو فى مأمن من غضب الباشا ..

وشرد حلمى ببصره ينظر إلى رقعة الأرض الخضراء المنبسطة ، وإلى المحاريث التى ارتفع صوت محركاتها وهى تشق الأرض ، وإلى أشجار النخيل السامقة ، وإلى الفسائل التى تشب فى الفضاء فى حماية أمهاتها ، كالوليد الملتصق بصدر أمه ، وإلى الحركة الدائبة على الرغم من لفح الهواء الساخن ، فرفت على شفتيه بسمة رضا .

وانطلق فى طريقه وقد عاد يفكر فى عثمان ومزرعته ، ويتساءل من أين اشترى أرضه التى بلغت خمسمائة فدان ! إنه بدأ موظفا صغيرا عند أبيه براتب ضئيل ، فكيف تحول ذلك الراتب إلى جنات وعيون ؟ إنه دأب على سرقة الباشا .. وقد أطلت الجنيهات التى سرقها بأعناقها ، فلماذا أغمض الباشا عينيه عن كل هذه السرقات ؟!

وهمس فى أغواره هامس يقول : إن أرض عثمان كلها حرام ، ويقال إن الحرام لا يدوم ، فلماذا تزدهر أرضه وتجود بأطيب الثمار ؟ هل حقا الحرام لا يدوم ؟! وطافت به موجة من الشك ، وسرح بخياله يفكر فألفى أن كل ما هو دائم فى البلاد حرام ، وكاد يطير ذلك الوهم الذى غرس فى نفسه وهو

صغير ، ويطمئن إلى الرأى الذى طالما راوده ووسوس له أن ليس هناك حلال ولا حرام .. ولكن رن فى أغواره المثل القائل : « الحرام يفور ويفور ثم يغور » واستراح لذلك المثل وراح يقنع نفسه أن أرض عثمان تزدهر الآن حتى إذا ضاعت منه كانت حسرته عليها شديدة . إنه يحس إحساسا غامضا أنه سيفقدها ، ولكنه لا يدرى كيف ..

وفكر فى أرض أبيه ، لقد بدأت بفدان واحد روى بالعرق وربما بالحرمان حتى صارت بضعة فدادين ، وزحفت هذه الفدادين على الصحراء حتى صارت ثلاثمائة فدان ، وهى أحب أرض الباشا إلى قلبه ، ويبث فيها من روحه ، وكان الأمر بعد ذلك أكثر يسرا ، زحفت تجارب الباشا على الأرض البور فدبت الحياة فى عشرة آلاف من الأفدنة .. إن ما قام به الباشا عمل جليل ..

وراح ينظر إلى الأرض الواسعة منتشيا ، وطاف بذهنه خاطر : أهذه الأرض كلها حلال طيب لم يدخلها حرام ؟! وكان يحب الباشا حقا ، ويدافع عن كل تصرفاته إذا ما حاولت نفسه أن تحط من شأن الباشا أو توجه إليه اتهاما صغيرا ، فراح يقنع نفسه أن الباشا يطهر أمواله بالزكاة التى يدفعها للفقراء والمساكين كل سنة ، إنه يوزع بيده عليهم اثنى عشر ألفا من الجنيهات فى كل عام ..

هل تكفى الزكاة لتطهير المال إذا كان أصله خبيثا ؟ إنه لا يظن ، وهو يذكر الساعة ذلك الذى كون ثروة طائلة من الحرام ، ولم ينجب إلا ولدا واحدا ، راح يرعاه حتى صار طبيبا ، وفى ذات يوم أنفق كل ثروته فى وجوه الخير ، ولما سأله ابنه عن ذلك ، قال : ليبارك الله فيك ..

كان هذا الرجل واثقا من أن الزكاة لا تطهر ما كان خبيثا ، وإلا لاكتفى بإخراج الزكاة ، وهو ذاته يعتقد ذلك ، ولكن ما الذى يدفعه إلى أن يلج فى هذا التفكير ؟ فأبوه قد كون ثروته بجهده ولم يسرق أحدا ..

وهمس فى أغواره هامس : هل من الدين أن يعطى الفقراء والمساكين ويحرم ابنه ؟ وجعل يتلمس لأبيه المعاذير ، إنه يعتقد اعتقادا جازما أن عبد الخالق حاول قتله وأنه يتعجل موته ليرثه فأغلق قلبه دونه ، وهو معذور .. إنه بشر ..

لو أن عبد الخالق خفض له جناح الذل من الرحمة ، ولو أن بثينة لم تؤجج نار العداوة المشبوبة بينهما ، لكان من الميسور تصفية ما فى النفوس ، ولكن ما ارتكبته بثينة أخيرا من حماقة يجعل أمر التوفيق بين أخيه والباشا أمرا صعبا ..

إنه هو نفسه قد ثار لما جاءت هى ورفعت لعيادة أخيه المريض ، وزاد فى ثورته حرصها على أن تقول إنها تقابلت هى ورفعت عند باب المستشفى مصادفة ، كأن فى نفسها شيئا تريد أن تخفيه وتؤكد عكسه .. لم يسألها أحد متى قابلت رفعت ، وهل جاءا معا من البيت ، فلماذا تصر على أن تقول إنهما تقابلا مصادفة ، دون أن يكون لذلك مناسبة ، أو موضع فى الحديث ؟

إنه لا يستطيع أن يبرئ بثينة مما يتهمها به الباشا ، ولكن ذلك لن يثنيه عن أن يبذل كل ما فى طاقته ليعيد السلام إلى الأسرة التى لم تعرف السلام يوما .. سيعود أبوه غدا ، وسيقنعه بزيارة عبد الخالق بالمستشفى ، وهو واثق من أن رؤية الباشا لابنه الذابل ستحرك عواطفه ، وتمحو ما فى النفوس ..

وعد أمه قبل سفرها أن يحتفل بعودتها احتفالا يفوق ذلك الذى أقيم لها ليلة زفافها ، وقام فى نفسه سؤال : وهل رأيت ليلة زفافها حتى تعد بإقامة حفل يزهو على ما أقيم تلك الليلة ؟ إنه ما قال ذلك إلا للدلالة على فخامة ما يعتزم أن يصنعه يوم عودتها ، ولكنه وطن النفس على ألا يفعل شيئا ، فكيف يقيم الزينات وأخوه فى المستشفى طريح الفراش يكاد يجود بأنفاسه ..

طفق يفكر فى عبد الخالق وفى موته ، إنه لو مات فلن يجتث أصله ، سيبقى محمد من بعده ليمد فروعه ، سيعيش فى أبنائه وأحفاده وذريته من بعده ، أما هو إذا كتب عليه أن يموت ، فلا فروع ولا حفدة ولا ذرية ، سيفنى .. سيذهب هباء منثورا ..

وأفزعه ذلك الخاطر ، فراح يؤكد لنفسه أنه لن يفنى ، فابنه من إيفا سيمد فروعه ، سيكون له عقب ، وإن غرس فى بيئة أخرى وتفرع فى وطن آخر ، إنه بعد عن أصله ولكنه منه ، إن قبس روحه سيسرى فى أجساد كثيرة ولن ينطفئ أبدا ..

ورن فى جوفه صوت أجش يقول فى قسوة : وما أدراك أن ابنك من إيفا لا يزال على قيد الحياة أو أنه لن يموت قبل أن يتزوج ؟! وضاق بذلك الصوت وراح يطمئن نفسه أن امتداد الآباء فى الأبناء إن هو إلا وهم كبير يخدع البشر به أنفسهم ليخففوا عن أرواحهم بشاعة الفناء ، فمن يمت يذهب وتنقطع بينه وبين هذه الأرض الأسباب ..

واطمأن عقله إلى ما ذهب إليه ، ولكن وجدانه استمر فى قلقه ، إنه يتلهف على أن يكون له ولد ، إنه أضعف من أن يقاوم غريزة البقاء ، إنه يريد أن يجد ابنا إلى جواره يرثه بعد أن يموت ، فإن كانت سميرة لم تعطه الولد الذى يتمناه ، فسيتزوج بأخرى تمنحه قرة عينه ..

أبت سميرة أن تنتظر أمه وأباه لتستقبلهما عند عودتهما وسافرت إلى الإسكندرية تمضى الصيف عند أبيها ، إنها تحس أن نهاية أيامه معها تقترب ، لذلك تخلق أسباب الشقاق حتى إذا ما هجرها قالت إنها كانت كارهة لمعاشرته ، تريد أن تبدو أمام الناس مرفوعة الرأس ، وأنها هى التى كانت تريد الانفصال إذا ما انفصمت عرى حياتهما الزوجية ..

إذا كان يفكر فى تركها ، فما الذى يضيره لو حفظ لها كبرياءها ؟! لو تركها تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء لتحفظ ماء وجهها من أن يراق ؟ إنها ستحاول وهى تدافع عن نفسها أن تطعن فيه ، فهل يستطيع أن يتلقى طعناتها وهو رابض الجأش ، لا ينبس بكلمة ؟! إنه لا يظن أنه قادر على الصمت والاتهامات توجه إليه ، فهو كأبيه لا يحب أن يقف موقفا ذليلا أو يتكشف ضعفه أمام الناس ..

وانزاحت عن عينيه فى تلك اللحظة غشاوة كانت تحول بينه وبين حقيقة معدن أبيه ، كان يحسب أن أباه يبادر بالهجوم على من يدخل معه فى جدل عن قوة وصلابة رأى ، فإذا به يفطن من واقع حاله وهو أن الباشا يبدأ بالهجوم عن ضعف ، لأنه لا يقوى على الصمود فى وجه أى هجوم ، لذلك يسارع إلى وضع مناوئه فى موضع الدفاع ، وما من مرة اشتد الجدل فيها بين الباشا وعبد الخالق إلا وهاجم الباشا عبد الخالق هجوما قاسيا لا هوادة فيه ، ترى لو أن عبد الخالق هو الذى بدأ بالهجوم ، أكان الباشا ينكسر ويتبدل الحال ؟! إنه واثق فى هذه اللحظة أنه لو أن عبد الخالق فاجأ أباه بالهجوم ، لما كان الآن على حافة القبر ..

لو مات عبد الخالق لأصبح هو وريث الباشا وحده ، لا ينازعه فى هذه الأرض كلها منازع ، ولكن ماذا يكون مصير هذه الأرض كلها لو مات هو أيضا قبل أن يكون له غلام ؟ وعادت إيفا تحتل صفحة ذهنه ، وأخذ يحن إلى ابنه منها ويتمنى لو أن هذه الأرض كلها قد غاضت وعاد ابنه من إيفا إليه ..

ووقفت السيارة الجيب أمام قصر الباشا ، وهبط منها وراح يصعد فى الدرج الرخامى الواسع متمهلا وقد طأطأ رأسه أسى ، ودخل إلى الردهة الواسعة وخلع قبعته الكبيرة ونظر إلى وجهه فى المرآة ، إنه لا يزال شابا ، ولكن روحه قد شاخت ، وكل من حوله عبثت بهم السنين ، إلا إيفا ظلت فى ذهنه شابة ، إنها الشباب الدائم الذى لا يشيخ ..

٥٧

عاد الباشا وأمينة هانم إلى السراى ولم يكن فى استقبالهما إلا الخدم وبعض الطامعات فى البركة القادمة من الأرض المقدسة ، ولم يأت من أسرة الباشا إنسان للتهنئة ، فقد أقام الباشا بينه وبينهم سدا .. وراح حلمى يغدو ويروح

وهو يبتسم ويداعب الحاجة ، ولكنه كان فى قرارة نفسه منقبضا ، ضايقه إعراض الناس عن استقبال أمه وأبيه ، حتى محفوظ باشا لم يفكر فى أن يبعث ببرقية .

لو كان الوفد فى الحكم ، لهرع إلى سراى الباشا الشيوخ والنواب وأصحاب الحاجات والطامعون فى وساطة الباشا ، لكن سحر الباشا السياسى قد بطل ..

وسرح يفكر : لماذا لا يشاركهم الناس أفراحهم ؟ أحقا يحسدونهم على غناهم ويتمنون على الله زوال النعمة السابغة عليهم ؟ إنه سمع من الباشا هذا القول أكثر من مرة ، ولكنه يشك فيه ، فهو ليس كل الحقيقة ، فقد أغلق الباشا قلبه دون الناس ، ولم يمد لأحد منهم يدا ، إنه كان يصد كل من لجأ إليه يلتمس خدمة عنده ، وكان يغلظ القول لكل قريب يأتيه حتى انفض الأقارب من حوله ..

وساءه أنه لام الباشا فى ضميره ، فراح يبرر لنفسه تصرفاته ، فما كان من المعقول أن يجعل الباشا من بيته تكية لأهله ، يكد ويكدح وهم جالسون كتنابلة السلطان ، يأكلون دون أن يعملوا شيئا ، وما من أحد يطالبه بأن ينقطع لأصحاب الحاجات يذهب ويجىء معهم دون أن يلتفت إلى مصالحه ، إنه لو فعل لكان الآن مثلهم من أصحاب الحاجات !

وأمه لماذا كانت تعتذر بضيق ذات اليد لكل قريب من أقاربها يلجأ إليها ملتمسا منها سداد مصاريف الجامعة ؟ إنها لو مدت يدها إلى هؤلاء الذين طرقوا بابها لتمكن لهم مواصلة دراساتهم لأسدت إلى أسرتها أجل خدمة ، ولخفقت بحبها قلوب أسرتها بإحسانها ، ولكنها كانت تخص بصدقاتها فقراء مكة والمدينة ، ويا طالما حدثها فى هذا الشأن ولم تصغ لنصحه ، بل كانت تتهمه أحيانا بأنه يعوقها عن بناء قصرها الذى تبنيه فى الجنة ، وكان يضطر إلى السكوت بعد أن ييأس من إقناعها ، فمن المستحيل أن يغير مفاهيم أمه

للإحسان والصدقة ..

وجاءت الخادم تحمل أول برقية تهنئة ، إنها من الإسكندرية،إنه يرجو أن تكون من سميرة ، فعلى الرغم مما بينه وبينها من مشاحنات هذه الأيام ، فهو يحب أن تظهر اهتمامها بعودة والديه ، وإن كان واثقا من أنهما يعملان على تطليقه منها ..

ونشر البرقية وقرأها ، إنها من بدر الدين وإلهام ، وهو يحس إحساسا صادقا أن إلهام هى التى فكرت فى إرسالها ، فما من مناسبة طيبة إلا وسارعت إلهام تظهر رقيق عواطفها .. آه لو كانت بثينة عاقلة كأختها ولم تنزلق فى طريق الطيش ، لكانت اليوم سيدة هذا البيت ، إنه سيىء الحظ لأنه لم يتزوج بإلهام ..

وراح يسأل نفسه : أكانت إلهام تجود بكل هذه الرقة لو أنه تزوج بها ؟ أليس لبدر الدين يد فى كشف كنوز قلبها ؟ أكان الباشا يفسدها بتدليله أو يجفف بحور رقتها بصرامته ، أكانت أمه تتلف كل جمال روحها وتحرق نضارة طباعها بغيرتها ؟ إنه لا يدرى ، كل ما يعرفه أن إلهام وبدر الدين سعيدان ، وأن كلا منهما قد خلق للآخر ..

ودخلوا غرفة الباشا ، وشرع الباشا يفتح حقائب الهدايا ، وأخذ يقدم لحلمى عباءة من وبر الجمل لونها برتقالى ، ومفرش سفرة من المخمل الذهبى زين بورود حمراء بارزة ، وسجادة صلاة ، وراح حلمى يقلب سجادة الصلاة وفى عينيه مولد بسمة ، وفطن الباشا إلى ما يدور برأس ابنه ، فقال :

— ستحتاج إليها يوما ..

وأسرع حلمى يقول :

— ما أكثر ما صليت ..

فقال الباشا وهو عاكف على إخراج ما فى الحقيبة :

— ربما ..

وقالت الحاجة :

ـــ ربنا يوعدك بالوقوف أمام الحبيب المصطفى ، ما من إنسان وقف أمامه يناجيه إلا وخشع قلبه وسالت الدموع من عينيه ..

وراحت الحاجة تقص على ابنها ذكرياتها ، فهى كل ما بقى لها من حجها ، ورفع الباشا عباءة سوداء بيده ، وراح يفحصها بعينيه ثم قال :

ـــ وهذه العباءة لعثمان ..

وصمت حلمى ولم ينبس بكلمة ، لم يشأ أن يعكر صفو اللحظة ، كان أبوه مغتبطا ، فآثر أن ينتظر حتى إذا ما ذهبوا إلى العزبة ، وسيذهبون بعد يوم أو يومين ، وضع بين يديه الوثائق التى تثبت خيانة عثمان الذى اتخذه أبوه إماما ربع قرن من الزمان ..

وقالت الحاجة وقد التمعت عيناها ببريق الأمل :

ـــ وقفت عند باب الكعبة ودعوت الله أن يرزقك زوجة صالحة تعطيك الولد ..

وسرح حلمى بخياله ، وراح يمضغ الألم الذى أثارت كوامنه أمه ، واستمرت الحاجة فى حديثها وهو غائب عنها بالمشاعر التى تحركت فى جوفه ، قالت :

ـــ وصليت ركعتين فى مقام إبراهيم ، ولما انتهيت منهما أحسست أن الله استجاب دعائى ..

وأراد أن يفر من نفسه التى كانت تحتشد لتعذبه ، فالتفت إلى أبيه وقال :

ـــ وماذا ستهدى إلى عبد الخالق ؟

وجمد الباشا لحظة ، ثم التفت إلى ابنه بكل جسمه وقال فى انفعال :

ـــ لا شىء ..

قال حلمى فى هدوء :

ـــ لماذا ؟

فاتجه إلى ابنه وهو مقطب الجبين ، وقال فى غضب :

— لأننى برىء من عبد الخالق حتى يطلق زوجته ..

فقالت الحاجة وهى تنظر إلى الباشا فى توسل :

— حرام تضييع حجتك بهذا الكلام ، ربنا يكره الخوض فى أعراض الولايا ..

والتفت الباشا إلى الحاجة فى ثورة وقال فى حدة :

— أنا واثق من كل ما أقول ، بثينة فاجرة ، وتحت يدى كل ما يثبت فجورها ، فإن لم يطلقها عبد الخالق فسأمرغها فى الوحل ، إننى لا أقبل أبدا أن تكون بغى فى أهل بيتى ..

فقال حلمى ليطفئ ثورة أبيه :

— عبد الخالق طريح الفراش مذ خرج من عندك ، وقد حمل إلى المستشفى ولم يغادرها حتى الآن ، إنه أعجز من أن يفعل شيئا ..

فقال الباشا دون أن يلين أو يرق قلبه لابنه المريض :

— الرجل يطلق زوجته التى خانته حتى لو كان على خشبة الغسل ..

فقال حلمى فى حرارة :

— عبد الخالق معذور ، لم تكن أمامه فسحة من الوقت ليستوثق من خيانة زوجته له ؟

ولم يعجب الباشا ذلك المنطق ، فقال متأففا :

— إننى قلت له إن زوجته فاجرة وأنها تخونه ، فهل كان يظن أننى أفترى عليها ؟! إننى لا أقول شيئا إلا إذا كنت واثقا من صدقه ، عيب عبد الخالق أنه يتشكك فى قولى ، لو أنه استمع إلى نصحى ولم يجادلنى ، لما وصل إلى ما وصل إليه الآن ..

فقالت الحاجة فى خوف :

— إنه ابنك على كل حال ..

فقال الباشا فى إنكار :

— لا .. لا .. إنه لم يرث عنى شيئا ، وورث عن أخواله خنوعهم وخيبتهم .. لو كان ابنى حقا لما قبل هذا الهوان ، ولشرب من دماء التى خانته ! ابنى أنا يعيش مع امرأة يعرف أنها تخونه ؟!

فدنا حلمى من أبيه وقال :

— إنه مريض لا يستحق كل هذه الثورة ، إنه فى حاجة إلى صفحك وعطفك ..

وقالت الحاجة لتشد أزر ابنها :

— إنه ابنك ولن تستطيع أن تنكره مهما قلت ..

فقال الباشا فى حدة وإن خفت ثورته :

— ابنى هذا أراد قتلى .. تمنى موتى ، ويا ليته كان يقول متى يوم أبى ؟ ولكنه ما من مرة قابل فيها عثمان إلا وقال له : « متى نقرأ نعى عمك فى الصحف » .. كأننى عم عثمان ولست أباه !

ولم يشأ حلمى أن يؤجج النار المشبوبة .. فقال فى هدوء :

— أنا واثق أن عثمان يبالغ فى كل ما ينقله عن عبد الخالق ..

فقال الباشا مدافعا عن عثمان :

— عثمان لا يكذب .. إنه تربيتى ، ليت عبد الخالق كان كعثمان .

وتراقص الكلام على لسان حلمى ، ففى يده الدليل الذى يفضح به ابن عمه الذى استغل ثقة الباشا أسوأ استغلال طوال السنين التى عملها معه ، ولكنه آثر أن يتريث ، وكبح زمام لسانه فى جهد ، وراح يجمع كل ما فى طاقته من توسل وقال :

— لو زرت عبد الخالق لعاونته على التغلب على مرضه ، إنه فى حاجة إليك ، لم يعد له أحد غيرك بعد أن بذرت فى نفسه بذور الشك فى زوجته ..

وأحس الباشا كأن كبرياءه طعنت ، فقال فى ثورة مفتعلة خشية أن تتغلب

عليه المشاعر الرقيقة التي بدأت تنبثق فى جوفه :

ـــ تكسر رجلي قبل أن تحملني إليه ، فوالله الذى وقفت بباب بيته لن تقع عيني عليه ما دامت الفاجرة فى عصمته ..

وساد صمت قلق ، والتفت حلمى إلى أمه ، وقال :

ـــ إذا كان الباشا لا يزال غاضبا عليه ، فلا أقل من أن تزوريه أنت ..

وراحت الحاجة تنظر إلى الباشا فى قلق ، وخفق قلبها رهبة ، وأرهفت سمعها ، ولكن الباشا أطبق شفتيه ولم يعترض على هذه الزيارة ،وإن كان يباركها فى أعماق نفسه ، فلولا صلفه ولولا أنه لا يحب أن يبدو ضعيفا أبدا أمام الناس ، لاستمع لتوسلات حلمى ، وذهب إلى المستشفى من فوره ..

وشرع الباشا يقلب فى هداياه ، وأخرج صينية من الفضة عليها طاقم قهوة من الفضة ، دقيق الصنع ، زخرفته هندية ، وقال فى انشراح :

ـــ هذه لإلهام ..

وقالت الحاجة :

ـــ ما من مناسبة إلا وجاملتنا فيها ..

وانتظر حلمى أن يرى ما جلبه الباشا لسميرة ، فهو على الرغم من النفور الذى بينه وبينها يحب أن يذكرها الباشا إكراما له ، فهى لا تزال زوجته ولكن الباشا لم يذكر اسمها على طرف لسانه منذ عاد ، وأحس حلمى كدرا كان ينكره ولم يكن قادرا على أن يقاومه ..

ودار دورة حتى أصبح ظهره لأبيه ، لكيلا تفضحه الانفعالات التى انعكست على مرآة وجهه ، وقال :

ـــ إذا كنت لا تزال غاضبا على عبد الخالق ، فماذا أحضرت لابنه ؟

وأخذ الباشا يعبث فى الحقيبة الكبيرة الموضوعة أمامه ، وأخرج منها كوفية وعقالا صغيرا ، ومد بهما إلى حلمى ، فتناولهما حلمى وهو صامت ، وإن كان فى نفسه لا يقر أباه على الهدية التى جاء بها لحفيده الوحيد ..

وراح يرنو إلى الباشا من طرف عينيه ، إنه لا يصدق أن قلب هذا الرجل قد من صخر ، فما بال كل هذه القسوة تشع منه ؟! ويا طالما حيره بتصرفاته التى لا تخطر على بال .. إن هذا الرجل غريب ، ولولا هذه الغرابة والصلابة ما استطاع أن يحول فدانا واحدا إلى عشرة آلاف من الأفدنة من أجود الأطيان .. إنه كثيرا ما ينكره خفية من نفسه ولكنه بالنسبة إليه كالشمس لعباد الشمس ، يدور وراءها حيث تدور ..

وحان أوان انصرافه ، فانطلق يشترى لابن أخيه ساعة قيمة ، يقدمها إليه مع الكوفية والعقال يوم يذهب إلى الإسكندرية ، ويقول له : إنها هدايا جده الذى يحبه ، فهو يرجو أن يتغذى قلبه اليافع بالحب والحنان حتى لا يقسو وتغلظ مشاعره ..

وخطر له خاطر ، لو أن ابنه من إيفا كان معه ، أكان الباشا يهدى إليه كوفية وعقالا ؟ وحرك هذا الخاطر أشجانه ، فراح يجتر ذكرياته مع إيفا ويدندن بأغنية الفالس التى كانت تغنيها له وهو يقبلها :

أقبل يدك يا سيدتى	I kiss your hand, madam,
وأتمنى لو أنها كانت شفتيك	I wish it was your lips.

٥٨

ذهب الباشا إلى الحاجة فألفاها فى ثيابها البيضاء ، وقد جلست على سجادة الصلاة ، فلما رأته نظرت إليه بعينين قلقتين ، ولاح فى وجهها هم ، وفطن إلى الاضطراب الذى يلفها ، فقال لها وهو ينظر إليها فى تساؤل :

— ماذا بك ؟

فقالت وقد أسبلت جفنيها على عينيها :

— رأيت رؤيا أفزعتنى ..

فقال فى اهتمام :

ـــ خيرا ؟

ـــ رأيت بقرة نزلت إلى مجرى الماء فى العزبة ، وراحت تشرب حتى شربت المياه التى كانت تجرى فى كل القنوات ..

وأطرق مهموما ، حركت هذه الرؤيا مخاوفه ، وسرعان ما خنق دلائل الضعف التى كادت تنعكس على مرآة وجهه ، وقال فى هدوء :

ـــ سأبيت الليلة فى العزبة ، وأسافر إلى الإسكندرية غدا ، فمن الأفضل أن تسافرى إلى هناك رأسا ..

فقالت فى ضيق :

ـــ اشتريت بعض مناديل من الحجاز للبنات اللاتى يخدمننا فى العزبة ..

وكأنما ساءها أن تضيق برأى أبداه ، فقالت وهى تنهض :

ـــ خذ المناديل معك وأعطها البنات ..

وذهبت وأحضرت لفافة وقدمتها إليه وهى مشرقة الوجه ، تبالغ فى البسمة التى رفت على شفتيها ، كانت حريصة على أن تمسح أى أثر تركته فى نفسه نبرات الضيق التى ندت منها ..

وتناول الباشا اللفافة ودسها فى حقيبته ، ثم انطلق ..

ودلفت السيارة إلى القناء الواسع الذى تطل عليه سراى الباشا وفيلا الضيافة ، والشمس ترتفع من الأفق الشرقى وتبعث أشعتها الحامية التى كانت تلفح الوجوه بحرارتها ، وخف عثمان لاستقبال الباشا ، ومد يده يفتح الباب ، فقد كانت يده أسرع إليه من يد السائق الذى قفز فى خفة ليفتح باب السيارة ..

وهبط الباشا والعرق يتفصد من وجهه ، وراح عثمان يقول متملقا :

ـــ ألف حمد لله على سلامتك ، هذا يوم مبارك ، والله لقد كانت العزبة مظلمة بدونك ، كانت بلا روح ولا طعم ، ألف حمد لله على السلامة ..

وسار الباشا إلى مكتبه وعثمان خلفه لا يكف عن الحديث ولا ينتظر حتى

يدخل الباشا ويلتقط أنفاسه ، واستمر يقول :

ــــ أنت خير هذه الأرض وأنت بركتها ، فبالله عليك لا تغب عنها ، فشهر واحد تبتعد عنها كفيل بأن يفسد ما صنعته بكفاحك فى سنين ..

وفطن الباشا إلى أن عثمان يريد أن يحدثه عما فعله حلمى طوال مدة سفره ، فقال وهو يجلس فى مقعده خلف المكتب :

ــــ ما الأخبار ؟

فقال عثمان وهو ينحنى كعادته ليلتقم أذن الباشا :

ــــ الأخبار كثيرة حتى أننى لا أدرى بأيها أبدأ ..

فقال الباشا وهو يضطجع فى مكتبه :

ــــ نبدأ بأخبار العزبة ..

فقال عثمان وهو يلوح بيده ، ويضيق عينيه :

ــــ أوه أخبارُ العزبة يطول شرحها ، وأرى أن نرجئها إلى آخر الحديث ..

فقال الباشا وهو يقرأ الانفعالات المرتسمة على وجه عثمان ، ويستشف منها بعض ما جرى بينه وبين ابنه :

ــــ ابدأ بما تشاء ..

وصمت عثمان قليلا ثم قال :

ــــ هل ذهبت لزيارة ابن عمى فى المستشفى ؟

فاعتدل الباشا وقال :

ــــ أقسمت ألا أقابله ما دامت الفاجرة على ذمته .

فقال عثمان فى صوت خافت :

ــــ فعلت خيرا ، فالناس كلهم ينهشون فى عرضنا ، إننى أتحاشى الآن الظهور فى أى مجتمع حتى لا أسمع ما يقال ، بثينة فجرت ، لم تعد تأبه بأقوال الناس ، إنها تظهر مع رفعت فى كل مكان .. ويقال ..

وصمت ثم قال ليؤجج النيران المشتعلة فى جوف الباشا :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ..

فهب الباشا واقفا وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— وماذا سيقال أكثر مما قيل ؟!

فخفض عثمان بصره وقال :

— يقال إن رفعت يبيت فى فراش ابن عمى كل ليلة ، بينا ابن عمى فى المستشفى ..

فقال الباشا فى غضب :

— المغفل ! لماذا لا يطلقها ويريحنا من هذا الهوان ؟!

قال عثمان فى فحيح كفحيح الأفعى :

— قيل ، وأستغفر الله ، إن ابن عمى قد تخاذل حتى إن خيانة زوجته له لم تعد تفزعه ، إنه ..

وانفجر الباشا قائلا :

— اخرس ..

وانكمش عثمان فترة ، وما لبث أن عاد للحديث الذى يلذه أن يلوكه على الرغم من قسوته ، قال :

— يقال إنها تذهب لزيارته ومعها رفعت ، وأنه لو كان لا يقر ما بين زوجته ورفعت لما سكت على ما يرى ..

فقال الباشا وعيناه تكادان أن تفرا من محجريهما ، ونفسه مكروب :

— الكلبة ! سأذهب إليها يوما وأكتم أنفاسها بيدى هذه ، سأغسل بدمها العار الذى لطختنا به ..

قال عثمان فى تأفف :

— الناس كلهم فى راحة .. لماذا كتب علينا النكد دون الناس ؟!

وعاد الباشا إلى مكتبه وارتمى فى مقعده ، وقال فى صوت خافت ليعزى نفسه :

— المؤمن مصاب ..

وقال عثمان فى نبرات خبيثة ليمهد لوثبته الثانية :

— آسف يا باشا إذا كنت قد تسببت فى مضايقتك ، ولكن ما باليد حيلة ، لا بد أن تعرف كل شيء ، لقد عاهدت نفسي على مصارحتك ، إننى لا أحب أن أغشك ، إننى أقول دائما ما يرضى الله ، وإن كان فيه غضبك علىّ ..

قال الباشا وهو مقطب الجبين :

— وما ذنبك أنت فيما جرت به المقادير ؟ تعلم يا عثمان أننى أثور لما يقع ، ولا أثور عليك .. إننى لا أحب الحال المائل ، فأى انحراف يحز فى نفسى ، فما بالك إذا كان ذلك الانحراف قد أدى إلى التردى فى هاوية الدنس ؟ هذا شيء لا أسكت عليه أبدا ، ولا يقبله رجل شريف مثلى ..

ونظر إليه عثمان نظرة ماكرة وصوت يهمس فى جوفه قائلا : « يا نمس ، وجمعية الفتيات الصالحات ؟! والست أنهار ؟! والراتب الشهرى الذى لم ينقطع حتى فى شهر الحج ؟ أهذه تصرفات رجل شريف ؟! » ، وظل الباشا شارد البصر تضايقه المشاعر الموارة فى صدره ، وصمت عثمان لا احتراما لصمت الباشا ، بل ليجمع حججه ، ويشحذ أسلحته ، والتفت الباشا إليه وقال :

— لماذا سكت ؟ تكلم ..

قال عثمان فى صوت خافت وهو يشيح بوجهه بعيدا عن عينى الباشا :

— ماذا أقول وحديثى اليوم كله مضايقات ؟!

— تكلم ولا عليك ..

قال عثمان فى صوت حزين حقا ، فالأمر يعنيه :

— بعد أن سافرت يا باشا بيوم واحد جاء حلمى ومعه بعض شباب حديثى عهد بالتخرج فى الجامعة ، يحملون بكالوريوس فى الزراعة وأحدهم طبيب بيطرى ، وسلمهم العمل فى العزبة ، فاعترضت على ما يفعله ، قلت له إن

العزبة ليست حقل تجارب لمن لا تجارب عندهم ، إننا نزرع ونفلح قبل أن يولدوا ، وإننا قادرون على أن نعلمهم ما لا يعلمون ، فراح يسخر منى وأنا ساكت إكراما للباشا ، وراحوا يعيثون فى الأرض فسادا ، وشرع الطبيب البيطرى فى عمل سجلات لكل بقرة وكل جاموسة وكل ثور ، يسجل لها شهادة ميلاد وشجرة نسب ، فقلت له إننى وسعادة الباشا نعرف تاريخ كل حيوان هنا ونعرف نسبه دون سجل ، إننا فى غنى عن هذا الجهد الذى لا طائل تحته ، فإن كانوا يريدون أن يعبثوا فليبحثوا لهم عن مكان آخر ..

واشتد الجدل بينى وبين حلمى بك ، وصبرت إكراما للباشا ، ولكن لما وجدت أن حلمى بك مصمم على إفساد ما بذلنا فى صنعه العرق وأغلى سنين العمر ، لم أستطع صبرا ، وابتعدت عن العزبة وأنا حزين لا ألوى على شىء .. إن هذه الأرض أغلى عندى من أبنائى ، رعيتها أكثر من رعايتى لهم ، قد أحتمل أن أرى ابنى يذبح أمام عينى ، ولكننى لا أحتمل أن تمتد يد الفساد إلى هذه الأرض ، أن تنتزع روحى من بين جنبى أهون من أن يعبث عابث بأرضنا التى ما جرت الحياة فيها إلا بدماء الرجال ودمائنا ..

واغرورقت عيناه بالدموع ، وتأثر الباشا لبكائه ، فقام يربت على كتفه فى رفق وهو يقول :

— لا تغضب من حلمى ، حلمى أخوك الصغير ..

قال عثمان وهو يجفف دموعه بظهر يده :

— إننى لم أغضب منه ، ولكننى غضبت للأرض الطيبة التى راح هو وأصحابه يقسون عليها ..

ورمقه الباشا فى حب وقال فى هدوء :

— هل لو رأيت حلمى يشعل النار فى نفسه ، أكنت تتركه ؟

قال عثمان دون تردد :

— كنت أفديه بروحى ..

— وهل إفساده للأرض أهون من إشعال النار فى نفسه ؟

وفطن عثمان إلى الفخ الذى يستدرجه الباشا إليه ، فصمت وإن بانت الحيرة فى عينيه ، وقال الباشا :

— إذا كنت ستفديه بروحك إذا رأيته يشعل النار فى نفسه ، فلماذا تركته يفسد الأرض ؟

قال عثمان مدافعا عن نفسه :

— نصحته فلم يستمع لنصحى ، ثرت فى وجهه فثار فى وجهى حتى هم بأن يطردنى ..

— إذا كنت تعتقد أنه كان يفسد الأرض ، فكان من الواجب عليك أن تقاومه ..

قال عثمان وهو ينظر إلى الباشا بعينين مفتوحتين :

— بأى حق يا باشا ؟

— بحق رعايتك له ولهذه الأرض ..

أطرق عثمان وقد لاح فى وجهه التأثر ، وقال الباشا فى هدوء :

— لا بأس .. حلمى قادم اليوم ، فتعال فى الليل نصفى ما كان بينك وبينه ، ونعيد المياه إلى مجاريها :

٥٩

دخلت الممرضة غرفة عبد الخالق وهى تنظر فى الساعة المثبتة فى معصمها ، وتقدمت حتى دنت من السرير ، وألقت على نفسها نظرة سريعة فى المرآة التى مرت بها ، وأصلحت شعرها بيدها ثم قالت :

— عبد الخالق بك ، حان ميعاد الحقنة ..

وظل عبد الخالق مسبلا جفنيه على عينيه ، وكشفت عن ذراعه ، وغرست

الإبرة فيها دون أن يفتح فمه بكلمة ، ووقفت تديم النظر فى وجهه الذابل ثم انسلت من المكان ..

كان يحس أنه يذوى وأن روحه تكاد تنطفئ ، وأن الموت يزحف نحوه وعلى الرغم من ذلك لم يجزع ولم ينزل الفزع بقلبه بل كان يستسلم ليأسه ، ولا يحاول أن يقاوم الفناء الذى يسرى فى حناياه .

أصبح يفر من الرؤى التى تذكره ببثينة ورفعت واصدقائه وماضيه ، وصار يرتاح لذكرى بعينها كانت تحتل صفحة ذهنه طالما كان واعيا ويراها فى نومه على الدوام ، إنها أمه وهى مسجاة فى فراش موتها وقد انكب فوقها يلثمها هنا وهناك ، ودموعه الحارة تتساقط على وجهها الشاحب فى لون الشمع ، الفارغ من كل حياة .

كان فى أول عهده بمرضه يرى أيام طفولته ، وكانت البسمات ترف على شفتيه كلما تذكر شقاوته ، وكانت ذاكرته تطوف أحيانا ببيت مرسى وبيت أنهار ، وكان يرى أباه وهو يصرخ فيه طالبا منه أن يطلق بثينة ، وكان ينفعل أحيانا حتى يبلغ انفعاله منتهاه ، ويرق أحيانا حتى يكاد يذوب فى رقته ، وقد رأى ذات ليلة فى منامه أنه وهو فى سنه هذه يرضع من ثدى أمه ، وقد تذكر حلمه بعد أن استيقظ من نومه ، وفكر فيه طويلا ، ولكنه لم يجد له تأويلا ..

كان هذا حاله أول ما جاء إلى المستشفى ، أما فى هذه الأيام الأخيرة ، فما كان يرى إلا أمه فى رقدتها الأخيرة ، وهو يقبلها ويبكيها أحر بكاء ، وكانت فى خياله لا تريم ، حتى إذا ناء بمرضه كان يراها وهى تدور فى دوامة لا تغيب عن وعيه ، حتى يروح فى غيبوبة ، يغيب فيها عن حاضره وكل ما فى ماضيه من آمال وآلام ..

وجاء حلمى وأمينة هانم وكانت ترتدى ثيابا بيضاء وتلف طرحة بيضاء حول وجهها ، وتقدما نحو عبد الخالق ، فلما مس أذنيه وقع أقدامهما خيل إليه أن بثينة ورفعت أقبلا ، فانقبضت تقاسيم وجهه وانتشرت فى جوفه موجة من

الأسى ، وقلب رأسه على الوسادة بحيث إذا فتح عينيه لا تقعان عليهما ..

وقال حلمى فى رقة :

— كيف أنت اليوم ؟

وسرى صوت حلمى إلى قلبه فانقشع غضبه والتفت ينظر مفتوح العينين ، ورأى أمينة هانم ، فهم بأن يقوم جالسا ، ولكن يد أمينة هانم كانت أسرع منه ، فقد وضعتها على صدره تمنعه من الحركة وقالت :

— كيف أنت الآن يا بنى ، والله كنا نذكرك دواما وندعو لك بالشفاء ..

قال عبد الخالق وهو منبسط الأسارير :

— حمدا لله على السلامة يا حاجة ، وكيف حال الباشا ؟

فقالت أمينة هانم فى ارتباك :

— بخير ، وكان يحب أن يأتى لزيارتك لولا أنه اضطر للسفر فى الصباح إلى العزبة لأمر هام ..

ولم يغضب عبد الخالق لعدم مجىء أبيه ، فما كان ينتظر مجيئه ، وما كان يطمع فى أن يسمح للحاجة بعيادته ، إنه واثق من أن حلمى هو الذى ضغط على أمه للقيام بهذه الزيارة ، فحلمى يعمل دائما على أن يرأب كل صدع يشقه الباشا فى كيان الأسرة ، ولكن هيهات ، فالباشا بركان ثائر لا تهدأ حممه ، ولا يعرف الاستقرار .

وقال عبد الخالق فى هدوء ، كأنما يقرر حقيقة لا تمسه :

— أعرف أن الباشا لا يحبنى ، ولكن لى رجاء واحد ، هو أن يغفر لى إن كنت أسأت إليه ..

قال حلمى فى انفعال :

— لا تقل هذا ، وأنت والد تعرف مشاعر الأب نحو ابنه ، إننى لا أتصور أن هناك أبا لا يحب ابنه ، أنت تعرف الباشا وتعرف كبرياءه ، إنه يتألم لعدم مجيئه للاطمئنان عليك ، ويحتمل ذلك الألم ليحافظ على المظاهر ، ليقنع نفسه

أنه أقوى من ضعفه ..

وقالت أمينة هانم وهى تدنو من عبد الخالق :

ــ والله يا بنى ، وحياة النبى الذى وقفت خاشعة أمامه إن الباشا وقف وهو محرم أمام باب بيت الله ورفع أكف الضراعة وأخذ يدعو الله فى حرارة أن يشفيك ودموعه تغسل وجهه ، ووالله الذى حججت بيته ما رأيت الباشا باكيا أبدا إلا هذه المرة .. لا تصدق يا بنى أن الباشا لا يحبك ، إنه إن كان قد قسا عليك فإنما فعل ذلك لأنه يظن أن فى هذه الشدة صلاحك ..

قال عبد الخالق فى ضعف :

ــ كل ما أرجوه أن يسامحنى قبل أن أموت ..

قالت أمينة هانم فى تأثر :

ــ بعد الشر ..

وقال عبد الخالق وهو يلتفت إلى أخيه :

ــ أريد يا حلمى أن أعود إلى البيت ، أريد أن أموت فى دارى .

فقال حلمى وهو ينتزع ابتسامة من نفسه الغارقة فى الأحزان :

ــ ستعود يا عبد الخالق إلى دارك قريبا ، بعد أن يتم علاجك .

وقالت أمينة هانم فى صدق :

ــ ستعود يا بنى لبيتك ولشبابك ..

قال عبد الخالق فى إنكسار :

ــ لم يعد لى فى هذه الدنيا مطمع بعد أن سمم الباشا حياتى .

وأطرق حلمى دون أن تتحرك شفتاه بكلمة ، ووجهه باسر ، فطن إلى ما يقصده أخوه ، وقالت أمينة هانم فى براءة : .

ــ الأيام كفيلة بإصلاح ما فسد ..

وأراد عبد الخالق أن ينفس عن مشاعره القاسية التى يضيق بها صدره . إنه واثق من أنهما يعلمان بما بين زوجته وصديقه ، ولكنهما يتحاميان ذلك

الحديث حتى لا ينكأ جرح وجدانه ، وصمم على أن يجرهما إليه جرا ليشاركاه في حمل ذلك العبء الذى ناءت به نفسه ، قال :

ـــ الأيام عاجزة عن إصلاح ما أكده الباشا ، طلب منى أن أطلق بثينة لأنها تخوننى مع صديقى ، فإن كان هذا صحيحا ، فكيف تصلحه الأيام ؟! الأيام أعجز من أن تعيد شرفا سلب ، وثقة اجتثت من جذورها ..

قال حلمى فى ضعف وإن تظاهر بالحماسة :

ـــ هذا غير صحيح ..

فقال عبد الخالق فى مرارة :

ـــ بل أنا واثق أنه صحيح ..

ونظرت إليه أمينة هانم نظرة قلقة ، وراح عبد الخالق يرقبها برهة ثم قال :

ـــ أقرأ ما فى عينيك وإن أمسكت عنه لسانك ، تتساءلين لماذا أنا غاضب على الباشا إذا كان ما يقوله صحيحا ؟ وأقول لك : إننى لست حاقدا على الباشا ، كل ما أرجوه منه أن يصفح عنى ، أن يسامحنى ، وإن كان سبب غضبه علىّ الآن أننى لم أطلق بثينة ، فإننى لم أفعل لأننى سأطلق الدنيا كلها دون أن أقتص من أحد ، سأترك كلا لنفسه تقتص منه ، كما تقتص منى نفسى الساعة على ما قدمت يداى ، فقصاص النفس من نفسها أقسى قصاص ..

وثارت أشجان حلمى ، فكلمات أخيه وجدت صدى فى نفسه ، وراحت تمزق نياط قلبه ، فقد كابد من قبل ما يكابده عبد الخالق ، اقتصت نفسه منه قصاصا مرا لا يزال يحس مرارته فى نفسه حتى الساعة ، مذ هجر إيفا وتنكر لابنه الذى كان فى بطنها ذلك النكران الدنىء الذى أفسد عليه كل حياته ، وأراد أن يفر من نفسه وأن يبث حب الحياة فى روح أخيه المنهارة ، لعله يعاود مقاومة الفناء السارى فى جنباته ، فقال فى حماسة نابضة بالرقة :

ـــ ومحمدا لمن تتركه ؟!

وسرت رجفة خفيفة فى أوصال عبد الخالق ، وخنق قلبه حنانا وكاد أن

يضعف ، وإذا به يحشد كل قوى كبريائه كأبيه ويقول فى هدوء كلفه كثيرا من الجهد :

— سأتركه لك أنت ، وأنا واثق من أنك ستكون له نعم الأب ، إنه يحبك وأنت تحبه .. مستقبل محمد معك خير من مستقبله معنا ، إننى سأتركه وديعة فى أيد رحيمة وسأذهب وأنا مطمئن البال ..

ولم تملك أمينة هانم عبراتها فأجهشت بالبكاء ، فقال لها عبد الخالق فى هدوء :

— لا تبكى يا أماه ، الموت ليس بالبشاعة التى تتصورينها ، كم فى الموت من راحة ؟ وما أكثر ما يكون صدر الموت أرأف بنا من صدر الحياة ..

قال حلمى فى انفعال :

— لا يا عبد الخالق ، لا تستسلم هكذا ليأسك ، لا بد أن تعيش من أجل محمد ، حنان الدنيا كلها لا يعوض عن حنان الأب ..

فقال عبد الخالق وقد اغرورقت عيناه بالدموع لأول مرة :

— بل لا يعوض عن حنان الأم ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل إذا كانت أمه قد غمرت بحنانها رجلا آخر ؟ سلبته حقه من الحنان لتغدقه على رجل غريب ؟!

— لا يا عبد الخالق ، لا تصدق هذه الأوهام ، ولا تترك نفسك فريسة لها ، بثينة تحب محمد ، تعبده عبادة ، قلبها كله له ، لا ينازعه فيه منازع حتى أنت ..

وأراد أن يؤكد فى نفس أخيه حديثه ، فمد يده فى جيبه وأخرج ساعة اليد التى اشتراها وقدمها إلى أخيه وهو يقول :

— حتى الباشا الذى تحسب أنه لا يحبك لم ينس محمد ، اشترى له هذه الساعة من الحجاز وأحضر له كوفية وعقالا ، إننى مسافر غدا إلى الإسكندرية ، وسأقابل محمدا وأعطيه هدايا جده ، وسأقبله قبلة لى وقبلة

منك ، أتريد أن أقول له شيئا ؟

وراحت أمينة هانم تنظر إلى الساعة الصغيرة الأنيقة التى كان عبد الخالق يقلبها فى فرح بين يديه ، إن الباشا لم يشترها ولم يفكر فى شرائها ، إنه حلمى الذى اشتراها ليقدمها إلى ابن أخيه على أنها من جده ، وحسنا فعل .. لو كانت تعلم أن هدية صغيرة مثل هذه تفعل ما يعجز عن أن يفعله السحر فى النفوس لاشترت عشرات منها ، ولكنها ما كانت تعلم ، وما أكثر الأشياء التافهة التى تأسر القلوب وغابت عن فطنتها ..

ووضع عبد الخالق الساعة على أذنه وارتسمت على وجهه آى البشر ، ثم وضعها على شفتيه وقبلها وأعادها إلى أخيه وقال :

ــ شكرا لكم ..

وساد الصمت المعبر برهة ، ثم التفت عبد الخالق إلى أخيه وقال :

ــ حلمى .. أريد أن أعود إلى بيتى ..

قال حلمى وهو ينهض لينصرف :

ــ أعدك أننى سأكلم الطبيب فى هذا ، وأنك ستعود إلى البيت إذا لم يكن فى عودتك ما يعوق علاجك ..

ونهضت أمينة هانم وصافحت عبد الخالق وهى تقول :

ــ أرجو أن أراك فى المرة القادمة إن شاء الله وأنت معافى وأنت فى بيتك ..

قال عبد الخالق وهو يبتسم :

ــ أشكر لك هذه الزيارة ، وحمدا لله على سلامة العودة ، بلغى الباشا تحياتى ..

وانصرف حلمى وأمينة هانم ، وفيما هما فى طريقهما إلى السيارة ، التفتت أمينة هانم إلى ابنها وقالت :

ــ لماذا لا يعود عبد الخالق إلى داره ؟

قال حلمى وهو مطرق :

— قلب عبد الخالق ضعيف جدا ، وأقل انفعال قد يقضى عليه ، إننى أنا الذى أمانع فى عودته ، لأنه إذا عاد فستكون بثينة دائما إلى جواره ، وقد تتطور المناقشات بينها وبينه إلى مشاحنات تقضى عليه ، إن عودة عبد الخالق الآن إلى بيته معناها موته ..

وراح عبد الخالق يتململ فى فراشه ، ويعيد فى ذاكرته كل ما كان بينه وبين أخيه والحاجة ، ثم فكر فى ابنه ، وما لبث أن فكر فى بثينة ورفعت ، فطفق يتقلب كأنما يتقلب على جمر ، ويئن أنينا ينطلق فى جوفه كسهم من نار ، ورن فى أذنيه صوت الباشا وهو يصيح به أن يطلق زوجته لأنها مرغت شرفه فى الوحل ، فكاد يصرخ من الألم الذى يمزق وجدانه ، وبلغ به الجهد منتهاه ، فراح ينوء والصورة التى بات يرتاح إليها تطفو على سطح ذهنه ، صورة أمه المسجاة فى فراش الموت وقد أكب عليها يقبل شفتيها الباردتين اللتين فرت منهما كل مقومات الحياة ..

٦٠

سرح خيال حلمى وهو منطلق بسيارته فى الطريق الزراعى ، كانت الترعة عن يمينه والأرض السوداء والخضراء تمتد على مدى البصر على يساره ، والشمس ترسل أشعتها الحامية فيتفصد العرق منه دون أن يضيق به ، كان مشغولا عنه بالأفكار التى تترادف فى رأسه ، والمشاعر المتباينة التى تمور فى صدره ..

كان يفكر فى أسرته فيعجب ، وكان كلما أمعن فى التفكير ازداد عجبه ، إنه وزوجه وأمه وأبوه وأخوه وزوجته وابنه لا يزيدون على سبعة ويملكون عشرة آلاف من الأفدنة من أجود الأراضى ، وعلى الرغم من ذلك لم يعرفوا السعادة يوما ، إنه عرف إيفا ولما تحرك ابنه فى أحشائها طردها لأنه كان أجبن

من أن يتحمل نتيجة ما فعل ، يا ليته استطاع فى ذلك الوقت أن يهتك حجب الغيب ليرى اللوعة التى تتربص به ، إذن لوقف إلى جوار إيفا وابنه ولو واجه العالم كله .. وتزوج من سميرة وهو يأمل أن تمنحه الولد ولكنها كانت عاقرا ، كأنما شاء قدره أن ينتقم لإيفا وابنها ، وعزم على أن يطلقها ولم يوافق الباشا حتى لا يفقد تأييد محفوظ باشا ، فهو لا يزال يأمل فى عودة الوفد وتعيينه وزيرا !

وعبد الخالق خانته زوجته ، وطعنت كبرياء الأسرة ، وأصر الباشا على أن يطلق عبد الخالق بثينة ولم يفعل عبد الخالق شيئا ، إنه يريد أن يطلق سميرة والباشا لا يؤيد هذه الرغبة ، وعبد الخالق لا يريد أن يطلق زوجته والباشا يصر على تطليقها ، إن الباشا على الرغم من ثرائه لم يذق طعم السعادة ، فهو يريد أن تسير الدنيا حسب هواه ولكن الدنيا لا تنصاع لأمره .. ووسوس فى نفسه قول سمعه : « خذ من الدنيا على قدر ما تشاء ، وخذ من همومها على قدر ما أخذت منها » ..

ورن فى جوفه قول أخيه : « مستقبل محمد معك خير من مستقبله معنا » وأخذ يفكر فى محمد وفيما ينتظره لو مات أخوه ، أهو حقا أحق به بعد موت أخيه من بثينة ؟ إنه يستشعر فى أعماقه أن بثينة خير له منه حتى ولو كانت بثينة تردت فى الخطيئة .. إنها أمه وما يظن أن حنانا مهما فاض يتسامى إلى حنان الأمومة ، إنه يحس إحساسا عميقا أن بثينة ستكرس ما بقى من حياتها لابنها ، وستهجر ذلك النزق الذى اتهمت به أخيرا ، وكاد يطمئن لما ذهب إليه ، وسرعان ما راح فكره يمده بقصص أمهات هجرن أولادهن فى سبيل حبهن ، وما أدراه أن بثينة لا تكون من النسوة اللاتى يفضلن العشيق على فلذات أكبادهن ؟!

وشرد يفكر والأشجار على جانبى الطريق تمر مر السحاب ، إنه لو أخذ محمد فسيمنحه كل حبه .. أيعوضه ذلك الحب عن حب أمه وأبيه ؟ وهل يعوضه محمد عن إنجاب ابن من صلبه ، إنه ابن أخيه ، وهيهات أن يكون

كابنه ، إنه يحب محمد ما فى ذلك ريب ، ولكن حبه لذلك الشيء الذى حملته إيفا منه يفوق كل حب عمر به قلبه ..

ودخلت السيارة من الباب الكبير وانسابت إلى الفناء الذى تطل عليه سراى الباشا وفيلا الضيوف ، ولمح عثمان وهو فى مكتبه ابن عمه ، فلم يتحرك ولم يسرع إليه كما يفعل كلما جاء الباشا ، بل استمر يفكر ويجمع حنجحه ويشحذ كل منطقة ودهائه لمعركة الليلة ..

ووقفت السيارة أمام الدرج الرخامى الواسع ، وهبط حلمى منها وهو يجفف عرقه ، ويسرع الخطا ليفر من حرارة أغسطس ، ودخل على الباشا فألفاه فى جلباب أبيض فحياه ، وارتمى فى مقعد وثير يلتقط أنفاسه ..

قال الباشا فى حنان :

ـــ تأخرت حتى ارتفعت الشمس ..

قال حلمى وهو يجفف عرقه :

ـــ ذهبت أنا والحاجة لزيارة عبد الخالق فى المستشفى ..

ولاح الاهتمام فى وجه الباشا ، ولكن لم تتحرك شفتاه بكلمة ، وقال حلمى :

ـــ إنه يرجو أن تسامحه ، وأن تصفح عنه قبل أن يموت ..

واضطرب الباشا وخشى أن يستبد به ضعفه ، فقال فى حدة :

ـــ لن أصفح عنه أبدا قبل أن يطلق بثينة ..

ـــ الواجب يا باشا أن تزوره فى مرضه ..

ـــ أنا أزوره ؟! وإذا زرته وهو متمسك بزوجته التى تخونه فماذا يقول الناس عنى ؟ سيقولون إننى راض عن الفساد الذى يجرى فى أهل بيتى .. لا .. لن أزوره أبدا ، لست ديوثا ، لن أزوره حتى ولو مات ما دامت بثينة على ذمته ..

وقال حلمى وهو مطرق :

— إنه تأكد أن بثينة تخونه ..

فقال الباشا فى ثورة :

— فماذا ينتظر ؟

— قال إنه لا يطلق بثينة لأنه طلق الدنيا كلها ، سيتركها لنفسها تقتص منها .

— اسكت ، لا أريد أن أسمع هذه الخيبة ، إنه لا يطلقها لأنه أضعف من أن يطلقها .. أنا أعرف عبد الخالق ، خوار دائما ، يفر من واقعه بمثل هذه الآراء السخيفة ، إنه طلق الدنيا ، يا للهوان ! أيريد منى أن أنشر فى الصحف أن ابنى طلق زوجته التى تخونه يوم طلق الدنيا ! لا بد أن أضع حدا لهذه المهزلة ، إننى ما حضرت اجتماعا إلا ورأيت الناس يتغامزون علىّ ، وأكاد أسمع سخرياتهم .. سأذهب بنفسى إلى بثينة ، وأضعها فى مكانها ..

فقال حلمى فى توسل :

— أرجوك ألا تفعل ..

قال الباشا فى انفعال :

— بل سأفعل ، وسأضع حدا لهذا الهوان ..

ووجد حلمى ألا فائدة ترجى من معارضة أبيه ، فقد عزم وما من قوة فى الأرض تثنيه عن عزمه ، فقام يخلع ثيابه ويستريح ..

وغابت الشمس ، وكسرت حدة الحرارة ، وخرج حلمى فى سيارته الجيب يطوف حول الأرض ويفكر فيما إذا كان الوقت مناسبا فى مفاتحة أبيه فى أمر عثمان وسرقاته التى وضع يده عليها ، وقر قراره أن يتريث قليلا حتى يستريح الباشا من متاعب الحج .. كان يشفق عليه من الصدمة ، ويا لها من صدمة يوم يكتشف أن عثمان كان يخدعه طوال العمر كله ، إنه موضع ثقته ، وقد طعن الباشا من مأمنه ..

وعاد إلى السراى وقد غرق الكون فى الظلام ، وصعد فى الدرج متمهلا

يفكر فى نفسه وفى سميرة وفى عبد الخالق وبثينة وفى محمد وفى إلهام وبدر الدين ، وراح يتساءل فى نفسه : ألهام سعيدة حقا فى حياتها كما تبدو للناس ؟ وأنكر على نفسه هذا السؤال ، وراح يحاسب نفسه : لماذا نبت هذا السؤال فى ذهنه ؟ أيريد أن يشكك فى إمكان وجود سعادة خالصة ؟ إنه لم يسعد ، هذا حق ، وأبوه وأمه وأخوه لم يعرفوا السعادة ، هذا حق ، ولكن ليس معنى هذا أن ليس هناك سعداء ، فما أكثر الذين عرفوا السعادة من أقصر طريق ..

وبلغ غرفة الباشا ، وألفى النور متألقا فيها فدخل ، ووقع بصره على عثمان وهو يلتقم أذن الباشا كعادته ، فاستشعر ضيقا وألقى عليه تحية مقتضبة ، ودار على عقبيه لينسحب من المكان ..

قال الباشا فى رقة :

— حلمى !

فالتفت حلمى إلى الباشا من فوق كتفه ، وقال الباشا :

— اقعد ، ابن عمك يريد أن يعاتبك ..

وابتسم حلمى وجلس وراح ينظر إلى عثمان فى استخفاف ، كان قد قرر أن يؤجل مهاجمته إلى فرصة أخرى ، ولكن الظاهر أنه يتعجل المعركة ، ومال حلمى إلى الوراء ، وسدد نظرة إلى عثمان وعلى شفتيه بسمة وقال :

— هات ما عندك يا عثمان بك ..

قال الباشا دون أن يفطن إلى خطورة المعركة التى سيشتد وطيسها بعد حين ، وسيخوض غمارها ثائرا مزمجرا :

— قل كل ما عندك يا عثمان ، فإننا نريد أن نصفى ما بينك وبين ابن عمك لتسلم القلوب مما شابها ..

فاعتدل عثمان وقال :

— والله لولا أننى أعز ابن عمى ما صبرت على ما فعله ، لقد جاء ببعض شبان لا يدرون عن الزراعة شيئا ، كل مؤهلاتهم أنهم يحملون شهادة من

الجامعة ، ويا ليته جاء بهم ليتدربوا عندنا ، بل سلمهم الأرض كلها ، وراحوا يفسدون فيها ، جاءوا يتعلمون الزيانة فى رءوس يتامى ، ولكننا لم نكن يتامى . جئت لابن عمى وقلت له أن الباشا لو كان موجودا لما وافق أبدا على هذا ، ولم يصغ إلى اعتراضى ، واستمر فيما رسمه ، وصبرت على مضض ، وفاض صبرى فلم أطق أن أرى الأرض التى أصلحناها بعرق جبيننا يعبث فيها العابثون وأنا واقف مكتوف اليدين ، فتركت العزبة وهربت ، إننى أعلم يا باشا أنك عاتب على لتركى الأولاد يعيثون فى الأرض فسادا ، ولكن ماذا كان فى مقدورى أن أفعل ؟ كنت مغلوبا على أمرى ..

وراح حلمى يعبث فى أصابعه ، لم يبد عليه الاهتمام ، وظل صامتا حتى قال له أبوه :

ــ ما رأيك فيما يقول ابن عمك ؟

قال حلمى فى هدوء :

ــ اسمح لى يا باشا أن أحضر ملفا من غرفتى ..

فقال الباشا وهو يفحص ابنه بنظرة ثاقبة :

ــ وما أهمية هذا الملف فى حديثنا ؟ قل رأيك ثم نصفى ما بينك وبين ابن عمك ..

قال حلمى وهو ينهض :

ــ هذا الملف هو الذى سيصفى ما بينى وبين ابن عمى ..

وخرج حلمى ، وقال عثمان فى سخرية :

ــ سيحضر شهادات ميلاد الجاموس والبقر والخيل والحمير والأغنام وأنسابها ..

وابتسم عثمان ولم يتبسم الباشا بل نبت فى جوفه قلق لم يدر له سببا ، وعاد حلمى وجلس وراح يقول وهو يضرب ركبتيه بالملف :

ــ كنت قد عزمت على أن أؤجل هذا الحديث ، وما دام ابن عمى أبى

إلا أن يثيره الليلة ، فما باليد حيلة .. كل ما قاله ابن عمى صحيح ، ولكن ينقصه بعض التوضيح ، ولن أفعل أكثر من أن أوضح ما قاله .. كان ابن عمى هو كل شيء فى هذه الأرض ، لا يعرف المحصول أحد غيره ، ولا يستطيع أحد أن يتصرف فى شيء إلا بإذنه ، هو الوزان وهو الكيال وهو المقدر لأسعار البيع وأسعار الشراء ، ولما كان التنظيم الصحيح يقضى بالتخصص فقد خصصت واحدا مسئولا عن كل عملية ..

قال عثمان معترضا :

ـــ هذا تبذير ليس له ما يبرره ، لماذا ندفع أجورا ومهايا لأناس نستطيع أن نقوم بأعمالهم ؟

ـــ ثبت بالإحصاء أن هذا ليس تبذيرا ، فاقت ثمار أعمالهم الأجور والمهايا التى دفعت لهم ، وظهر بالدليل القاطع أن العزبة تغل أكثر مما كانت تغله ..

فقال عثمان فى حدة :

ـــ ماذا تقصد أن تقول ؟

قال حلمى وهو يرمق عثمان فى سخرية :

ـــ أريد أن أقول.إن غلة الأرض الفعلية تفوق ما يتسلمه الباشا .

قال عثمان :

ـــ لا . هذا لا يحتمل .. إننى لا أسمح لكائن من كان أن يشك فى ذمتى ..

وأخذ الباشا يرقب ذلك النقاش فى اهتمام ، دون أن تتحرك شفتاه بكلمة ..

وقال حلمى وعلى شفتيه بسمة هازئة :

ـــ من قال إننى أشك فى ذمتك ؟ إننى لا أشك فيها لأننى واثق من خرابها ..

فهب عثمان واقفا وثار قائلا :

ـــ أنا لا أطيق هذه الإهانة ..

قال الباشا فى غلظة :

ـــ اقعد .. أنا لا يهمني إذا كنت تطيق هذا أو لا تطيقه ، أريد أن أعرف الحقيقة ..

فقال عثمان فى ثورة :

ـــ أتريدنى أن أسكت على هذه الإهانة ، يتهمنى أنا بخراب الذمة ، أنا الذى أفنيت عمرى فى خدمتكم ! أنا لا أقبل هذا أبدا ، لا أقبل أن يكون هذا جزائى ..

قال الباشا فى غضب :

ـــ قلت اقعد حتى تنجلى الحقيقة ..

وزاغت نظرات عثمان ، ووجد فى الثورة خير عون للدفاع عن كيانه الذى يوشك أن ينهار ، فقال :

ـــ أنا أعرف أن حلمى بك لا يطيقنى ، إنه يريد أن ينفرد بإدارة العزبة ، هذا حقه ، إننى لا أعارض فيه ولكننى لا أقبل أبدا أن يكون ذلك على أنقاضى ، هناك أكثر من طريقة مهذبة تمكنه من أن ينحينى دون أن يتهمنى فى أعز ما أملك ، وهل أملك أعز من شرفى ؟! إننى لا أسمح لكائن من كان أن يطعننى فى شرفى ..

ووقف الباشا منفعلا وقال :

ـــ قلت لك اقعد واسمع ما يقول ابن عمك ودافع عن نفسك ، أريد الحقيقة .. أريد الحقيقة ..

وجلس عثمان مبهور النفس ، والتفت الباشا إليه وقال :

ـــ آه لو كنت تغشنى كل هذه السنين !

فقال حلمى وهو يهز الملف فى وجه الباشا :

ـــ يؤسفنى يا باشا أن أقول إنه كان يغشك كل هذه السنين ..

وضاق صدر الباشا بقول ابنه ، فهو يتمنى من أعماقه أن تنهار الاتهامات الموجهة لعثمان ، لا حبا فى ابن أخيه ، بل إرضاء لغروره ، ففكرة أنه كان

مخدوعا طوال هذه السنين تضايقه ، فقد وضع فى عثمان كل ثقته ، وهو يرجو ألا يثبت أنه هو الرجل الحريص قد وضع ثقته فى غير موضعها .. لو ثبت أن عثمان كان يخدعه ففيم كان طرده لعبد الخالق ؟

وقال لحلمى فى حدة :

— لا أريد اتهامات لا أساس لها ، أريد وقائع مدعمة بمستندات .

فقال حلمى فى هدوء :

— وهل كنت أقدم على اتهام عثمان بك ما لم تكن مستندات إدانته فى يدى !

وفتح الملف وأخرج منه ورقة وقال :

— أتذكر أن عثمان أجرى عمرة كاملة للمحاريث والجرارات ؟

— أذكر ..

وقدم الورقة إلى الباشا وقال :

— أتذكر أن هذه كانت التكاليف ؟

فتفرس الباشا فى كشف الحساب وقال :

— وقد دفعنا هذه القيمة ..

ورمق حلمى عثمان بطرف عينيه فألفى لونه قد غاض ، فابتسم وقال :

— فما رأيك يا باشا إذا كانت هذه المحاريث والجرارات لم تفك قبل الآن ؟

وفهم الباشا ما يرمى إليه حلمى ، فاحتد قائلا :

— وما إثباتك ؟

فأخرج حلمى ورقة أخرى من الملف وقال :

— شهادة المهندس الذى قام بفك المحاريث والجرارات بأنها لم تفك من قبل ..

فقال الباشا وهو يهز كشف الحساب فى يده :

— وكشف الحساب هذا من الذى قبضه ؟

قال حلمى وهو ينظر إلى عثمان :

ـــ اسأل عثمان بك ..

والتفت الباشا إلى عثمان وقال :

ـــ انطق .. تكلم .. لماذا خرست ؟

فقال عثمان وقد احتقن وجهه بالدم :

ـــ هذا كذب .. هذا افتراء .. إنه دبر هذه الاتهامات ليحطمنى .

وقال حلمى وهو يخرج ورقة أخرى من الملف :

ـــ وهذه شهادة أخرى من مهندس آخر بأن مضخات المياه التى قبض عثمان بك قيمة إصلاحها لم تمس من قبل ..

والتفت حلمى إلى عثمان وقال وهو يهز الملف فى وجهه :

ـــ وهنا شهادات بالمحاصيل بإشرافى وإشراف الشبان الذين تسخر منهم . شهادات تثبت كلها أن حقيقة ما تغله الأرض يزيد على ما كنت تقدره على هواك ..

وصاح عثمان قائلا :

ـــ إنك تريد أن تتخلص منى ، دبرت كل هذه المفتريات لتتخلص منى ، إننى ذاهب ولن أسامحك أبدا .. أبدا ..

أراد عثمان أن يفر من سوط الاتهام الذى يلهب روحه ، ويجعل الأرض تميد به ، ولكن الباشا أسرع وسد عليه المنافذ .. ودنا وجهه من وجهه وانفجر صائحا :

ـــ يا لص .. خدعتنى .. وثقت فيك فخربت بيتى ، ورثتنى وأنا حى يا ضلالى .. سخرت منى كل هذه السنين .. خدعتنى حتى هان علىّ أن أدفع خمسة آلاف من الجنيهات لأشترى لك أنت البكوية . يا لص .. خدعتنى .. ولن أترك من خدعنى يمشى على الأرض أبدا .. أبدا ..

وأطبق يديه على عنق عثمان وراح يضغط فى شدة ، وعثمان يجاهد ليفك القبضة التى كادت تزهق روحه ، والباشا يزمجر :

— لص .. ضلالى .. كيف وثقت فيك وأنا أعرف أباك خائنا لا يؤتمن .
خربت بيتى .. خربت بيتى ..

وهرع حلمى إلى أبيه وراح يجاهد مع عثمان ليفك قبضته عن العنق الذى كان يزداد ضغطه عليه ، وراح حلمى يقول :

— دعه .. سيموت فى يدك ، لن نجنى من قتله إلا المتاعب ..

وقال الباشا وقد انقلب وحشا :

— لا بد أن يموت . لن أدع من خدعنى يمشى على الأرض أبدا .

وجعل حلمى يقاوم أباه ويقول :

— اتركه .. اتركه .. إنه لا يستحق أن يؤخذ به ..

وخلص عنق عثمان من يدى الباشا ، فوقف يترنح ثم انسل من المكان لا يلوى على شىء ، وسباب الباشا يلاحقه :

— يا خائن .. يا ابن الخائن .. خربت بيتى .. الله يخرب بيتك ، والله لن تهدأ نارى حتى أواريك التراب ..

وغاب عثمان عن العيون والباشا يسب ويلعن ، ثم ارتمى فى مقعده وراح يقول فى انفعال :

— خدعنى الكليب .. خدعنى أنا ! غشنى الكلب .. غشنى أنا !

فدنا حلمى من أبيه وقال :

— هون عليك ..

فقال الباشا فى أسى :

— ليته مات ولم أكشف خيانته ، فلو مات لترحمت عليه ، أما الآن فسألعنه فى الغدو والآصال ، سألعنه ولن تسلم نفسى من لومى ..

— وماذا كنت تستطيع أن تصنع ؟

— كان ينبغى ألا أثق فيه كل هذه الثقة ..

— هذا كلام نقوله بعد أن نكتشف الخيانة ، إنها الشىء الذى لا نستطيع أن

تمنعه ..

— ما أقسى أن نكتشف فجأة أن من كنا نضع فيه ثقتنا يخوننا .

وأراد حلمى أن ينتهز فرصة ضعف أبيه ليرق قلبه على أخيه ، فقال :

— ائتمنت عثمان وخانك ، ووثق عبد الخالق فى بثينة وخانته .

فاحتد الباشا قائلا :

— لا .. لا تشبهنى يا حلمى بعبد الخالق ، إنه جبن عن أن يطلق زوجته التى خانته ، أما أنا فلا أتردد فى قطع يدى إن خانتنى ، إننا لا نلام على أن يخوننا الآخرون ، ولكننا نلام إذا ما استكنا للخيانة .

٦١

ضاق سليم بوسوسات وجدانه ، فما أن يختلى بنفسه حتى تتحرك همسات ساخرة فى جوفه تلسعه لسع الأفعى وتجرح كبرياءه فيتلوى خزيا ، هدد بأنه سيلصق خد بثينة بالأرض إن لم ترعو وتكف عن عبثها ، وها هى ذى سادرة فى استهتارها دون أن يحرك ساكنا ، فقد ظهرت فى حفل عام مع رفعت بينا عبد الخالق فى المستشفى يرجو أن يحمل إلى بيته ليموت بين أهله ..

وتدفقت دماؤه حارة فى عروقه ، وراحت ترن فى جنباته أصوات ثائرة تحرضه على أن يقوم من فوره وينطلق إلى بثينة لوضع حد لفجورها الذى باتت تعلنه على الملأ كأنما تفعل ذلك عامدة لتلطخه بالعار ، فهب واقفا وقد عزم على أن يذهب إليها لينفس عن المشاعر المزمجرة فى صدره ، وما دار بخلده أن سبب ضيقه هو أن الأمور لم تسر وفق هواه ، فقد ألغيت الألقاب ، وتقوض حلم عودة الوفد إلى الحكم ، وشحن الجو بأحاديث اعتزام الحكومة تحديد الملكية والقضاء على الإقطاع ..

وسار إلى بيت ابنه فى العصر ليضمن وجودها قبل أن تخرج إلى المستشفى

أو إلى حفل من الحفلات الكثيرة الفارغة التى أمست تمضى فيها أغلب لياليها ، ونشبت معركة حامية فى جوفه ، رأى بعين خياله بثينة واقفة منكسة الرأس خزيا والسباب والاتهامات والتهديدات تتدفق من فمه كسياط من نار دون أن تفتح فمها بكلمة ، فما كان يخطر له على قلب أنها تستطيع أن تفتح عينيها لتواجه شرر الغضب المتطاير من عينيه ..

وفى هذه اللحظات المتأججة بالغضب طاف به خيال حلمى ، فإذا بطاقات الثورة الهوجاء الموارة فى جنبات صدره توجه إليه فيأخذ فى لوم نفسه على ما جناه فى حق ابنه ، إنه هو الذى حال بينه وبين سعادته ، كان حلمى يهفو إلى تطليق سميرة ليتزوج بأخرى تمنحه الذرية التى يشتهيها ولكنه وقف بأنانيته فى سبيله ، كان يريد أن يرى ابنه وزيرا ، فضحى بهناء ابنه فى تحقيق أمانيه ، وإذا بالأيام تسفر عن غيبها العجيب ، فلا ابنه أصبح وزيرا ، ولا هو تزوج بامرأة ولود ..

ودخل غرفة الاستقبال وراحت الخادم تهرول إلى غرفة سيدتها تعلنها بمقدم الباشا ، إنها لم تره من قبل أبدا وإن عرفته من صورته الكبيرة المعلقة فى غرفة سيدها ، وفطنت الخادم إلى أنه ما جاء إلا لأمر ذى بال ، فأخذت تطرق الغرفة دقات متتابعات تنم عن القلق الذى تحسه ..

وقالت بثينة فى حدة :

— ادخلى ..

وفتحت الباب ، فإذا بثينة وابنها جالسان وفى يد كل منهما مجلة .. وقالت الخادم :

— سليم باشا جاء ..

فقالت بثينة فى دهش :

— هنا ؟

— إنه فى غرفة الاستقبال ..

وأوجست بثينة خيفة وإن بدت هادئة ، ووضع محمد المجلة جانبا ، ونظر إلى الساعة التى فى معصمه ثم نهض وهرول إلى غرفة الاستقبال ، ولم ترتح بثينة لوجود ابنها ، فهى على ثقة من أن الباشا ما جاء إلا ليثير المتاعب ويشعل نار العداوات ، كانت تتمنى أن تقابل حماها وحدها حتى إذا ما قامت مشادة بينه وبينها وتطايرت الاتهامات وتقاذفا بالسباب لم يصب أحد غيرهما ، أما وأن محمدا قد يشهد المعركة فهى تخشى أن تصيبه الأسلحة القذرة التى قد يلجأ كل منهما إلى طعن غريمه بها .. آه لو وصمها الباشا بخيانة زوجها أمام ابنها لقضى عليها ، إنها تحس إحساسا خفيا أن الباشا ما جاء إلا لهذا ..

وتقاصرت نفسها واستشعرت هوانا ، وكأنما أرادت أن تسترد ثقتها فى نفسها ، فراحت تهمس فى سخرية لتئد مخاوفها : « الباشا ؟! لم يعد باشا » ألغيت الألقاب واستل منه كل سلطان ، وهبط من عليائه ، ويا ليته لا يطلق لسانه حتى لا أزلزل الأرض تحت أقدامه ، إن تكلم فلن أسكت أبدا ، سأرد عليه الكلمة بعشر أمثالها ..

وقامت تتأهب لاستقبال الرجل العنيد الذى جاء ليهاجمها فى عقر دارها ، وتلم أطراف شجاعتها التى قلما تخلت عنها ..

وذهب محمد إلى جده بقلب سليم ، وقال له وهو يشير إلى الساعة التى فى معصمه :

ـــ شكرا لك يا جدى على هديتك ..

ونظر الباشا إلى الساعة فى إنكار ، إنه لا يعرفها ، وهذه أول مرة تقع فيها عليها عيناه ، وقال محمد فى فرح :

ـــ قال لى عمى حلمى : هذه الساعة اشتراها لك جدك من الحجاز ، وأعطانى كوفية وعقالا ..

ودنا محمد من جده فضمه الباشا إلى صدره ، وتحركت فى جوفه مشاعر الغضب رقيقة دغدغت حواسه واستكان لها حتى كادت تغمر مشاعر الغضب

التى اندلعت ألسنتها فى أعماقه ، وأحس الصبى راحة وهو بين أحضان الباشا ذكرته بالحنان الدافق الذى يستشعره كلما احتواه أبوه بين ذراعيه ، فالتفت محمد إلى جده وقال :

— سيعود أبى إلى البيت بعد غد ، سيغادر المستشفى ..

وقال الباشا فى صوت متهدج :

— وكيف هو الآن ؟

— قال لى أمس لما ذهبت لزيارتة إنه بخير ..

وصمت الباشا وانزوى غضبه ، وزحف الأسى ينتشر فى حناياه ، قال لى حلمى إن عبد الخالق أصر على أن يعود إلى داره ليموت فيها ، وأن الطبيب وافق على عودته لا لأنه برأ من مرضه ، فلا شفاء لمن وهن قلبه ، بل لأن بقاءه فى البيت أو فى المستشفى سواء ، إنه يهفو إلى الذهاب لرؤيته ولكنه يخشى أن يفسر ذهابه لعيادة ابنه بأنه إقرار بعبث زوجته وتسليم بسلوكها المشين ..

إنه جاء اليوم ليعلن غضبه على بثينة وليقول لها إنه برىء منها وأنها ليست زوجة ابنه ، فإذا كان المرض قد أقعد عبد الخالق عن أن يطلقها فلن يقبل أبدا أن يجمع بينه وبين من خانته بيت واحد ، سيطردها طرد الكلاب أول ما يسترد أنفاسه ..

وانتشر الغضب ثانية فى صدره واندلع لهيبه ، وأقبلت بثينة فى زينتها فهب الباشا واقفا بعد أن دفع محمدا بعيدا عنه فى رفق ، وأخذت دماؤه تتدفق حارة فى شرايينه حتى احتقن وجهه وصار فى لون طربوشه ..

واتجهت بثينة إليه تتصنع الهدوء وإن اشتد وجيب قلبها ، ومدت يدها إليه لتصافحه ، فتجاهل اليد الممدودة ، وأحست أنه طعنها طعنة مسمومة كادت تترنح لها ، وفى مثل لمح البصر جمعت ثباتها الذى كاد يذهب شعاعا ، وعزمت على أن ترد له الطعنة ، فقالت وهى تشير بيدها المرفوضة إلى مقعد وثير :

— تفضل سليم أفندى ..

وأحس وقع سخريتها فى قلبه ، وزادت فى حدة غضبه ، فقال فى قسوة :

— ما جئت إلا لأقول لك إن رائحة فضائحك فاحت وزكمت الأنوف ، وأن الناس كلها تتحدث عن علاقتك الشائنة برفعت ، وأننا لا نرضى هذا الهوان ، فإذا كان عبد الخالق لم يطلقك حتى الآن فسيطلقك ، فما أحسب أن رجلا منا يقبل أن يظل مرتبطا بفاجرة مثلك ..

وانفجر محمد باكيا وهو ينقل عينيه بين أمه وجده فى ذهول ، ثم جرى ليذرف دموعه وينشج وينتحب بعيدا ، ووقفت بثينة برهة وهى مذهولة ، فلو أن هذا القول وجه إليها وحدها ، دون أن يؤذى سمع ابنها الذى كانت تفضل أن تموت على أن يتدسس إلى وجدانه شك فى طهارتها ، لما أحست ذلك الانهيار الذى يرسى فى أوصالها ، إنه طعنها طعنة نجلاء فى شرفها أمام أعز من لها فى الوجود ، ويا ليت الطعنة استقرت فى فؤادها إذن لماتت وهى ترجو حب ابنها ، أما الآن فقد بذرت فى سريرته بذور احتقاره إياها ، وهى أمر بذور تغرس فى ضمير الصغير ..

وعز عليها أن تنهار ، ورأت أن تدافع عن نفسها لا لتقنع الباشا ، ببراءتها ، فهذا ضرب من المحال ، بل لتدخل فى روع ابنها أنها مفترى عليها ، فقالت فى ثورة :

— إننى لا أسمح لك أبدا أن تأتى إلى بيتى لتفترى علىّ كل هذا الافتراء ، أعلم أنك تكرهنى ، ولكننى ما كنت أظن أن دناءتك تصل بك إلى تلويث امرأة شريفة .. اخرج .. اخرج من بيتى ..

ونظر الباشا إليها والشرر يتطاير من عينيه ، وقال وهو يصرف أنيابه :

— يا فاجرة ! تحت يدى ما يثبت خيانتك ، فإن لم تتركى عبد الخالق وأنت صاغرة فسأشهر بك ، سأكون لسانا عليك ، سأجرك إلى المحاكم لتفصل بينك وبين ابنى ، إننى عشت شريفا ، ولن أسكت على هذه الدناءة أبدا ..

وزمجرت كوحش جريح وقالت :

ـــ أنت ؟ إنك لم تعرف الشرف يوما ، إذا خدعت الناس كلهم بحجك فلن تخدعنى أنا .. إنى أعرف كل نفاقك ، كل ماضيك .. أعرف جمعية الفتيات الصالحات .. أعرف الست أنهار .. أعرف أنك ضبطت أنت وابنك فى بيت واحد من بيوت الدعارة .. أعرف يا حاج الكثير ..

فقال الباشا فى ثورة ورأسه يدور :

ـــ يا فاجرة .. يا فاجرة ..

وأحست أنها زلزلته ، فقالت فى تهديد :

ـــ اسمع يا سليم أفندى ، إذا كان بيتك من زجاج فلا تقذف النـاس بالحجارة ..

وقال الباشا فى تهديد وهو ينسحب ليفر من الهوان الذى تردى فيه :

ـــ والله إن لم يتركك عبد الخالق فلن تمشى على الأرض أبدا ، لن أسمح بأن أرى عارى يسير بين الناس ..

ـــ أتقتلنى ؟

ـــ إذا كان قتلك هو آخر ما نغسل به العار الذى لطخنا ..

وانسل هاربا وبثينة تنظر إليه شاردة ، وصوت يرن فى أغوارها : « ليتك قتلتنى قبل أن تغرس فى قلب ابنى احتقارى .. يا ظالم ، إننى ضحيتك ، فلولا عبثك وعبث ابنك ما سقطت ، كنت طاهرة الذيل حتى ذلك اليوم المشئوم الذى علمت فيه أنك ضبطت أنت وعبد الخالق فى بيت أنهار ، ليتنى لم أسقط ، ليتنى لم أتمرغ فى الوحل ، ليت ابنى يصفح » ..

وأفاقت من شرودها ، وراحت تجرى إلى حيث كان محمد يبكى ، فمالت عليه ورفعته ، وحاولت أن تضمه إلى صدرها ، فإذا به يشيح بوجهه عن وجهها ويتملص من بين يديها ، ويجرى مبتعدا عنها وقد زاد نحيبه ، وجعلت ترقبه وفى عينيها دموع ، وفى جوفها وقدة نار ، ثم أخفت وجهها فى المقعد الذى ارتمى ابنها فيه من قبل ، لتخفى الصور الأليمة التى راحت تراها بعقلها ،

واستبد بها اليأس ، فأخذت تجذب خصلات من شعرها الأسود فى عصبية وانفعال ..

٦٢

كان محمد مسرورا لعودة أبيه إلى البيت ، إنه لا يزال ممدودا فى فراشه ، شاحب اللون ، مكروب النفس ، ولكن وجوده أمام عينيه سد فراغا كان يحسه فى نفسه ، وزاد فى غبطته قدوم عمه حلمى مع أبيه يوم عودته ، وحدبه عليه ، وبذل كل ما فى جعبته لراحته .. إنه لا ينسى وصية عمه لأبيه قبل أن ينصرف ، طفق يؤكد عليه أن يلزم الهدوء وألا ينفعل ، وكان رقيقا فى حديثه ، صادقا فى مشاعره ، حتى إن كلماته البسيطة هزت قلب الصغير ، وهيجت منابع أشجانه ، فأطلت دمعتان من زوايا عينيه أزالهما سريعا بأصبعه ..

وفى غمرة سروره كاد ينسى الطعنات المسمومة التى سددها جده دون أن يدرى إلى أحشائه ، وأوشكت قشرة رقيقة أن تغلف قيح نفسه ، فراح يجوس خلال الدار مغتبطا والبشر يتألق فى وجهه ..

وجلس إلى جوار أبيه مطمئن البال ، مستريح الضمير وجاءت أمه ودنت من السرير ، فإذا بوجه أبيه يتقلص ، ويتحامى أن تلتقى عيناه بعينيها ، فراح ينقل عينيه بين أمه وأبيه فى قلق ، وأخذ النور الساطع فى ضميره ينطفئ ، وانتشر فى وجدانه ظلام وتحركت هوام مشاعره البغيضة ، وسرت كراهيته فى جنباته كالصديد ، فقسمات أبيه وانفعالاته تؤكد اتهامات جده لأمه ، تلك الاتهامات البغيضة التى يهب من نومه مفزوعا مرات ليضرب رأسه بقبضته فى غيظ شديد ..

كم هو قاس أن يعرف أبوه أن أمه تخونه مع صديقه ، وكم هو بغيض أن تكون

أمه على صلة برجل غريب ، وأحس أنه يكاد أن ينفجر من ضغط الدماء المتدفقة فى عروقه ، وأن حرارة دمائه تكاد تشوى وجهه ، فسدد إلى أمه نظرة ملؤها الغضب ، والتقت عيناه بعينيها فلم يستطع أن ينظر إليها طويلا .. تضاءل وغمره الخزى فأطرق رأسه هوانا ، وإن ربت ثورة البركان الذى يقذف حمم الغضب والمقت والعار فى أغواره ..

واضطربت بثينة من الرأس إلى أخمص القدم ، كانت نظرة ابنها تصرخ باحتقارها ، ولو أن سوطا من لهيب هوى على روحها ما خلف ذلك الألم الذى تحسه فى ضميرها ، وكادت تئن من نار العذاب الذى استشرت بين ضلوعها ، ولكنها كتمت آلامها ، ولم تقو على الصمود أمام ابنها الغاضب فى صمت بليغ ، فانسلت من حيث جاءت دون أن تنبس بكلمة ..

وانزوت بعيدا وراحت تفكر فى حالها بعقلها ، الاتهام الذى يشع من عينى ابنها يمزق نياط قلبها ، وكل المتعة التى حصلتها بطيشها لا تساوى نظرة احتقار واحدة يسددها إليها .. إنها أخطأت فى حقه دون أن تتدبر ، لوثته بأقذارها عن غير عمد ، أعماها حقدها فحسبت أنها تطعن الباشا وحده فى شرفه باستهتارها ، وما دار بخلدها لحظة أنها تمرغ ابنها الحبيب فى الوحل ..

لا بد أن تنتشل نفسها من الهوة التى تردت فيها من أجل ابنها ، ستقطع كل صلة بينها وبين رفعت ، ستعيش ما بقى لها من عمر طاهرة الذيل ، ولكن هل هذا يغير من واقعها شيئا ، لقد ترك رفعت بصمات أصابعه فى روحها ، ستظل طول حياتها موصومة بعارها ، ولن ينسى محمد أنها سقطت مرة ..

ورن فى أعماقها صوت أجش يصيح بها : « ساقطة .. ساقطة .. ساقطة » ووضعت أصابعها فى أذنيها لتصمهما عن صوت ضميرها الذى استيقظ بعد فوات الأوان ، ولكن هيهات فقد استمر يرن فى كهف نفسها ويتردد صداه ..

وسيطر عليها عقلها فقررت أن تسدل ستارا كثيفا على ماضيها ، وأن تطرد رفعت من حياتها ، وأن تغمر ابنها بحنانها حتى تسترد ثقته التى تزعزعت .. إنها

لن تقتلع ما بذره جده فى نفسه إلا بحسن سلوكها ، وإن اختفاء رفعت من مسرح حياتها سيشكك ابنها فى حقيقة الاتهامات التى رميت بها ..

وكادت تطمئن إلى القرار الذى اتخذه عقلها ، وإذا بهامس يهمس فى أعماقها أنها سبق أن قررت قطع كل صلة بينها وبين رفعت ، وكانت صادقة فى قرارها ، وما إن جاء رفعت حتى أنستها المرأة الأخرى المنهومة التى تعيش فى داخلها قرارها ، واستجابت لندائه دون تردد أو ندم ..

وفطنت إلى حقيقتها ، إنها وهى وحدها يسيرها عقلها ، أما إذا جاء رفعت فما أسرع أن يغفو العقل وتنقاد لعواطفها ، فإن أرادت السلامة ، وهى تريدها من أجل ابنها ، فلتكبح جماح عواطفها ولتطلق عقال ضميرها ، وعجبت فى نفسها كيف ينتصر ضعفها على قوتها ..

وراح الوقت يمر وقد غمر الدار بحر من الصمت ، موجاته قلق ، وومضاته شك ، وأنفاسه أنات مكتومة ، وساد الغرفة ظلام ، فقام محمد وانسل من جوار أبيه على أطراف أصابعه ، وقبل أن يغادر الغرفة مس أذنيه صوت أبيه :

— محمد ! أدر زر الكهرباء ..

فقال محمد وهو ينظر إليه فى الظلام ..

— من الأفضل أن تستريح ..

قال الأب فى وجد :

— محمد ! تعال ..

وذهب إليه ، فلف ذراعه حوله وضمه إلى صدره وقبله ، فأحس محمد كأن فيضا من الحنان ينسكب فى جوفه ، وانسل من الغرفة خافق القلب دون أن يرى الدموع التى جرت على خد أبيه ..

وجلس محمد بعيدا ، وما لبث أن سمع حركة عند الباب ، فذهب ليرى القادم ، فإذا به أمام رفعت وجها لوجه ، فانقبض ، وفاض صدره الصغير بالغضب والعداوة والنفور ، ومد رفعت يده ليداعبه ، فلما مست أصابعه

خده أحس كأن وقدة نار لسعته فجفل ولم يلحظ رفعت الثورة المشتعلة فى جوف الفتى ، فقال فى هدوء :

— كيف حال أبيك الآن ؟

وضايق محمد أن يسأله عن أبيه كأنما يسأل عن صديق عزيز ، فلم يحر جوابا ، ولم يكن رفعت ينتظر رده ، فراح يقول :

— هل عنده أحد ؟

وأحس رغبة خفية فى أن يحول بينه وبين أبيه ، فقال :

— إنه نائم ، وقد أمرنا عمى حلمى إلا نوقظه من نومه مهما كانت الظروف ..

وسار رفعت إلى غرفة الاستقبال ومحمد خلفه ، وجاءت بثينة وصافحته فى تحفظ وإن أخذ قلبها يدوى بين جنبيها ، ولمحت محمدا يرقبها فتضاءلت وأحست ذلك الشعور الذى تحسه المرأة إذا ما ضبطت متلبسة بجريمتها ..

وقال رفعت :

— كيف حال عبد الخالق ؟

وقالت دون أن ترفع بصرها :

— بخير ..

وتمنى محمد لو أن هذه الزيارة تنتهى سريعا ويذهب رفعت دون عودة .. وقال رفعت وهو ينظر إلى محمد ويبتسم :

— قال لى محمد إن عبد الخالق نائم ..

وراح محمد يرقب أمه بعينين مفتوحتين ، قالت :

— نعم .. إنه نائم ..

وراحت الأم ورفعت يتحدثان حديثا عاديا ، وضاق محمد بجلسته ، وراودته فكرة الانصراف أكثر من مرة ، ولم يطاوعه قلبه على أن يترك أمه ورفعت وحدهما ..

وطالت زيارة رفعت ، وتثاءب محمد أكثر من مرة من الملل ، وأخيرا نهض الرجل واستأذن فى الانصراف ، فشهق محمد نفسا طويلا فى راحة ، وما إن خرج رفعت وأغلق الباب خلفه حتى ذهب محمد إلى فراشه مطمئن البال ..

وجاء رفعت ذات ليلة بعد أن نام محمد ، ووجدت بثينة نفسها معه وحده لأول مرة بعد عودة زوجها من المستشفى ، إنها وطنت العزم على أن تقطع كل علاقة تربطها به ، وكانت تنتظر فرصة انفرادهما لتقول له إن كل ما بينها وبينه قد انتهى ، وإنها ترجوه أن ينسى ما كان من أجل ابنها ، ولكن ما أن ألفت نفسها معه حتى ماتت الكلمات التى نمقتها طوال الليالى على شفتيها وتحركت مخاوفها ، لم تكن تخشاه بل كانت تخشى نفسها ..

ورنا إليها رنوة زلزلت كيانها ، نام بعدها عقلها وهمد ضميرها بينما استيقظت المرأة الأخرى المتعطشة إلى الحب المستكينة فى أعماقها وطغت حتى استولت على كل حواسها ..

وقام رفعت إليها يضمها إلى صدره ويقبلها ، فلم تقاومه ولم تدفعه بعيدا ، بل راحت تبادله قبلاته فى نشوة وقد تخدرت كل مشاعرها ، نسيت زوجها ونسيت ابنها ولم تعد تحس إلا ذلك الغول الذى تحرك بين ضلوعها ولا هم له إلا أن يطفئ ما يستشعره من ظمأ ..

وتململ عبد الخالق فى سريره وفتح عينيه ينظر فلم يجد أحدا إلى جواره ، وضاق برقدته ، فقام يمشى الهوينى فى أرجاء الدار ، ودنا من الغرفة التى كان فيها رفعت وبثينة ، ومس أذنيه همس فتسمر فى مكانه وانتشرت رهبة فى صدره وخفق قلبه فى شدة وكاد يتعطل تفكيره ، سرعان ما راحت الحقيقة تتكشف لذهنه فأخذ يدنو من مبعث الصوت وهو مذهول ..

وأشرف على مسرح فاجعته ورأى مصرع شرفه ، فدارت الأرض به ووضع يديه على قلبه كأنما يحاول أن يمنعه من أن يفر من مكانه ، ثم انسدلت غيبوبة على ذهنه فلم يعد يعى شيئا ، وانهار فاقد الوعى ..

والتفت رفعت وبثينة مفزوعين إلى مصدر الصوت ، ولما رأت زوجها ممدودا على الأرض اتسعت عيناها رعبا ، وغاض لونها حتى صار فى صفرة الموتى ، ووقفت جامدة فى مكانها كتمثال لا تكاد تحس شيئا من هول المباغتة ..

واستمر قلبها يدوى دويا ، وظلت تتقلب فى حيرة ، وبدأت مأساتها تتكشف لعقلها فتمنت لو تموت الساعة ، وذهب رفعت إلى عبد الخالق ومال عليه فألفاه يتنفس فى جهد ، فالتفت إلى بثينة وقال لها فى صوت مضطرب :

— تعالى ..

وظلت بثينة فى مكانها مذهولة ، وقالت لرفعت :

— تعالى نحمله ..

وتقدمت وقشعريرة تسرى فى بدنها ، وراحت تعاون رفعت على حمله وهى ترتجف ، لا تجد فى نفسها الشجاعة أن تنظر إلى وجهه ، صارت ترهبه وهو لا حول له ولا قوة أكثر مما كانت ترهبه وهو معافى ، وسارت وروحها تكاد أن تفر من فمها خوفا ، وزاد فى فزعها خشيتها من أن يستيقظ ابنها فى هذه الساعة ..

ووضعاه فى فراشه وهو مسبل العينين ، مكروب النفس ونظر إليه رفعت نظرة طويلة ثم انسل من المكان ، وانهارت بثينة إلى جوار السرير وجعلت تنظر أمامها بعينين مفتوحتين دون أن ترى شيئا ..

٦٣

كان السيد سليم باسر الوجه ، منقبض الصدر ، فى قلبه حزن ثقيل ، وكان حلمى مطرقا ، شارد الذهن ، يستشعر أسى عميقا ، وضاق السيد سليم بالانفعالات التى كانت تتدفق فى جوفه ، فقام يذرع غرفة مكتبه فى العزبة وهو

يجاهد الثورة المتأججة فى أحشائه ، وزاد فى تعذيبه شعوره بالهوان الذى غمره ..

ونظر فى ساعته وضاق بالصمت القلق المسيطر على المكان ، فالتفت إلى حلمى وقال :

ـــ متى سيحضرون ؟

قال حلمى دون أن يرفع رأسه :

ـــ قالوا : سيأتون فى العاشرة صباحا ..

وقال السيد سليم فى حدة :

ـــ الساعة الآن العاشرة والربع ..

وظل حلمى صامتا ، وعاد أبوه يغدو ويروح فى الغرفة وهو قلق ، ارتسم على محياه انزعاج شديد ، فقد حددت الملكية وهو ينتظر رجال الإصلاح ليتسلموا منه الأرض ويسلموه الفدادين التى يختارها لتظل من أملاكه ..

وزفر فى ضيق ، وضرب كفه بقبضة يده نافد الصبر ، كان يتمنى من كل قلبه أن تنتهى هذه الإجراءات سريعا ، أن ينتسر هذا اليوم ، فهو أقسى يوم مر به طوال حياته ، فما بال اللحظات تطول وتقطر مرارة ؟!

وازدرد ريقه كأنما يزدرد وقدة نار ، وارتفعت حرارته على الرغم من برودة الجو ، وراح يمسح وجهه بكفه وهو برم بالضآلة التى يحسها فى ضميره ، إنه يستشعر أن نفسه قد ضمرت ، أنه قد هان وصار محتقرا ، وراحت تسرى فيه المشاعر التى تثور فى جنبات ملك خلع من عرشه ..

ولأول مرة فى حياته أحس رهبة من مواجهة الناس ، كان يقابلهم من قبل مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، يتيه بقوته التى يستمدها من ماله ، وينشرح صدره لنظرات الحسد التى يرمق بها ، وإذا به اليوم يرتجف فرقا من تصوره أن العيون الشامتة ستسدد إليه ويصبح هدفا ، إنه ليخيل إليه أنه سيذوب تحت وهجها ، ولن يقوى على الصمود لها ، وما دار بخلده قبل الساعة أن مجرد

نظرات زاخرة بالعداوة يمكن أن تعصف بإنسان !

وهتك الصمت صوت طرقات متتابعة على الباب ، فقام حلمى فى تثاقل ، وراح السيد سليم يجاهد الانفعالات التى كادت تهده ، وحاول أن يبدو هادئا ، فهو يفضل الموت على أن يظهر ضعيفا أمام الناس ..

وقال بعد أن دفن مشاعره فى سريرته ، وبسط أساريره :

— ادخل ..

ودخل شيخ مسن يرتدى جلبابا من الصوف وعلى رأسه طاقية من نفس قماش الجلباب ، وقال فى صوت متهدج :

— رجال الإصلاح الزراعى ..

وتقدم السيد سليم بعد أن رفع رأسه ، وسار حلمى خلفه مطرقا حزينا يكاد ينوء من الإعياء ، وبلغ الفناء الواقع بين السراى وفيلا الضيافة ولم يجد أحدا ، فتقدم ثابت الخطو إلى الباب الخارجي وقلبه ينز أسى ، ولم يقو حلمى على مجاراة أبيه ، كان منهار الأعصاب وخشى أن يجهش بالبكاء ، فعرج إلى السيارة الواقفة أمام باب المكتب وارتمى خلف عجلة قيادتها مكروب النفس ..

ودنا السيد سليم من الرجال الواقفين عند الباب ، ووقعت عيناه على الحشد الهائل من الفلاحين المتجمهرين خلف رجال الإصلاح ، فعجب من أين جاء كل هؤلاء الرجال والنساء والأولاد ، واشتد وجيب قلبه ، وتفجرت مرارة العداوة فى جوفه ، وكادت أعصابه تخونه ، وراح يجاهد حتى لا يفلت منه زمامها ..

وقال وهو ينتزع ابتسامة من شفتيه :

— تفضلوا اشربوا القهوة ..

واشرأبت أعناق الفلاحين ، وتركزت عيونهم فى السيد ، وقال قائل من رجال الدولة : ·

— نؤجل القهوة إلى ما بعد أن ننتهى من عملنا ..

والتفت إلى الرجال الذين جاءوا معه فانصرفوا إلى السيارات التى جاءوا بها ، فنظر السيد سليم خلفه وأشار لحلمى أن تعال ..

وزحف حلمى بالسيارة إلى حيث كان أبوه ، وفتح له الباب فركب إلى جواره ، وما إن خرجت السيارة من الباب الكبير حتى دوت زغرودة طويلة أعقبتها زغاريد ، وشعر السيد سليم بالزغاريد كألسنة من النار تلسع روحه ، وعجز حلمى عن أن يكبت عواطفه فطفرت الدموع من مآقيه ..

وفسحت السيارة طريقا لحلمى ليتقدم بسيارته الركب ، فإذا بجموع الفلاحين تطبق عليه كالموج حتى إنه لم يستطع أن يتقدم خطوة ، وهتف هاتف :

— أرض آبائنا ردت إلينا ..

وانفجر غضب حلمى فراح يدفع سيارته فى الجموع فانحسروا عنه وشق من بينهم طريقا ، وسار على رأس الركب والسيارات خلفه والرجال والنساء والأطفال يهرولون من ورائهم وهم يرقصون ويقفزون ويهتفون فى غبطة وسرور ..

وانسابت السيارة تشق الأرض الخضراء ، وحلمى يفكر فى الهتافات التى تصك أذنيه وهو حزين ، وربما حنقه حتى كاد يفجر صدره ، فإن كانت كل الأرض سلبت من الشعب وردت إليه ، فهذه الأرض من خلق أبيه .. وأخذ السيد سليم ينظر إلى أشجار السرو والسنط والنخيل فى وله ، ويمسح الأرض الخضراء الممتدة إلى مدى البصر فى حسرة ، كان يلقى على كل ما تقع عليه عيناه نظرات كتلك التى يودع بها فقيدا عزيزا ، وما كان سيفقد يوما كائنا أحب إليه من أرضه ..

ووقفت السيارة عند أول أرض ملكها السيد سليم ، إنها أحب أرضه إلى قلبه ، وهى التى عزم على أن يحتفظ بها ، ووقفت السيارات خلفها ، وهبط الجميع وراحوا يعملون ، وما أسرع أن لحق بهم الفلاحون وهم يتصايحون فى

غبطة وسرور ..

وقيست الأرض ودقت الحدود ، وكتبت أوراق ومهرت بتوقيعات .. وارتفعت هتافات وانشرحت صدور وانقبضت قلوب ، وعلا وجوها بشر وانسدلت على وجوه غبرة .. وانتهى كل شيء فدارت أكواب الشربات على رجال الدولة ، وانطلقت الزغاريد وارتفعت أهازيج النصر والهتافات الزاخرة بالفرحة ..

وانسل السيد سليم وحلمي إلى السيارة ، لم يعد لهما مكان فى هذه النشوة المعربدة وقلباهما مثقلان بالأحزان والهموم ، وانطلقا دون أن يحس أحد بهما أو يهتم لانصرافهما ..

وعادا إلى السراى ، وراح السيد سليم يصعد فى الدرج الرخامي الواسع فى تثاقل ، يحس أنه سينوء تحت وطأة أحزانه ، وأخذ حلمي يجر نفسه جرا ، وكل خالجة تنزف أسى وحزنا ..

وبلغا الردهة الخارجية ، فارتمى السيد سليم فى أول مقعد صادفه وطفق يصرف أنيابه غيظا ويزفر فى شدة كأنما يزفر ذوب نفسه ، وبلغ حزن حلمي منتهاه وأفلت منه زمام أمره ، فراح ينتحب ثم أجهش بالبكاء ..

وانصرفا من العزبة منكسى الرأس ، فى قلبيهما حزن ثقيل ، وتصرمت الأيام دون أن يفكر أحدهما فى العودة ، وفى ذات صباح قبل أن يندمل جرح نفسيهما ، طلب السيد سليم من ابنه أن يستعد للذهاب معه لزيارة أرضه ، فهو لا يطيق أن يبعد عنها طويلا .. قال حلمي :

— أعفنى أرجوك ..

— لماذا ؟

— ذهابى إلى هناك سينكأ جرح نفسى ، ويجدد أشجانى ..

— اسمع يا حلمي ، سنذهب إلى هناك يوما ما ، فلماذا نؤجل ذلك اليوم ؟ لماذا نفر من مواجهته ؟ علمتنى تجاربى أن خير ما نفعله أن نواجه واقعنا

وألا نهرب منه مهما كان مرا ، إننا بلقائه نقضى على الخوف الذى ينتابنا منه وهو أسوأ ما فيه .. مجابهة الحقيقة أهون من الفرار منها ..

ودنا من ابنه وقال له :

— قم ..

ونهض حلمي كارها ، وانطلق مع أبيه على مضض ..

واقتربا من العزبة ، وزاغت الأبصار ، وخفقت القلوب فى الصدور رهبة ، وكان السيد سليم يحس نفس المشاعر التى يحسها ابنه ، ولكنه لم يكن يستسلم لها ، بل كان يقاومها ، ودلفت السيارة إلى السراى ، فخف الفلاحون إليهما يحيونهما ويرحبون بهما كأن لم يقع حدث جلل ، وكأنما الدنيا لم تتبدل ..

وذهب السيد سليم إلى أرضه وبقى حلمي فى السراى وحده ، وراحت تراوده فكرة أن يخرج للطواف حول الأرض كلها كما كان يفعل ، وأخذ يقاوم هذه الرغبة الجياشة فى صدره ..

واستمرت الفكرة تلح عليه ، وهو يفزع من أن يلبى نداءها ، كان يشفق على نفسه من المشاعر القاسية التى ستهزه هزا .. واستبدت به الرغبة فذهب مضطربا إلى السيارة الجيب التى كان يدور بها حول أرض أبيه ..

وانطلقت السيارة وهو خافق القلب ، وسرت فيه رهبة ، وجعل يمد بصره إلى كل شىء فى حنين ، وراح يطوف بالأرض كلها ، وهمس فى أغواره هامس : « لم تعد أرض أبيك ، إنها أرض الإصلاح » وانقبض صدره برهة ، وسرعان ما خفت حدة توتر أعصابه ..

ومر بفرحات وهو يعمل فى أرضه ، وكان من قبل أجيرا عندهم ، فهم بأن يشيح بوجهه عنه ، خشية أن يرميه بنظراته الشامتة أو أن يسخر منه ، ولمحه فرحات فصاح به وهو يلوح بيده فى سرور :

— حلمي بك .. حلمي بك .. تفضل ..

وهبط حلمى من سيارته وذهب إليه ، فقابله الرجل بالبشر والترحاب ، وأخذ يقص عليه بعض ذكرياته وهو مسرور ، وحلمى يصغى إليه فى ود ، وانتقل فرحات من ذكرى إلى ذكرى ، ووراح يقص حادثة بعينها وقعت من سنين ، كانت حادثة خطيرة صدعت كيان أسرته ، فأرهف سمعه وراح يتبسط معه ليفضى إليه بكل دقائقه ، وظل فرحات يتحدث فى بساطة كأنما يتحدث عن المحصول ..

وعاد حلمى إلى سيارته وقد شغل بالحديث الذى سمعه اليوم مصادفة عن كل ما حوله ، وانطلق إلى السراى ينهب الأرض ليقابل أباه ، فلما لم يجد سيارته عادت تضايق ، لم يعد يحتمل الاحتفاظ بالسر الذى عرفه ..

وظل يغدو ويروح فى قلق ، وفكر أكثر من مرة فى أن ينطلق إلى أبيه يفضى إليه بالنبأ ، ولكنه كان يتواصى بالصبر على كره منه ، وجاء أبوه أخيرا فخف إليه يقول :

ــ قابلت الآن فرحات وأفضى إلىّ فى بساطة بسر عجيب ، قال لى وهو يحدثنى عن ذكرياته أن عثمان ذهب إليه يوما من أكثر من عشر سنين ، وطلب منه أن يختبئ فى الذرة وينتظر حتى تدنو منه ، ثم يطلق عيارا فى الهواء ..

فقال السيد سليم فى دهش :

ــ عثمان فعل هذا ؟

قال حلمى فى حماسة :

ــ هذا ما قاله لى فرحات الآن ..

قال السيد سليم وقد زوى ما بين حاجبيه :

ــ ولماذا فعل عثمان ذلك ؟ لماذا ؟!

ــ ليوسع الهوة التى كانت بينك وبين عبد الخالق ، ليوهمك أن عبد الخالق يريد قتلك فتغلق قلبك دونه ، ويخلو له الجو ، وقد نجح فى تدبيره ، وصار وحده المسيطر على العزبة ، يفعل ما يشاء ، ويسرق كما يشاء دون رقيب

أو حسيب ..

وأطرق السيد سليم فى أسى وهو يغمغم :

ــ الكلب .. اللص ابن اللص ..

قال حلمى فى إشفاق :

ــ ظلمنا عبد الخالق .. ظلمناه طويلا ..

كان السيد سليم يصارع نفسه ويواجه واقعه ليبدد الحزن الذى عشش فى كهوف وجدانه ، وكاد ينجح فى بلوغ أربه ، وإذا بحلمى يأتيه بنبأ يقلع كل طمأنينة من نفسه ، ويريق فى جوفه دنان الأسى والخزى والندم ، وأطرق مهموما يحس كأن خناجر مسمومة تطعن قلبه وتمزق أحشاءه ، وزاد فى حنقه أنه عاش طوال عمره يتغذى بالأوهام والأكاذيب ..

٦٤

خف حلمى إلى سيارته وهو قلق ، ينز قلبه بالأسى والخوف ، فقد اتصلت به إلهام وقالت له إن عبد الخالق فى النزع الأخير ، وانساب بسيارته فى شوارع القاهرة المزدحمة يسابق الريح حتى إذا بلغ دار أبيه راح يهرول وهو خافق القلب وفى وجهه فزع ، ودخل على أبيه مرعوبا ، وقرأ الأب فى وجه ابنه انفعالات نفسه الملتاعة ، فمشت إلى قلبه رهبة ، وقام إليه دون تفكير وقال له :

ــ خيرا ؟

قال حلمى والغصة فى حلقه :

ــ عبد الخالق يموت !

وتخلخلت مفاصل الأب ، وأحس بأحشائه تسقط ، وبقلبه يتناثر ، وبالأرض تميد تحت قدميه ، وبنار تحرق كبده ، وكاد أن ينهار ، ولكنه تجلد ثم انطلق يتلفت فى اضطراب وحلمى فى أثره .. واندسا فى السيارة صامتين ،

وإن كان رأساهما مزدحمين بالأفكار .. كان الأب يفكر فى ابنه المريض الذى بعث إليه يلتمس منه أن يصفح عنه قبل أن يموت فأبت كبرياؤه عليه أن يصغى إليه .. إنه ظلمه ، قسا عليه ، كان يعتقد أن ابنه حاول أن يقتله ، فإذا بالأيام تكشف له أنه لم يفعل وأنه برىء .. فيا للقسوة ! أسفرت الحقيقة عن وجهها وابنه يلفظ آخر أنفاسه !

طلب ابنه منه أن يسامحه .. عن ماذا ؟ عن الظلم الذى وقع عليه ؟ عن الحرمان الذى عاش فيه ؟! عن العطف الذى حرم منه ؟ عن السخرية التى كان يخزه بها كلما التقى به ؟ إذا كانت زوجته خانته ، فهو ليس أول من خانته زوجته ، ليته يرى عبد الخالق قبل أن يموت ويلتمس منه صفحه ، فلو مات دون أن يصفح عنه ، فسيمضى الأيام الباقية له على ظهر الأرض وهو معذب حزين ..

أيموت عبد الخالق حقا ؟! إنه ليرتجف فرقا للفكرة ويغص حلقه وتندلع نار لوعته ، أيفقده يوم أن وجده ، ففيم كان انجلاء الحقيقة إذن ؟ وما وجه الحكمة فى اكتشافها ؟ لو أن عبد الخالق مات قبل أن تنزاح الغشاوة عن عينيه لما أحس وقدة النار التى تلسع روحه وتحرق أحشاءه ، هل انكشف السر ليربو عذابه ويتضاعف أساه ؟ أكتب عليه الشقاء ؟ ورنا إلى السماء وراح يغمغم :

— ربى غفرانك .. ربى رحماك ..

ولم تظفر الدموع من عينيه ، وإن أحسها تبلل وجدانه ..

وكان حلمى يفكر فى أخيه وهو منخلع القلب ، يغمره قلق وحيرة ، ودون أن يتدبر ثارت فى نفسه أسئلة طغت على مشاعره : ما الألم ؟ وما الحزن ؟ وما الحياة ؟ وما الموت ؟ وما الروح ؟ ولماذا جئنا ؟ ولماذا نفنى ؟ ولم يحاول أن يجد جوابا ، ولم يحلق وراء شطحات خياله بل هوى إلى الأرض يمضغ آلامه ..

ووقفت السيارة أمام بيت عبد الخالق خلف سيارة إلهام ، وقفز حلمى منها ، وغادرها أبوه فى لهفة ، وراحا يصعدان فى الدرج وبين جوانبهما لوعة ،

وفى نفسيهما جزع ، وفى أعينهما حيرة تترقرق ..

وانطلقا إلى غرفته ، إنه ممدود فى فراشه وبثينة بالقرب منه ورفعت خلفهما ، ووقفت فى الناحية الأخرى من السرير إلهام مقطبة الجبين وإلى جوارها محمد يسح الدمع السخين ..

كان شبح الموت يطوف بالغرفة ، ووقف السيد سليم جامدا برهة عند الباب زائغ البصر ، ثم اندفع إلى ابنه المسجى لا يلوى على شىء ، ولا يحفل بالواقفين عنده ..

وسار حلمى مطرق الرأس ، دامع العين ، فى وجهه أسى ووله ، حتى بلغ ابن أخيه فوقف إلى جواره ينظر والنار تسرى بين ضلوعه ، وزاد فى عذابه بكاء محمد ، فمد يده إليه وجذبه فى رفق وراح يضمه لعله يشعره أنه فى هذه اللحظة البالغة القسوة ليس وحده ، وأن قلوبا كثيرة تشاطره مصابه ، ولن تألو وسعا فى تضميد جراحه ..

وراحت تطفو على سطح ذهنه أحاديث أخيه ، وترن فى أعماقه رنينا قاسيا تمزق نياط قلبه : « إننى لست حاقدا على الباشا .. كل ما أرجوه منه أن يصفح عنى .. أن يسامحنى ، وإن كان سبب غضبه علىّ الآن أننى لم أطلق بثينة ، فإننى لم أفعل لأننى سأطلق الدنيا كلها دون أن أقتص من أحد ، سأترك كلا لنفسه تقتص منه ، كما تقتص منى نفسى الساعة على ما قدمت يداى ، فقصاص النفس من نفسها أقسى قصاص .. ومحمد لمن تتركه ؟.. سأتركه لك أنت وأنا واثق أنك ستكون له نعم الأب ، إنه يحبك وأنت تحبه ، مستقبل محمد معك خير من مستقبله معنا .. إننى أتركه وديعة فى أيد رحيمة وسأذهب وأنا مطمئن البال . كم من الموت من راحة ! ما أكثر ما يكون صدر الموت أرأف بنا من صدر الحياة .. ماذا نستطيع أن نفعل إذا كانت أمه قد غمرت بحنانها رجلا آخر ، سلبته حقه من الحنان لتغدقه على رجل غريب ؟ » ..

وزاد ضغط يده على ظهر ابن أخيه ، ولم يقو على احتمال النار السارية فى

أحشائه ، فأخذ ينشج بالبكاء .. وركع السيد سليم إلى جوار ابنه وراح يناديه وهو ينظر إلى وجهه الذابل والحزن يهصر قلبه :

— عبد الخالق ! عبد الخالق ! أنا أبوك .. أنا أبوك يا حبيبى .. عبدالخالق .. سامحنى يا بنى ..

كان صوته متهدجا ، زاخرا باللوعة وصدق المشاعر حتى إن إلهام سحت الدموع ، وبكت بثينة وجفف رفعت دمعة سالت على خده ..

كان غاية ما يرجوه الأب فى تلك اللحظة أن يغفر له الابن قسوته وظلمه إياه ، وأن يصفح عن إساءاته ، ولم يتسرب اليأس إلى قلبه ، فاستمر ينادى فى ذلة وهو يرقب النفس المتردد فى وهن بين جنبات ابنه المحتضر :

— عبد الخالق ! ابنى ! عبد الخالق .. سامحنى . سامحنى يا بنى !

ورفت على شفتى عبد الخالق بسمة باهتة ، لم يسمع أباه ولم يدر به ولم يصفح عنه ، وما كانت تلك البسمة لأهل الأرض ، كانت روحه فى البرزخ ، لا هى فى دنيا المادة ولا هى فى عالم الروح ، وإن كانت تتأهب للانطلاق من سجن الجسد .. رأى أمه مقبلة عليه هاشة باشة ، إنها تمد يدها لتأخذه معها ، إنه مسرور وسروره من نوع جديد لم يستشعره أبدا من قبل ، سروره لا يشوبه ألم أو رهبة من مجهول ، أو خوف من أن يزول ، إنه سرور ناعم دائم هفهاف مجنح ، وكانت تلك البسمة آخر مشاركة بين روحه وجسده ، ولفظ آخر نفس ختم كل صلة تربطه بالأرض ، وهامت روحه مع روح أمه راضية بميلادها الجديد ..

وأخفى الأب وجهه فى صدر ابنه الذى ذهب وأجهش بالبكاء ، وارتفع نحيب إلهام وبثينة ، وأفلت محمد من يد عمه ، وارتمى على جثمان أبيه يذرف الدمع السخين وينادى من قلب مجروح هصره الألم :

— بابا .. بابا .. رد علىّ .. أنا محمد .. أنا ابنك .. بابا .. بابا .. بابا .

وأخفى حلمى وجهه بيديه .. إنه يبكى ، ولكن بكاء قلبه كان أحر من

بكاء عينيه ، حز فى نفسه صوت أخيه ، وزاد فى لوعته رؤيته لأبيه يبكى كالأطفال لأول مرة مذ تفتحت عيناه عليه ..

وجفف رفعت دموعه ، ومد يده وأسبل عينى عبد الخالق وقال فى صوت خافت مضطرب :

ــ البقية فى حياتكم ..

وقام الأب وقد انحنى ظهره ، وفى لحظة تجمعت فى ذهنه كل مآسيه ، ثكل ابنه ، وفقد أرضه ، وضياع شرفه ، ولم يجن من دنياه إلا المرارة والأسى والهوان ، وسار مطرقا يجر نفسه جرا ، ولما بلغ الباب التفت خلفه فى بطء شديد ونادى فى صوت واهن حزين :

ــ حلمى !

وذهب حلمى إلى أبيه ، وسار إلى جواره ، وراح الأب يقول :

ــ اتصل بالفراش ومره أن يقيم سرادقا كبيرا يليق بأخيك ، واكتب نعيه فى جميع الصحف ، ستشيع الجنازة غدا بعد الظهر ، حتى تتاح الفرصة للمشيعين الآتين من بلاد بعيدة ، وأبرق إلى العزبة ليرسلوا ثلاثة عجول ..

وصمت السيد سليم قليلا .. وعلى الرغم من الحزن الذى كان يكابده لم ينس طبعه ، فرفع رأسه والتفت إلى ابنه وقال :

ــ وبعد أن ينتهى العزاء اذهب إلى المحامى واطلب منه أن يرفع قضية لضم ابن المرحوم إلينا ، فلن أتركه أبدا يعيش مع الفاجرة ..

قال حلمى فى صوت متهدج :

ــ هذا ما كان يتمناه المرحوم ..

وذهبت إلهام إلى محمد ، وجذبته لتبعده عن جثمان أبيه ، منقبضة الصدر ،

دامعة العين ، وحاول محمد أن يتملص من يدها وقد زاد نشيجه ، ولكنها استمرت فى جذبه حتى سار معها ، وانطلقا هى لتلبس ثياب الحداد ، وهو ليمكث مع ابنيها حتى يقبر المرحوم .

ومرا بحلمى والسيد سليم ، وأطرقت الرءوس ، وهمس فى نفس إلهام هامس راح يقول :

— من يزرع الزوابع يجنى الأعاصير ..

للمؤلف

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج).		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبى		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

محمد رسول الله

والذين معه

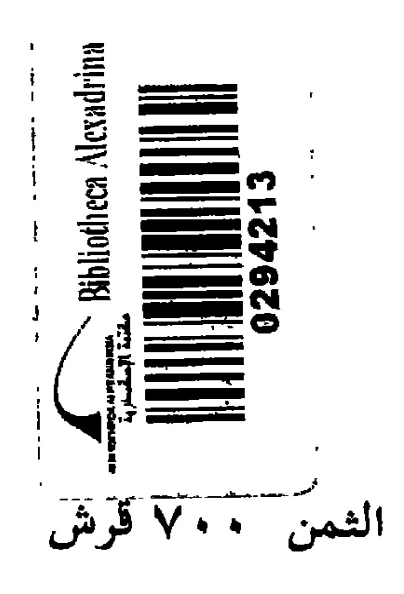
في عشرين جزءا

١	— إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢	— هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣	— بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤	— العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥	— قريش	مايو ١٩٦٧
٦	— مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧	— اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨	— خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩	— دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠	— عام الحزن	مارس ١٩٦٨
١١	— الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢	— غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣	— غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤	— غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥	— صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦	— فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧	— غزوة تبوك	نوفمبر ١٩٧٠
١٨	— عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩	— حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠	— وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ١٥٨١

الترقيم الدولي ١ — ١٠٢ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه